176075

المنتخبات

SPC
AC
106
.S28
1937
RBK

بقلم

صاحب السعادة الأستاذ الكبير

احمد لطفى السيد باشا

مدير الجامعة المصرية

21393

مكتبة جامعة بير زيت
45402
BIRZEIT UNIVERSITY LIBRARY

الجزء الأول

يطلب من مكتبة الأنجلو المصرية

دار النشر الحديث

١٩٣٧

Digitized by Birzeit University Library

كلمة

آثرت ، منذ أن شرعت أجمع مواد هذا الكتاب ، أن يخرج الى الناس بغير مقدمة ؛ ذلك بأن مؤلفه يجل عن أن يقدم له كاتب من أبناء هذا الأهل ؛ ولقد عنيت بأن يخرج الكتاب مبرّأ من الأوهام ، فبذلت الجهد ، واستعنت بالصبر . فان وقع في الكتاب بعد ذلك شيء من الأوهام ، فعلى وزرها ؛ والكمال ، لمن يعجز عن بلوغ الكمال سواه .

اسماعيل مظهر

تقدمة من
الدكتور إبراهيم أبو لغد

Digitized by Birzeit University Library

قاسم بك أمين

القدوة الحسنة

— ١ —

من الطبقة الممتازة فى كل أمة ، يخص الله أفراداً قلائل بصفات استثنائية ، يكون ظهورها فيهم واضحاً جداً ، حتى تكون قريبة من الكمال الوجودى . أولئك هم القدوة الحسنة لقومهم ، فيجب أن تفصَّل صفاتهم وتدرس ملكاتهم ، وتمجد قدرة الله فى إطرائهم ، حتى تصح القدوة بهم ، والسير على سننهم . ومن أفضل هؤلاء الأفراد الممتازين ، فقيد الوطن والعلم : قاسم بك أمين . نأتى على طرف من وصف ملكاته تبصرة للناس ، وإرشاداً للشبان الذين يجدون فى أنفسهم ميلا إلى الكمال ، وتوجُّهاً صحيحاً إلى خدمة أمتهم ، ولكنهم لا يعرفون أى سبيل يسلكونه لارضاء هذه الروح الطاهرة ، وخدمة أمتهم الأسيفة التى وقف الدهر فى طريق سعادتها ، يختطف منها خلسة كل هادٍ من هداتها فى هذا الطريق المجهول ، ويعدمها الوسيلة لنيل استقلالها وسعادتها .

كان قاسم بك أمين من أصل كردى ، لأن جده أمير من أمراء الأكراد ؛ أخذ ابنه رهينة فى الاستانة ، لخلاف كان بين الأكراد وبين الدولة . وكان ذلك الرهينة هو المرحوم أمين بك والد قاسم بك . فجىء به إلى مصر فى زمن اسماعيل باشا كما يقول العارفون ، ودخل فى الجيش

الجريدة العدد ٣٤٣ — ٢٥ من ابريل سنة ١٩٠٨ .

Digitized by Birzeit University Library

المصرى ، حتى رقى إلى رتبة أميرالاى ، وتزوج بكريمة المرحوم احمد بك خطاب ، أخى ابراهيم باشا خطاب ، فكان أكبر أولادهما المرحوم قاسم بك .

ربى قاسم بك التربية المعتادة لأمثاله فى مدارس الحكومة . وكان ممتازاً دائماً بحدة الذكاء والتفرد بهذه الصفة بين أقرانه ، فلما أتم دراسته هنا أرسل فى الارسالية العلمية إلى فرنسا ، فأتم درس الحقوق ، ودخل فى خدمة الحكومة سنة ١٨٨٥ وكيلا للنائب العمومى فى محكمة مصر المختلطة ، ثم لم يبق بها عامين ، حتى عين مندوباً بقلم قضايا الحكومة بنظارة المالية ، ثم عين بعد أشهر رئيسا لنيابة بنى سويف ، ثم لنيابة طنطا ، ثم نائب قاض ، فمستشاراً فى الاستئناف .

***

من يلم بهذا التاريخ المختصر لحياة قاسم بك . يجده تاريخا عاديا غير مملوء بالعواصف التى تلازم عادة حياة كبار الرجال ، فيستفيدون منها قوة وشجاعة ، ويتعلمون من تجاربها مايجعلهم يفوقون غيرهم فى سلامة الحكم على الحوادث . على الرغم من أن حياة قاسم بك لم تكن فيها عواصف ظاهرة كما ذكرنا ، فأن نفسه كانت بطبيعتها مستعدة إلى أن تتعلم وتكمل من الملاحظة الذاتية والتجارب . فان قاسما هو الذى قد قال :

« أقل مراتب العلم ماتعلمه الانسان من الكتب والأساتذة . وأعظمها ما تعلمه من تجاربه الشخصية فى الأشياء والناس » .

وكان على ذلك يتخذ العالم مدرسة له ، يرقب فيها كل ما يحيط به من الأشياء والحوادث والأخلاق ، وأعمال الناس ، عظيمها ودقيقها . ويستقرىء العوامل التى دفعت الناس إلى القيام باعمال الخير ، ومقارفة أعمال الشر ، ويأخذ من كل مشاهدة درساً يضمه إلى علمه ويجعله قاعدة من قواعد حكمه .

Digitized by Birzeit University Library

كان قاسم هادئا ظاهره ، مروعا قلبه وعقله بالغيرة على الناس من الوقوع فى الخطأ ، وبالفكرة فى مصير الأديان المختلفة ، وما ستؤدى إليه نتائج التقدم العلمى ، وبماذا تسعد مصر ؟

لم يكن قاسم من الفلاسفة الذين لا يرون فى الحياة إلا جهتها المادية كما يفهم من أقوالنا أنه يبنى أحكامه على الملاحظات المادية أو البسيكولوجية . ولكنه كان صوفيا فى اعتقاده ، وكان يهتم جدا بالجهة الأدبية للحياة و يقدرها قدرها . وإنى ما رأيت ولا قرأت أن كاتبا كبيراً أو حكيما ملاحظا ، مال إلى تقديس معنى الحب ، وإطراء العشق ، بقدر ما كانت نفس قاسم الحساسة الدقيقة الاحساس، تتيه أياما كثيرة فى إدراك كنه هذه الحقيقة المجهولة ؛ حتى صار يعتقد بالهوى العذرى ، وأنه دليل على شرف النفس ، وتقدمها فى طريق الكمال ؛ ولا يفهم العشق إلا على هذه الطريقة العذرية ، ويعد ما دون ذلك تلوثا فى الأخلاق ، وجموداً فى الطبع ، وجفاء فى الشعور ، وميلا واطيا للأخذ بالحياة من جهتها المادية .

يفهم الناس بسهولة أن مثل هذا الاعتقاد المُصَفَّى ، والادراك الخيالى الدقيق ، يصدر من مثل عمر بن أبى ربيعة ، ويستبعدون صدوره عن مثل قاسم ؛ ذلك الرجل العالم الذى لا أظن أن الطبيعة قد حجبت نفسها يوما عن بصره الحاد ، ينفذه فى أحشائها ، ويقلب فيها بفكرته الملتهبة بطنا لظهر ، ليجد فيها غامضا يستجليه ، وسببا يبلغه ، ، وإحساسا يحلله . ولكن قاسم بك لم يكن له عادة بعض المتأخرين ، عادة الملل من الأفكار القديمة ، عادة هجر المألوف ، والتشبث بجديد يبهر به أفكار محادثيه أو قارئيه . لم يكن كذلك ، بل كان يعتقد أن حقائق المعلومات الانسانية ، قلما تخلو من الخطأ ، كما أن الخطأ فى تلك المعلومات قد لا يخلو من الحقيقة . فكان بذلك يرى من الواجب أن الانسان يجب عليه أن يصغى إلى كل قول ، وأن يقرأ كل مذهب . فلا غرابة مع هذا أن يضم قاسم إلى فلسفته الوضعية ، تلك الأفكار

Digitized by Birzeit University Library

الشعرية والاعتقادات الدقيقة ، التى هى أقرب المعلومات إلى ما وراء المادة ، منها إلى المعلومات التى تنتزع من هذا العالم الحسى ، عالم الكون والفساد .

كان قاسم بك شديد العناية بتحليل فكرة المسئولية عند بنى الانسان ، طويل التفكير فى أمرها الماضى والحاضر ، وما ستصير إليه فى المستقبل . قضى فى هذا البحث سنين طويلة ،وصل فيها آخر الأمر إلى فكرة العفو ،وأن غفران الذنب والتسامح فى كل خطيئة ، سيكون الغرض الأخير الذى يجب أن ترمى إليه التربية الأدبية ،متى أخذت كمالها الوجودى اللائق ببنى الانسان ، وإن أعماله فى القضاء كانت تنم دائماً عن هذه الرأفة التى خالطت قلبه من طول بحثه فى المسئولية . لأنه كان يرى أن تقدير المسئولية تقديراً صحيحاً يلزم له اعتبارات كثيرة ، ليس فى طاقة الانسان أن يقف عليها ، كالأخلاق الوراثية ودرجة تأثر الأعصاب بها ، والوسط والتربية والاعتقاد ، قوة وضعفا ، وجميع الأحوال البسيكولوجية ، التى تحيط بنفس المذنب عند ارتكاب الذنب .

كان قاسم بك اجتماعياً لا كبقية الاجتماعيين الذين يجعلون أدمغتهم محافظ لآراء الغير ؛ فاذا حضرتهم المناقشة ، أو دعتهم الكتابة إلى موضوع اجتماعى ، أخذوا يسردون عليك محفوظاتهم من المؤلفين السابقين من غير أن يكون لعقلهم فى الموضوع نصيب من الرأى . لا . لم يكن كذلك أبدا . بل كان مفكراً بالأصالة ، نقاداً لا يستغنى عن أفكار الغير ، ولكنه لا يعتنقها إلا إذا اعتقدها وصارت له ، بما قام فى نفسه عليها من الأدلة اليقينية .

بحث قاسم بك فى المسائل الاجتماعية على العموم ، فكان رأيه فيها أنها خاضعة دائماً للقوانين الطبيعية ، قوانين التحليل والتركيب ، والنمو التدريجى ، والانتقال ؛ وبحث فى المسألة الاجتماعية لمصر على الخصوص ، فوجد أن

Digitized by Birzeit University Library

حلها متوقف على نظام العائلة المصرية ، ووجد أن المرأة هى الأساس الأول لبناء العائلة . فأخذ يفكر كيف يرقى المرأة المصرية ، وأطال فى ذلك التفكير . وأخذ يجمع قوته وعدته ليفك هـذا الانسان الضعيف من سلاسل الأسر التى قيدته بها العادة . وليهدم هذا السجن العميق الذى حبس الاستبداد فى غيابته عقول نصف المصريين ، وحجب ذلك الضوء الساطع ، ضوء روح السيدة المصرية، عن أن ينتشر بين سمائها الصافية ، وأرضها المخصبة ، انتشاراً يضىء للرجال طريق السعادة المنزلية ، ويوصلهم من غير عناء إلى ذروة المجد والاستقلال . أجل . ليفك أسر المرأة التى أوقعوها فيه باسم الدين ، وماهو من الدين فى شىء ، فالدين أسمح مما يظنون .

فكتب كتاب تحرير المرأة ، ثم قفاه بكتاب المرأة الجديدة . كتبهما فهد بهما ركن سجنها وأضاء لها ظلمات الحياة المنزلية والزوجية ، وجعلها تحس بأنها أم الرجل لها احترامه ، وأخته لها عطفه وحنانه ، وزوجه لهامنه محبته لذاتها واعتباره لمركزها ، كما هدى لذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لايعلمون .

كتب فأجاد ولم يخش منتقداً ، ولا لائما ، ولم ينزله خوف الانتقاد عن فكرة من أفكاره ، ولا لفظ من ألفاظه . . .

ذلك لأنه يعتقد اعتقاداً كاملا بصحة ما كتب ، ويغريه الاتقاد فى حب البلاد ، بألا يعبأ بالانتقاص الذى وجه لشخصه . بل صيره متينا فى رأيه ، مكينا فى اعتقاده ، مجاهراً به فى كل يوم ، حتى يوم وفاته ، بل ساعة وفاته ، إذيدعو الله بقلب ملىء بالاخلاص ، ونفس مستضيئة بنور الحقيقة ، وقلب يذوب أسفا على حال الشابات المصريات ، بأن يكن كغيرهن من شابات الأمم الأخرى ، يقدرون العلم ويسعين لاكتسابه . أخذ قاسم على عهدته حمل هذا العبء الثقيل ، عبء السعى بالمرأة المصرية إلى نظام العائلة

Digitized by Birzeit University Library

وبنظام العائلة إلى الرقى الاجتماعى المنشود . وبهذا الأخير إلى استقلال البلاد . فما علمت امرءاً يخاطر بنفسه ويقف حياته لاحياء أمته، بهذه الشجاعة الفائقة كما فعل قاسم . بذلك تكون شاباتنا مدينات لقاسم بك هن أولا وبالذات ، لأنهن يجب أن يعلمن أن ماهن فيه الآن من المساواة بينهن وبين إخوتهن فى المعاملة المنزلية ، الفضل فيه راجع إلى محررهن قاسم أمين . وليعلمن أيضا أن اهتمام آبائهن بتعليمهن وتأديبهن ، أوماسيكون لهن من الاحترام فى قلوب أزواجهن ، الفضل فيه راجع إلى قاسم أمين . وإن قاسما لايطلب إليهن أن يبكينه كما فعلن ، ولكنه يطلب إليهن أن يعملن بهديه ، ليقمن بالواجب عليهن نحو أمتهن .

Digitized by Birzeit University Library

قاسم بك أمين

القدوة الحسنة

— ٢ —

كان قاسم بك أمين يربأ بنفسه عن أن يكون حاله كحال أولئك الأذكياء المجازفين الذين إذا ضم أحدهم مجلس طرحت فيه فكرة أو مناقشة ، انحدر نحدار السيل يفيض فى القول صوابا وخطأ من غير تدبر ، كأن معانيه وألفاظه لا قيمة لها فى نظره ، يجود بها إسرافا وتبذيراً ، من غير أن يفكر فى الكلمة متى خرجت من فم قائلها حسبت عليه وعلى بنى الانسان . ألا ترى أن المولود تلده أمه جميلا أو قبيحا ، خيراً أو شريراً ، فيعد على الانسانية فرداً مستحقا للنمو والبقاء ، يزيد به عدد بنى الانسان . كذلك القول الذى ألبسه قائله ثوبا من اسمه وشهرته ، والمكتوب الذى صبغه كاتبه بصبغة من البلاغة والتأثير ، كلها معدودة على المجموع الفكرى لبنى الانسان . فكما يجب على محب الانسانية أن يتحفظ من أن يلد لها أولاداً مرضى ، كذلك يجب على الانسان الذكى ألا يلد لهـا معانى مريضة أو ناقصة الخلقة ، لم تستكمل أعضاءها الحيوية فى دماغه ، ولم تنضجها الفكرة اوالروية . فان مثل هذا الذى يقول جزافا ، إنما هو جان على الانسانية ، بتكثير مجموع الأفكار المريضة فيها . ومن الأسف أنك تجد هذا العيب فى كثير من أذكيائنا الذين يعز على الواحد منهم أن يصمت أو يقول

الجريدة العدد ٣٤٤ — ٢٦ من ابريل سنة ١٩٠٨ :

Digitized by Birzeit University Library

لاأعرف ، بل يتخبط عند كل مناسبة فيما لايعرف من الموضوعات ، طلباً للشهرة الكاذبة ، وتمدحا بأنه قال كيت وكيت ، من غير استعداد سابق ، وتراه ماقال إلا سفها .

فأما قاسم أمين ، فان كل من عرفه أو سمعه يتكلم ، أول ما يخطر فى باله أن قاسما لم ينطق إلا عن روية وفكرة طويلة سابقة ؛ شأن الرجل المتحرج فى ذمته ، لا ينشر بين الناس إلا ماقام له الدليل الواضح على صحته . وأول شاهد على ذلك خطابته الذهبية الأخيرة التى ألقاها فى منزل حضرة حسن بك زايد ، فأنها درس من الدروس الخالدة ، التى لن ينفيها البحث والتدقيق لا عاجلا ولا آجلا . لأن كل مافيها من الكلمات قد بنى على مبادىء مقررة ثابتة لاأظن أن العلم يغير مافيها مهما طال الأمد . فقاسم من هذه الجهة جهة التدبر الطويل وخدمة الفكرة قبل نشرها على الناس ، فريد فى الأذكياء ، يجب الاقتداء به والنسج على منواله .

كان قاسم يفكر كثيراً فى العلاقة بين الدين والعلم ، وجميع التطورات التى لحقت بكليهما ؛ وأنعم النظر فى تاريخ الرقى الدينى الذى ابتدأ بالصحف الأولى ، وانتهى بالقرآن . خرج من هذا البحث الطويل بنتيجة لم يشأ أن يعتبرها نتيجة صادقة ، بل اعتبرها خيالا يتطرق إليه الشك من جميع جهاته ؛ وذلك التخيل هو أنه بنى على ماانتزع من الواقع من أمر الديانات أنها الآن قد كفت عن التقاتل وسفك الدماء بسبب اختلاف الاعتقاد ، وانقطع أمر الحروب الدينية ، وخلفتها حروب المنفعة بين أمتين اختلفتا فى الدين والجنس ، أو اتحدتا فيهما . بنى على ذلك انه يتخيل أن سيأتى يوم يغلب فيه الحق ، ويكون الدين واحدا . فلو أن امرأ من الأذكياء الحاذقين بحث فى هذا الأمر بحث قاسم ، ولاحظ ملاحظته ، لتنبأ هذه النبوة على صورة اليقين لا على صورة التخيل ، كما فعل قاسم الذى كان أشد الناس تمسكا وأكثرهم

Digitized by Birzeit University Library

اهتداء بقوله تعالى : «ولا تقف ماليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد، كل أولئك كان عنه مسئولا » .

قلنا أمس إن أول شيء وجه قاسم عنايته إليه ، هو ترقية المرأة المصرية ، إتياناً للاستقلال من بابه ، ودخولا إلى التقدم من نهجه الواضح الخالى من عقبات الصدفة ، ومهاوى سوء البخت ؛ على الرغم من طائفة المتأخرين الذين يكرهون الانتقال من حال إلى حال ، ويسكنون إلى عاداتهم الاستبدادية الأصيلة فى نفوسهم ، لاحرصاً على الدين (الذى لا يفهمونه) كما يقولون ، ولا مدفوعين بدافع الوطنيـة كما يدعون ، ولكن لأنهم يجدون من جهلهم عجزاً عن مجاراة التقدم ، واعتقاداً بأن الترقى سيرفع عليهم الشبان المتعلمين ، ومن أغرب ما يقول أمثال هؤلاء ماروى لنا أمس عن كبير من الظالمى أنفسهم قال : إن فكرة تحرير المرأة التى قام بنشرها قاسم بك أمين ، إنما هى فكرة إنكليزية ، أريد بها تسهيل السبـل لانكلترا لتضع يدها على مصر . كبرت كلمة تخرج من فم هذا الذى عد من الذوات ، ما أراد بها وجه الله ، ولكنه أراد بها إبعاد يوم يجب أن يكون فيه هذا القائل المتأخر مسوداً لا سيداً كما هو الآن . ولكن أفكار قاسم أرفع مقاما وأمتن ركنا من أن تصل إليها مثل هذه الكلمات التى تعودنا أن نسمعها عن كل مصلح مخلص - عنى قاسم بترقية المرأة ، وعانى فى هذا السبيل ما علم الناس .

ثم رأى قاسم بك أن الناس قد فطنوا إلى قوله ، وأخذوا بتعاليمه ، وجدّوا فى فتح المدارس للبنات ، وأن نظارة المعارف سمعت نداءه. ترك موضوعه مؤقتا ليعود إليه بعد ، وأخذ يبنى للعلم العالى صرحا لا يبيد فأخذ بيد الجامعة المصرية ، والناس يعلمون ما لاقى فى سبيلها من الصعوبات ، ويعلمون رأيه فى أمرها بخطبته الذهبية التى ما زال صداها يتردد إلى الآن فى آذانهم، وما زالت معانيها الحقيقية الساحرة تشغل قلوبهم ونفوسهم.

Digitized by Birzeit University Library

وإن الذى يدرك معانى قاسم بك وأغراضه ، وتوجهه بكليته إلى العلم ، ربما يظن أنه كـكثير من العلماء ، فاتر الطبع ، ساكن الأعصاب ، حينما تحضره هزة الغيرة على الوطن أو على الدين . كلا ثم كلا . لم يكن فقيدنا إلا فى مقدمة الشبيبة التهابا فى الدفاع عن دينه ووطنه ، بل إن بينه وبين الباقين بونا بعيدا ، فانهم إذا حضرتهم هزة الوطنية انفعلوا ، ولـكنه إذا جاءته انفعل وانفجر انفعاله على قلمه وعلى لسانه ، فيصيب بهما ما يشاء من خصمه .

كتب « الدوك داركور » كتاباً هجا فيه المصريين ، وأنحى فيه على دينهم ، وسفه احلامهم ، وقبح أخلاقهم وعاداتهم ، فانبرى له قاسم أمين ووضع كتاباً باللغة الفرنسوية مكيناً فى معناه ، ساحراً فى أسلوبه ، قوياً فى تركيبه ، دفع فيه عن الدين الاسلامى التهم التى هو براء منها ، وقارن بين حال المرأة المسلمة وحقوقها فى الاسلام ، وبين حال المرأة الأوربية المتمدنة ، فكان لهذا الـكتاب صدى فى عالم الـكتابة الأوروبية . جزى الله قاسماً عن الدين الاسلامى والقومية المصرية أكبر الجزاء .

قابلت قاسم بك بعد وفاة المرحوم مصطفى كامل باشا فقال : « ما أنت وهذه الحركة القـائمة ! قلت على ما قد قرأت . قال إنهم يقولون إنك بالغت فى وصف الروح الوطنية وإنك تعلق عليها آمالا ، قد لا تـكون صادقة . قلت : والله ما اخترعت ولا بالغت فيما كتبت ، ولـكنى رأيت رأى العين شعور التضامن يتجلى أمامى على رؤوس الناس فى الشوارع والطرقات ، فما فعلت شيئاً أكثر من أنى أرسلت الألفاظ لتلبس هـذا المعنى الطاهر ، وسطرتها على صفحات «الجريدة . وهل أنت تقول إنى بالغت مع القائلين ؟ فانبرى يحدثنى عن شعوره قائلا : إنى أتهمك بالتقصير فى وصف هذه الحال الشريفة ، ولو كنت أخفف عليك فى الحـكم لقلت إنك فى نظرى أميل إلى التقصير فى هذا الموضوع منك إلى الغلو أو الاغراق . قال قاسم « ان هذا الشعور الشريف . هذا الولد الحديث الولادة الذى خرج من

Digitized by Birzeit University Library

دم الأمة وأعصابها ، هذا هو الرجاء فى المستقبل ؛ هـذا هو الذى يجب عليكم جميعاً أن تباركوا عليه وتتعهدوه ، حتى يصير شاباً ؛ هنالك تنالون الاستقلال » قال لى قاسم بك هذا القول، وهو يتقد وطنية ويخالف كثيراً من الكبراء أمثاله فى أنه لم يقصر قوله هذا على أصحابه أو أخصائه ؛ بل أعلم أنه كان يقوله حيث وجد ووجدت مناسبة ، تحية للشعور الوطنى . فكان قاسم بمثل ذلك ، مخالفاً للعلماء المدققين الذين لا تهيج أعصابهم بملامسة الحوادث السياسية .

إذا كان قاسم كما وصفت — وإنه لفوق ما أصف بكثير — حق لى أن أوجه كل قولى إلى الشبيبة المصرية ، التى ما خططت فى هاتين المقالتين حرفاً واحداً ، إلا لأجعل الذى لا يعرف منهم قاسم بك يعرف منه ما نعرف نحن ؛ وليقتدى كل منهم بسيرة قاسم الصـالحة ، وليعتنق كل عامل منهم أنماط قاسم فى حسن تفكيره ؛ ويقلده فى غيرته على بلاده ؛ ويجاريه فى جرأته فى الحق .فاننا إذا لم نجرؤ على قول ما نعتقد بشجاعة تامة ، وكان من شأننا محاباة سلطة من السلطات ، أو عادة من العادات ؛ أو نخشى تذمر طبقة من الطبقات ، فلا يمكن أن ننتظر نجاحاً ولا استقلالا . فأول الاستقلال استقلال الأفراد ؛ ثم يأتى بعد ذلك استقلال المجموع . عوضنا الله عن قاسم بك من شبيبتنا من يشغلون الفراغ الذى وجد بموته، ويزيدون.

Digitized by Birzeit University Library

التعليم الثانوى

ليست سعادة البلاد بوفرة إيرادها ، ولا بقوة حصونها ، ولا بجمال مبانيها . وإنما سعادتها بعدد المهذبين من أبنائها . بعدد الرجال ذوى التربية والذكاء والأخلاق . « لوثر »

ذهاب التلميذ كل يوم إلى المدرسة وعودته منها متأبطاً كتابا أو كتبا للعلماء الأقدمين والعصريين ؛ وجلوسه معظم النهار على بنوك الدرس ؛ وسماعه الأساتذة المختلفين يلقون الدروس فى العلوم المتنوعة ، التى لا تخلو غالبا من أن يذكر الأستاذ ـ بطريق الاستطراد ـ تاريخ رجل من رجال الأخلاق العالية المفيدة ، أو من أولى الأدمغة الاستثنائية التى تحيط بطرف كثير من معلومات الكون : كل ذلك هو سبيل العلم ومظنة التربية .

إذا كانت سعادة الأمة متوقفة على عدد رجال الأخلاق والذكاء فيها كما قال لوثر ؛ وكان لا طريق لايجاد هؤلاء إلا بالتربية التى تنمى الخلق والتعليم الذى يشحذ الذكاء ؛ فهل نحن من هذه السعادة على بابها ؟ أم هل نحن لا نزال بعيدين عن أبواب تلك السعادة ؟

إن بلدا يعد اثنى عشر مليونا من النفوس ، ويكون عدد طلاب الشهادة الثانوية فيه هو أربعمائة فقط ، لفى أشد الحاجة إلى عناية الأمة والحكومة معا بفتح المدارس الثانوية لتخريج عدد كبير من الطلاب ، ليتموا دراستهم ويكون عدد النابغين فيهم بالضرورة على نسبة عدد جمعيتهم ، قلة وكثرة . إن طريقة إنشاء المدارس الثانوية على مصاريف التبرعات التى يجود بها

الجريدة العدد ٣٦٥ — ٢١ مايو سنة ١٩٠٨ .

Digitized by Birzeit University Library

أهل الخير ، هى طريقة بطيئة جداً ولا يمكنها أن تقوم بحاجة وطن كبير كوطننا ، وإن كانت قد تفلح فى بعض الأوطان الضيقة . وإن خير الطرق وأقربها للوصول إلى هذه الغاية ، هو تسليم التعليم الثانوى لمجالس المديريات وإعطاؤها حق ضرب الضرائب الاضافية للانفاق عليه ، بشرط أن يكون أهلياً ، أى لا يخضع إلا إلى اللوائح العمومية ، وقوانين التعليم التى تضعها الحكومة بالأوامر العالية . ولكنها لا تكون مقيدة بقرارات نظارة المعارف ومنشوراتها .

إن لم تلحظ الحكومة ذلك فى مجالس المديريات، ولم يلحظ مجلس شورى القوانين هذا النظر حين يعرض عليه المشروع ، وقعنا فى أزمة لا صارف لها إلا الزمان الطويل . فان الحكومة تشترط أن يكون مستخدموها من سنة ١٩١٠ حاصلين على الشهادة الثانوية . والمدارس العالية لا تقبل أحداً فيها إلا بالشهادة الثانوية . فاذا لم يوسع نطاق التعليم الثانوى ، ووقف بنا الجد عند أربعمائة طالب ، وإذا كان يلزم للحكومة من العمال سنوياً أكثر من هذا العدد ، فاما أن تعدل الحكومة عن فكرتها فى عدم قبول المستخدم الحائز على الشهادة الابتدائية فقط ، وهذا تقهقر ورجوع إلى الوراء من غير انتظام، وإما أن يقل عدد الطلبة الذين يدخلون المدارس العالية . وهذا تأخر أيضا، ولكنه تأخر، شر من الأول .

لذلك كان من حاجة البلاد أن تلحظ هذه الاعتبارات الوجيزة فى وضع قانون مجالس المديريات . ليكثر عدد المهذبين والأذكياء أولى الأخلاق الفاضلة فتصل الأمة بهم إلى باب سعادتها إن شاء الله تعالى .

Digitized by Birzeit University Library

الرتب والنياشين

فى الحكومات الشخصية التى يستبد فيها بالحكم واحد، لايكون للفرد حياة ظاهرة ولا شرف معترف به، إلا بالاضافة لشخص الحاكم. مادام الافندى لا ينقلب زيه يوم العيد إلى زى بطل من أبطال القرون الوسطى، كل صدره قصب يبرق، ويعلق عليه نياشين تلمع، ويحمل بعد ذلك سيفاً لايستطيع أن يجرده، ولا السيف صالح لأن يجرد، فمهما كان له من شرف المولد، ورفعة الأخلاق وسعة العيش، فانه لا يكون شريفاً إلا فى نظر الحوذية الذين يدعونه دائماً بالبك. أما عند رجال الحكومة فاذا سار معهم وجب عليه أن يتنحى إلى آخر الماشين، وإذا جلس بمجلسهم وجب عليه أن يختار لنفسه آخر كرسى يلى الباب. وإذا جلس مع الأعيان الذين لا يتخاطبون إلا بالعزة والسعادة بملء الفم، صاح بعضهم أفسح يافلان أفندى لسعادة البك أو لسعادة الباشا. وإذا خاطبه أحدهم قلما يصغى إلى قوله، كأن الأفندى لاحق له هو أيضاً فى أن يتكلم، أو لايجوز عليه أن يكون رأيه أحسن من رأى سعادة البك. إذا أراد الافندى أن يتزوج ورضى به أهل المخطوبة، لقبوه فوراً بالبك العريس، تفاديا من لقب الأفندى، ذلك اللقب المحتقر. وخشية من أن يقول الناس إنهم زوجوا ابنتهم من واحد أفندى.

مسكين هذا الافندى، يبذل من المجهودات كل مرتخص وغال فى سبيل لقب، لأجل أن يكون شريفاً أمام أهل بيته، شريفاً أمام الأعيان، شريفاً أمام الحكام. فياضيعة الشرف الذى تتوقف إضافته للرجل الحر، على احسان الحكومة أو إحسان الملك. على أن الشرف هو إحسان من الله مظهره النبل وعلو الخلق.

الجريدة العدد – ٣٨٠ – ٨ من يونية سنة ١٩٠٨

Digitized by Birzeit University Library

من أجل هذا الشرف الوهمى ، تهافت الناس على الرتب والنياشين ، يعطونها لا مكافأة على عمل من أعمال البسالة ، كما يكون بين جماعة العسكر يعطى كل منهم خطراً من العلو على غيره ، عملا فعلياً اقتضاه استعداده وبسالته كالأميرالاى والفريق ، ولكن أولئك يعطون الرتب والنياشين بالرجاء ، وبأن الواحد منهم رجل طيب غنى . على أن الناس لا يمكن أن يستحقوا مكافأة ، على كونهم طيبين لا يفعلون الأذى ، ولا على أنهم أغنياء .

الناس غيرمتساوين ، يفضل بعضهم بعضا بالمواهب والمزايا الانسانية ، وآثار الأفعال الصالحة . ولكن الحكومة عز عليها ألا تكون هى أيضاً سببا من أسباب التفضيل ، فجعلت رضاها وتعطفها فى حكم موهبة من مواهب الله . الله يفضل بالتقوى ، وهى تفضل بالرتب التى تنفق منها باليدين ذات اليمين وذات الشمال . تعمل الحكومة ذلك لتجعل الناس دائما يهتمون برضاها عنهم ، فهى تلعب بأهوائهم وشهواتهم وتأسرهم بها . تلك هى عادة الحكومات الاستبدادية القديمة ، عادة لازمة لأبهة الملك ، ونخار التاج . قد تسربت إلى الحكومة الحديثة ، فكانت أثراً من الآثار الاستبدادية الأولى . عرفت حكومة الولايات المتحدة أن تتخلص منها ، ولكنها لاتزال فى الحكومات الأخرى من أهم المؤثرات فى الأخلاق ، خصوصا فى الحكومة المصرية . ألما يأت الوقت الذى فيه يتفق الناس على معنى الشرف بصورة أكمل من هذه الصورة العتيقة المشوهة !

Digitized by Birzeit University Library

بناتنا وأبناؤنا

بين العائلة المصرية بالأمس وبينها اليوم ، شبه واحد ؛ هو أنّ كلتيهما تؤدى إلينا النتيجة الاجتماعية من الزواج ، وهى الأولاد . ولكنهما من حيث سعادة الزوجية ، وما يستتبع ذلك من المنافع الشخصية والعامة ، تقدمان بين أيدينا فروقاً ، هى سبب القلق الذى نحن فيه ، ونعمل لتلافيه .

كان فى عائلة الأمس بين الرجل والمرأة شبه تام فى الجهل ؛ شبه تام فى النظر إلى الحوادث وتقديرها . شبه فى فهم السعادة الزوجية . كان الرجل يجمع فى البيت الواحد بين زوجتين أو ثلاث أو أربع ؛ وقد يضيف إلى عددهن ممن كانوا يسمونهن خطأ، ملكَ اليمين من الشابات الرقيقات ، بيضاً وسوداً ؛ ومع ذلك كانت الزوجة الأولى راضية بالمعيشة ، وكانت تعتبر غيرة قلبها عليه من الزوجات الأخريات أو الجوارى ، إحساساً يجب أن تخفيه بمقدار ما تستطيع . كان يمنعها الوقار غالباً من أن تفتح قلبها بالشكوى إليه ، أو إلى ذى قرابة منها ، بما تجده من الألم . كان يرضيها من زوجها أن يعدل بينها وبين غيرها ، فى المعاملة والكسوة . كان يرضيها منه ، احترامه لها وعطفه عليها وعلى أولادها . وكانت مع هذا تحبه وتحفظ شرفه . لا أدرى إذا كانت الزوجة بهذه الحالة سعيدة ؛ ولا ما إذا كان الزوج على حال تلك الضرائر سعيداً أيضاً ؛ ولكنى أقول إن روايات الوفاق بين الزوج وزوجته ، كانت مستفيضة ، وإن حوادث الخلاف بينهما كانت أقل مما يسمع به الآن ، مع قلة الجمع بين زوجتين . ولا أفهم سبباً لكثرة

الجريدة — العدد ٣٨٣ — ١١ من يونيه سنة ١٩٠٨

Digitized by Birzeit University Library

الوفاق على تلك الحال، وقلة الوفاق فى حالتنا الراهنة، إلا أنه كان يوجد دائماً شبه بين الزوجين فى الطبقة الوسطى والعليا تقريباً، وأن الزوجين كانا متفقين فى فهم السعادة الزوجية.

أما الآن فان الشاب الذى أتمّ دراسته، يتطلع إلى معاشرة زوجة تفهمه ويفهمها؛ ولكنه لا يتزوج غالباً إلا بابنة جاهلة أو قريبة منها. إنه يفهم السعادة الزوجية على آخر نمط قال به الحكماء العصريون؛ وقرره مشاهير القصصيين. وهى لا تفهم تلك السعادة إلا بمجموع ما يحصل خيالها من روايات الدّلاّلات، وعجائز الحكايات. إنه يرى الجمال فى رشاقة القوام، وتناسب الأعضاء، وخفة الحركة، وطراوة الصوت، وبريق العينين، وجاذبية الحديث؛ وتفهم هى الجمال بالسمن والبياض. إنه يرى حسن الهندام فى بساطة الملابس؛ وباهت الألوان، ومشيها بعضها مع بعض فى الخلعة الواحدة. وترى هى أن حسن الزى ينحصر فى الاطالس والجنافس، فمئزر على مئزر، وجلباب على جلباب، تحمل جسمها ما لا يطيق، وتنسى ذراعيها من غير قفاز. انه يرى الزينة فى الحال الطبيعى، أو القليل المألوف من الكحل. وترى هى أن الزينة فى الكحل يصبغ فراغ الحجاج، وفى تزجيج الحواجب على غير الرسم الطبيعى؛ كأن الغرض ليس تسويد شعر الحواجب، ولكنه تسويد الوجه. إنه يرى دلائل المحبة فى تبادل الحديث على صفاء وحسن رعاية فى المعاملة والمجاملة؛ ولا تفهم دلائل المحبة إلا بكثرة الهدايا. إنه يرى من الواجب عليه أن يصدقها من غير تردد فى كل ما تقول عن نفسها؛ وهى لا تصدقه مطلقاً فيما يقول خصوصاً فى موضوع أنه لن يتزوج بغيرها. ولا يثبت فى نفسها أنه على ما يدعى من الوفاء، ولا أن الزوجية متى صفت، تقتضى البقاء إلى آخر الحياة

ذلك قليل من الفروق الكثيرة بين أخلاق طرفى العائلة الحديثة فى مصر، إذا قدر على الشاب المتعلم أن يتزوج بغير المتعلمة. فاذا ابتليت الفتاة

Digitized by Birzeit University Library

المتعلمة بالزواج من غير المتعلم ، كانت تلك الفروق أظهر أثراً فى تنكيد العيش العائلى إلى مايشاء الله . لأن التعليم يوجد بين المتعلمين شبها عظيما ، خصوصا إذا كانت طريقة التعليم واحدة . فتعالوا بنا إلى المدارس؛ لانجد فيها البنات على نسبة البنين . ويكون من الطبيعى أن كل متعلم لايستطيع إذا كبر ، أن يتزوج بمتعلمة . وعلى ذلك لايمكننا أن نحصل السعادة العائلية التى هى قاعدة جميع السعادات الأخرى . فاما أن نرضى بتردد الشبان فى الزواج وكرهم له ، وهذا خطر على الأمة المصرية . خطر من حيث النحو العددى ، ومن حيث كمية الرقى الأدبى الذى ينقله الوالد المتعلم لولده بحكم الوراثة .

إنه لاسبيل لملافاة هذا الخطر إلا باكثار عدد المتعلمات من البنات ، وتقريب معلوماتهن العامة من معلومات البنين بقدر المستطاع . فان التى لاتعرف إلا القراءة والكتابة لاتعلم شيئا ، بل لابد لتكوين ملكة الفهم أو إنمائها ، وتقوية الاستعداد لقبول الآداب العالية ومبادىء الأخلاق ، من العلوم المختلفة . كالعلوم التى تدرس فى المدارس الثانوية .

إن مدارس الراهبات يعلمن من ذلك شيئا قليلا ؛ ولكنى إذا نصحت بأن يكون المعلم راهبا أو راهبة لا غرض له فى الحياة إلا التعليم ، فأنى لا أستطيع أن أنصح للفتيات المصريات بأن يمضين سنى تعلمهن كلها عند الراهبات ؛ لأنهن بعد ذلك يتممن الدراسة ، ثم لا يكون بينهن وبين أمهاتهن وخالاتهن وبقية أخواتهن المصريات من الشبه الشىء الكثير . ولا بد للفتاة المصرية المتعلمة من أن تكون فى تربيتها ذات طرفين : طرف متمدن مصفى بمصفاة التمدن الحديث تتفق به مع زوجها الشاب المتعلم : وطرف آخر يدخل فى تركيبه مقدار كثير من عادات السيدات المصريات تتفق به مع أمها وحماتها وعائلة زوجها . فخير للفتاة المصرية أن تتعلم ، أو تتم تعليمها فى المدرسة «السنية» عند الامكان.

Digitized by Birzeit University Library

نقول تتم تعليمها ولا نعرف إذا كان آباء الفتيات يرضون بتركهن فى المدرسة إذا تجاوزن الرابعة عشرة من عمرهن ، حتى يدخلن القسم الثانوى من المدرسة «السنية» ؛ فتتربى عقولهن تربية تضمن لهن إرضاء مطامع أزواجهن ، أو يغارون عليهن غيرة ليس لها سبب جدى ، فيقطعون عليهن طريق سعادتهن ، ويكتفون منهن بالمعلومات الابتدائية التى ليس لها فى ملكات الفتاة إلا أثراً محدوداً ، إذا نفعها اليوم فى أن تتزوج من شاب مهذب ، فأنه لن ينفعها غداً حين يوجد لها مثيلات تعلمن العلوم الثانوية ، فصرن بذلك أحق منها بسعادة العشرة مع رجل كفء ذى عقل كبير وفضائل ومركز سام بين الناس .

خلُّوا بين البنات وبين سعادتهن ، ولا تضيقوا عليهن متسع الحياة ، ولا تكسروا بأيديكم مستقبلهن ، ولا تعبثوا بسعادتهن اتباعاً للهوى الغيرة وخوفاً مما لا خوف منه عليهن . فأن المرأة الفاضلة أنفع للأمة من الرجل الفاضل أضعافاً ، بمقدار عدد ما ترزق من الأولاد .

Digitized by Birzeit University Library

ضحايا الابرار

وحق القوى

كلما قدمت لنا الحوادث مثالا من انتصار صاحب القوة على صاحب الحق، صاح اليائسون من مفكرى الشرق. «ألا إن الحق للقوة» واستكبروا على الزمان أن يعدل بين الملوك وبين رعاياها. وأحبوا لأمم الشرق أن تخلد إلى الاستبداد، وتسكن إلى العسف، وتقيم على أسوإ المبادىء، مبادىء خضوع الملايين أمام إرادة فرد واحــد. يقول ذلك المفكرون اليائسون حقنا للدماء، ونشرا للسلام. وليت نصائحهم هذه تقترن بالسلام يوما واحدا، فانه لا سلام إلا مع الحرية. لا سلام الا مع استقلال الأمم، واستردادها حق حكم نفسها بنفسها، على الطريقة المشروعة المألوفة، طريقة الشورى التى تهدى إلى أن إرادة الجماعة، هى فوق إرادة الواحد حتما. وأن مقام الأمة فوق كل مقام.

نقول ذلك لمناسبة هذه الحوادث الأليمة، حوادث وعيد شاه إيران لرجال شوراه، ثم تنفيذ هذا الوعيد فعلا. نفذه تحت أعين الدول المتمدنة القائلة بنصرة الضعيف؛ التى تدعى أنها عون كل أمة تريد الخلاص من الاستبداد إلى الحرية.

الجريدة العدد ٣٩٧ — ٢٨ من يونيه سنة ١٩٠٨

Digitized by Birzeit University Library

كان وعيد جلالة شاه إيران أن آباءه قد شادوا الملك بالسيف ، وإنه لخليق بأن يحفظه بالسيف أيضا . وما هى إلا أيام حتى شدد حرسه الحصار على مجلس الشورى ، فاضطر بعض النواب إلى إلقاء قنابل على القوازق ، فأخذ هؤلاء يرمون دار الشورى بالمدافع حتى هدموها ، وسالت على جدرانها الدماء البريئة ؛ دماء الذين لا ذنب لهم إلا القول بسلطة الأمة ، وأن مقامها فوق كل مقام . فاضت تلك النفوس الطاهرة وما جنت إلا المطالبة بالدستور ، وأخذ بتلابيب أشياخ الوطنية ، وسيقوا إلى أعماق الحبوس ، كما يساق المجرمون ، وأبيحت المدينة لسلب العساكر ، وناهيك بما يأتى العسكر الذين لا يعرفون الوقوف فى الانتقام عند حد من الحدود . وليتنا ندرى هل لجلالة الشاه كجلالة القيصر «سيبريا» أخرى ، يزج فى غياباتها كل نفس طاهرة تأبى العسف ، وعدم المساواة ، حتى لا تضيق حبوس فارس عن طلاب الدستور ، فإنهم على ما نعلم الأمة بأسرها .

ما زال بعض الملوك فى هذا الجيل يعتمد فى حفظ الحكومة الاستبدادية — التى لا يشاركه فى أمرها أحد — على القوة وحق الوراثة . وإنا لمناسبة هذه الحوادث المحزنة ، التى كان مرسحها فى هذه الأيام الأخيرة يتناوب طهران وسان بطرسبرج ، نبين لقرائنا طرفا من حق القوة وحق الوراثة ، حتى لا يعدم طلاب الحرية أنصاراً من جيرانهم يألمون لهم ويرثون لحالهم ، ويدعون الله أن يكشف عنهم غمة الاستبداد ، ويوفقهم إلى نيل الحق والعدل اللذين لا يستطيع أحد فى العالم أن يقف جهاراً فى طريق طالبهما .

كان الملك فى القرون الوسطى يحكم باسم الله ، لا باسم الأمة ، وكانت سلطته على ذلك مستمدة من الله ، وما أعطاه الخالق لا يمنعه المخلوق . ومن ذلك كان شخص الملك مقدساً لا تصل إليه الأيدى . وما كان الناس يعدمون كتابا ملحدين فى وطنيتهم ، يزينون لهم هذه المبادئ الاستبدادية ، ويجعلونها حقوقا طبيعية — فكان للملك على رعيته حق الموت والحياة ، مرة باسم الفتح ،

Digitized by Birzeit University Library

وأخرى بحجة كونه ملكا باسم الله . وكان هذا الملك المقدس يورث قدسه لأولاده من بعده ، فيحكم أحدهم بمجرد الوراثة ، هو أيضا باسم الله . فما زال الناس كذلك ، حتى قام كثير من الكتاب يحيون بأقلامهم عهود المدنية القديمة ، ويقولون كما كان يقول أفلاطون وأرسطو وغيرهما ، بسلطة الأمة ، فكانت كتاباتهم لا تلقى من جماهير القراء إلا ازدراء ، وطعنا عليهم بالجنون والخروج عن المألوف : ولكن ذلك لم يزدهم إلا ثباتا على نشر الحقيقة ، حتى ألفها الناس واعتنقوها وتمذهبوا بها ، وكان من ذلك انقلاب الملوكيات المقدسة ، التى تحكم باسم الله ، إلى ملوكيات مقيدة تحكم باسم الأمة وتخضع لسلطة الأمة ، وتعمل لخير الأمة .

الحرية فطرة فطر الله عليها كل فرد ، فليس لواحد من بنى الانسان أن يسلب واحداً آخر حريته . وإذا كان الفرد حراً بالطبع ، فالأمة التى هى مجموع الأفراد ، حرة من باب أولى . وليس لهذا الفرد ولا لهذا ، المجموع أن يتنازل عن حريته ، لأن التنازل فرع عن الملكية ، والحرية غير مملوكة للحر ، فليس له أن يهبها للسلطان ، بل كل هبة من هذا القبيل باطلة بطلاناً أصلياً . فأيما أمة وهبت حريتها لملكها . وجعلت نفسها عبدة له ، فهبتها باطلة وحريتها باقية ثابتة . على ذلك ليس لملك أن يدعى أن قومه عبيد له إذا وهبوه حريتهم . فكيف يسوغ لملك أن يدعى استرقاق قومه واعتبارهم عبيداً له ، بغير إرادتهم ؟

حكم الأغلبية على الأقلية طبيعى أيضاً ؛ وإن لم يكن طبيعياً ،فأنه الطريقة الوحيدة لامكان تنظيم العلاقات الاجتماعية بين أفراد الأمة الواحدة . فيكون كالطبيعى من حيث أنه لا غنى للاجتماع عنه بحال من الأحوال . ولا شك فى أن الأغلبية فى كل أمة هى الشعب : والأقلية هى الحكومة ، وجيشها ، وأنصارها .

إنما رتبت الحكومة لمصلحة المحكومين ، لا لمصلحة الحكام ؛ لأن

Digitized by Birzeit University Library

الحكومة هى وكالة سببها مصلحة الموكل . وأما مصلحة الوكيل فى الأجرة ، فأنها عارضة ليست هى السبب فى الوكالة ضرورة . وليس للوكيل أن يستبد برأيه على الموكل الذى له أن يعزله كما نصبه .

على هذين الأصلين بنيت الشورى فى الحكومات الشوروية . وكان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يسير فى أعماله العامة على هذا المبدأ ، مبدأ الأخذ بالرأى الغالب ، ولو خالف رأيه ، كما كان ذلك فى واقعة أُحُد ، فأنه رأى أغلبية القوم تميل إلى الحرب يومئذ . فخرج إليها . فلما ظنوا أنهم استكرهوه رجوا منه أن يعمل برأيه ، فلم يفعل ، بل اتبع رأيهم ليشرع لهم هذا المبدأ العالى ؛ مبدأ أن إرادة الفرد ، يجب أن تنحنى أمام إرادة الجمهور :

لست أدرى بعد ذلك على أى أصل من الأصول يكون للملك حق الاستبداد برأيه دون أغلبية أمته ، إلا أن يكون حقه مرتكناً على أن آباءه قد كسبوه بالقوة ، وانتقل إليه بالوراثة .

أما القوة ، فأنها تنافى الحق ، فلا يمكن أن تكون سبباً له . بل كل حق أخذ بالقوة يسترد بالقوة أيضاً ، ولا يمكن أن يسمى حقاً . وغير الحق ، لا يمكن أن يورث . فانما تورث الحقوق دون غيرها . نعم يورث السرير ، ويورث التاج . ولكن حق الاستبداد بمصالح العباد ، لا يمكن أن يورث . لأنه ليس حقاً لأحد كما قلنا . فان الحرية هبة من الله ، لا تملك لصاحبها ولا لغيره . فالملك الوارث إنما يرث التاج ؛ ولكن ذلك لا يمنع أمته من استرداد حقها . وإنا نقول فى هذا المقال كما قال روسو « لئن غلبت أمة على أمرها ، وسكتت ، فحسناً صنعت . فان قدرت على استرداد أمرها ، وفعلت . فقد صنعت أحسن »

Digitized by Birzeit University Library

حفت الجنة بالمكاره

كذلك حفت الحقيقة غالباً بمرارات تجعلها مكروهة غير سائغة، ينفر منها الأنسان لأول وهلة، حتى يروض نفسه على السكون إليها. إن حادثة تقع فتهدم فى نفسك الآمال اللذيذة التى هى سبب السعادة، يضيق بها صدرك بادىء الأمر، ولكنك لا تلبث أن تتبين فيها أصلا من أصول الاعتقادات السليمة.

فليرجع أحدنا إلى ماضيه. لابد أن يجد فيه من تلك الأفكار التى كان ينفر منها عقله، ويأبى سماعها من غيره، وتخبث عليه نفسه، إذا أريد اقناعه بصحتها. ومع ذلك يجد بعد زمن ما، أن هذه الأفكار التى كان ينبذها قد تسلطت على نفسه تسلطاً لا يقبل المقاومة، واستولت عليها حتى تصير النفس مدينة لها، تحبها وتقدسها وتعتبر وجودها فيها من أكبر النعم.

ذلك واقع فعلا فى تربية المرء نفسه، فأنه يجدها تكره أن تسمع عنها عيباً حقيقياً. مع أننا نحب أن نعرف عيوبنا لنصلحها. ولكن كراهتنا الوقتية ذلك الانتقاد، قد تسبب لنا سروراً كثيراً، حينما نصلح ما ينتقد علينا، ونتذكر هذا الانتقاد بالحنان، والاعتراف بالجميل.

كذلك فى تربيتنا الاجتماعية. فانا كنا ننفر جداً من فكرة تعليم البنات، وكان بعضنا يرى من العار والمسبة، أن يعلم عن ابنته أنها تكتب، لما كان بين

الجريدة العدد ٤٠٧ - ٩ من يوليه سنة ١٩٠٨

Digitized by Birzeit University Library

كتابة السيدة وقراءتها روايات الغرام ، وبين التهتك ، من التلازم الخيالى فى نفوس العوام . وإنى واثق الآن أن كثيراً من الآباء الذين كانت تجرحهم فكرة تعليم بناتهم ، أصبحوا يغبطون الآباء الذين لم يقفوا فى تعليم بناتهم عند حد القراءة والكتابة ، بل أرسلوهن إلى أوربا ليدرسن العلوم المختلفة ، وأصبح الناس جميعا يقولون بتعليم المرأة . وإن كانوا لا يزالون مختلفين فيما يجب أن تعلم البنت من العلوم ، وإلى أية سن يجوز التعليم .

كذلك نرى هذه الحقيقة فى تربيتنا السياسية . فانه قد كان يؤلم الأمة أن تعلم بأنه لا نصير لها فى طلب استقلالها إلا عمل أبنائها لها . وأن هذه الحقيقة التى من شأنها أن تقضى على آمال لذيذة كانت تسبح فيها الأمة وتسعد بها منتظرة كل يوم تغييراً فى الحال الحاضرة يأتى من الباب العالى ، أومن فرنسا أو من انكلترا . هذه الحقيقة التى قتلت كل تلك الآمال ، كانت مكروهة بالأمس . ولكنها قد أصبحت اليوم مستولية على جميع النفوس ، مقبولة لدى جميع الطبقات ، لا ينفر أحد من سماعها . ذلك لأن الحقيقة متى جاءت عريانة أمام العين ، لا تقف فى وجهها أحلام النائم ، ولا الامانى الخداعة. تغضب حكومتنا ونصراؤها أن تجدنا نحمل على شكلها الاستبدادى ، وننتقد تصرفاتها الجزئية، وتكبر منا ذلك، فتريد أن تظنه غلواً فى حرية النقد ، أو عملا عدائيا من جانبنا ، فتنفر مما نبديه من الملاحظات ، كما ينفر العامى الذى يغلب عليه قبح تصرفه، فلا يصبر نفسه مع المنتقد حتى يصل إلى الحق. ولكنها لو صبرت معنا فى موقف التفاهم ، ثم نظرت إلى نفسها، لتبينت أن إدارتها العامة على ما هى عليه الآن ، يستحيل أن تأتى بالمنافع المنتظرة منها، بصرف النظر عما إذا كانت استبدادية لا حق لها من البقاء على هذا الشكل .

طال بنا القول فى أن شكل الحكومة الاستبدادية هو أسفل أشكال الحكومات ، وأقلها دواماً ، وأكثرها نبواً عن المعقولات الطبيعية ،

Digitized by Birzeit University Library

وأشدها بعداً عن القيام بالمصالح القومية . ولكن مع افتراض أن شكل حكومتنا مقبول ، فان تركيب إدارتها أو نظاراتها ، هو تركيب فاسد يجب تغييره أيضاً .

إذا قلنا إن الموظفين فى المصالح المصرية يجب أن يكونوا جميعاً من المصريين ، رأت الحكومة أن هذا شطط . نفهم ذلك ونعذرها لأن الحقيقة محفوفة بالمكاره . ولكننا مع ذلك نستميحها الاذن أن تلقى نظرها على نفسها .

إذا أردنا أن نصنع مكينة كبيرة متضاعفة التركيب ، وجب علينا أن ننقص عدد عجلاتها على قدر الامكان ، وأن نجعل جميع القطع التى تركب جسم الآلة من معدن واحد ، أو على الأقل من معادن قوة مقاومتها متقاربة جداً . وأن نلاحظ أن حركات أجزائها ، يجب أن تكون على غاية التوافق . فان لم تكن هذه الملاحظات معمولا بها فى التصميم العام لعمل المكينة ، اختل نظامها ، ولم تستطع أن تؤدى وظيفتها زمناً طويلا .

انظر نظرة عامة إلى أى إدارة من إداراتنا الضخمة كالداخلية أو الحقانية أو المعارف ، تجد أن الآلات والقطع المكونة منها تلك المكينة الادارية ، هى قطع متنافرة بطبيعتها ، لا تتفق أجزاؤها فى الشبه ، ولا فى المعانى النفسية ، ولا فى تقدير قيم الحوادث التى تقع كل يوم فى جوف الادارة المشتركة . بل تجد هذا الانكليزى يحتقر المصرى بطبعه ، ويراه أنقص منه فى درجة الانسانية ، خصوصاً بعد أن يعتنق مذهب لورد كرومر ، الذى كان رب نعمته ، والذى أقامه فى المنصب الذى يشغله . وترى المصرى زميل ذلك الانكليزى ، حين يشعر بهذا الاحتقار ، تنفر نفسه فيضمر له السوء إذا كان ضعيفاً ، أو يجهر له بالعداء ، إذا كان قوياً . والتنافر حاصل على فى الحالين .

يجهد الانكليز أنفسهم باطلا فى حسن معاملة زملائهم المصريين .

Digitized by Birzeit University Library

ولكن الذى يرى بالعيان أن الفريقين لا يمكن أن يتفقا اتفاقاً تاماً ، فلا يمكن أن يكونا قطعتين مركبتين لآلة واحدة .

لذلك ترى الفشل يتوج أغلب المشروعات ، وكثيراً من الأعمال التى تعملها الحكومة : إما لمصلحة الأمة كما تقول، أو لحفظ ذاتها، كما هو الواقع.

يسهل جداً أن يتفق سمو الأمير مع جناب المعتمد البريطانى لعدم إمكان وجود التناظر بينهما . ولكن هل يسهل اتفاق مدير فى نفسه شمم ، مع مفتش الداخلية ؟ هل يتفق ناظر شريف ومستشار انكليزى ؟ هل يتفق ناظر مدرسة ومفتش المعارف ؟

إن أسباب الوفاق كما ذكرنا معدومة الوجود فى طباع الانكليز الذاتية . لأن الانكليزى لا يرى له مساوياً ، خصوصاً إذا كان فى بلد ، كلما تكلم قارنها بالهند ، الذى هو ملكه ملكا تاماً . قلما يتفق الذى يتصور خطأ أنه فاتح ، مع الذى لا يعترف مطلقاً أن بلاده مفتوحة .

تلك حقيقة اعترف بأنها مرة جداً . ولكن يجب على الحكومة ألا تلقى بها وراء ظهرها . بل يجب أن تفكر فيها جهد المفكر . وانها سترجع من كثرة التفكير بهذه النتيجة : إن المصريين يصيبون جداً حين يطلبون أن تكون أجزاء الادارة الواحدة متجانسة تمام التجانس . فاما انكليز لا مصرى بينهم؛ وإما مصريون لا انكليزى معهم . بذلك يكون الوفاق أتم . وما دام الغرض الأول غير مستطاع ، وجب على الحكومة أن تبدأ من الآن باكثار عدد المصريين فى وظائف الادارة المصرية ، لا لينقدوا راتباً يجب ألا يحسب له حساب ، ولكن ليحصلوا بذلك على مكينات إدارية متوافقة الأجزاء ، قادرة على القيام بوظيفتها حق القيام .

Digitized by Birzeit University Library

الرأى العام

لايخلو امرؤ مهما انحطت درجته فى قومه ، وانطفأت فى قلبه نار الغيرة على مصالحهم ، أن تجول بخاطره صورة مايظنه المنفعة لقومه من حيث جمعيتهم وشكل حكومتهم ، ويرجو ألا تحقق هذه المنفعة العامة التى سيصيبه هو أيضاً منها نصيب . قد يصيب هذا المفكر وقد يخطىء ، إذا كان قياس المنفعة معروفاً ، مجمعاً عليه . أما والمنفعة أمر اعتبارى صرف ليس له حقيقة ثابتة ، بل هو مايحسبه الانسان نافعا بحسب مايعتقد ، لابحسب الواقع ، فلا خلاص لنا من القول مع « سبنسر » : « كل منا يعلم حق العلم مايلزمه ، وكل مناهو دون غيره ، الذى يحكم حكما حقيقياً على وجود منفعته » . على ذلك إذا كان الرأى العام للأمة ليس منطبقا على الحق والعدل فى ذاتهما ، فانه على الأقل منطبق على الحق والعدل على الوجه الذى به تفهمها الأمة وتحتملهما . فيجب أن يعتبر الرأى العام هو الحق الذى يجب اتباعه ، والقانون الذى يجب تنفيذه ، سواء راق ذلك فى عين لورد كرومر ، أولم يرق . وسواء وافق مصلحته الاستعمارية ، أو لم يوافقها . فانه إذا جاز له أن يخطىء الشرقيين بجرأة فى معتقداتهم بجميع أشكالها ، ويسفه آراءهم فى كل ماتتناوله ، فان هذه القاعدة التى صدرت بها هذا المقال ليست من بنات أفكارنا الشرقية ؛ بل هى آخر مذهب ذهب إليه علماء السياسة الغربيين فى أمر الرأى العام . ولو كان للورد أن يحتقر آراءنا بحجة أنه من قوم سلطتهم المقادير على إدارة بلادنا مؤقتاً ، فانى لا أخاله ينهض لتسفيه آراء علماء السياسة الغربيين .

الجريدة العدد ٤٠٨ — ١١ من يوليه سنة ١٩٠٨

Digitized by Birzeit University Library

تكون الرأى العام الحديث فى مصر من أزمان اسماعيل باشا ، وإن كان فى ذلك الحين ضعيفاً جداً لحداثة سنه من جهة ، ولقوة الحكومة الظالمة من جهة أخرى . إلا أن ضعفه لم يمنعه من النمو والارتقاء يوما فيوما ، تبعا لقواعد الرقى التدريجى . فكانت كل حادثة من الحوادث السياسية ، من شأنها أن تقوى ساعده وتشد عضده للبقاء ، حتى صار اليوم على ما نراه عليه. وإن من الجهل بالأحوال المصرية ، أن يقال إن الرأى العام اليوم ، هو غير الرأى العام قبل الاحتلال ، فانى لا أرى فروقا اليوم بينه وبين قبيل الاحتلال ، لا فى مشخصاته ، ولا فى موضوعه . فان المصريين من يوم أن بدأوا فى التعليم على الطريقة الغربية ، أخذوا يطمعون فى أن يكون لهم حكومة دستورية متمدنة ، وأخذوا يتذمرون سراً من احتكار الشراكسة للوظائف العسكرية ، ويرون أن أبناء مصرهم أحق من غيرهم بخدمتها ، وأنه مادامت العائلة المالكة مصرية نصبت بسعى المصريين ، فلا معنى لأن تكون قوتها غير مصرية . تربى هـذا الرأى وترعرع حتى بلغ أشده إبان الفتنة العرابية التى انتهزها الانكليز سبباً لاحتلال بلادنا . ولم يقل إلى اليوم رجل حسن النية ، ولا لورد كرومر نفسه ، أن هذه المطامع التى كان يشف عنها الرأى العام فى أزمان اسماعيل ، هى مطامع غير مشروعة . بل لا يوجد شخص أكثر احتقاراً لبنى آدم ، ممن ينكر على قوم حبهم للدستور وسعيهم إليه ؛ أو ينكر على أبناء بلد حق الاستئثار بخدمتها دون غيرهم ، أو بعبارة أخرى ، امتعاضهم من رؤية الأجانب يحملون عنهم أوزار واجباتهم الوطنية ، التى هم أولى بالقيام بأعبائها .

بقى هذا الرأى العام المصرى لضعفه تقذف به حوادث السياسة إلى اليوم . إلا أنه مع ذلك لم يتحول يوماً واحداً عن محوره الذى كان يدور عليه أزمان اسماعيل . أما ظهوره جلياً أمام أعين الأوروبيين ، فانه لم يبتدىء إلا مع حرية الصحافة المصرية ، التى لم تنتشر فى مصر إلا فى

Digitized by Birzeit University Library

عهد الاحتلال الانكليزى ، وصار انتشارها أعم فى أزمنة سياسة الخلاف(١) لأنه إن صح ماسمعناه ، كان لورد كرومر يحمى حرية طرف من الصحافة ، وسمو الأمير يحمى الطرف الآخر . وبذلك كان اعتداء إحدى السلطتين على الصحافة المعارضة لهـا ، إن لم يكن مستحيل النتيجة ، فانه كان عاجزاً عن القضاء على حريتها فى معارضتها أو الانتقاد عليها .

لست أنكر أن الصحافة عندنا كانت فى وقت ما ضعيفة منحازة إلى بعض أغراض ذوى النفوس ، كما كانت كل صحافة فى العالم ، وهى بذلك تؤدى صورة الرأى العام ناقصة عما هى عليه فى الواقع . ولكنى أنكر أنها خلقت رأيا عاماً كاذبا ، كما يدعى كرومر ، أو كما يدعى أولئك الوجهاء الشرقيون الذين يسند إليهم هذا الرأى .

لا أظن أن جنابه يستطيع أن يقول من اليوم إن الرأى العـام المصرى كاذب ، أى منحرف عن حقيقـة مصلحة البـلاد ؛ ولذلك لا يجوز الجرى وراءه فى آرائه ، لأن الرأى العام وحده هو صاحب الحكم الأخير على منافع قومه ، سواء أصاب من حكمه الحقيقة ، أو لم يصبها . غير أننا نظن أن لورد كرومر أراد أن يهون من مقام الصحافة المصرية أمام زملائه النبلاء ، حتى لا تتخذ حملتها عليه دليلا على عدم رضى المصريين عن سياسته ، وبرهاناً على أنه لم يقم بالواجب عليه من توثيق عرى الروابط بينهم وبين قومه ، فقال بأن الصحافة أوجدت رأيا عاماً كاذباً ؛ وأسف على أنه كان من أنصار حرية الصحافة فى الشرق . فماذا كان ذنب هذه الصحافة المصرية ، التى هى البقيـة الباقيـة للمصريين من ميراث الحرية الذى ورثوه عن أبويهم : آدم وحواء ؟

هل حملت الصحافة على الانكليز بشىء لم يعترف به لورد كرومر ؟ إنما

(١) يقصد بذلك الخلاف بين العرش (السلطة الشرعية) ، والانجليز (السلطة الفعلية) - الناشر

Digitized by Birzeit University Library

قالت الصحافة إن الادارة الانكليزية تقف فى سبيل العلم والارتقاء العقلى للمصريين . هـذا كل مايدور عليه انتقاد الصحافة للادارة الانكليزية . والصحافة لم تخترع هذا القول، بل اخترع هذا المذهب لورد كرومر ، إذ كان يشحن ميزانية المعارف بمئات الألوف ، ثم يبنى بها مدارس بنفقات باهظة، بعضها يقع على نفسه قبل أن يتم بناؤه ، وبعضها ينعق فيه البوم؛ ثم يصرف كثيراً مما بقى لشبان إنكليز ، وكل إليهم خنق الملكات العلمية لا إنماؤها ، بوصف مفتشين أو مدرسين ؛ وبقية هذا الباقى يصرف على التعليم ؛ والذى لا يصدق هـذا من الانكليز ، ليتكلف فتح عينيه على تصرفات الانكليز بنظارة المعارف فى عهد الاحتلال .

على أن لورد كرومر قد كفانا مؤونة الاثبات على سوء نية الانكليز بالتعليم العام فى مصر ، فانه يقول بالأمس فى مجلس الأعيان بميله إلى الوقوف فى التعليم فى الهند عند حد التعليم الأولى والصناعى والزراعى . يصرح بذلك ، ولكنه لا يجرؤ فى القرن العشرين أن يقول : ألا فاقفلوا كل معهد علمى فى الهند ، ليبقى هؤلاء الجهلاء عبيداً لنا إلى الأبد . إذا كانت تلك هى ميوله ومقدار عنايته بالعلم فى مستعمرة إنكليزية ، فلا بد أنه كان ينوى ذلك فى مصر التى يريد أن يجعلها كذلك مستعمرة لأبناء التاميز . وقد دل تصرفه فى المعارف على أن تلك الفكرة ما كانت تبارح ذهنه يوماً واحدا. فهل يستطيع أحد أن يظن بأن الرأى العام المصرى ، كان يعتنق مذهب اللورد كرومر فى الجناية على العلم ، ولكن الجرائد هى وحدها دون جميع المصريين ، هى التى ترغب فى تعليم الأمة المصرية !

كنا كلما قال قائل فى البرلمان الانكليزى من النواب أو من الأعيان كلمة تهيج خواطر المصريين أو تجرح شعورهم ، أشفقنا من جرائها على السياسة المصرية ، وحسبنا لها حسابها . ولكنا بحمد الله وبمساعدة جناب لورد كرومر ، قد أصبحنا نعرف دخيلة مقاصد الانكليز بنا ، فلم يعد يرجينا

Digitized by Birzeit University Library

فى برهم بوعودهم تصريح بوعد جديد، ولا يقنطنامن استقلالنا تهديد ووعيد، ولا يغير مجرى الرأى العام فى مصرنا شكل من أشكال سياسة الوفاق والخلاف، فان الذى كان يدعى بالأمس أنه الركن الشديد لحرية الصحافة؛ ويمنن علينا بها كلما أعجزه الامتنان علينا بشىء من الدستور، أصبح ينادى بالويل على تلك الحرية الصحافية، ويزعم أن وجهاء الشرق لا يريدونها. وليتنا ندرى لماذا يحترم اللورد رأى أولئك الوجهاء فى حرية الصحافة، ويفتخر بأنه أرغم أولئك الوجهاء على الرضوخ إلى مبادىء الحرية والمساواة؟ وأن الذى كان يدعى بالأمس أن تقصير الادارة الانكليزية فى أمر التعليم العام لا يعد تقصيراً، وإن عد تقصيراً، فانما سببه وجوب إنفاق الأموال المصرية فى تحسين حالها الاقتصادية أولا، ثم يلتفت بعد ذلك إلى التعليم: قد أصبح يقول اليوم، إن الغرب غرب والشرق شرق، وأن تعليم الأمم الشرقية (ويعنى مصر بالضرورة) تعليما عاليا، من شأنه إيجاد القلاقل السياسية.

إذا كانت نية الانكليز بنا قد وضحت على هذا الشكل الذى لم يبق بعده مطلب لمستوضح، وإذا كانت هذه هى سياسة الاستعمار الأوربى كما تشف عنه مقالة ذلك الكاتب الصريح والسياسى الفرنساوى الكبير المسيو «لانيسان» حاكم الهند الصينية السابق التى نشرناها فى صدر الجريدة يوم الاربعاء الماضى، فأحر بنا أن تستوى عندنا تصريحات الانكليز فى برلمانهم بأن الاحتلال مؤقت وتصريحاتهم بما يفسر بأن الاحتلال باق إلى ما شاء الله، وشاءت الأطماع الاستعمارية، إلا أن يكون هناك وسيلة للتمدين غير التربية والتعليم!!!

الآن يجب علينا تلقاء ذلك أن ننظر لجميع المشروعات الانكليزية بالنظر الدقيق؛ وألا تتخدر أعصابنا بسياسة الوفاق الجديد(١). فان لورد كرومر فى خطبته القصيرة المتينة! قد أماط اللثام عن مقاصد هذه السياسة الجديدة. ولا ينبئك مثل خبير.

---

(١) بين العرش والانجليز — الناشر

Digitized by Birzeit University Library

لاتضيقوا عليهن

بالعائلة يجب علينا أن نبتدىء فى إصلاح نظامنا الاجتماعى . وبتربية المرأة نبدأ فى إصلاح العائلة . فتربية المرأة ، هى كل مايجب أن نصرف إليه جميع قوانا الموجهة لاصلاح جمعيتنا المصرية ، كما قال بذلك الرجل الكبير قاسم أمين .

غير أن هذا المذهب لايزال قولا تلوكه الألسنة ، ولا يصل منه إلى القلوب شىء ، لأن الناس إنما يقلدون فيه غيرهم ، فيقولونه فى المجلس بمدة قليلة أو كثيرة ، إظهاراً لبيان اهتمامهم باصلاح شؤونهم ، ودليلا على أنهم غير متأخرين فى الفكر عن الطبقة الراقية ، لاأنهم حقيقة مقتنعون تمام الاقتناع بهذه النظرية ، دائنون بهذا المذهب ، عاملون على تحقيقه جهد المستطيع . ذلك بأن تربية المرأة لم يشرع لها فى بلدنا إلى الآن نمط خاص مجمع عليه مفصل ، يخرجها من الاجمال الذى لايشفى غليل النفس ، إلى التفصيل الصريح الذى يأتى البحث فيه أخذاً ورداً ، وادعاء ومنعا ، بالحقيقة البينة التى لاتبقى عذرا لمعتذر .

ترى كثيراً من الذين يقولون بتربية المرأة يقولون أيضاً بمنعها من التوغل فى تعلم العلوم التى يتعلمها الشبان . أليس هذا يعد ضمناً دعوة إلى عدم تربية المرأة ، التى يقرونها فى أصلها ؟

ترى كثيراً من الذين يقولون بتحرير المرأة يسوءهم مع ذلك أن يروها

الجريدة - العدد ٤١٠ - ١٣ من يولية سنة ١٩٠٨

Digitized by Birzeit University Library

تخرج إلى النزهة ، أو تعدل من زيها القديم ، فتضيف إليه أو تنقص منه ، ماجاءت به المودة الجديدة النافذة القانون على الرجال والنساء جميعاً ، بحكم حب الجميل ، وعدم الصبر على لبس واحد . يكرهون منها أن تتزين كما تشاء . والرجال جميعاً من شيوخ وشبان أول مايفكرون فيه صباح اليوم ، هو تنظيف الوجه وحلق اللحيـــة ورق الشعر أو تسريحه . إذا جرحت أنظارهم مشاهد المرأة على غير مايحبون ،ضاقت صدورهم عن احتمال تقدم المرأة فى الحرية الشخصية،ورجعوا إلى الكتاب الأقدمين،فجاءوا من أقوالهم بما يهدم حرية المرأة ، تاركين فى النقل ما يثبت لها احترام حريتها الشخصية، كما تحترم حرية الرجل ؛ آخذين من الشرع ما يثبت تفضيل الرجل عليها فى بعض المواطن ، تاركين احترامه لحريتها فى جميع تصرفاتها ، ووصية الرجال أن لا يضاروهن ولا يضيقوا عليهن . ثم يضيفون إلى ذلك إلقاء مسئولية خروج النساء عن حدود ما يشتهون من جمودهن ، تحت اسم الوقار والحشمة ، مرة على الحكومة ، وأخرى على النظام الاجتماعى ، وتفريط الكتاب فى نقد ما سموه بالتبذل وتهاون الآباء والأزواج ، فى دفع أزواجهم وبناتهم عما حسبوه التبرج المعيب . يريدون بذلك كله إقامة الحسبة للرجال على النساء ، فلا تلبس الواحدة إلا ما يريد غيرها ؛ ولا تفهم إلا ما يريد غيرها ؛ ولا تنظر للأمور إلا بعين غيرها ؛ ولا تسمع إلا باذنه ؛ ولا تأكل إلا ما يشتهى . أليس ذلك هو الاستعباد بعينـه ، المناقض لتحرير المرأة الذى يريدون ؟ أإذا تحرينا مصدر هذا الضيق فى نفوس الرجال من حرية النساء ، وقذفهم إياهن بالخروج عن الوقار ، لنجد أن مصدر ذلك فى نفوسهم ، إنما هو بقية باقية من أصول الاستبـداد القديم ، الذى جعل المرأة الشرقية تظن أن الطبيعة لم تهبها من الحرية فيما خصت به من الأعمال ، كما وهبت الرجل . وهل يتفق حبنا للاستقلال الذاتى ، وإنماء ملكة الابداع والاحترام ، مع كراهتنا للاستقلال الذاتى للمرأة ؟ أم هل يتفق إبقاء المرأة على تجردها عن الاستقلال الذاتى ، ومطالبتنـا إياها بأن تربى لنا رجالا

Digitized by Birzeit University Library

أحراراً وناشئة مستقلة . إن العبد لا يربى حراً ، وإنما يربى عبداً مثله ، وعلى صورته ؛ وإن الأم لا تعطى ولدها من الأخلاق إلا ما لديها . فاذا كان يجب عليها أن تتبع نفسها نفس الرجل فى كل شىء ، فلا شك أنها تكون بذلك رقيقة ليس لها أخلاق ثابتة ، بل أخلاقها دائراة وراء رضى الرجل ، وعدم رضاه .

أفتطلبون أن يكون بنوكم متلونى الأخلاق ، يلبسون لكل حالة خلقاً ؛ لا هم لهم فى الحياة إلا إرضاء أصحاب السلطة عليهم ؟

إن أقوم المذاهب لتربية البنت ، هو إعدادها من يوم نعومة أظفارها لأن تكون قبل كل شىء إنسانة حرة مستقلة ، ذات مبادىء ثابتة وأخلاق حسنة ؛ ثم فتاة متجملة ؛ ثم زوجاً حصاناً ، مطيعة تعرف الجمال ، وتفهم الزينة ؛ وترضى زوجها الحر ، لا زوجها المستبد . ثم أمًّا مثالا فى التقوى والطيبة والقناعة ، محبة لأولادها ، مربية إياهم على مبادئها ، معلمة إياهم كيف يحبون بلادهم ويخدمونها ، ويضحون أموالهم وأوقاتهم وحياتهم فى إسعادها . ذلك هو المقصود من تربية المرأة . ولا شك فى أن القراءة والكتابة وحفظ ما تيسر من القرآن ، على ذلك المعلم الذى كل فضله أنه مصحف حى ؛ كل أولئك لا يمكن بحال أن يخرج من الطفلة الخالية الذهن ، فتاة كاملة شأنها كما وصفنا . بل لا بد لتخريج تلك الفتاة المحبوبة ، والزوج الأمينة ، والأم القدوة ، من علوم شتى وتعاليم كثيرة ، وأوقات طويلة ، ودروس جدية ، على أساتذة مقتنعين بأهمية ما يحاولون ، فاهمين ماذا يعملون .

أول درس يجب أن يلقى على الطفلة المصرية مع الألف باء ، هو كونها مخلوقا حراً ، وهبه الله حريته ، وما وهب الله لا يسترده إلا الله . ثم يتدرج تعليمها من ذلك إلى كل ما يحيط بها من الأعمال . فالأغراض الانسانية والمعاملات العائلية والاجتماعية ، ويلفت نظرها دائماً إلى مضار العبودية

Digitized by Birzeit University Library

والتسليم فى الذات ومنافع الحرية والاستقلال ، بما يقع من الأمثلة اليومية حوالى الوسط الذى يحيط بها . تعلم أن تكون امرأة تحسن تمثالها ، وتفيض من روحها ، فيض الطيبة والسكينة على من حواليها . تعلم كيف ترطل شعرها ، وما ذا يقصد بالزينة . يعدل ذوقها ، ويصفى بمصفاة الأمثلة الحية ، والشعر والموسيقى والرسم . تعلم قواعد الاقتصاد والتدبير المنزلى . تعلم حسن القياس بما يتيسر من التاريخ خصوصاً تاريخ الأدب . تعلم الأشغال اليدوية . تعلم تعلم .. ما تستطيع لتعلمه سبيلا ، ولا يوقف فى تعليمها عن حد من المعلومات . فاذا فرغت من الدراسة ، فألقيت فى عمل الحياة ، كانت هى الأم المثال التى ننشدها لأبنائنا وورثتنا فى هذا العالم .

إذا كانت الحرية هى قاعدة التعليم ، فليس لنا أن نقلق الكتاب الاوربيين فى الانتقاد المر على حرية النساء ، وزينتهن . فان الأوربيات قد شبعن حرية شخصية ، وهن يطالبن الآن بالحرية العامة ، ومزاحمة الرجال فى ساحات الانتخاب ، ومراكز التصرف فى شؤون سياسة العالم . ولكن نساءنا المصريات ظمأى إلى الحرية الشخصية ، وإنهن لأحوج إلى أن يشجعن فى الظهور بمظاهر الاستقلال الذاتى ، حتى تمحى من نفوسهن آثار الاستبداد والاستعباد ، بل يسقن إلى ذلك سوقاً بالنصائح والأقلام ، لا أن ينحى عليهن باللائمة فى حريتهن ، فتستجم أنفسهن ، وتنقبض ملكاتهن ، ويحجمن عن الأخذ بأسباب الحرية الشخصية ، التى وهبها الله لهن ، كما وهبها لكل مخلوق بلا استثناء . ولئن زادت إحداهن عن الأخذ بالمعروف من الزينة ، والخروج عن القصد فى السير ، فذلك موكول إلى أبيها وزوجها وأولياء أمرها ، الذين لهم عليها النصيحة والارشاد والتأديب والتعليم .

دعوا النساء يشممن هواء الحرية التى فقدنها بتقاليد الاستبداد الأولى ؛ وعلموهن ، إن بالدرس ، وإن بالعمل ، أن لا سبيل للرجال عليهن ، إلا ما فرضه الشرع وما كان عليه نساء العرب فى صدر الاسلام ؛ فلا تضاروهن ، ولا تضيقوا عليهن .

Digitized by Birzeit University Library

شىء آخر

مادام الكتاب اسماعيل صبرى باشا والمويلحى وشوقى وحافظ والمطران، وغيرهم من الذين رزقوا سعة الخيال؛ الذين لديهم جميع المعدات اللازمة للقصصيين؛ مادام هؤلاء لايريدون أن يضعوا من القصص ماينقى أخلاق الأمة من أدران الطبائع الاستبدادية فى قالب غرامى، يستهوى النفوس لقراءتها، وماداموا يعتذرون فى كل وقت بعدم الوقت، مكتفين بما يخرجونه لعالم الأدب من الحوليات التى قل من يفهمها من الناس الذين كان من حقهم أن يستفيدوا منها حكمة بالغة، أو زاجرا للطبع القاسى، وصارفا عن الرذيلة للأخذ بالفضيلة، ماداموا كذلك، يكتفون فى مجالسهم بنقد أساليب الكتابة ومعانى الشعر ومبانيه، من غير أن يقبلوا على عمل مايقدرون عليه لمصلحة أمتهم وخدمة الانسانية، فليس من الغريب أن تتصدى جرائدنا اليومية فى عطلة الصيف إلى الابحاث الأخلاقية، وإن كانت كتابتها فى هذا الباب لاتغنى غناء القصص المصرية، التى لا أظن كتابنا بعد الدعوات المتكررة الشفهية والتحريرية، يقيمون على القعود عن تأليفها.

ماعلهش: (ماعليه شىء)

إذا كان الاستقلال منا على مراحل كثيرة من طريق ذى عقبات ووعورة، فان مطية الأمة إلى ذلك الاستقلال المنشود، هى أخلاقها، وكلما

الجريدة — العدد ٤٢٨ — ٣ من أغسطس سنة ١٩٠٨

Digitized by Birzeit University Library

كان علمنا بمقدار تلك الصعوبة أوفى ، كان حتما علينا أن نبلو مطيتنا ، للتأكد من أنها قويمة سليمة ، لا مريضة ولا عاثرة .

علينا أن نمتحن أخلاق أمتنا فنعالج مريضها ، وننمى ناشئها ، ونقوى صحيحها . فان الاستبد د ، لارحمه الله ، لم يترك فى نفوسنا فضيلة إلا دس فيها رذيلة من رذائله ، وشوهها بنتيجة من نتائج طبائعه . مثال ذلك مبدأ العفو عن الخطيئة ، أو مبدأ التسامح : ذلك المبدأ القويم والفضيلة القصوى التى هى نهاية مايهدى إليه العلم الكامل بطبائع العمران ، ومايجب أن ترمى إليه التربية العالية لبنى الانسان . ذلك المبدأ قد تشوه عندنا تشوها لانظير له ، فان الاستبداد قد سلط عليه رذيلة يدل عليها لفظ (ماعلهش)

يقصر فى أداء واجباته منا ذلك الرجل الكبير الذى لرفعة مركزه فينا ، يكون تقصيره فى أداء الواجب خسارة كبرى على جمعيتنا المصرية . فاذا لامه أحد فى القعود عن أداء الواجب ، والقيام للوطن بحقه منه : قال (معلهش)

يجنى كبير منا على الأخلاق العامة بأن يسعى عند سماسرة الرتب والنياشين الذين يخدعون السلطة ، فيحصل بذلك السعى غير الشريف على لقب شريف ، ويصير هو قدوة سيئة لغيره من أولئك الذين تسحرهم المراتب ، فينزلون عن كرامتهم إلى أخس الذرائع ، اقتداء بذلك الكبير الذى لولا استهانته بالكرامة والشرف ، لما هانت تلك النفوس ، فاذا آلمته فى ذلك قال: (معلهش)

يقابل بعضنا بالعناق والترحيب أحد معارفه الذى حبس فى جناية شائنة بالشرف ، ويحضر معه فى تلك الوليمة التى أقامها ذلك السجين الطليق ، بعد أن كان منه ما كان من الاستهانة بالقانون الواجب الاحترام ، والتعدى على نفس غيره ، أو على عرضه أو ماله . يحضر هذا وغيره من وجوه البلد

Digitized by Birzeit University Library

تلك الوليمة مهنئين الجانى بالفكاك من الحبس ، معترضين جميعاً على القانون فى أصل وضعه وفى تنفيذه ، شاتمين النيابة العمومية التى أقامت الدعوى عليه ، لاعنين المحكمة التى حكمت عليه ، والشهود والمحامين . فاذا قلت لأحد هؤلاء المهنئين إن القانون هو إرادة الأمة ، ومن انتهك حرماته فانما ينتهك حرمات الأمة ، ومن كان حاله كذلك ، كان من الشرف والوطنية والأسوة الحسنة ، أن يبتعد عنه ، ويتبرأ من مصاحبته ، ولا يقبل فى مجالس الاشراف ، حتى تظهر توبته ، فضلا عن أنه لايجوز للاشراف أن يتطوعوا لمقابلته من على المحطة بالطبل والمزامير ، ويحضرون ذلك الفرح الذى أقامه ذلك الجانى على الأمة بانتهاك حرماتها بمناسبة انتهاء عقوبته ، أو الافراج عنه قبل انتهائها . إذا قلت له ذلك قال (معلهش الطيب أحسن)

تقبل على الموظف الكبير منا تلومه على أنه لايعمل فى وظيفته إلا لدرء المسئولية عن شخصه ، فاذا لم يكن هناك مسئولية ، رجع آخر النهار العملى من ديوانه كما ذهب إليه ، لايفكر فى طريقة لتبسيط الأعمال الحكومية ، ولا يسعى فى جلب نفع لقومه ، ولا يتذرع لابطال مشروع يراه ضاراً بمواطنيه ، فاذا عجز آخر الجدل عن إقامة الحجة التى تبرر فى عينيك طريقته السوآى ، وجموده الذى لاعذر له ، خصوصاً إذا قلت له : وهل يليق بالموظف المصرى أن يتهاون بما بقى فى أيدينا من الوظائف ؟ قال لك : ماذا أصنع ؟ أراد الانكليز ذلك (ماعلهش)

ليت كل معتذر « بماعلهش » يلفظ بهذا الاعتذار السخيف من فمه فقط ، لمجرد الاعتذار اللفظى والفرار من المناقشة الجارحة ، ولكن قلبه يغلى أسفاً على تفريطه فى القيام بالواجب . لو كان الأمر كذلك لهان . ولكن هذا اللفظ لشيوعه ، قد أصبح لمعناه سلطان على النفوس ، فتعتبره عذراً صحيحاً لها ، وتسكن إليه من عذاب وخز السريرة ، حتى أن هذا المعنى المفهوم من (ماعلهش) صار كالماء البارد يصب على حرارة الأسف التى تلتهب فى

Digitized by Birzeit University Library

القلب ، فيطفئها ويجعلها برداً وسلاما ، أو كأن هـــذا المعنى من العقاقير المخدرة ، تهدأ به الأعصاب المتوترة لحب العمل ، الهائجة لحمل الانسان على القيام بما خلق لأجله ، وهو البلوغ إلى درجات الكمال الممكن .

إن معنى التسامح ، والضعف الذى يدل عليه استعمال (ماعلهش) فى المناسبات المختلفة ، يظهر بمظاهر شتى فى الحياة الفردية والاجتماعية لنا . فان ذلك التسامح الناشيء عن ضعف النفس ، هو الذى يقعد بالمتخرج من المدرسة عن الاستمرار على الدرس والتعلم ، ويجعله يكتفى بتلك المعلومات الأولية التى تلقاها فى مدة دراسته . وإن ذلك التسامح المفهوم من لفظ (ماعلهش) هو الذى يجعل بعض أفرادنا يرى الخراب والفساد يدب فى جسم عائلته ، أو فى قلب نفسه ، ويتخاذل عن محاربته . وهو الذى يجعل الرجل يرى نفسه قد أهين ، فلا يغسل الاهانة التى لحقته بيده وبلسانه ، كل ذلك غراماً «بماعلهش» . ذلك الاحساس الذي يجعل الحلم مختلطاً بالجبن ، فلا تعرف إن كان هذا التسامح لكثرة وقوعه صادراً عن حلم وعفو فى نفس القادر ، أو عن جبن وضعف فى نفس العاجز . فما كفى هذا الاحساس السيء أن يجنى على الناس . بل هو يجنى أيضاً على معانى الفضيلة ، يبعثرها فى ثنايا الرذيلة ، فلا تستطيع تخلصا .

يظهر ذلك المعنى أيضاً فى الحياة الاجتماعية ، فاليه تنسب أكثر أسباب الفشل التى تلحق الشركات فى بلادنا . فان أعضاء مجلس الادارة لا يحضرون المجلس ، ولا يحاسبون حساباً دقيقاً ؛ وكل يتسامح فى عدم الحضور مرة فمرة ، حتى يصير له عادة ، فلا يحضر المجلس إلا مكرها . وهذا سر تأخر الشركات عندنا ، وعلة قصر عمرها فى الغالب

إن أغلب شهود النفى الكاذبين الذين يشهدون للمتهمين فى الجنايات بما ليس لهم به علم ، تراهم مدفوعين إلى هذه الشهادة بعامل التسامح والضعف ، فقد ترى الواحد منهم يتعفف عن الكذب لمصلحته الذاتية ، ولكنه يأتيه

Digitized by Birzeit University Library

لمصلحة غيره حياء كما يقول ، والحقيقة أن فضيلة الحياء لا تدعو صاحبها إلى الكذب ، ولكن الدافع له ضعفه أمام نفسه ، وتسامحه الذى يطلب من ورائه أن يشتهر زوراً بين من حواليه بالطيبة والمروءة .

ذلك الضعف أو التسامح هو الذى يقعد بالرجل منا عن أن ينادى بملء فيه بما يجده الصالح لقومه ، سواء سرهم ذلك أو ساءهم ، وسواء أرضى الحكومة أو أغضبها ، ويعد هذا العمل خروجا عن حدود الحياء ، ودرجاً من عش الاستكانة المحبوبة . يزين له ذلك الاحساس أن يرى قومه يسيرون إلى الخراب ، فلا يقف فى تيار هـــذا السير ، لا خوفا منه ، ولكن عملا بقاعدة (ما علهش) .

إن مصدر العفو والتسامح فى النفس ، هو عدم اعتقاد الكمال فى بنى الانسان ؟ وإن مسئولية المخطىء ليست كلها من عمله بل هى مركبة من أمور شتى ، كثير منها راجع إلى أصل تركيبه ، وما ورثه عن آبائه الأولين ، وما تأصل فيه من العادات والأخلاق القديمة . لذلك كان من العدل أن يؤخذ فى حقه بالعفو والتسامح ، وأن يلاحظ فى التشريع والتربية ، اعتبار الناس كما هم عليه فى الواقع ، وكما يجب أن يكونوا عليه .

شتان ما بين هذا المبدأ الشريف وبين ذلك الضعف فى الاخلاق ، الذى جعلنا نتسامح فى كل شىء ، ونعفو عن أنفسنا بدكريتو (ماعلهش) كلما وقعت فى تقصير يجب التكفير عنه ، والبراءة منه ، ومحاولة التوبة عن الوقوع فى مثله .

ألا إنه لا يتم لنا أن نتخلص من الحكومة الشخصية إلا إذا تخلصنا من ذلك الضعف الذى مقياسه فى نفوسنا مبدأ حب إرضاء الغير ، الدال عليه سوء استعمال معنى «نعم» أو «أيوه» فى كل موطن من المواطن ، ومبدأ التسامح البارد الخسيس الذى يفسره فى الظاهر معنى (ما علهش) ، وغير ذلك من المعانى السيئة التى جاد علينا بها الاستبداد الطويل . أما والله إذا كنا عن الخلاص من استبداد نفوسنا عاجزين ، فلنحن عن التخلص من استبداد غيرنا بأمرنا أعجز .

مكتبة جامعة بيرزيت الرئيسية
Digitized by Birzeit University Library

روضوا أنفسكم على الاستقلال

لبعض الهنود تمثال يعمله بيده ، فاذا هب من نومه فى الصباح لا ينطلق لعمله إلا إذا قدم لذلك الأله الذى صنعه بيده آيات الحمد والشكر . وهذه هى صلاة الصبح عندهم .

أظن أننا لا نملك أنفسنا من الابتسام لهذا القصص ؛ ولكننا إذا رجعنا إلى أنفسنا ، وجدنا أننا نعمل كل يوم أعمالا مضحكة ، تكاد تكون فى أصلها كعمل ذلك الهندى ، وإن كانت صورتها أقل جفاء .

الحكومة وكيلة عنا . نحن نصبناها للقيام بأعمالنا . نحن الذين نرزقها بأموالنا ، وندفع عنها بأولادنا . ولكننا مع ذلك نقف من أفرادها موقفاً يقرب من موقف الهندى أمام تمثاله . وإن إكبارنا للأفراد العالين منها ، كالنظار ومن دونهم ، يتطرق دائماً لاكبار أدنى المستخدمين حتى عسكرى النقطة ، فانه فى نقطته لابساً كسوته الرسمية تراه محفوفاً دائماً برجاء من حواليه ، رجاء يكون فى مواطن كثيرة بالغاً حد العبادة ، لأن العابد لا يعمل لمعبوده إلا خشوعاً ورجاء . فهل يمكن بعد هذا أن نضحك من الذى يقدس ما صنعت يداه ؟

إن هذا الاحساس الذى يدفعنا إلى المبالغة فى تمييز أفراد الحكومة فى الاجلال على أفراد الأمة ، هو الذى يبعدنا دائماً عن نيل الاستقلال . بل هو الطابع الذى يختم به فى عنق الفرد المحكوم بالحكومة الشخصية ، علامة على أنه لا يزال يحس بعبادة البسالة ؛ عبادة القوة ؛ التى هى قوام الحكومة الشخصية .

الجريدة العدد ٤٥٤ — ٢ من سبتمبر سنة ١٩٠٨

Digitized by Birzeit University Library

يمكننا أن نقول إن هذا الاحساس قد تقلص ظله ووجدت فى مصر أمثلة تدل على أن الأمة تتخلص منه ؛ ولكنه لا يمكننا أن ننكر مع ذلك أن طلاب الرتب والنياشين من وجهائنا ؛ وطلاب الارتزاق فى خدمة الحكومة من شباننا ؛ والمغالين فى طمع الارتقاء من موظفينا — لا يزالون يقفون من رجال الحكومة ذلك الموقف المضحك المعيب ، موقف الهندى من صنمه .

على أن هذا لا يمنع من أن لدينا رجالا فى الأمة لا يفرقون بين زيد وهو حاكم ، وزيدهو محكوم ، ويأخذون من الحكومة حقهم ويعطونها حقها، ويعتقدون أن الحكومة فى مجموعها وأفرادها ، ليست إلا وكيلا نصبته الأمة ، وتعزله الأمة ، لأن الأمة هى الكل فى الكل ، ومقامها فوق كل مقام .

ولكن هل يليق بذلك البعض من أعياننا وموظفينا - ونحن على باب الدستور - أن يكون هو الحجة الحية علينا للذين يرموننا كل يوم بضعة الأخلاق ، وعبادة السلطة ، والغفلة عن فهم معنى الحكومة النيابية ؟

الموظفون فى كل بلد مظهر الطبقة الراقية فى العقل والعلم . فاذا كان الموظف المصرى يتوكل فى مستقبله على مجرد الخضوع للرئيس ، ويعتمد فى تنفيذ عمله على إذلال أفراد الأمة الذين تسوقهم الصدفة إليه فى مكتبه ، إذا كان هذا الموظف يلذ له أن يكون عابداً لمن فوقه ، معبوداً لأرباب الأعمال عنده ، فلا شك أن وجوده عار على مصر والمصريين ، بل على الانسانية بأسرها . إذا كان بقاء ذلك الموظف فى الخدمة سيكون حجة على قومه بالضعة والمهانة ، فأحر به أن يرى سف التراب أكرم له من ذلك البقاء الدنس المضر .

الأعيان هم رؤساء الأمة الطبيعيون ، هم رؤساء العائلات ، والأمة لا تتكون من الأفراد ، بل تتكون من العائلات . فاذا كان أحدهم يرى أن

Digitized by Birzeit University Library

الرتبة لا تأتيه إلا من عبادة غير الله ، والخضوع لغير القانون ، فان رتبته إنما تكون مميزة له عن أشراف الناس ، لا عن سوقتهم . بل تكون شارة له على أن يدوس بقدميه شرف أمة وشرف الانسانية . ومثل ذلك العين حقه أن يتوارى من المصريين الذين يعوق بعمله سيرهم إلى التقدم ، ويعين خصوم الأمة عليها ، وما هذا على نفس الحر بقليل .

نسوق هذا القول لا لمثل جديد وقع بين ظهرانينا — لا قدر الله — ولكن لبيان أنه يجب علينا أن نروض أنفسنا من اليوم على الأخلاق الدستورية ، فانها هى الجائية لنا لا محالة بالدستور فى وقت قريب .

ع

Digitized by Birzeit University Library

الطلبة والسياسة

لماذا لا يشتغلون هم أيضا بسياسة الأمة ؟ أليسوا من أبنائها لهم خيرها ، وعليهم شرها ؟ أى ضرر فى أنهم يتعلمونها خارج المدرسة كبقية الشؤون التى أغفل البروجرام فرضها عليهم !

السياسة فى يد الطلبة سلاح طائش يجرحون به أنفسهم ومصالح بلادهم ، لذلك حجر عليهم أن يشتغلوا بها . بذلك يقول أنصار المدرسة العتيقة ؛ أنصار الكتاب ، أنصار البروجرام ، أنصار التقاليد الاستبدادية ، تقاليد القرون الوسطى التى عفا رسمها من جميع النظامات الحديثة ، إلا نظام التعليم فى أكثر البلاد المتمدنة .

كنت أظن قبل الآن ، مجاراة لأنصار هذا المذهب ، أن المدرسة تعلم قواعد العلم ، أى تزين عقل الناشىء بالمبادىء العلمية التى قر العلماء على صحتها بالقضايا المنطقية ، أو التجارب الحسية . ترصف بعضها فوق بعض حتى يشحن بها الذهن شحناً كاملا ، فاذا فرغ التلميذ من سنى الدراسة ، وألقى به فى ميدان الحياة العلمية . استخرج تلك المبادىء ليحاول تطبيقها على الحوادث التى تحيط به ، ويظل هكذا يتمرن ويعتاد تطبيق العلم على العمل حتى يصل فى صفوف الرجال إلى المحل الذى يؤهله إليه استعداده الفطرى ، ومبلغه من العلم والمرانة .

كنت أرى هذا الرأى ، وأشعر دائما بأنه رأى تحكم ، لا أصل له من

الجريدة العدد — ٤٦٥ — ١٥ من سبتمبر سنة ١٩٠٨

Digitized by Birzeit University Library

الطبيعة، بل كله صناعة، هدى إليها تسلط القوى وتحكمه على الضعيف، فان الطبيعة فى تعاليمها البديهية التى تعلمنا إياها من غير واسطة المدرسة، لاتجعل تعاليمها خاضعة لبروجرام، بل هى تقدم الى أنظارنا المخلوقات القائمة فى الدائرة التى نحن فيها. تقدم الى انظارنا تلك المخلوقات دفعة واحدة، بكلياتها وجزئياتها، والتأثيرات التى تقع من بعضها على بعض، ونتائج تلك التأثيرات. وتتركنا أحراراً، وكل منا يشغل نظره بما يروقه من المشاهد، ويفهم منها مايريد أن يفهم. فلو أن تعاليم الطبيعة كانت هى أيضاً خاضعة لبروجرام كبروجرام المدرسة، لجعلت بعضنا لايشعر بوطء أقدام الثور الذى يمر بجانبه إذا كانت هذه الحادثة لم تأت بعد فى بروجرام السمع، أو إذا كان بروجرام اليوم محدوداً بتمرين العين لا الاذن. والوقع أن الأمر على عكس ذلك، فان حواسنا قد خلقها الله مستعدة لأن تشغل كلها دفعة واحدة بما حواليها من الأشياء، فمن أين جاء هذا البروجرام الذى يحجر على طالب الهندسة أن يشعر بأن حواليه حركة اسمها السياسة، وجلبة اسمها الاقتصاد؛ وأن يشعر بأنه، بوصف كونه رجلا مسئولا، يجب عليه أن يعلم بما حواليه من حوادث أمته، أو حوادث العالم.

غير أنى مع هذه الشكوك التى كنت أراها فى هذا النظام المدرسى، وما كان يقف أمامى من فكرة أن بعض العلوم قد تكون آلة للبعض الآخر، كما كان المنطق آلة للفلسفة النظرية أو معياراً للعلوم ـ كنت أخشى أن أكون واهما فى قلة إيمانى بطريقة الكتاب والبروجرام التى قدمت بالزمان، فأصبحت مقدسة فى نظر المعلمين والمتعلمين. لذلك ما كنت أبيح بهذه الشكوك إلا على طريق التلميح لا التصريح خشية من أن أكون مخطئا، وقد يسبب خطأ المرء خطأ غيره من نظرائه، ويفشو بذلك الخطأ، وتكون مسئوليته معلقة بعنق أول مخطىء.

بقينا كذلك ننظر إلى طريقة التعليم التى تكون عقولنا على أنماطها، مع

Digitized by Birzeit University Library

مانجد فيها من المخالفة لطريقة سقراط وأبى العلاء المعرى والسيد جمال الدين الافغاني : ذلك المعلم المنفرد الذى كان يمضى درسه فى جمل اقتضابية ، يشرح بها حادثة يومية جرت فى القهوة ، أو فى دواوين الحكومة ، ثم يحكم على تلك الحادثة حكما أخلاقياً أو اجتماعياً أو سياسياً . لذلك ترى تلاميذه هم نوابغ مصر وكتابها ومقدمة المفكرين فيها . على أنهم لم يدع ولا واحد منهم أنه كان أذكى الطلبة المصريين، ولكنهم تعلموا على غير طريقة البروجرام والكتاب، ودرسوا فى قاعة الدرس ،ما كان يجرى حواليهم من الحوادث، حين كان غيرهم يصرفون جميع الوقت فيما قاله علماء النحو فى القرون الأولى عن أعراب المثنى والأسماء الخمسة ، والخلاف فى إعرابهما. بقينا كذلك ندرس فى مدرسة الحقوق القانون الرومانى، وتاريخ الدولة العلية، دون تاريخ مصر الحديثة والثورة العرابية ، والاحتلال الانكليزى ، وتصرف الانكليز فى إدارة مصر ، وخرجنا من المدرسة وتكاد عقولنا لا تعرف من الاشياء المصرية إلا ما حواه البروجرام المقدس . حتى وصلت إلينا بعد ذلك بكثير آراء مربى الانسانية العصرية « لومبروز » الطليانى « ونوردو » الألماني و « سبنسر » الانكليزى و « جويو » الفرنسوى ، وغيرهم من الذين أنحوا على طرق التعليم المدرسية ، وقالوا بوجوب إعداد الناشىء إلى أن يخرج من المدرسة رجلا ، له من التجربة ماله من العلم . وذلك لا يكون إلا بجعل بروجرام المدرسة مؤلفا من المعلومات الضرورية وشرح الحوادث اليومية التى تهم الانسان بصفته إنساناً ، وتهم الرجل بصفته وطنياً ، وتهم رب العائلة بصفته عاملا اقتصادياً، أى أن تدرس مع العلوم الضرورية ، الحوادث السياسية والاقتصادية والأخلاقية والاجتماعية .

أخذت المدارس فى أوربا وأميركا يحقق بعضها فكرة أولئك المربين ، وسنسمع قريباً أن قراءة الجرائد السياسية أصبحت مباحة فى بعض (الليسى) الفرنساوية التى كانت لا تبيحها . ونرجو بحق أن حكومتنا تفكر فى تقليد

Digitized by Birzeit University Library

تلك المدارس الحرة ، التى تخرج عقولا حرة ، لا عقولا مقيدة بقيود البروجرام الضيق ، والأستاذ الموضوع تحت المراقبة . فنرى تلاميذ المهندسخانة يعنون بدراسة مشروعات الخزان المصرى ، ومشروعات تحويل الحياض ، إلى حوش صيفية ، كما نرى طلبة الحقوق يدرسون حالة مصر السياسية درساً حقيقياً ، حتى يقوموا اعوجاج المذاهب السياسية فى مصر بقوة العلم .

إذا كان من آمالنا أن تعلم سياسة البلد فى المدارس ، فكيف تنكر على الطلبة الاشتغال بها ، لتكميل عقولهم وسد نقص بروجرامهم ؟ لسنا مع هذه المقدمات الطويلة نعدم الذين يقولون إن حال البلد لا يسمح باشتغال شبانها بالسياسة ، لأن ذلك قد يزيد فى حالها ارتباكا . ولكن من حق كل امرىء أن يرى ما يقع تحت نظره ويسمع ما يجىء إلى صيوان أذنه . فاذا كان ليس من حق الطلبة أن يشتغلوا بالسياسة ، فهل للقائلين هذا القول أن يكموا أفواه الخاطبين فيها ، ويقصفوا أقلام الكاتبين فى الجرائد ؟ على أنى أعرف من الطلبة من هم أصح ذوقا فى طعوم الحوادث ، وأرجح عقلا بل أغزر علماً من كتاب الجرائد المشتغلين بالسياسة فعلا .

على أن السياسة ، أى تدبير الأمة والفكرة فى هذا التدبير ، لا يدخل تحت قانون « تقسيم العمل » لأن تدبير الأمة عمل عام ، والفكرة فيه واجبة على كل فرد من أفراد الأمة ، بوصف كونه جزءا لا ينقسم من ذلك المجموع . وإذا كان الاشتغال بالسياسة يلهى الطلبة عن علومهم ، فما جزاء اللاهى عن عمله إلا الخيبة يوم النتيجة ، كما أن الصانع الذى تلهيه السياسة عن صناعته ، جزاؤه ضياع أجرته عليه .

بقى أن للمعارف قانوناً يجب أن يطيعه كل تلميذ . وعلى هذا القانون ، وذلك البروجرام ، نحن نوجه انتقادنا ، وإن كنا ندعو إلى طاعة القانون ، حتى مع ظهور فساده وفى حين الطعن عليه .

Digitized by Birzeit University Library

فى الاخلاق

الرياء

أرأيت الذى يقول رأيه فى مسألة بعينها ، ولا يلبث أن يغيره من غير سبب الا شغفه بارضاء عظيم ينتظر نفعه ، ويخشى غضبه ، أو اتقاء أن يعلن عنه أنه غير محب لوطنه، لمجرد حريته فى القول ، أو تحاشيا من أن يوصف عند العامة بقلة الذوق ، ومجانبة قواعد اللطف البلدية . وبالجملة نعنى ذلك الذى يتخذ رأيه قميصا وقتيا يلبسه كلما كان متفقا مع « المودة » ويخلعه متى جاءت « مودة » جديدة ، يكره معها لبس ذلك القميص القديم .

لست أنتزع من الخيال صورة هذا الذى أصفه ، كما يصنع الشعراء ، ولكنى ناقل من الطبيعة صورة قد شاعت فى الناس شيوعا لا أظن السكوت على محاربتها إلا ضربا من السكوت عن الحق ، والساكت عن الحق شيطان أخرس

نرى أحدهم نصيرا لتحرير المرأة عند أشياع قاسم أمين . نصيراً لحبس المرأة فى بيتها من يوم دخولها إلى يوم موتها ، إذا ضمه مجلس ذواتنا الاقدمين، أو اجتمع برفقة من الذين ينتسبون الى علوم الدين . يقول فى حضرة الشبان المتعلمين ما لتعليم المرأة وعفافها ، وأى علاقة بين سفورها وصونها ، وكيف يحرمون ما حلل الله للنساء من الزينة ، وما التبرج الا معنى إضافى يحدده العرف ، فيختلف باختلاف الزمان والمكان، وطبيعة التمدن ودرجته. يقول أمامك ذلك بحدة مدهشة ، لا تظن معها إلا أنه أكثر غيرة على المرأة من قاسم ، وأحرص على نشر مذهبه من فتاة تعلمت فى نيويورك ، أو فى كوبنهاج . فاذا ضمه مجلس الشيوخ المحافظين ، قال أعوذ بالله من هذه الفتنة القائمة ، ماسمعنا حين كان الناس ناسا ، أن المرأة يحل لها اللهو بآلات الطرب

الجريدة - العدد ٥٠٢ - فى أول من نوفمبر سنة ١٩٠٨

Digitized by Birzeit University Library

وهو محرم شرعا ؛ أو أن تبرز لغير محرم وهو محرم شرعا ؛ أو أن تتعلم ما يزيد قدره على شعارها ، وهو المغزل ، أو أن تقرأ علوم الأفرنج وأقاصيص الغرام ، كما يقول طبقة الشباب الحمقى الذين لا يعنيهم أمر الدين ، ولا يفكرون حقيقة فى أمر الوطن ؛ بل كل رغباتهم أن يلاقوا من فتياتنا ما يلاقون من الفتيات الاوربيات ، حتى ينتهى الأمر - والعياذ بالله - الى شهودهن الملاعب والمراقص !!!

مثل هذا المرائى بكل معنى الكلمة ؛ يكون فى الحاشية قائلا بوجوب فناء الامة فى شخص صاحب السلطة . وعند المستشارين واصفا لكتاب الجرائد بالمجانين . فاذا قابل واحدا من أعضاء حزب الامة ، قال بشخصية الأمة ، وأنها لا تقوم لها قائمة الا إذا أقنعت السلطتين بوجوب الاعتراف بشخصيتها وبأنها الكل فى الكل

مثل هذا مع الاباحيين اباحى ، ومع الورعين المتحرجين هو ابن عباس بعينه . وما دينه إلا العمل بعموم المثل السائر على إطلاقه « شرط المرافقة الموافقة » ؛ موافقة تعيسة ، ليست مسببة عن احساس المحبة ، ولا شعور الجاذبية والانعطاف ؛ ولا هى مسببة عن الاقتناع برأى الغير ؛ ولكنها مسببة عن استهانة المرء بنفسه ، والنزول عن شخصيته ، لينال من وراء ذلك كرامة . وهيهات أن يكون لمن يهين نفسه كرامة على الناس .

هذه الرذيلة : رذيلة الرياء يستخدمها بعض الناس وسيلة للنجاح فى الحياة . وهى حقيقة وسيلة نافعة فى البلاد الاستبدادية ؛ التى يتوقف نجاح الفرد فيها مهما كان كفؤا ، على رضا السلطان وأعوانه ؛ وأنه لاشىء يرضى السلطان الا العبادة . وما الرياء الا ضرب من ضروب تلك العبادة . فالذى يرضى بأن يبيع نفسه عبدا ليشترى بثمنها قوتا يعيش به ؛ استبعد عليه جدا أن يكون حافظا للصورة التى خلقه الله عليها : صورة الانانية والشخصية ؛ صورة الحرية . وما مثل هذا الناجح بريائه إلا كمثل الذى ينجح فى الحصول

Digitized by Birzeit University Library

على الثروة من طريق السرقة : فبئست الوسيلة ؛ وبئست الغاية .

أما فى البلاد التى انتشرت فيها الحرية الشخصية ، وصار كل فرد آمنا على فوائد عمله من تعدى السلطان وأعوانه ؛ وحصل كل امرىء على النتيجة المناسبة لكفاءته ؛ فى مثل هذه البلاد يكون الرياء وسيلة عقيمة فى الغالب ، بل يكون ذلك الرياء مسبة للحرية الشخصية . لأن بنى آدم لم يجنحوا الى هذه الرذيلة الا ليدفعوا عن انفسهم بطش القاهر وتعديه عليهم ؛ فاذا أمنوا ذلك البطش والتعدى ؛ كان المراءون منهم ، كمن يأتى الرياء حباً فى الرياء ؛ لاوسيلة للنجاة .

قال أرسطو « خلق بعض الناس ليكون حاكما ، وخلق بعض النـاس ليكون محكوما » ولكنا نظنه أخذ هذه القاعدة من ملاحظتـه الشخصية لأخلاق قومه وأخلاق الاسيويين جيرانهم . وهذه الملاحظة ، لا تكفى وحدها لتقريره قاعدة عامة ، مثل هذه القاعدة . لذلك نقول إن الله فطر الناس على فطرة واحدة ، أو متقاربة الفروق جداً ، بحيث لا يترتب على التفاضل بينهما أحكام متخالفة ؛ وأنهم جميعا قد فطروا على الحرية الشخصية والأنانية . فمن أين لهم اذن رذيلة الرياء ؟

الرياء مرض من أمراض النفس ، أى ضعف فيها يجعلها لا تثق بأن لها وجوداً مستقلا . يهولها أمر مستقبلها الدنيوى . يوحشها ألا تعتمد فى حياتها على نفوس كثيرة ، تتخذها أرباباً لها وحماة لبقائهـا . يخيفها أن يبيت زيد غضبان منها ، أو عمرو حاسداً لهـا . ذلك المرض إذا لم يعالج بالتربية ، تتضاعف أعراضه شيئاً فشيئـاً ، حتى تموت فى النفس خاصة الذاتية : خاصة الشخصية ؛ خاصة أن يقول الانسان « أنا » تلك الخاصة التى هى ضرورية لوجود الفرد ؛ ضرورية لسلامته ؛ لازمة لأن تجعل منه ذاتاً تامة ، صالحة للدخول فى تكوين أمة سليمة قوية ، حقيقة بالحرية والاستقلال

متى انعدمت هذه الخاصة ، خاصة الشخصية فى رجل ، وصارت ذاته

Digitized by Birzeit University Library

تتراوح بين الذوات الأخرى ، يسلم فى رأيه من غير اقتناع لارضائها ؛ ويسلم فى ماله لارضائها ؛ ويسلم فى مصلحته لارضائها ؛ ويتهاون فى مصلحة قومه ووطنه لارضائها ؛ فذلك إنسان قد مات ، وانقطع وجوده ؛ وأصبح من الحمق أن يعد على أمته فرداً ، يوم الاحصاء . بل هو أضر على الأمة من الميت ؛ لأن الميت تموت معه أمراضه ، فلا تصل عدواها إلى غيره ؛ ولكن بقاء هذا المريض ينقل داءه إلى أبنائه وأزواجه وخدمه ، ومن لهم به اتصال من النفوس البريئة التى وضعها سوء الطالع تحت عنايته أو رعايته .

قالوا فى المثل السائر عن ألسن العوام « أعوذ بالله من قولة (أنا) » هذا المثل باعتباره مقيداً بقيود عدم الخروج فى الشخصية إلى حد إطراء النفس ، والتبجح بالافتخار بأعمالها ؛ إلى هذا الحد هو مثل حسن ، منطبق على فضيلة التواضع ، وفضيلة الرفعة جميعاً . أما إذا خرج معنى هذا المثل عن ذلك الحد ، إلى درجة أن الانسان يجب أن يميت فى نفسه الشخصية ، فى موقف غير موقف الخشوع إلى الله الأكبر ، كان هذا المثل المنتشر مرضاً هو أيضاً يجب استئصاله ومحوه من حوافظ الفلاحين .

علاج الرياء فى الصغر التربية الحرة ؛ وفى الكبر الموعظة الحسنة ؛ وأبلغ ما تكون الموعظة : أن يعزر المرائى بالاعراض عنه ؛ وجعله يلمس بيده نتائج ريائه السيئة .

Digitized by Birzeit University Library

حدود الطاعة

دخل عندى من بضع سنين أحد مأمورى الحكومة مكفهر الوجه، محمر العينين، مستكملا لجميع علامات الغضب. أضيف إليها تعبه من الاسراع فى صعود السلم. فأشفقت عليه، وظننته سيخبرنى بواقعة سطو ستقضى على شهرته بالنشاط، والقيام بالواجب: فابتدرته: مالك! هون عليك؛ فأن الوقائع الجنائية ملازمة لبقاء الناس ناساً. فأشار «بلا» ولم ينطق. لأن صوته مختنق من شدة سرعة التنفس التى سببتها له ضخامته، وتقدمه فى السن. فاصطبرت عليه حتى استطاع الكلام، فاخذ يسب الزمان والمكان والوظيفة، بحدة لم أعلمها له من قبل، فسألته عن خبره قال «شتمنى المفتش» فقال «ياحمار» فى أثناء تفتيشه. فلما فرغ من التفتيش وانصرف جئت إليك: قلت له: تحمل «ما عليه شىء» (١) فانطلق فى القول يظهر آثار عزته، ويحتد فى ذلك حتى خشيت على رئتيه أن تتمزقا. فقلت له إذن قدم استقالتك من هذه الوظيفة التى أهانتك آخر العمر، كما تقول. فقال: معلوم أستعفى. ولكنه صار يبرد بعد هذه الكلمة شيئاً فشيئاً، حتى لقد خيل إلى أن الرجل لم يغضب غضباً حقيقياً، ولكنه جاء يخبرنى بهذا الخبر، قبل غيره من عماله، ويظهر لى عزته. فابتسمت فى وجهه، وقلت له إذن أنت جئتنى لأسليك على هذه المصيبة التى لا تملك نفسك لها رداً، إلا بأن تعمل ما عملت أمامى فى السر، انتقاماً من ذلك الذى شتمك فى الجهر. فهون عليك وتأس بما أذكره لك. وذكرت له حادثة تشابه حادثته اتفق لى أنى حضرتها فى مديرية أخرى. قابلت حكمدار البوليس خارجاً من عند

الجريدة — العدد ٥٠٣ — ٣ من نوفمبر سنة ١٩٠٨

(١) أى «معلهش»

Digitized by Birzeit University Library

المفتش الأكبر باكياً ؛ فقال إنه سبه . فقلت له إذا لم تستطع أن تغسل هذه الاهانة بالطرق المسموعة عن رجال السيف ، فاتق مسبة تأتى بعدها بأن تخرج من وظيفتك احتجاجاً على هذا القول الشائن ؛ فقال مسترسلا فى البكاء ؛ ولكنه هو الذى رقانى بالاستثناء ، ولى عائلة كبيرة كما تعلم — لما سمع المأمور هذا القصص طابت نفسه ، التى ما أظنها كانت منقادة لانفعال حقيق .

ولقد اتفق لى أيضاً أنى دعيت مع بعض الحكام الانكليز فى منزل أحد الأعيان ، فرأيت صاحب الدار يزيد فى الحفاوة به إلى حد بارد ، كان ذلك الموظف نفسه يضحك منه ، ويسخر من حركات الاجلال والغباوة التى كان يأتيها مضيفنا الكريم . وكل ما يمكننى أن أؤكده أن مضيفنا هذا ، لم يكن متخرجا من تحت السلاح ، ولم يكن ترقى بالاستثناء ، ولا ذا عائلة يخشى عليها ، كما كان الحكمدار .

نضيف إلى هذه الحوادث الثلاث ، التى ليست وحيدة فى بابها ، بل لاأظن أحداً لم يتفق له أن رأى مثلها أو سمع به ، نضيف إليها الملاحظة على فكرة شائعة فى أدمغة الموظفين ، وجارية على ألسنتهم صباح مساء . إذا سئل أحد كبار الموظفين لماذا يشكو من الضغط وعدم الاستقلال فى العمل ، على أن هذه الشكوى اعتراف منه بالعجز ، وتجرد عن الكرامة الشخصية ، وتقصير فى القيام بالواجب الذى وضعته الأمة فى عنقه ؟ قال ماذا أعمل ؟ لو أنى أجد لفيفاً من الموظفين يوافقنى على فكرى ، لتمسكت بحقوقى القانونية تمام التمسك ، ورفضت كل ضغط يحد من حريتى فى العمل ، ولكن نحن المصريين لا ننفع ! ! ! فاذا قلت له ياسيدى مالك والمصريين ؟ إن لك حياة ذاتية ، وكرامة شخصية ، وواجباً محدودا ، فاذا أراد رئيسك أن يعبث بعملك فيجعلك تعمل على غير ما تختار ، فما لك إلا أن تستقيل . يقول لك جوابا على هذا : وأى مصلحة للأمة من استقالة فرد واحد ؟ ومن الذى

Digitized by Birzeit University Library

يحس بى إذا استقلت من وظيفتى ، ليشغلها غيرى ؟ وهل تقدر أمتنا قدر الشخص الذى يضحى مصلحته لأجلها .

لا ياسيدى : نحن لسنا فى موضوع استحقاق أمتك التى أخرجتك لضحية تقدمها لها ، ولكننا نتكلم فى ذاتك ، وفى كرامتك الشخصية ، وما يقضى به عليك ضميرك ، من أنك لا تعمل إلا ماترضى ، مادمت غير مقيد بالحديد لتبقى فى وظيفتك ، فتضحيتك وظيفتك وراتبك ، ليست تضحية للأمة ، ولكنها هى الدفاع الوحيد عن حريتك الشخصية ، كما أن غذاءك هو الدفاع الوحيد عن بقائك .

وما الذى يضرك إذ كنت أنت الكريم الوحيد بين إخوانك الموظفين ؟ وهل سبق بينكم اتفاق على التضامن فى الكرامة الذاتية ؟

إن قلت له ذلك ، كف عن الشكوى مؤقتاً ، وانتقل بك إلى السياسة العامة أو حوادث البلد ، وينفض المجلس على لاشىء . ذلك إذا لم يقل لك على سبيل المغالطة ، إن نظام الحكومة سيء ، ولكن الذى يدخلها يجب عليه الطاعة .

نشهد أن ذلك المأمور فى ريائه ، والحكمدار فى جبنه ، وذلك العين فى تملقه ، وهذا الموظف فى خمول عزيمته ، كلهم مسوقون إلى ماهم فيه بدافع خفى فى نفس كل منهم ، هو الاحساس بوجوب الطاعة للرئيس دائماً جهلا بحدود الطاعة .

الطاعة معنى له حدود معينة بالقانون الوضعى ، أو بقانون الأدب والعرف ، ولكن هذا المعنى لا حد له مطلقاً فى نفس الضعيف . كما أن السلطة معنى لا حد له مطلقاً فى نفس القوى .

ليست طاعة المرؤوس لرئيسه ، وطاعة المحكوم لحاكمه ، خارجة فى

Digitized by Birzeit University Library

مصرنا فقط عن حدودها المعينة المتفق عليها . ولكنها كذلك تخرج عن تلك الحدود فى البلاد المتمدنة . فان أغلب المرؤوسين فى هذا العالم يتكئون على رضى رؤسائهم فى أمر ترقيتهم ، إلى الدرجات التى يطمعون فيها . وإن المحكومين ، حتى فى البلاد الجمهورية ، من شأنهم أن يحبوا التقرب من رجال الحكومة ، وأن يحصلوا على جاذبيتهم أو احترامهم . هذا قانون طبيعى تقريبا . ولكن بلادنا قد تعاقبت عليها أزمنة طويلة من أزمنة الاستبداد ، جعلت خروج معنى الطاعة عن حدوده هو القاعدة ، لا الاستثناء ، كما فى البلاد الحرة . على أننا أحوج الناس فى تربية أنواع الكفاءات المختلفة ، إلى أن نلزم الرئيس أن يقف عند حقه ، فلا يتعداه ؛ والمرءوس أن يقف عند واجبه فلا يتعداه ، وإلا فالحرية الشخصية تكون حبراً على ورق ، واسما من غير مسمى .

أول ما يجب علينا فى التربية السياسية أن نلاحظ استقلال الفرد قبل استقلال الأمة . لا أنكر أن الاستقلال العام للأمة يقوى ملكة الاستقلال فى الفرد ، ولكن استقلال الفرد فى ذاته وفى رأيه وفى عمله ، لا يتوقف مطلقاً على الاستقلال العام ، بدليل أنه يوجد فى كل أمة مستعبدة ، أفراد أحرار مستقلون .

أحسن مثل فى تربية الاستقلال الفردى ، هو تعليم الحق والواجب ، تعليم حدود الحاكمية والمحكومية . تعليم حدود السلطة وحدود الطاعة . أى تعليم الانسان أنه إنسان ، أو تعليم القانون والفلسفة . فان لم يكن ذلك النوع من التعليم ، فليكن التعليم بالقدوة الحسنة ، أى المثل الحسى ، وهو أن يثبت الموظف المصرى الذى ليست الوظيفة مصدر رزق بالنسبة له ، استقلاله بأن يأبى أن تحد حريته القانونية فى العمل أو يستقيل . ويثبت الرجل من الأمة أنه يحترم الحاكم ، كما يحترم زميله . إذا كثرت هذه الأمثلة ، وهى مع الأسف نادرة عندنا ، حصلنا على استقلال الفرد الذى هو بشير الاستقلال السياسى للأمة . حصلنا عليه بقوة الطبيعة ، لا بالسؤال .

Digitized by Birzeit University Library

تربية الذوق

نصرف كثيرا من الفكرة ومن النقود فى تحسين ملابسنا ، رجالا ونساء، وأكثر مانلاحظ فى اختيارها ، هو الزينة ، ولا نلحظ المنفعة الا فى الدرجة الثانية بعد الزينة . وأن زينة الهندام لا تتم إلا إذا كانت الملابس متوافقة الالوان فى النظر ، بحسب مايكفيه لنا الاصلاح الحاضر . مع هذا الاعتبار ؛ لانشك فى أن الذى يجمع فى ملابسه بين الالوان المتنافرة ، التى لا يستريح فى رؤيتها النظر ، يكون ذوقه ناقص التربية ، أولا ذوق له فى اللبس .

كذلك نرى بعضهم يجلس إليك يحادثك فى أمر قد شغل باله . يستفتح القول بمقدمات طويلة من النادر أن تكون لها علاقة بالموضوع الذى يحادثك فيه ؛ ثم يقطع سلسلة فهمك بعبارات : « من غير مؤاخذه » أو « بلا آفيه » أو « الله يكرمك » يستعملها فى غير ماوضعت له ؛ ويعتبرها هو منتهى الذوق فى الحديث ؛ هذا اذا مَنَّ الله عليه فنسى تلك الالفاظ الخالية عن المعنى التى يضعونها فى الكلام لتكسبه ثوبا جميلا ؛ وما هى الا كرابيج يهاض بها سمع المرء ذى الطعم مثل قولهم : « النهارده » و « حيثما ان » و « ايه المناسبة » ونحو ذلك من ألفاظ الفضول التى ابتدأت المحاماة عندنا أن تترقى بها من درجة الأمية ، إلى الفصاحة والبلاغة . مثل هذا يكون ناقص الذوق فى ملكة النطق أيضا .

ومن الناس من لايذوق طعوم الحوادث التى تقع حواليه ، إلا كما يذوق المحموم الاطعمة فى فمه ، أوكما يميز المزكوم بين روائح الازهار . مثل هذا إذا سألته عن سياسة الوفاق بين السلطتين (١) فى مصر ، قال لك الصلح خير على الدوام . وإذا وضعت تحت نظره حديث شوقى بك ، قال لك إن شوقى

الجريدة العدد ٥٠٩ - ٩ من نوفمبر سنة ١٩٠٨

(١) السلطة الشرعية (العرش) والسلطة الفعلية (الاحتلال)

Digitized by Birzeit University Library

بك لم يصرح فى حديثه بانه يعبر عن آراء مولاه . فاذا قدمت إليه حديث السير « الدون جورست » قال لك مادام إن الانكليز يساعدون دولتنا العلية فهاهم أولاء يصنعون لنا بذلك معروفا . أفتريدون أن يساعدوا هذه المساعدة ويعطونا مجلسا نيابيا أيضا ؟ إنا نثقل عليهم إذا طلبنا منهم مساعدة الدولة والدستور لمصر فى آن واحد . هذا أيضا نوع من أنواع نقص التربيـــة لملكة الذوق .

عرفت فى باريس سيدة من الفضليات ، قالت إنها اجتهدت فى تربية حواسها وملكاتها بكثرة الالتفات لما يقع منها ، ومحاسبة نفسها عليه لا بشىء آخر من العلوم والفنون ، فنجحت فى ذلك ، حتى — كما قالت — إن ريشة الكتابة الواحدة خدمتها أربع سنين من غير أن تمسحها ، ولا أن تصلحها ، ولا أن تغيرها ، وأنها تكتب بها كل يوم . وأنها لم تكسر شيئاً مطلقاً من الآنية ، مع أنها كل يوم ترتب آنيتها الكثيرة الدقيقة (تلك الآنيـة هى أوانى الفخار والصينى والبلور والزجاج المختارة للزينة وهى مما يسميـه الافرنج « Biblo » كالآنية الموجودة عندنا فى متحف الآثار العربية) وأنها لا تخطىء الحكم على نغمـة من النغمات ، مهما كانت مشغولة عن الموسيقى بالحديث مع الغير . هذه الأمثلة قصت على بعضها ، وشاهدت منها البعض الآخر بنفسى . وتلك نتيجة تربية الحواس . أما عن تربيـة الملكات ، فلم أوفق إلى معرفة ما إذا كانت نجحت تمام النجاح فى تصيير ملكاتها بالتربية أقرب إلى الكمال من الملكات الأخرى ، كما نجحت فى تربية حواسها الخمس ، نجاحا مشاهداً بالعيان .

انظر الفرق بين مدام « توماس » التى صيرت حواسها إلى الكمال الممكن ، وبين سيدة من عندنا قد لا تمسك كأسـاً أو طبقاً لتنقله من مكان إلى مكان ، إلا أجهزت عليه ؛ ويقـال لها بعد ذلك : « فداءك » . وهى تقول إنه انكسر « لوحده » ولو لم تكن « الكاسورة ما كانت الفاخورة » ! !

Digitized by Birzeit University Library

نعم ذلك صحيح بعض الشيء . ولكن أصح منه ألا تكونى مثالا لتعطيل اليد عن أن تبلغ كمالها الممكن . والكاسرات أكثر من أن يحصرن ، فلا تزيدى عددهن بالاعذار الباردة ، واعلمى أن هذا نقص ، ومن أكبر العيوب الخلود إلى النقص ، متى أمكن تغييره إلى الكمال .

إننا فى هذا الوجود أسراء الشهوات الضارة التى نسميها الرذيلة أو العادة القبيحة أو الخلق السىء . أسراء للتصرفات الحسنة التى نسميها الفضيلة أو العادة المحمودة أو الخلق الحسن . نحن أسراء إحساس الخير والشر . أسراء ملكاتنا التى نحن مسئولون عن نتائج أعمالها . أعنى أنها هى التى تتحكم فينا ، فاذا وجب علينا أن نسير فى إصلاح حكومتنا السياسية ، لنعيش بها سعداء ، وجب علينا أيضاً أن يصلح كل منا حكومته الداخلية ، لتكون من النظام والكمال ، بحيث تستتب له السعادة الذاتية .

كل شىء يصلح بالتربية ، خصوصاً الذوق الذى فتحنا الكلام به ، فانه ابن التمرين والعادة . ابن التربية والمشاهدة . ابن الخطأ والتصحيح .

الذوق ، أو ملكة التميز ، هو كبقية الملكات الأخرى ، لا تكمل إلا بتربيته . وإنى أستسمح الذين يقولون : « الذوق شىء ليس فى الكتب » لأن هذا المثل السائر إن كان معناه أن هذا الذوق هو استعداد فى النفس ، كان مثلا صحيحا . لأنا نقول كذلك أيضا ، ولكن هذا الاستعداد يجب إنماؤه بالتعليم والتربية . وإن كان معناه أن الذوق ملكة كاملة بالخلقة ، لا تفلح فيها التربية ولا يفيدها قراءة الكتب ، فذلك خطأ صرف ، يجب الرجوع عنه إلى أن ملكة الذوق بجميع مظاهرها المعنوية والحسية التى ذكرنا بعض أمثلتها ، لا تكمل مطلقا ، كمالها الممكن ، إلا بالتربية المضبوطة . وما التربية الصحيحة إلا الانتفاع بآراء الحكماء فى كتبهم ، والملاحظات الشخصية التى يستفيدها الانسان كل يوم من الحياة ، كلما التفت إلى ما يقع حوله ، وتدبر فى ربط

Digitized by Birzeit University Library

الحوادث بأسبابها ، وأجهد نفسه بعض الشيء فى أن يكون حكمه عليها صحيحاً ، لامدفوعاً بشهوة ولا صادراً عن خفة .

زارنى فى هذه الأيام الأستاذ المؤرخ اسماعيل بك رأفت فدار بيننا الحديث على أحد كتاب القرن الرابع من الهجرة هو الكاتب الفارسى « ناصر خسرو علوى » قال إنه زار القاهرة ، فوجد فيها سوقا كبيراً للأزهار ، ووصفه ، فلا تخال إلا أنه يصف سوقا كبيراً من أكبر أسواق الزهر فى العالم . قال اسماعيل بك أين ذلك السوق الآن فى مصر ؟ ألا إنه لا يكمل ذوق الأمة إلا إذا أحبت الأزهار .

ونحن نقول معه إنه يجب صرف الطفل من صغره إلى تعلم الجمال ، وذلك بأن يلفت الأستاذ نظره دائماً إلى جمال الطبيعة الحسية . يوحى إلى نفسه أن تتعلق بحب الجمال . فاذا نمت هذه الملكة ، نمت معها ملكة التمييز بين الجميل وغير الجميل . ملكة التفريق والتفضيل ، ملكة الذوق السليم . كما يجب على الأم أن تعلم ابنها وابنتها الجمال ، وتنمى فيهما عادة حب الأزهار . عادة حب المشاهد الحسنة .

وأنى لها ذلك ، إذا كانت هى غافلة عما يحرك تلك العاطفة ، فلا تشترى زهراً إلا إذا كان عندها ضيوف ، ولا تحسن رصفه ولا التأليف بين المختلف من ألوانه ؟

إنا إذا ربينا فى أبنائنا ملكة الذوق فى المحسوسات ، أوشكنا أن نكسب من غير عناء ترقية ملكة الذوق فى المعنويات ، وحصلنا على قسم كبير من المشابهات بين الأفراد . فعلى المشابهات ينبنى التضامن . وعلى التضامن تبنى قوة الرأى العام . وعلى قوة الرأى العام ، يتوقف كل نجاح ، اجتماعى وسياسى .

Digitized by Birzeit University Library

حدود الوظيفة

شرعت الحكومة لمصلحة المحكومين لا لمصلحة الحكام . فاذا استبد رجال الحكومة بالامر دون الامة أوشكوا أن يكونوا بمجموعهم الحكومة الظالمة

على هذا الاعتبار يجب علينا أن نفهم أن الوظيفة فى الحكومة ليست فى أصل وضعها مزية يتمدح بها الحاكم، ولكنها ضريبة يجب على الكفء من الافراد أن يدفعها لأمته . وإن الراتب الذى ينقده انما هو بدل عن الوقت الذى يضيع عليه فى الانصراف عن أعماله الى أعمال المجموع ، أى الاعمال العمومية التى يكلف بأدائها .

تقضى نصوص الفقه بأن القاضى اذا كان غنيا فليستعفف ، وإن كان فقيراً فليأخذ كفايته من بيت المال .

وعلى هذا الاعتبار أيضا ليس من الصواب أن يظن أن الاستخدام فى الحكومة هو مورد رزق ثابت يسعى إليه المرتزق كما يسعى فى التجارة أو فى حيازة الأرض واستغلالها . بل يجب على العامل العمومى أو الحاكم ألا يلحظ فى الوظيفة إلا شيئا واحداً هو امكانه القيام بها من حيث العلم اللازم لها ، ومن حيث الاستقلال الواجب له فى عمله العمومى ، ولا يلحظ أمر الراتب إلا بصفة ثانوية صرفة ، حتى اذا رأى نفسه غير قادر على ما كلف به أو رأى استقلاله فى عمله غير كاف لاتقان العمل على الصورة التى تريح ضميره، وجب عليه أن يستقيل ويترك منصبه لمن يكون أقدر منه على القيام به أو على نيل استقلال أكثر من استقلاله

إن الحكومة عندنا رغما عما يبدو عليها من العلامات الدستورية التى

الجريدة العدد ٥١٠ - فى ١٠ من نوفمبر سنة ١٩٠٨

Digitized by Birzeit University Library

نقرؤها فى قانون الوزارة والقانون النظامى وقانون الاستخدام ، تجرى فى عملها على غير هذه الروح الدستورية الضعيفة

تنتقى موظفيها بالصدفة . وكم تخطىء الصدفة . ثم يجمع رؤساؤها الى أنفسهم كل السلطة ولا يصرفون من هذا الكنز الثمين للموظفين الامايرونه كافيا فى وضع اللوم عنهم ومانعا من اعتبارهم مستبدين بكل معنى الكلمة .

العمل يقدم إلينا كل يوم أمثلة تدل على أن الرئيس الانكليزى يظهر عليه فى معاملة مرؤوسيه أنه يريدهم على ألا يروا إلا بعينه ولا يسمعوا إلا بأذنه حتى جردوا بذلك معظم الموظفين عن حب الاستقلال فى الرأى وأطفأوا فى قلوبهم نار حب العمل لمصلحة بلادهم ورضى الأكثرون منهم بالقعود عن الخدمة الحقيقية وتوجيه كل أعمالهم وفكرهم إلى دفع المسئولية عنهم . ومات فى نفوسهم الأمل فى الاغتباط بحسن الخدمة لبلادهم ، ولم يبق فيها حى من احساس الوظيفة إلا حب الترقى ؛ لا ليكونوا أقدر على تعميم آرائهم واسداء خدماتهم ، ولكن ليستفيدوا من وراء ذلك توسيع رزقهم وتحسين حال معاشهم .

لا أبالغ إن قلت إنى ما رأيت موظفاً مصرياً إلا وهو يكره الحكومة والبقاء فيها ويشكو من القيود التى تقيد بها يداه عن العمل لخير بلاده، ورجلاه عن السعى لخير بلاده . ويشكو فوق ذلك سوء المعاملة . غير أنا مع الأسف نقول إن أمثلة الاحتجاج على الحكومة من موظفيها قليلة جداً، لا تكفى لأن نبرزها حجة على صحة مانقول، وإن كان لا يكذبنا فيه أحد .

لقد كان رضى الموظف المصرى بهذه المعاملة سبباً لاعتبار جملة الموظفين كمية عاطلة كما كان تهاون الأمة فى طلب حقوقها مدعاة لاعتبارها فى نظر الانكليز كمية عاطلة كذلك .

جرّ هذا الفهم بحكومتنا إلى أن تظهر لنا انها إنما تحسن علينا باعطائنا الوظائف فى بلادنا . وانها فى الحقيقة فى غنى عن خدماتنا ، ولذلك وضعت

Digitized by Birzeit University Library

وراء كل وزير منا وزيراً من الانكليز له القول الفصل . وبجانب كل حاكم منا حاكماً من الانكليز إليه المرجع فى التصرف وعلى المصرى المسئولية .

إن الحكومة تخطىء كثيراً فى هذا المعنى . تسىء به إلى الأمة وتسىء به إلى نفسها أيضاً لأن هذا الفهم يظهر بوضوح يوماً عن يوم للموظفين ، فلن يلبث أعزاؤهم إلا أن يتركوها وشأنها تفعل باستقلال من يرضى البقاء ما تشاء ، ويكون ذلك الموظف المستقيل قد أحسن إلى نفسه فحفظ كرامته ومروءته ، وأحسن إلى أمته فضرب لها مثلا حسناً ودفع عنها بمثله الجزئى ، وصمة الاستكانة والغفلة عن الحق .

إذا كان للسلطة حد تقف عنده وللطاعة حد تقف عنده ، فما يكون المتجاوز فى حد السلطة إلا ظالماً لغيره منتهكا حرمة قانون الحكم ، وساخراً من حرمة قانون الأدب الانسانى . وما يكون مجاوز حد الطاعة إلا متملقا نازلا عن مرتبة الرجل ، متهاوناً فى احترام ذاته ، لا يمكن أن يصير جزءاً صالحاً للدخول فى تكوين مجموع صالح هو الأمة .

ليست عزة الأمة بعدد أفرادها المندرجة أسماؤهم فى سجل المواليد ، ولكن عزة الأمة بعدد الذين يدركون معنى الحق والواجب . الذين لهم فى وجودهم الذاتى استقلال نوعى ، وما الاستقلال الذاتى إلا بشيراً للاستقلال العام .

الحمد لله . نحن لا نعدم من شباننا الأكرمين من يثبتون للموظفين وللحكومة وللأمة أن المصريين لا يقولون فقط بهذه النظريات التى نكتبها ولكنهم يعملون بالتطبيق لها ولا يرون فى الوظيفة ما يطمع فيها إلا خدمة الأمة واستكمال أدوات تلك الخدمة وأهمها الكفاءة والاستقلال .

Digitized by Birzeit University Library

الملل من كواذب الاخلاق

من الناس من يصبح يفكر فى طريقة يهرب بها من النهار، وسلاح يقتل به الوقت - كما يقولون - من صاحب يوافقه على ملاعبة الشطرنج أو النرد أو جمعية بطالة يمضى معها النهار أو طول الليل وشطرا من النهار فى لعب الورق أو لعب القمار، ينفقون فيه شطر عمرهم غير مأسوف عليه، وينفقون فوق ذلك رزق عيالهم، فاذا اعوز أحدهم أن يقتل هذا الوقت المكروه فى نظره، لبث فى بيته ينتقل من حجرة الى حجرة، وينزل الى المنظرة ثم يصعد إلى فوق، ثم يقوم ثم يجلس ثم يقوم، وهو فى كل ذلك مضطرب النفس مقطب الوجه كالذى ضاق جسمه عن حمل روحه. أو كالذى ضاقت هذه الدنيا الفسيحة عن أن تسع جسمه الصغير. ماباله كذلك وهو فى سعة من الرزق وخفض من العيش واحترام بين الجيران، فلماذا لا يكون سعيدا؟

كلا إنه ليس سعيدا لأن البطالة أورثته الملل فهو مريض. وهيهات أن تجتمع السعادة والمرض.

مابال السيدة فلانة المحسودة على حظها المنعمة فى بيتها، تريك اذا اطلعت عليها فى دارها أنها أشقى خلق الله طول نهارها. تقوم من الكرسى الطويل إلى الأريكة، ومن الأريكة الى الشباك ومن الشباك الى المرآة. ثم هى بعد ذلك تتثاءب تتنهد وربما اشتدت عليها النورستانى (العصبى) الوقتية، فتبكى من غير سبب، فتجد فى البكاء صارفا لضيق الصدر الذى لازمها طول يومها. مابال هذه السيدة أيضاً؟

إنها شقية، لأن البطالة قد أورثتها الملل. والملل عدو السعادة وقاتلها.

ان فلانا كان شغوفا بالسياسة وكان أشغل بها من وزير خارجية ألمانيا،

الجريدة العدد ٥١٦ - فى ١٧ من نوفبر سنة ١٩٠٨

Digitized by Birzeit University Library

فى هذه الأيام الأخيرة . ولكنه قد تبرم بها وتغير لها وأصبح لا يقرأ فى الجرائد الا أخبار النقل والترقى ، أو لا يقرؤها أصلا . فاذا سألته فى ذلك قال نعم، كنت أشتغل بسياسة البلد وأفكر فيها وأقرأ ما يكتب فيها وأفضل بعض المذاهب على الأخرى . ولكنى انتهيت بان رأيت أن الأمة لم تجن من وراء عملى شيئا . فالأمة لا تزال هى بعينها الأمة يوم اشتغلت بالسياسة . والاحتلال لا يزال باقياً ، بل هو يزيد مداخلة فى شؤون البلد الداخلية ، حتى ان سلطة كرومر كانت تقع على الحكومة العالية فقط ، والآن نجد سلطة السير الدون جورست ربما تطرقت الى الأعمال الجزئية ، يأمر فيها وينهى مباشرة لا بالواسطة . والشبان المتعلمون أشبه فى حب الوظائف بالأميين الأقدمين . والذى ينال وظيفة يصير أسيرا لها ، وإلا فهاتنى من أمثال استقالات الوزراء أو الموظفين الكبراء ما يدل على اعتقادهم بأن الوظيفة طريقة للخدمة لا طريقة للرزق أو للجاه ! لما وجدت أنى لم أر للاشتغال بالسياسة نتيجة محسوسة، نفضت يدى منها بالمرة. كأن هذا السياسى يريد أن يقول إن الأمم تحيا فى بضع سنين، وتستقل فى بضع سنين . ولكنه معذور لأنه مصاب بمرض الملل

ترى الرجل يخطب ود رجل آخر ويريد بكل غال أن يتخذه صاحباً له، فاذا حصل على صحبته لا يلبث أن يتساهل فى حقه وتبرد منه حدة الصداقة، ويتضاءل فى قلبه سراج المحبة . فاذا شرّحت نفسه من الجهة البسيكولوجية لتقف على أسباب هذا الفتور فى الصحبة ، لا تجد فيها شيئاً آخر غير أن فى نفسه مرض الملل .

كذلك قد تحسن الزوجة عشرة زوجها ؛ ولكنه مع ذلك يتغير لها فى المعاملة تغيراً قد يفضى الى تكدير صفاء الزوجية وقطع الروابط العائلية . وليس لذلك من سبب إلا أن الزوج مصاب بالملل .

ترى بعضهم لا يستطيع أن يسكن إلى نفسه ساعة من الزمان ، بل يحب أن يقضى كل وقته مجتمعاً بالناس مشغولا بهم . بعيد أن يرى من نفسه أنيساً

Digitized by Birzeit University Library

له ومن ذكراه مسلياً، ومن مستقبله رجاء فى الخير . بعيد عليه أن يعتقد أن خلوه بنفسه برهة من الوقت ضرورى جدا لمحاسبتها على أعمالها وأفكارها، ضرورى لمحاسبة نفسه على ماصرفه من وقته فى غير عمل . وبالجملة أن مثل هذا الذى يكره نفسه ويفر منها، يجب عليه أن يتعرفها ؛ ويتعهد من حين الى آخر حالها الأخلاقية حتى لايضل فى تقديرها ولا يبقى نفسه فى مركز كاذب بالنسبة للحكم لنفسه أو عليها . إنك إذا سألته عن إفراطه فى الاجتماع مع الناس، وهربه من العزلة الوقتية اليسيرة، لقال إنى إذا خلوت بنفسى مللت . ولاشك فى أن هذا الملول من نفسه ليس إلا مصاباً بمرض الملل أيضاً .

الملل مرض من أمراض النفس تولده فيها البطالة والترف والانغماس فى اللذائذ . لأن اللذة إذا كانت متكررة كل يوم، فقدت تأثيرها الخاص بها وصارت عادة من العادات . وقل أن يكون فى العادة لذة . قد يتضاعف الملل البسيط فى النفس فيولد فيها أمراضاً كثيرة قد تفضى الى ماليخوليا الانتحار . وإن أحسن علاج لهذا المرض هو التدين والشغل وحفظ النفس عن ارتكاب ماتستحى منه، إذا خلت بنفسها، وماتهان به إذا علمه الناس عنها . وبالجملة اصلاح الأخلاق. فان الملل من كواذبها كما قال عمرو بن العاص : « لاملل عندى لدابتى ماحملت رحلى ؛ ولا لزوجتى ما أحسنت عشرتى ؛ ولا لصديقى ماحفظ سرى » إن الملل من كواذب الأخلاق.

Digitized by Birzeit University Library

قوة الرأى العام

تنقل أخبار الحوادث كل يوم أمثلة جديدة من شأنها أن تزيد إيماننا بقوة الرأى العام. غير أنى مع ذلك أرى أن انتفاعنا بتلك الأمثلة قليل فى جانب كثرتها، ضئيل فى جانب عظمها، فما سبب هـــذا ياترى؟ هل نحن فى مذهب التقليد جامدون محافظون على ما ورثناه؟ كلا إن الحس يشهد أننا فى غاية السرعة من التقليد. تظهر المودة فى باريس ولندن فتصل لنا فى البريد الأول، وما هو إلا أسبوع واحد حتى تجدنا رجالا ونساء قد لبسنا ما يلبسون من الأزياء والألوان. لم يظهر الأتوموبيل فى أوربا حتى ملأ شوارع القاهرة جريا وصياحا. إلى غير ذلك من أمثلة التقليد فى المحسوسات والمعنويات، تدل على أنها ليست هى ملكة التقليد التى تنقصنا، فما بالنا إذن لا نقلد غيرنا فى العمل على تماسك الرأى العام، ليكون له من القوة ما يناسب عدد أفراد الأمة وحال ثروتها ومقدار أطماعها من الرقى السياسى؟

إليك هـــذا المثل القريب القوى، مثل قيامة الرأى العام الألمانى على جلالة الامبراطور غليوم، ذلك الرجل الذى قل أن يوجد له شبيه بين ملوك الأرض جميعاً فى صدق وطنيته وإخلاصه لقومه وإجهاد ملكاته فى أن يحصل لأمتـه على سيادة البر والبحر، وترويج مصنوعاتها فى أدانى المعمورة وأقاصيها. يكتب ويخطب، يفكر ويعمل. فاذا قام وسط الطلبة خطيباً ينتقد خطة التربيـة أو طريقة التعليم ويشجع القائمين بأمر العلم، تراه فى اليوم الثانى فى عرض البحر يـكتشف مناورة بحرية؛ أو فى وسط جيشه ينتقد نظاماً حربيا. حتى لقد كان الناس يظنون أنه لا يفهم معنى الراحة ولا تمر بخاطره فكرة الترف ولا خاطر النعومة التى هى من شعار الملوك فى هذه

الجريدة العدد ٥١٩ - ٢١ من نوفمبر سنة ١٩٠٨

Digitized by Birzeit University Library

الأزمنة . نسى ذلك الملك العظيم أنه الامبراطور، نسى ذاته حباً فى قومه، فرأى الرأى العام الألمانى يعضده فى كل مايقول ويفعل ، وناهيك ماصرح به لمولاى «عبدالعزيز» فى ابتداء الأزمة المغربية، مما يدل صريح الدلالة على أن الامبراطور يمثل الرأى العام الألمانى . ولكنه لفرط محبته لمصالح ألمانيا نسى أيضاً أن قوة الرأى العام التى تعضده كلما نطق لمصلحة ألمانيا، هى عينها قوة الرأى العام التى تخذله إن قال كلمة واحدة فى غير تلك المصلحة . ولم يدر بخلده أن خدماته الطويلة التى لم يوفق غيره لمثلها، لن تكون له شفيعاً أمام قوة الرأى العام يوم يحاسبه حسابا شديدا .

كنت من عشر سنين مع جماعة من الألمان المتعلمين يدور بيننا الحديث فى المسائل السياسية فكانوا يقولون امبراطورنا فعل كيت وكيت . امبراطورنا. ينوى كيت وكيت . إن تصرف الدول فى مسألة كذا لا يرضى امبراطورنا. فكان لفظ امبراطورنا يقع فى سمعى وقعا خاصا به لأنه كان مطردا فى أحاديثهم، بحيث يمكننى أن أقول انى لم أسمع أحدهم يخطىء مرة واحدة فيقول حكومتنا أو مجلس الرشستاغ أو الوزارة . . . الخ من الألفاظ التى نجدها مستفضية على لسان الانكليز والفرنسويين والنمساويين أيضا . وكان غريبا عندى أكثر من ذلك، أن أصحابى الألمان هؤلاء، لا يذكرون الامبراطور إلا بنوع خاص من المحبة والاجلال .

كنت أتخيل أن مذهب الأحرار « الليبيراليسم » لايزال ناقصاً بعض أجزائه فى ألمانيا على الرغم من انتشار مذهب الاشتراكية فيها، انتشاراً يخشى عليها من الافراط فيه . وكنت أظن بمناسبة تصريحات جلالة الامبراطور لمولاى «عبدالعزيز» وفى كل فرصة من أوقات مؤتمر الجزيرة، أن هذا الامبراطور قد سحر الرأى العام الالمانى فجعله يزن الصواب والخطأ بلسان الامبراطور، بحيث أنه لايجب أن يفهم يوما ما أن الامبراطور يجوز عليه الخطأ كما يجوز على كل بنى حواء .

Digitized by Birzeit University Library

ولكننا الآن نرى العالم كله يمد أعناقه ليرى عن قرب قوة الرأى العام الالمانى المدهشة، وليسمع ذلك الصوت العالى، صوت اجماع أمة كبيرة كهذه على تخطئة ملكها الكبير.

سمعنا أن الأحرار الانكليز كانوا ينتقدون فى البرلمان على زيارة جلالة ملكهم لجلالة قيصر الروس. ولكننا ما سمعنا أن الأحرار والمحافظين والامبراطوريين والاشتراكيين، يتفقون كلمة واحدة ويصرحون بصوت واحد متجانس النغمة والرنانية، كما حصل ذلك فى جلسة الرشستاغ التى فتحت فى الساعة الثالثة صباحا ودرجة الحرارة تحت الصفر.

بل ما سمعنا قبل اليوم أن الوزير يحكم على تصرف ملكه الذى هو (وحده) صاحب الحق فى تعيينه، بمثل ما حكم به السياسى الكبير البرنس «ديبلوف» على الامبراطور.

كان كل ذلك ونقلناه للقراء حتى أمس. وعلمنا منه أن قوة الرأى العام الالمانى قد أظهرت تماسكا شديداً فى أجزائها من شأنه أن يجعل الامبراطور يرضى باستبقاء وزيره الأكبر فى منصبه بعد هذه المخالفة الصريحة، ويقره على كل ما طعن به على حديثه فى الرشستاغ، ويقولون بعد ذلك إن قوة الرأى العام وحدها من غير حاجة الى قوة مادية ستغير الدستور الالمانى من اليوم، لتأخذ من الامبراطور تلك الاختصاصات التى كانت تاركة له إياها مادام يتصرف بها حسب ما يتفق مع ادارة الرأى العام.

نظلم أنفسنا اذا أردنا — ونحن حديثو العهد بالعلم والمدنية — أن نتشبه بالالمان فى حريتهم القومية وتماسكهم فى الرأى، ولكننا نسرد هذه الوقائع لنعود بها للجواب على سؤالنا الأول: لماذا نحن لا نقلد غيرنا بتقوية الرأى العام عندنا مع ملاحظة حالنا من القوة والضعف والعلم والثروة، وما يثقل من الاحتلال والسلطة الشخصية؟ لماذا ليس تقليدنا فى ضم أجزاء الرأى

Digitized by Birzeit University Library

العام متناسبا مع تقليدنا للاوربيين فى ألوان المطاعم والمشارب وأنواع الملابس واللذائذ ؟

قلة وطنية . احتقار لأنفسنا — ذلك هو السبب فى تخاذلنا عن جعل قوة الرأى العام متناسبة تماماً مع أطماعنا العقلية والسياسية .

ادخل إلى أى مجلس من المجالس، فى دوار العمدة أو فى سراى الوزير أوفى مكتب المحامى أوفى عيادة الطبيب أوفى زاوية من النيوبار أو السبلندد بار؛ حيث كنت من هذه المجالس تجدنا نتكلم فى السياسة . نسب ذاتنا وأمتنا . نرمى أنفسنا بالضعف والعجز. نرمى أخلاقنا بالفساد ، نرمى عاداتنا بالقبح . نرمى رجالنا بعدم الثبات . نرمى موظفينا بفساد الذمة . ولو اطلعت علينا فى هذه الحال لاعتقدت أننا لسنا مصريين، لولا العمم والطرابيش . فاذا كتب منا كاتب أو خطب خاطب، استحى أن يحصل ما يدور فى تلك المجالس على ألسنة الذين هم جذع الرأى العام فى الحال ، ومنبت أغصان الرأى العام فى الاستقبال .

كل شيء فى الملكات الانسانية يقوى بالتمرن والاعتياد . الاستعداد يستحيل أن ينقص أمة بأسرها، ولكن الذى ينقص الأمة هو تمرين ملكاتها وتعويد أفرادها على القوة والثقة بالنفس . لافرق بين البدوى فى شجاعته والحضرى فى جبنه، الا أن الأول معتاد على ملاقاة الموت كل يوم، والثانى معتاد على الاتكال على البوليس . لافرق بين العالم فى شجاعته الأدبية والجاهل فى ضعفه وعدم ثقته بنفسه ، الا أن العالم قد علم بمقدار الحياة فاستهان بها . علم بأن الحقيقة هى أغلى ما تضحى له الملكات والراحة بل والحياة أيضا . علم بأن علة الخلقة هى خدمة الحق ومن لم يخدم الحق لم يقم لله بواجب الخلقة . علم بأنه لالذة للرجل الذى يذوق طعم اللذائذ، أشهى من لذة فناء ذاته فى خدمة نوعه . علم ذلك كله فهانت عليه أعراض الحياة . وأما الجاهل، فلا يعرف طرفا من نفسه، حتى يثق بها .

Digitized by Birzeit University Library

مادامت ملكة قوة القلب والثقة بالنفس هى ملكة ينميها التمرن والاعتياد أيضا، وجب علينا ألا نصرف الوقت فى السخرية من أنفسنا ؛ لأننا اذا أعتدنا ذلك فقدنا بالزمان كل عامل من عوامل احترام الذات ولحقنا الفناء حتما . علينا أن نروض أنفسنا على أن يعتبر كل منا نفسه انســـانا مخلوقا لحقوق يتقاضاها من هذا الوجود، وواجبات يقوم بها لهذا الوجود، اعتباراً ممزوجا بفضيلة التواضع التى هى مرآة لجميع الفضائل

أما اذا قلدنا الالمان مع عدم اغفال الوسط الذى نحن فيه؛ وقلدنا الانكليز والفرنساويين مع ملاحظة البعد بيننا وبينهم، وذلك بتمرين ملكاتنا على القوة والثقة بالذات، حصلنا آخر الأمر من الرأى العـــام على قوة تناسب أطماعنا تماما . هنالك نحصل على ما نريد من غير عناء كبير، بل من غير سؤال ولا استنجاد . على قوة الرأى العام يتوقف نجاحنا فى طلب الدستور .

Digitized by Birzeit University Library

الرتب والنياشين

نعذر ذلك الذى يحب أن يكون محترماً عند قومه ، عالياً فى المرتبة بينهم، يسعى إلى بلوغ هذه الغاية بالأخذ بأسباب نفعهم وتقدمهم . يبنى الكتاتيب والمدارس . ويشارك بنصيب عظيم فى الجامعة ، ويبر الضعفاء والمساكين ويتبرع للجمعيات الخيرية ، اسلامية وقبطية

ولكن ماعذر ذلك الذى يستكثر ماله أو يظهر أنه يستكثره، فيشترى له رتبة أو نيشاناً، ويظن أنه يكون بذلك محترماً عند الناس . إذا دخل على مأمور المركز قام لاستقباله بأهلا وسهلا سيدنا « البك » . وإذا صادفه الشيال على المحطة حياه بسيدنا « البك » . حتى فى داخل داره هو يطمع أن زوجه وبنيه وبناته لا يخاطبونه إلا بلقب الشرف . وهم أعلم الناس بدرجة هذا التشريف ودرجة استحقاقه إياه . وإن تلك الرتبـــة ما كانت إلا من شطر رزقهم، فقيمتها عندهم محسوبة بقيمة فدانين أو ثلاثة ؟

عذره كعذر تلك السيدة الأمريكانية من بنات ملوك الذهب أو أغنياء أمريكا ؛ تطوف أوربا طوافاً تنتقل من فندق إلى فندق ومن عائلة إلى عائلة، تتعرف بالارسطوقراطيين (العائلات الشريفة) تغشى سمرهم ومجالسهم وتشهد مراقصهم وتتحادث مع الفيكونت والكونت والماركيز ، وتستلفت الأنظار لها ولآدابها ووفرة مالها وحسن ذوقها وغزارة علمها فى الدين والفلسفة خصوصاً . ثم هى تخرج من كل هذه الأوساط بزوج من هؤلاء الأشراف ، تتحلى بلقبه ويتحلى بمالهـــا . تصبح هى الكونتس ، ويصبح هو الغنى .

الجريدة فى ٢٢ من نوفمبر سنة ١٩٠٨ العدد ٥٢٠

Digitized by Birzeit University Library

إن هذه الفتاة الأمريكانيـة قد جمعت إلى ما شاء الله من الجمال وكثرة المال، ماشاء الله من الأدب والكمال. لكنها ينقصها شىء واحد هو أن أباها لم يترك لها فى ميراثه لقباً تختال به على أترابها وتتميز برتبته من بين مجالساتها. أرادت أن تكمل هـذا النقص على زعمها، فتشترى بالمال والجمال بعلا فوقه لقب شرف تحمله على اسمها، كما تحمل تاج الماس على رأسها، طرف من زينة الحياة الدنيا. اشتهر هذا السلوك عن كثير من غنيات عذارى الأمريكان، حتى أصبح مرضاً من الأمراض العصبية لا يداوى إلا بألقاب الشرف.

سيدة خلقت فى النعيم. ونشأت فى الحلية. وهى مع ذلك تصرف جل مالها لتربية بنى قومها. معذورة إذا هى فضلت التزوج بالفقير ذى اللقب من ألقاب الشرف، على الغنى العاطل عنه، الذى هو كرجال الأمريكان، لتكمل أسباب سعادتها النسائية. ولتجتمع لها اللذات من أطرافها فى هذه الحياة.

ولكن ما عذر صاحبنا ضيق الثروة أو محدودها. ما عذره فى شراء لقب يموت بموته فلا يخلفه فى الميراث لأولاده كبقية ما يشتريه من المتاع. ولا هو يسد عنه الدين ولا يزيد قيمته فى نظر أحد إلا فى نظر الطبقة التى هو أرفع منها، قبل أن يكون سيدنا «البك»، بل ربما كان اللقب سببا فى الحط من كرامته عن هذه الطبقة أيضا؛ إذا لم يرزقه الله مع الرتبـة مسكة من العقل وطرفة من التواضع.

السيدة تحب لقب الشرف لتتمتع به على هواها. وهـذا البك يشترى لقب الشرف ليكون له غصة أو ليخلق لنفسه واجبات جديدة ما كان أغناه عن مثلها. ولا أعلم أن الرجل الذى فيه ذرة من العقل يشترى بماله حملا على عاتقه كان من شأنه أن يفر منه لو جاءه مجانا، كل ذلك اذا لاحظنا أن لقب الشرف فى بلادنا لا يعطى حقا فى راتب يقبضه صاحب اللقب. ولا يكسبه مزية الانتقال من طبقة الفلاحين الى طبقة الأشراف، لأن تلك الألقاب وقتية، تموت بموت حاملها، لا كالالقاب الأوروبية، تبقى فى العائلة مابقيت، ولها امتيازات سياسية واجتماعية لا يستهان باثرها.

Digitized by Birzeit University Library

الاسباب المنتجة للحصول على لقب التشريف بالشراء هى ثلاثة : جنون المشترى . وغفلة الحكومة عن المصلحة . وفساد السمسار

نفهم أن الرجل الذى لم تكمل فضيلته كمالها الانسانى يكاد يكون غير موجود فى هذا العالم . قد يفرح قلبه الضعيف بلقب التشريف اذا فعل الخير، أو دأب على خدمة الحكومة فكافأته بذلك اللقب أو بالنيشان : يفرح لأن اللقب وذلك النيشان دليل ثقة الحكومة به واعترافها له بامتيازه عن غيره فى حسن الخدمة، وجزاء على صدقه الذى قد وفاه الاغباط جزاءه عليه من قبل . يفرح بهذا وتفرح به عائلته ، وربما كان لا يقصر احساسه على الفرح باللقب اذا جاءه ، بل يتناول شيئا آخر هو انتظار تلك المكافأة من وقت الى آخر

فاذا كانت قيمة اللقب هى ما يدل عليه من حسن الثقة ، فما قيم اللقب الذى يشتريه صاحبه بماله ؟ لقب لا يدل على ثقة ، بل لا يدل على غنى المشترى أيضا انما يدل على سخفه وسوء تدبيره وانحطاط مروءته .

أما الحكومة التى هى شخص أدبى ، لا ندرى كيف تمنح الرتب على هذا النحو الذى وصفنا . عذرها واضح لديها . إنها لا تعرف ان الذى ينعم عليه هو مساوم مشتر ، لا خادم يعطى اجره ومكافأته . هذا كلام ؟

الحكومة يجب أن تعلم كما نعلم نحن الافراد ان كثيرا من الرتب يباع ويشترى . فاذا كانت لا تزال مع هذه الشهرة والاجماع ، تعتذر بعدم العلم، فلا تؤاخذنا اذن إن قلنا انها لا تعيش معنا على الارض ، بل هى ساكنة فى السحاب . نبهتها الجرائد قبل الآن فلم تنتبه ، فما هى إلا غافلة عن مصلحة الآداب العامة والاخلاق أو متغافلة عنها . وهى فى الحالين تستحق استياء الأمة منها والتقريع عليها ، حتى التشهير بها .

أما السمسار ، فذلك مرتزق من غير الحلال ، من غير الطرق المشروعة قانونا أو عرفا . يأخذ من قلة عقل الشريف بالشراء ، ومن غفلة الحكومة عن حسن التصرف ؛ يأخذ من ذينك بأسباب رزقه الممقوت . هو يفهم

Digitized by Birzeit University Library

الحكومة كذبا استحقاق عميله للتشريف . ويضيف اليه من علامات الاخلاص للحكومة وامارات الخدم العمومية ، ماشاء له خياله أن ينسب كذبا لعميله الذى اتفق معه على ثمن أتعابه فى افساد الاخلاق ، وثمن سعيه فى الاستهزاء بالحكومة ورتبها ونياشينها . يأخذ المقدم ؛ فاذا تم التشريف يأخذ المؤخر . وقد يكون ذلك السمسار وجيها عند الحكومة راسخ القدم فى تزيين الباطل أمام عينها (الساهرة على مصلحة الرعية) فيكتفى من المشترى بالوعد . ومن سخافة المشترى أيضا انه بعد حصوله على الرتبة يدفع ثمنها وهو دين كدين القمار ، ان لم يدفع فلا مطالبة به . عجبا لهذا المشترى! يظهر بفساد الخلق عند الشراء وبسلامة الأخلاق ووفاء الوعد عند دفع الثمن !! على أن سليم الخلق الوفى بالوعد لا يشترى الرتبة بالفلوس

لا حيلة لنا فى إصلاح خلق السمسار ، ولا حيلة لنا كذلك فى رد المشترى الى العقل ؛ ولكن حيلتنا هى أن تنبه الحكومة الى هذا الشر الذى ليس لأحد أن يناقش فى ضرره على الاجتماع المصرى ، وجنايته على حسن الأخلاق .

يقال إن شراء الرتب بواسطة السماسرة أمر حاصل فى بعض البلاد المتمدنة جداً . وقد روى الثقات هذا الأمر فلا محل لانكاره . ليكن ما يقولون . فهل يبرر العيب أنه موجود فى بلاد متمدنة ؟ على أننا نقول إن الفضائل الاجتماعية والسياسية كثيرة فى تلك البلاد بحيث لا يؤثر فيها وجود ذلك العيب فى حكومتها . ولكن هذا العيب عندنا هو إضافة فساد الى فساد . وشتان مابين الأثر السىء فى بلد ناشىء وآخر مستور شيد .

بحرمة الأخلاق ندعو الحكومة الى تلافى هذا الخطر ؛ فحسبنا منها أنها حكومة شخصية ؛ وحسبها أن تشيد أبنيتها لتهدم من أن تكون هى أيضاً عوناً على هدم صروح الأخلاق .

Digitized by Birzeit University Library

فى التعليم الأدنى

فرغ المتنورون والحمد لله من المناقشة فى كون التعليم واجبا أو جائزا أو مكروها، إلا أقلية لا تكاد تذكر فى جانب الاجماع. تقول تلك الأقلية قولا لا يستطيع سامعه أن يمسك عن الضحك أو الابتسام عند سماعه. ونحن مع هذا نسرده للقراء حتى يموت أثره؛ لأن الباطل تقتله شهرته؛ كما أن الحق ينميه التصريح به

يقولون إذا كنا نعلم أولاد الفلاحين، فمن الذى سيزرع لنا أرضنا الفسيحة؟ أ تون لك على صحة هذه الدعاوى بأدلة من الحس. يقولون ان الذين استبدلوا الجلابية الزرقاء بالجلابية البيضاء. واللبدة الحمراء بالعمة البيضاء. الذين دخلوا الكتاب فأتموا فيه القرآن، قد خرجوا منه يترفعون عن الشغل فى الغيط وليس لهم إلا الطواف بالقرية من زقاق إلى زقاق، يجلسون عند كل مصطبة. ويجتمعون عند كل وليمة. ولم تنفعهم القراءة والكتابة إلا فى تزوير السندات وكتابة الشكايات، وأنهم على ذلك عالة على أهلهم وحرب على قريتهم، ولا يحسبون فى إحصاء العمال على أمتهم. أفتريدون أن تجعلوا كل الأمة مثل هذه الطبقة التى فقدنا بانتقالها من الجهل الذى تدعونه إلى العلم الذى تنشدونه، أذرعا نافعة لخدمة الأرض؟

حجة بالغة حد الاقناع إذا كنا نريد بالتعليم الأدنى أن نخرج مثل هذه الطبقة التى أخرجتها الكتاتيب القديمة. ولكنا نريد أن نعلم فى الكتاتيب الجديدة حب العمل، ونذكى فى القلوب نار النشاط. ونبذر فى النفوس بذور الفضيلة، ونستأصل منها جذور رذيلة التزوير والمطاعنة فى حق حضرات الأعيان، الذين يتوجسون خيفة من كل قارئ أو كاتب وجد فى قريتهم.

الجريدة: فى ٢٣ من نوفمبر سنة ١٩٠٨ العدد ٥٢١

Digitized by Birzeit University Library

ولا يريد القائمون بأمر التعليم أن ينقلوا صغار الفلاحين من شظف العيش وخشن الملابس ، إلى الترف الصارف عن التقصيب والتلويط ؛ بل هم على النقيض من ذلك يريدون أن تكون القراءة صفة تبعية لصفة الفلاحة أما البطالة التى سممت نفوس المتخرجين من الكتاتيب القديمة فليس سببها القراءة والكتابة لذاتهما ولا بقاء التلميذ فى الكتاب مدة الطفولة . ولكن سببها الحقيقى هو ندرة القارىء والكاتب . سببها الامتياز الذى كسبه المتعلم على إخوته وأولاد عمه الذين لم يتعلموا مثله فى الكتاب .

أعرف من عشرين عاما قرى ما كان فيها من يفك الخط ، إلا واحداً هو فى الغالب المأذون . وكان هذا المأذون يعتبر الشيخ الجليل والعالم الفاضل ، يفقه الناس فى دينهم الذى لا يعرف هو منه شيئا . ولكن أهل القرية يرونه يمسك بالقلم فيرقم به على الورق نقشاً يقول إنه الكتابة ؛ ويتلو ذلك على الناس فتسحر ألبابهم هذه الرسوم التى تدل على المعانى . يكبرون قدرة ذلك الشيخ الجاهل ويعتقدون فيه البركة ، حتى إذا مرض مريضهم طلبوا إليه أن يكتب له حجاباً يصرف عنه المرض . امتاز الشيخ عن الناس فى الاحترام ، فأحب أن يمتاز عليهم فى زيه وفى عاداته أيضاً . يلبس الأبيض وهو أفقر من لابسى الأزرق ، ويسكن إلى البطالة كما يفعل العلماء والزهاد المشتغلون بعقولهم . أحب كل زوج أن يعلم ابنه القراءة والكتابة والقرآن ، ليلبس البياض والعمامة ويحتذى بالمركوب الأحمر . ويقرأ المكاتيب . ويتلو القرآن فى الولائم حتى ينبه أمره ويشيع ذكره ؛ فيكون لأبيه وأمه من وراء ذلك الفخر ؛ وقل من لا يبغيه . من شأن هذا الولد الذى وهبه أبواه للقراءة — كما يقولون — ان يفضل على بقية إخوته فيتأخر عنهم فى القيام من النوم وتحجز له أمه خير ما فى البيت من الطعام ؛ حتى إذا صادفته مع إخوته يوم العيد حكمت بأنه ابن سيدهم لا ابن أبيهم ، لقفطانه الأصفر ومركوبه الأحمر ، ولأن بقية إخوته لا يلبسون إلا جلابية نظيفة

Digitized by Birzeit University Library

من البغتة . ذلك لأن هذا الموهوب للقراءة، سيكون فخرهم وعماد بيتهم؛ خصوصاً إذا نوى أبواه أن يبعثا به إلى الأزهر متى أطاقا فراقه .

على هذا النمط من الفكر امتازت طبقة البطالة فى الأرياف على طبقة العمل ؛ لا من القراءة والكتابة المجردة . لأن القراءة وحدها لم تشتر للتلميذ من السوق أسباب ترفه عن إخوته . بل الذى وضع هذا الامتيار إنما هو جهل الأبوين، فاذا أراد الأبوان تعليم جميع أولادهما فى الكتاب انقطع الامتياز بينهم بالمرة، وأصبحوا قارئين فلاحين فى آن واحد . خصوصاً متى لوحظ أن فى النية جعل الزمن اليومى للدراسة فى الكتاتيب هو نصف النهار، ويكون الولد فى النصف الآخر مساعداً لأبيه فى الغيط، والبنت مساعدة لأمها فى البيت :

متى صح ذلك وجب أن نقرب ما استطعنا من التعليم الاجبارى أى من تعليم الناس جميعاً القراءة والكتابة، حتى تمحى بينهم الفروق السيئة التى جاءت من تعليم البعض دون البعض الآخر . وتنمو بينهم المشابهات التى هى الركن الشديد للتضامن القومى .

يقولون إن مشروع الكتاتيب هو مشروع اللورد كرومر أو مشروع الانكليز، هم الذين ابتكروه وهم الذين حملوا المديرين والحكام الآخرين على ترويجه بجميع الطرق . على أننا نعرف أن مشروع تعليم القراءة والكتابة فى الأمة المصرية لا يعرف التاريخ مبدأه . ولا نظنه يعرفه فى أمة من الأمم التى لها لغة قديمة مكتوبة . وكلنا قد تعلمنا فى الكتاتيب ، قبل أن يحل بنا هذا الاحتلال .

لا ننكر أن اللورد كرومر بدأ فى تحويل الكتاتيب من نظامها العتيق إلى نظام يتفق مع مدنيتنا الحاضرة . ولكن من ذا الذى يقول بأن نظافة الكتاب و كفاءة المعلم ، يمكن أن يراد بهما تخريب البلد كما يدعون ؟ ولو أريد بهما ذلك، فها نحن أولاء والكتاتيب ملكنا وبين أيدينا ؛ فلننف

Digitized by Birzeit University Library

عنها جهة الشر ونسيرها إلى جهة الخير الذى نفهمه . وإلا فان السكك الزراعية قد خطت فى عهد الاحتلال ، والخزان بنى فى عهد الاحتلال؛ فهل يجب علينا قياماً بالوطنية أن نخرب الطرق الزراعية ونكسر الخزان، بفكرة انها ربما كان انشاؤها غرضاً مستتراً ضاراً كما كانوا يقولون ؟

*
* *

على هذا ننصح لحضرات الذوات الذين يثبطون العزائم عن انجاح الكتاتيب بأن يكفوا عن ذلك ، فانهم إذا كانوا يتبرمون بالكتاتيب ويتجنون عليها اتقاء المغرم فيها ، فان تصريحهم بعدم القدرة على مساعدة الكتاتيب أو بالبخل عن مساعدتها ، أشرف لهم وأليق بهم ، من أن يجلسوا فى المجالس العالية فلا يجدون فى أدمغتهم من الأفكار ما يقولون إلا محاربة بلادهم : مرة بسبب الأمة التى سودتهم وجعلتهم رؤساءها ؛ وأخرى بالانتقاد من غير علم على التعليم . جرأة فائقة : أن ينتقد الجاهل على طريقة التعليم . كأنى بهؤلاء الذوات وهم لا يعلمون من العلم إلا فك الخط ، يكبر على نفوسهم أن يساويهم فلاحوهم فى هذا الامتياز أيضا . ولكن ليطمئن أعداء المساواة . فان القراءة والكتابة فى هذا الزمن لا تعطى لصاحبها حق التقلب فى المناصب العالية ، كما كان الأمر فى الزمن السالف . وان لنا من الرأى العام قوة كافية لانجاح التعليم الأدنى والأعلى معا . فالرأى العام غالب على أمرهم ولكنهم لا يشعرون .

Digitized by Birzeit University Library

المرأة أيضا

إذا غصب الرجل حق المرأة فى المساواة وحقها فى الانتخاب والتوظف، فلقد غصبته حريته، وأقامت نفسها عليه ملكا لا يرحم عند المقدرة ولا يجامل عند الحاجة، ولا يعذر عند الزلة. كأن المرأة قد اتخذت من حب الرجل لجمالها سلاحا تنتقم به منه على مافرط فى تقدير المساواة بينها وبينه، وتقتص منه على فكرته السيئة فى اعتبارها موضعا للاستمتاع فقط. فهو يتحكم عليها فى المملكة وهى تتحكم عليه فى البيت، هو يظلمها فى وضع القوانين، ولكنها تظلمه بشىء أشق من ذلك بكثير وهو مصادرتها له فى احساسه ووجوده الخاص. قلتم لليهود انزلوا عن حق الحكم ولا تكونوا إلا تجارا. قالوا نعم ولكنا بالتجارة نملككم ونعرف الأمور بينكم، فكأنكم رضيتم من السيادة بالاسم دون الفعل، ورضينا منها نحن بالسيادة الفعلية دون الاسمية. كذلك قلتم للنساء لستن الا غرضاً من أغراض حبنا للزينة والتمتع. قلن لكم رضينا بهذا القسم، بل بهذا الصغار، ولكننا سنكون سيداتكم بما ملكناه من قلوبكم وسنذيقكم عذاب الهجر أحيانا ومرارة التجنى أحيانا. ثم نسخركم كالانعام فى هذه الزينة التى اخترتموها لنا شعارا، لتعلموا أينا السيد وأينا المسود. صدق اليهود وصدقت السيدات أيضا. فانك اذا مررت بمخازن البضائع وجدتها محشوة بأصناف غالية الاثمان كلها لزينة المرأة، وليس للرجل أمام ذلك نصيب كبير. مر بالفابريقات الكبيرة، تجد الآلاف المؤلفة من العمال يشتغلون لزينة المرأة دون الرجل. اطلع على دفتر حساب العائلة، لترى فيه كيف ان المرأة تصرف فى زينتها أضعاف مايصرف الرجال فى طعامهم وشرابهم وكسوتهم. اطلع على حال زوج

الجريدة فى ٢٦ من نوفمبر سنة ١٩٠٨ العدد ٥٢٤

Digitized by Birzeit University Library

مطمئن، تر المرأة تتدلل و تتجنى و تعذب و تغضب و ترضى، و تشترط لرضاها عن زوجها أن يشترى لها كذا و كذا. ومن هو موضوع ذلك التعذيب؟ هو الرجل الذى يظن حمقا أنه سيدها كما تقول له هى أحيانا: «ياسيدى». وما السيد إلا القاهر، وما القاهر إلا هى — ألا تعطون المرأة حقها فى الانتخاب، وفى كل ما يساويها بالرجل فى هذه الأحوال الاعتبارية، حتى ترضى هى أيضا بأن يساويها الرجل فى الحياة الداخلية، ولكى يخف عنه ظلمها ويقل منه انتقامها؟

تلك هى نظرة من نظرات «تولستوى» الصادقات، نشرناها هنا لقرائنا من الرجال والنساء و نلفت إليها فكرتهم على السواء، لعل فى ذلك عزاء لسيداتنا اللواتى هضم الاستبداد حقوقهن. و تقليلا من خيلاء الرجال الذين يظنون خطأ أنهم أسياد النساء خارج البيت وفى داخله: الذين يظنون أن بأيديهم قيادهن فلا يسرحن ولا يرحن إلا بارادتهم. كلام لا مصداق له من العمل اليومى.

سيقول بعضهم إن عذاب الرجل فى أمر يحبه عذاب يَعْذُبُ. وسيقول آخر إن الرجل ليس مملوكا للمرأة لذاتها، بل هو مملوك لشعوره الخاص بمحبتها، وإنه لا يحب المرأة لله كما يقولون؛ ولكن لأنه يجد فيها مكملا لشخصه فى الحياة، فهو بحبه لها يحب ذاته. وسيقول ثالث: أن يكون الرجل عبداً فى داره وسيداً فى الخارج، خير له من أن يسوى المرأة به، فيجعلها تشاركه فى الأعمال السياسية والعمومية لأن اشتغال المرأة بتلك الأعمال مفسد لها خطر على الوطن، موقف لدولاب الجد فى العمل وحسن القيام به، خلافا لمن يقولون ان المرأة تهز المهد بيمينها والعالم بشمالها.

ليقولوا مايقولون. فان الذى يهمنا نحن المصريين من الموضوع ليس هو مساواة الرجل والمرأة فى حقوق الانتخاب والتوظف. فان نساءنا بارك الله

Digitized by Birzeit University Library

لهن، لم يطلبن بعد مثل هذه المطالب المقلقة للراحة العمومية، كما هو الحال فى انكلترا. بل لا يطلبن شيئاً يعز علينا منحه لهن. يطلبن سعادتنا الفردية وسعادتنا القومية. يطلبن التربية والتعليم.

المرأة لا تجرى فى زينتها من غير عنان إلا اذا كانت لا تعرف فى الحياة فضيلة القصد. أى اذا كانت تؤثر الماديات على المعنويات. وذلك أقرب إلى المرأة الجاهلة منه إلى المرأة الفاضلة، التى قد تتخذ من فضلها خير زينة لها، وتغتبط بنتائج عملها فى ذلك الوجود.

فاذا كان الأمر على رأى تولستوى، وما أظن رأيه إلا صحيحاً جداً من أغلب وجوهه، أى أن المرأة هى فى الحقيقة مالكة الرجل وسيدته الحقيقية؛ وجب علينا أن نجتهد فى أن تكون ملكاتنا أقل ظلماً لنا وأكثر عطفاً علينا. وذلك لا يتم لنا إلا اذا كانت ملكات قلوبنا متعلمات طاهرات القلوب فاضلات بكل معنى الكلمة.

أليس ذلك اعتباراً جديداً يضاف إلى غيره من الاعتبارات الأخرى؛ فيجعلنا نهتم أفراداً وجماعات بترقية المرأة إلى درجة أعلى من مرتبتها الحالية.

Digitized by Birzeit University Library

شیء فی التعلیم

الحكومة منتجة مع نفسها، اذا كانت لا تسمع الشكوى من عقم طرق التعليم فى مدارسها . فانها يظهر على أقوالها وأعمالها أنها انما أعدت المدارس لا لتعليم العلم تعليما ملاحظا فيه خدمته ونشره وانتفاع الأمة به . بل لتعد لها رجالا أكفاء للقيام بوظائفها التى يكفى فى القيام بها معارف محدودة جدا، بل حسب الموظف فى تأدية الوظيفة سهولة انقياده .

يمكننا أن نقول من غير خوف، إنه لا يوجد فى نظارة المعارف العمومية مدرسة اتخذت فيها طريقة نافعة فى التعليم بمعناه الصحيح الا مدرسة القضاء الشرعى ، وان كان فى اسمها مايدل على ان التعليم فيها مقصور على مايلزم للقاضى الشرعى . ولكن بروجرامها وما نعهد فى كفاءة اساتذتها ، وما رأيناه من عادات طلبتها وحفظهم للروح الشرقية كما حفظوا زيهم الشرقى : كل ذلك من شأنه أن يخرج رجال علم مصريين تماماً .

كل شيء أوروبى مُمَصَّر فى هذه المدرسة، حتى علم الخواص التى أودعها الله فى الأجسام . فلا غرابة أنك اذا تلمست العالم العصرى المصرى لن تجده الا ممن يتخرجون فى هذه العلوم الممصرة ، منفعلة نفوسهم بالاعتقادات المصرية، سابغة عليهم العادات القومية . وهذا النظام لم يلاحظ فى مدرسة أخرى غير هذه المدرسة . فى كل ماعداها ، كله غربى لا مصرية فيه : اللغة العربية مجهولة عند أبناء العرب أو غير معروفة كما يجب . العلوم تدرس باللغة الانكليزية حتى تاريخ مصر، حتى الزراعة المصرية وآلاتها بالضرورة. آداب الجلوس وآداب الأكل وآداب المحادثة كلها غير مصرية . مبدأ علم الأخلاق إن كان يجرى على لسان أحد الأساتذة عفوا هو أيضا غير مصرى، أى ليس

الجريدة فى ٦ من ديسمبر سنة ١٩٠٨ العدد ٥٣٢

Digitized by Birzeit University Library

هو مبدأ الخير والشر المؤدى الى الثواب والعقاب فى الدار الآخرة . بل ربما كان ذلك هو مبدأ اللذة والألم ، أو مبدأ حب الذات .... أو نحو ذلك . صورة الجمال التى ترتسم فى نفس المتعلم فى تلك المدارس ، قل أن تكون مصرية . بناء المدرسة ونظامها قل أن يكون مصريا . أصناف الغذاء قل فيها الأنواع المصرية . كيفية الطبخ ليست مصرية أيضاً ، والنتيجة أن مدارس حكومتنا ليس فيها من المصرية إلا نسب التلامذة وتربة الأرض القائمة عليها المدرسة .

فاذا حذفت مدرسة القضاء الشرعى من بين مدارس الحكومة، لأمكنك أن تقول إن نظارة المعارف عندنا شركة تعليم أجنبية ، لجماعة الفرير أو الجزويت . إنه ليس للعلم وطن ولا للتمدن وطن، ولكن طريقة التعليم وطريقة التمدين يجب أن تاخذ الطابع الوطنى، حتى تمتزج بنفس المتعلم وعاداته الأصلية فى نفسه ، وحتى يبقى المتعلم بعد التعلم جزءا من أمته وفرداً من قومه ، حافظا لجميع المشابهات التى تربطه بهم، لا متخذاً عادات جديدة تربطه بغيرهم ، وتعتبر فروقا بينه وبينهم . لأننا على تلك الطريقة العقيمة فى مدارسنا من قرن من الزمان لم نحصل على علماء عصريين ، ولا على متعلمين يأنسون لأهل البلد . بل كل متعلم يكاد يلحظنا نحن قومه بعين الاحتقار ويريد لو يستطيع أن يغير أشكال ولائمنا الشرقية ومآتمنا الشرقية وعاداتنا البريئة ، التى لا جناية فيها على الأدب ولا على الخلق ؛ ولكن النزول عنها جناية على مشخصاتنا القومية التى نمتاز بها عما سوانا ، كما يمتاز هو عما سواه باسمه ولقبه وطوله وقصره ، ولازماته فى القول والعمل .

استهانت الحكومة بلغتنا فلم تخدمها فى مدارسها كما تخدم غيرها من اللغات الأجنبية ، حتى تجد المتعلم فى مصر قد يسهل عليه أن يتكلم فى علمه بالانكليزية الصحيحة، عن أن يتكلم بالعربية الصحيحة لا العامية . واستهانت من زمن بعيد بالعناية بتمصير التعليم بعد رفاعه بك والدكتور محمد على باشا

Digitized by Birzeit University Library

وأبى السعود وعلى مبارك نشأ رجال العلم المصريين . وهى مع ذلك كما قلنا منتجة مع نفسها ، مادامت تعد أبناءها ليكونوا مرؤوسين للانكليز فى ادارة البلد . هذا عذرها فما عذر جمعياتنا الخيرية !

ما عذر الجمعية الخيرية الاسلامية وجمعية التوفيق القبطية والعروة الوثقى والمساعى المشكورة فى المنوفية والأعمال المبرورة فى الفيوم . ماعذر هذه الجمعيات المصرية ، أن تتخذ بروجرام مدارس الحكومة قرآنا لاتغير فيه ولا تبدل !

اذا كانت هذه الجمعيات المصرية لاغرض لها إلا مساعدة الحكومة هى أيضا فى إعداد موظفين لها، فسعيا مشكوراً الى الآن . فان متخرجى المدارس العالية قد صاروا أكثر عددا مما يلزم لوظائف الحكومة .

وإذا كانت لاتريد ذلك، بل تريد أن تعمل الخير بالتعليم، فلا خير فى هذا التعليم الذى لاغرض له إلا التكثير من عدد المتعلمين تعليما قد ينفع الحكومة، ولكنه لا ينفع العلم والوطن .

أما إذا كانت تريد أن تعلم الناشئين لانماء عقولهم وملكاتهم حتى يستعدوا ليكونوا رجالا مصريين قادرين على النجاح فى معترك الحياة الشخصية والاجتماعية ، فلتسمح لنا مجالس ادارة هذه الجمعيات أن نصرح لهم من اليوم، بأن الطريقة التى يسلكونها ليست هى التى تحقق مايقصدون .

ليس من غرضنا أن نغمط حق هذه الجمعيات من الاغتباط بنتائج أعمالها لمصر . فانا نعترف بالخدمات الجليلة التى أدتها الى الآن لمصر، ولكننا نطالب منها أن تغير بروجراماتها تبعا لأطماع الأمة من الرقى التعليمى . فان الوقت تغير وتغيرت أفكار الناس بعض الشىء فى الغرض من تعليم أبنائهم وصار العلم الحديث يطلب فى مصر لذاته لا ليكون وسيلة لخدمة بعينها أو مصدرا لنوع مخصوص من أنواع الرزق .

البروجرام أو قانون التعليم، هو قواعد تنظيم الروابط بين المعلم والمتعلم

Digitized by Birzeit University Library

وبين قضايا العلم . كما أن القانون العام ينظم روابط الأفراد على قضايا المعاملات بينهم . وليس كل قانون يصلح لكل بلد، بل لابد من أن يلاحظ الشارع فى وضع قانونه ، حالة أهل بلده من جميع الاعتبارات .

كذلك الأمر فى قانون التعليم يجب أن يلاحظ فى نقله من أوروبا الى مصر، أو من نظارة المعارف إلى الجمعيات الخيرية، استعداد البلد لقبول القانون واستعداد التلامذة لقبول طريقة التعليم، والمنتج منها والعقيم.

الآن قد وضعت نظارة المعارف قاعدة جديدة لم تكن من قبل : وهى أن لغة التعليم هى لغة الامتحان، وأن التلامذة يقبلون فى تأدية امتحان الشهادة الثانوية باللغة العربية .

الآن قد كادت تتم حلقات سلسلة التعليم الأهلى من الكتاتيب إلى المدارس الحرة ابتدائية وثانوية، إلى الجامعة التى ستبتدىء دراستها بنوع ما هذا العام .

الآن ابتدأ الناس أن يتعلموا العلم ليكونوا رجالا يخدمون أنفسهم من أشرف الطرق، ويخدمون بلادهم بآكد وسائل الخدمة .

أمام كل ذلك، يجب على جمعياتنا الخيرية ألا تجمد على بروجرامها الأول، فتجعل اللغة العربية هى وسيلة العلم والأخلاق والفلسفة والدين؛ قاعدة للعلم . وأنها اذا فعلت ذلك جاءت بالمقصود منها، وأدت من المنفعة للأمة أكبر ما يمكن .

Digitized by Birzeit University Library

تؤذيه ، ولا يلطم بائع الجميز بحجة أن نفسه تمجه أو لا تشتهيه . لكل طعام ذوق ، ولكل ساقطة لاقطة

ليس « الهايدبارك » هذا منبراً خاصاً بأولئك الخطباء العاديين الذين قد يبدأ الواحد منهم خطابته على فردين أو ثلاثة ، بل هو أيضاً موضع المنبر العام لكبار الخطباء المفوهين وبلغاء السياسيين . فقد كان غلادستون كلما ضاقت قاعة البرلمان بصوته العالى وأغراضه الكبيرة ، عمد إلى هذا المتنزه العمومى الكبير يخطب الألوف من الناس الساعات المتوالية ، فيحول الأمة من فكرة إلى فكرة ، ويخرجها من مقصد إلى مقصد . كذلك يفعل « كرهاردى » وغيره من الخطباء الانكليز إلى اليوم . يخطبون فى الناس من غير ملاحظة رسوم ولا نظام ولا اشتراط دعوة ولا تكاليف ، حتى تكون الأمة واقفة بواسطة هذه الألسن الرسمية على ماجريات الحال فى الحكومة ، فلا يفوت فرد من الأفراد أى مقصد من المقاصد الكبيرة للحكومة ، كاعلان حرب أو سلم أو تقريب بين أمتهم وبين أمة أخرى ، أو ضرب ضريبة عامة أو ايتاء النساء حق الانتخاب . وبهذه المناسبة يحسن لى أن أثبت هنا حديثا جرى بينى وبين أحد الفعلة الانكليز فيما يتعلق بحق الانتخاب ، وإنى لأتسامح الآن فى أن أنشر ذلك الحديث من غير ذكر اسم محادثى لأنى لا أعرفه ، ومن غير إذنه لأنى ما فكرت وقتئذ أنى سأنشره ، ولأن حديثه يكاد يكون فكرة الفعلة الانكليز أو أغلبهم .

جلسنا إلى جانبه أمام مقبرة العظماء « وستمنستر أبى » فوجد بيد صاحبى جريدة النساء الطالبات حق الانتخاب ، وفيها طعن على « أسكويث » ومداعبة للسير « إدوارد جراى » . قال العامل لصاحبى : ماذا تقرأ وما رأيك فى انتخاب النساء ؟ وكان هذا السؤال فاتحة القول بيننا جميعاً على هذا الموضوع . قال العامل : أنا لا أرفض مشروعا يحقق معنى المساواة بين الناس ، ولا بين الرجل والمرأة ، بل على العكس من ذلك أرى مصلحتى ومصلحة أمثالى العمال فى أن المساواة تأخذ ما يمكن أن يكون من كمالها بين الناس . ولكننى لا أرى هذا

Digitized by Birzeit University Library

وجب أن يكون الغرض الأول من التربية والتعليم ، هو إصلاح الاخلاق وتقويم العادات .

ليس من الصعب على أحد أن يفرق بين الخير والشر ، ولا بين القبيح والحسن ، أو بين الفضيلة والرذيلة . فانا قد ورثنا من الأجيال الطويلة التى قد خلت من قبلنا من العقائد الدينية والتعاليم الانسانية والعادات العامة، ماقد جعلنا جميعا نفرق بين الخير والشر، سواء فينا الذكى والغبى والعالم والأمى؛ خصوصاً فيما يتعلق بأمهات الفضائل وأمهات الرذائل . ولكن الصعب علينا هو أن نروض أنفسنا على مباشرة الخير ومباعدة الشر، أى الأخذ بالأسباب التى تقرب أفراد الانسان بعضها من بعض، والبعد عن الأسباب التى تفرقهم . ولئن أعوز شبابنا أن يعودهم أمهاتهم وآباؤهم فى البيت ، وأساتذتهم فى المدرسة، الأخذ بأسباب الخير أى بالفضيلة، وترك أسباب الشر، أى الرذيلة، فان لهم من أنفسهم خير مهذب .

إن أحدنا يستطيع أن يتعلم السباحة من غير معلم، ويتعلم ركوب الخيل من غير معلم، ويجيد الرمى بالسلاح من غير معلم، بل يمكنه أن يتعلم العلم أيضا من غير معلم . كل ذلك يمكن حقيقة بالتمرن والاعتياد ، وإن لنا فى أعمال الناس وظواهر الطبيعة نماذج نتعلم عليها، فهل يصعب بعد ذلك أن يمرن الانسان نفسه ويعودها مايعرف أنه الخير أو الفضيلة ؟ نحن لانحتاج فى تقوية أبداننا إلى معلم يعلمنا كيف نتغذى غذاء مقوياً ، ونأتى التمرينات العضلية التى تجعل الانسان من شدة البدن على ما نراه فى الفلاحين، الذين لم يقف أحدهم مرة فى ملعب الجمناستيك؛ فكيف لايمكنه أن يقوى نفسه ، اذا أمكنه أن يقوى جزأه المادى، فيجعله صحيحاً سليما أيضاً .

لشباننا المتعلمين عادة حسنة ؛ هى أن الواحد منهم يتخذ فى غرفة نومه « ساندوز » أو أثقالا من الحديد، يمرن عضلاته بها كلما هب من نومه، ذلك

فوق مايعنون به من ركوب الخيل، ودورة الجزيرة على القدم .

Digitized by Birzeit University Library

فليس ببعيد على هؤلاء أن يتخذ أحدهم فى غرفة نومه أيضا آلات معنوية يمرن بها نفسه على الصحة والسلامة. تلك الآلات هى أبسط كثيراً من الساندوز المركب. هى الخلوة بالنفس ومحاسبتها كل ليلة على أعمالها.

لست أشك فى أن محاسبة النفس على ماصدر منها من الأعمال، وما جال فيها من الخواطر، وما عقدت عليه النية من الأمور، هى أمر صعب فى أول يوم، تجد النفس دائما لذاتها عذراً تعتذر به عن أعمالها الضارة وأفكارها الشريرة ومقاصدها السيئة، ولكنها بالزمان تبطل أعذارها وتصفو. ومتى صفت النفس بالمحاسبة، رأيت فيها دفعة واحدة كل أعمالها الماضية وأفكارها كما تنظر فى المرآة واستحيت من تكرير الاعتذار عن الخطأ. بعد ذلك تحصل النفس على السلامة وتقدير أعمالها بميزان العدل، ويصير الخير لها عادة لاتحب النزول عنها، فالانسان أسير عادته.

Digitized by Birzeit University Library

الشرف

الشرف صفة شائعة لا يوجد فى الناس واحد إلا ويدعيها لنفسه، ولكن قل فى الناس من يقيم من عمله دليلا على صحة دعواه .

فى مجالس الكبراء، كما فى مجالس الصغار ، تسمع كلمات نفيسة تردد فى آخر كل حكاية من الحكايات اليومية التى يقصها أحد الكبراء على الآخرين، بيانا لما كان بينه وبين رئيس الحكومة، كما يقص العامل على زملائه ما حصل بينه وبين المعلم فى المعمل ، وبين زميله وبين الاسطى الطاهى فى المطعم .

كل راو من هؤلاء الراوة المختلفين فى التربية والعلم، المختلفين فى المراكز الاجتماعية، المختلفين فى المجالس، المختلفين اختلافاً شديدا فى كل شىء، إلا فى اللحن فى اللغة العربية ،كلهم يردد أن العمر واحد : والرزق واحد ، وأنه لاشىء أعز على الانسان من شرف النفس، فخير له أن يعدم الحياة قبل أن يعدمه . هكذا يقولون فهل هم به يعملون ؟

تختلف ألفاظ ادعاء الشرف ومعناها واحد . إن كل محدث عن نفسه لا يختم حكايته إلا بما يجعله فى عينك الرجل الصحيح الفكر السليم القلب الذى لم يخطىء مرة فى تقدير وظيفته فى الحياة، ولا فى تقدير فضيلة الشرف من نفسه، فيقول أحدهم « لا يأخذ الروح إلا خالقها » ويقول الذى له معرفة بأخبار السلف وآداب العرب إنه يتمثل بقول « عبد الله بن محمد بن أبي عيينة » يعاتب أميراً قدم عليه غيره فى التشريفات :

كأنك لم تر أن الفتى الـ   حمى إذا زار يوما أميرا
فقدم من دونه قبله   ألست تراه بسخط جديرا
ألست ترى أن سفّ التراب   به كان أكرم من أن يزورا

الجريدة فى ١٣ من ديسمبر سنة ١٩٠٨ العدد ٥٣٧

Digitized by Birzeit University Library

ويتمثل آخر بقول رابلى : « الرجل يساوى القيمة التى يقدرها لنفسه »

إذا رأيت - كما رأى غيرك - مديراً من مديرى الأقاليم يقبل يد المستشار اشارة إلى أنه قد دخل فى عداد بنيه المطيعين ، أو خدمه الخاضعين الخاشعين، لأن المستر «متشل» لم يكن فقيهاً فى الدين ولا هو من أولياء الله الصالحين .

إذا رأيت ذلك، وقست على هذا المدير كثيراً من الموظفين الكبار الذين ربما لم يغلوا فى دين الضعة إلى هذا الحد ، ولكنهم على الأقل قد وضعوا أنفسهم برفق فى موضع الخدم الخصوصيين من المستشارين - حكمت بأن ذلك المدير ومن تقدمه أو تأخر عنه قليلا فى ميدان الضعة، إنما هو متنازل عن دعوى الشرف .

وإذا رأيت بعض القضاة فى نظارة الحقانية مظلوماً يسترحم من ظنهم ولاة أمره ليأخذوا بناصره من ذلك القدر الذى حط عليه، فيرقوه إلى درجة أعلى من درجته ، على أن هذا القاضى يعلم أنه لا يكون عادلا إلا إذا كان مستقلا ، وأنه لا يكون مستقلا إذا أحس أنه مظلوم أو اعتمد فى كشف ظلامته على موظفى الحقانية الاداريين الذين يجب أن يقطع بيده بينه وبينهم صلة المرءوسية، لا أن يسعى هو بقدميه إلى تثبيت هذه الصلة المعيبة .

إذا رأيت ذلك القاضى على تلك الحال، حكمت بأنه هو أيضا متنازل عن دعوى الشرف .

وإذا رمى بك القدر إلى أن تحضر مجلس المدير لا فى مصر ، ولكن فى مركز وظيفته ، وجدت كثيراً من الأعيان يجلس فى مجلسه مسحوراً بوهم خاص من الشرف ، توهم أنه حاصل عليه لمجرد كونه فى حضرة المدير .
ولا تسل بعد عن عدد « ايوه يا افندم » « رأى سعادة المدير فى محله » « ربنا يخلى سعادة المدير » وما يحيط بكل لفظ من هذه الألفاظ من الاستجمام فى البدن واشارة الخضوع، مايجعلك تضحك قهقهة من ذلك العابد والمعبود . إذا رأيت ذلك حكمت بأن ذلك العين المحترم هو أيضاً متنازل عن دعوى الشرف .

Digitized by Birzeit University Library

اذا عاتبت أحد هؤلاء على مسافة الخلف الفسيحة بين قوله وبين عمله ، لانبرى يحجك باقناع وفصاحة عامية، ليثبت لك أن تقبيل يد المستشار لمجرد أنه رئيسه، أو التوسل الى الحقانية لزيادة الراتب، أو الخشوع والتكتف البارد فى حضرة المدير لنيل رتبة او نيشان أو مساعدة فى الانتخاب ، كل ذلك لا يناقض معنى الشرف ولا تدور صحته إلا على معنى واحد، هو أن إرضاء الرئيس واجب

ليس الواقع أن مظاهر التملق والنفاق هذه أصلها فى النفس حب القيام بالواجب، بدليل أن الذين يأتونها لا يذكرون أولئك الرؤساء فى خلواتهم إلا بالشر والغشم والظلم ، بل بما شاء الشاتم أن يشتم . بل الواقع هو أن حكومة الاستبداد قد طال عهدها فينا ، فأماتت فى نفوسنا كثيراً من الصفات العالية؛ حتى الصفة الشائعة التى هى الشرف ، لم يبق منها فى كثير من النفوس إلا ظل متحول، تطرده المنفعة أمامها الى حيث شاءت .

ولكن الذين ينزلون عن الشرف الذاتى رغبة فى الحصول على المنفعة، إنما هم مخطئون جداً فى تقدير معنى الحياة، مخطئون جدا فى فهم معنى النجاح فى الحياة .

ليس معنى الحياة الانسانية أن يسوق الرجل نفسه الى الرق، فيقع فيه طائعاً مختارا، يتخذ له أسياداً بمقدار أنواع المنافع التى يتلمسها. فأنه يكون بذلك قد باع نفسه بثمن بخس، هو شىء لا يقوّم وجوده الخاص ، ولا يحميه من أمر الله اذا جاءه ولا ، ولا . بل هو عند الموظف زيادة فى الرزق يستعين بها على إفساد نفسه بالترف ، وعند غير الموظف رتبة يستعين بها على افساد نفسه بالغرور.

كل يعلم أنه لم يعزل أحد فى هذه الحكومة من وظيفته لأنه شريف بمعنى الكلمة، ولم يحبس أحد من الأعيان لأنه شريف بمعنى الكلمة . وليس العزل ولا الحبس على فرض وجودهما ، يستحقان أن يفتدى المرء نفسه منهما بالتنازل عن قيمتها . على أن الذى نعرفه من الأمثلة الحسية أن المرء كلما كان بعيداً عن الاستهانة بذاته، كان قريبا من النجاح فى الحياة فى جميع صوره .

Digitized by Birzeit University Library

انكار الذات

حتى فى الطبقة الواطيـة من الناس، تجد رجلا يملق آخر ويطيعه طاعة عمياء. تجد ذلك بين شريكين فى بضاعة من الخضر والفواكه، تباع على عربة اليد. رأس مال الشركة لايتجاوز عشرات القروش. ترى أحدهما كظل للآخر الذى يحدد له ثمن البيع، ويرسم له الحارات والأزقة التى يجول فيها وساعات هذا الجولان، وربما حدد له النغمة التى بها تكون المناداة والاعلان عن البضاعة. هما متساويان فى الخلقة، متساويان فى الثروة والوسط، متساويان تقريباً فى كل المقومات الانسانية، ولكن أحدهما له شخصية وأنانية. عنده معنى أنه انسان ذو وجود خاص وارادة معينة، له اعتماد على ذاته واعتداد بنفسه. وأما الثانى فأنه لايضع نفسه حيث يريد بل هو يضعها حيث يريد صاحبه، فلا يرد له قولا، ولا يناقش له فكرة، بل يلوح عليه أن نفسه فضولية، لاقوام لها من ذاتها، بل لابد لها من نفس أخرى تسودها؛ تضبط حركاتها وتسير ميولها وتحدد رغائبها.

هذا الذى يمحو ذاته يغتبط كثيراً برضى سيده عنه. مثله فى ذلك كمثل كلب «الصالون» يدور يجرى حواليك يستنزل منك نظرات الرضى عنه والاقرار له بمظاهر إخلاصه. إن هذا الانسان الساذج، قلت ثقته بنفسه إلى أن ظن أن لاعيش له إلا من التقرب من شريكه على هذه الصورة الخطرة على شرفه، فكان من وراء ذلك إنكاره لذاته.

سرح نظرك لا الى تحت كما فى المثل السابق، بل فى مستوى الوسط، تجد بين هذه الطبقة الوسطى أيضا مستخدما او موظفا يدلى بكل مافى وسعه الى رئيسه، ويعتاد على ان يفهم أن الخير هو مايرضى الرئيس والشر هو مالا

الجريدة فى ١٢ من يناير سنة ١٩٠٩ العدد ٥٥٩

Digitized by Birzeit University Library

يرضيه ، وكبرت فى نفسه هذه الفكرة حتى اختلطت عنده حدود الطاعة والعبودية والاخلاص وانكار الذات، فتجرد عن نفسه ارضاء للرئيس الذى لا يعلم من فضله شيئاً غير كونه قادرا على أن يرقيه من درجة الى درجة، أو أنه ينقله من قنا إلى الاسكندرية . إذا وقف أمام رئيسه او جلس معه تفرس بنظرات خاصة بهؤلاء المتملقين ليرى ماذا يحب الرئيس فيسبقه اليه ، وماذا يكره الرئيس من الناس ، فيفيض هو فى تقبيحه . قال أحد الثقاة كنا فى مأدبة مع رئيس لنا، وكان أحد إخواننا الموظفين مقربا لديه ومشمولا برعايته فى المعاملة والترقيات، وكان مجلس أخينا هذا من المائدة على ناحية من الرئيس بحيث لا يراه . فكاد يمد عنقه ليرى ماذا أخذ الرئيس من الأطعمة ، وماذا ترك ، حتى يقلده فى الأخذ والترك . ولكن زميلنا قد سهى مرة فأخذ من طبق عافه الرئيس ولم يأخذ منه، فلما تنبه الى ذلك لم يذقه بعد ، ونادى الخادم ليرفعه من أمامه . لم يقتنع هذا المرءوس بأن ينكر نفسه طمعا فى ارضاء رئيسه، بل تدرج إلى اشهادنا جميعا عليه أنه قد تسلب من إرادته وأنكر ذاته؛ ومن هذا الصنف عندنا مع الأسف كثيرون .

ارفع نظرك إلى فوق ، تجد فى الطبقة العالية أيضا ماقد وجدت فى الطبقتين الوسطى والدنيا . ترى الحاكم الكبير أو الوزير أمام السلطة، ينزل عن رأيه، لا لانه اقتنع بما يخالفه، ولا ليحتال على تنفيذه بطريقة أخرى ليحصل من وراء ذلك على ارضاء ضميره وايصال النفع لامته، ولكن لمحض إرضاء السلطة ، يتسلب عن ارادته ويجاوز حدود ما يعتقده الخير ليبقى ممتعا بنعمة الرضى عنه والالتفات اليه، ليدفع عن نفسه خطر السقوط، وان الذى فعل انما هو السقوط بعينه . يخاف الفقر فيحرص على مركزه؛ ولا أفهم أن الانسان يمكن أن يكون من الفقر المدقع فى شقاء يماثل شقاء ذلك الذى يتساهل فيما يعتقده الحق، فيصير له هذا التساهل عادة يجنى من ورائها كدر الضمير وهم النفس، للبقاء فى مركز كاذب من المجد الباطل والفخر الغشاش .

Digitized by Birzeit University Library

لو علم الانسان مقداره   لم يفخر المولى على عبده

ذلك العين الكبير الذى يفنى فى إرادة غيره حبا فى ارضائه ، والوزير أو المشير الذى يفنى فى إرادة من فوقه طمعا فى رضاه : كلاهما مستهين بنفسه منكر لذاته .

ينكر العالم الصوفى ذاته لتفنى نفسه فى أفق أعلى من أفقها بكثير ، ولتخلص من أرجاس المادة إلى طهر المجردات . وينكر خدام الوطن أنفسهم لتفنى فى مبادئهم ، يقضون على مصالحهم الذاتية لمصلحة المجموع ، وينزلون عن حياتهم الفردية لحياة المجموع . ويفنى العالم المحقق فى مبدئه الذى يسعى لنشره واقناع الناس به ، فينسى شخصه أمام ذلك الغرض العالى . كل أولئك ينكرون ذواتهم ويميتون شهواتهم لتحقيق إرادتهم . وهؤلاء هم الذين كانوا فى كل جيل ، العلل الاولى لانتقال الجمعية البشرية من درجة إلى أعلى منها من درجات الكمال ؛ فاولى بهم الا يسمى تفانيهم فى خدمة المبادىء انكارا للذات ؛ ولكنه على العكس من ذلك محافظة على الذات وتشريف لها لتخلص من اللذائذ العرفية الواطية ، إلى اللذائذ الجميلة الدائمة . ليس الدافع لهؤلا الاخيار هو — كما يظن خطأ — الدافع لجماعة المغلوبين على أمرهم المقهورين على إرادتهم، الذين أشرنا إلى طرف من وصفهم فى الأمثلة الثلاثة فى صدر هذه الكلمة .

يظهر أن إنكار الذات على تلك الطريقة المعيبة فى الطبقات الثلاث من الناس سببه ضعف فى النفس ووحشة من اعتمادها على ذاتها ، لا اعتماداً كاملا ، ولكنه مقيد بحدود نظرية الاجتماع الانسانى الذى هو طبيعى فيه ، لا تقوى تلك النفس بعد هذا المرض الذى لحقها على تحمل مسئولية الوجود الخاص ، وينقص فهمها لمعنى الحياة وتقدير أسباب السعادة فيها . وإن نفسا تجردت بحكم العبودية عن شخصيتها ، يستحيل أن يرجى منها خير لذاتها أو لغيرها ، بل هى على العكس من ذلك تنقل أمراضها إلى غيرها ممن وضعتهم الصدفة

Digitized by Birzeit University Library

السيئة تحت سلطتها ، بالطبع أو بالوضع . مثل هذه النفوس خير ما تعالج به إلفاتها إلى ذواتها وتعويدها على استرداد إرادتها المفقودة ، حتى تكسب شخصيتها إذا أمكن ذلك .

الأمة عائلة مكررة أو فرد مكرر . فاذا كملت صفة الاستقلال الذاتي فى الأفراد ، حصل الاستقلال العام للأمة من غير إبطاء . وإن التضامن بين أفراد الأمة سببه اتساع دائرة المشابهات ، وضيق دائرة الفروق بينهم . وإن اخير المشابهات ما كان فى الصفات العالية كالاستقلال الذاتى وإباء الضيم وحب الحق والعدل ، وشرها ما كان فى الصفات الدنيئة ، صفات العبودية كأنكار الذات لارضاء ذى سلطان وما يتفرع عن هذه الرذيلة من الخبيثات . مشابهات النوع الأول توجد تضامنا إيجابيا يرفع الأمة ، ومشابهات النوع الآخر ، توجد تضامنا سلبيا ، معه يستحيل على أمة أن تطمع بحق فى لحرية العامة والاستقلال .

Digitized by Birzeit University Library

الموظف المصرى

يبتدئ الشاب المصرى فى خدمة الحكومة مملوء القلب بالرجاء فى حياة سعيدة. حَادّ الملكات لشبابه وقرب عهده بسنى الدراسة، لا يقل فى حريته واحترام ذاته عن أمثاله فى الأمم الأخرى. ولكنه مع ذلك بعد قليل من الزمان فى أعمال الحكومة، لا يلبث أن يشتهر بين مواطنيه بشيء من الضعف فى العزيمة، والتساهل فى أخذ الحق، والتفريط فى أداء الواجب. يشتهر عنه ذلك حقا أو باطلا: سواء. والنتيجة أنه يعرف بين مواطنيه بقلة الكفاءة لمركزه. فاذا جاء خبر رقيه من منصب إلى منصب، ابتسم عارفوه وأكبروا تصرف النجدة فى بنى الانسان وقالوا: « قيراط بخت ولا فدان شطاره »

يكبر الموظف فيصير مديراً محترماً أو وزيراً مبجلا، فلا ينجح كثيراً فى كسب ثقة أمته. حتى إذا تغيرت عليه السلطة المطلقة وتصدته بالشر من غير سبب، لا تجد فى الناس من يهم للانتصار له والاحتجاج على الحكومة فى أمره؛ ولا من يذهب إلى داره من عارفيه ليعطوه على الأقل من إظهار عطفهم عليه، شيئا من الاغتباط على حسن صنعه والرضى عن ذاته. لا هذا ولا ذاك. بل ترى الناس ينصرفون عن مقابلته ويستهينون من أمره، وربما لا يقف أمرهم عند هذا الحد؛ بل ينقلبون عليه عملا بالقاعدة العتيقة « الناس على دين ملوكهم »

ترى الموظف المصرى متى خرج من الحكومة عدلا أو ظلما، استكن فى داره وقصر مجلسه على بعض اخصائه واستوحش من بقية الأحياء. كأنما انفصاله عن الحكومة كان معناه انفصاله عن الحياة الاجتماعية، فلا يراه أحد فى الأعمال العامة إلا فى شهود الأفراح أو المآتم. يبين عليه انه

العدد ٥٦٧ فى ٢١ من يناير سنة ١٩٠٩

Digitized by Birzeit University Library

قد فـقـد بالخروج من الوظيفه ركناً مهماً من أركان حياته . يقدر نفسه كما قدره الناس . وينسى ان الوظيفة لم تكن من مقومات حياته ولا جزءا من ماهيته ، بل كانت رداء يرتدى به ليخدم بلاده ، فنزعه ليلبس رداء آخر ، يخدم به بلاده أيضاً

إذا قارنت بين الحالة النفسية « البسيكولوجية » لذلك الموظف المحال على المعاش أو المستقيل ، وبين حالته النفسية حين أتم دراسته ودخل الحكومة لأول مرة، لوجدت ان استقلاله الذاتى لم يستفد متانة من التجربة فى العمل فقط، بل ان ذلك الاستقلال قد ضعف جدا من نفسه أو كاد يموت

علة ذلك كله هو « الوسط »

من الموظفين من لا يلحظ فى الوظيفة شيئاً آخر غير الرزق. وهؤلاء إذا ألقى بينهم شاب مستقيم الأخلاق لا يسمع من أفواهم ولا يرى من أعمالهم الا معنى واحدا ، هو ارضاء الرئيس أو عبادة الرئيس . لا يراهم يخافون الا من شىء واحد . هو قطع العيش . تقع هذه المعانى المنحطة على أذن ذلك الشاب ـ حديث العهد بتقليد الفلاسفة فى زهدهم وحسن توكلهم على الله ؛ والعلماء فى جرأتهم واحتقارهم مظاهر الحياة ـ فى أول مرة ، موقعا سيئا ، وأقل منه سوءا فى المرة الثانية ؛ حتى يعتاد سمعه ان الواجب هو التزلف للرئيس . والحق هو التزلف للرئيس. والعقل والاعتدال هو التزلف للرئيس . والشرف والمروءة هما التزلف للرئيس . ولو قال لاخوانه انهم خملوا ، وان الشرف غير ماهم يفهمون، لانبرى اليه الناس من كل حدب يرمونه بالنزق والطيش وسوء الأدب والادعاء إلى غير ذلك، مما يجعله يتجنب بادىء الأمر مناقشتهم. ينتهى الحال بهذا الشاب أن يماريهم، ثم يصير منهم بعد قليل من الزمان، أو بعد أن يذوق حلاوة النتيجة التى يؤدى اليها مذهب الضعف والتملق . يذوق حلاوة رضى الرؤساء من الترقى من وظيفة إلى وظيفة، وزيادة

Digitized by Birzeit University Library

الترف التى تقتضيها زيادة الراتب، فينزل من حيث لا يشعر عن مرارة الجد والفضيلة إلى حلاوة الهزل والرذيلة. فانظر ماذا يفعل الوسط.

يلقى الشاب المتعلم بعد خروجه من المدرسة وسطا آخر غير وسط زملائه. هو وسط الأقارب والأصحاب الذين يرجون منه أن يكون رئيسا مطاعا يخدمهم بجاهه وموسرا يبرهم بماله. يسمع أيضا فى هذا الوسط ما قد يسمعه فى وسط الزملاء.

يلقى الموظف غير ذلك كله الوسط العام للحكومة. يرى فيه بالنظر المجرد ان الحكومة بسلطتيها كأنها يعز عليها أن يوجد فى البلاد رجال أولو أخلاق لا تلين أمام الشدة، ولا تضعف أمام القوة، ولا تتغير أمام الوعود الجميلة. كأن الحكومة المطلقة تظن - وظنها حق - ان امثال هؤلاء الرجال أولى الاخلاق الصحيحة إذا كثروا فى أمة من الأمم، شدوا إزرها، وقلبوا أمرها من حكومة مطلقة تحكم بأمرها، إلى حكومة مقيدة لا أمر لها إلا ما أرادت الأمة. فهى لحفظ وجودها تنظر إلى الموظف المستقل نظرة المتوجس فى أمره، المشفق من اشتهار ذلك الموظف فى قومه وكسب ثقتهم. بل تخشى أن يلتفتوا حوله فيشتدوا به ويقوى بهم، ومن وراء ذلك الجامعة القومية أو التضامن الأمى الشديد، الذى متى كمل لا تقف حكومة فى وجهه. فكأن الحكومة تجرى فى تصرفها هى أيضاً مع الموظفين المستقلين على مبدأ تجريدهم فى ميل الأمة نحوهم، وانعطافها عليهم. ولا شىء أدل على هذا الظن من الواقع الذى يعلمنا انه ليس للآن ولا واحد من كبرائنا خرج من الحكومة حائزاً رضى الأمة عنه وثقتها به. والعقل يمنع أن كل الذين خرجوا من الحكومة لا يستحقون ثقة الأمة.

بين هذه الأوساط وغيرها من الأوساط الأخرى، أوساط الذين وهبوا أوقاتهم للانتقاد من غير علم، والذين تصدروا للنصح والارشاد من غير فضيلة، والذين لا يستحيون من ضمائرهم فيقلبون للناس الحقائق حسبما

Digitized by Birzeit University Library

تشتهى مقاصدهم . مظلوم بين كل هذه الأوساط ، ذلك الموظف الناشىء الذى يحب الفضيلة ويجعل لها فى حياته المقام الأول . يظلم نفسه كثيراً إذا طمع أن يعيش فى هذه الأوساط ويرضى عنه أهلها . ومخطىء جداً اذا ضحى إرضاء نفسه البريئة الطاهرة فى سبيل إرضاء الوسط الذى يعيش فيه .

على ذلك ننصح لشبيبة الموظفين أن لا يتجردوا عن مبادئهم القويمة ، بحجة انها نظرية لاعملية ، أو بحجة انها لا ترضى الأوساط الذين هم فيها . ننصح لهم بأن يقيم كل منهم على مبدئه الذى يعتقده الحق ، وأن يتمرن كل يوم على تضحية مركزه فى سبيل الثبات على مبدئه من الحرية والرفعة وعدم الاحتفال بارضاء هوى الرئيس ، اذا كان خارجا عن حدود الفضيلة ، وعدم الاصغاء الى نصائح وسط الزملاء ووسط العشراء . وإلا كان جهله خيرا من علمه الذى قضى فيه حياته ، وفضائله التى حرمته فى عنفوان شبابه من كثير من لذائذ الاباحيين .

نكرر كل يوم أن النفس الواحدة إذا علت إلى معرفة قيمة الحياة ، وصبرت على احتمال غضب الوسط وانتقاصه إياها ، تشععت خلالها فى الأمة باسرها . فما ظنك بالفائدة التى نستفيدها من هذه النفوس الكثيرة البريئة ، التى لا يحجبها إلا مجاراة الاوساط التى ذكرناها .

Digitized by Birzeit University Library

مصاب التمثيل

مات كوكلان . لاتقولوا :

رحمة العود والكمنجا عليه — وصلاة القانون والمزمار

بل عليه رحمة الله وأسف الناس أجمعين . نحن لانرثى فيه سياسيا ولا فيلسوفا ولا عالما محققاً . ولكنا نرثى فيه تلك القوة المعنوية التى كانت تبرز أدق المعانى مجسمة للناس ؛ يكادون يرونها بأعينهم ويلمسونها بأيديهم بعد أن يسمعونها بآذانهم . ولئن رثينا ذلك الممثل فانما نرثى خليفة موليير فى تمثيله والموصلى فى توقيعه — نرثى تاج التمثيل وعرش الغناء

يطرب الراعى من صوت الأرغول ، والقروى من المزمار ، والذى تهذب ذوقه ورق شعوره لايطرب الا من أصوات العود متوافقة على أصول الفن . ولكن الجميع يطربون . يطربون من النغمات التى تخاطب النفوس وتملك القلوب . وما اللغة إلا عاجزة عن أن تصوغ لنا تلك المعانى العالية التى توحى الينا بها الطبيعة . تحملها لنا الموسيقى ، ذلك الرسول البليغ الذى يسحر أفئدتنا ويرقى ملكاتنا وينمى فى نفوسنا ماشاء الله من عواطف الحب والحنان والرحمة والاخلاص ، والتفانى فى خدمة الاوطان .

يصيح المغنى المقتدر «باه» العالية ويعطيها حقها من الفن حتى تمثل معنى كاملا فيخلع بها قلوب سامعيه ويوجه بها نفوسهم الى الوجهة التى قصدها ، فاما إلى معنى الحزن ، واما إلى الاسف واما الى الحنان . ويلقى الممثل الماهر قطعة تلبست بمعانيها نفسه وحملتها همته ، يقرع بها قلوب سامعيه فتدخل الى أعماقها من غير استئذان ، فتفعل بها ما أراد المؤلف ، وتتمشى فى أعصابهم ، فتحولها عن الحال العادية إلى حال جديدة هى اللذة التى يجدها من يشهد

الجريدة فى ٣٠ من يناير سنة ١٩٠٩ العدد ٥٧٤

Digitized by Birzeit University Library

التمثيل الصحيح . وليس منا من لم ير حوالى المغنى أو الممثل من يبكى أو يضحك . وما هذا الانفعال من البكاء والضحك ، إلا أثر من أثار سلطان المسمع على السامعين .

ليس سماع الغناء والتمثيل سعادة وقتية كبقية اللذات الدنيا ، تفارق النفس عند الفراغ منها . بل لكليهما أثر ثابت فى تربية العواطف والملكات؛ كما أن العلم بقضية بعينها، لا يقصر على فائدة الانتفاع بها ، بل هو من جهة أخرى، يجلو جوهر العقل ويشحذ حده ويذكى ناره

كل أمة تصبغ التمثيل والغناء بلون أخلاقها ، كما تصبغ معتقداتها وقوانينها بلون عاداتها . وانه لاشىء أدل على رقى الأمة فى سلم التربية أكثر من طريقتها فى الغناء والتمثيل . كما انه لا شىء أدل على مدنيتها من انتشار العلم الصحيح فى عقول أفرادها . واذا عجبت للذين يريدون أمة على التقدم بغير العلم، فانى لأكثر عجباً من الذين يرجون لها نجاحا بغير التربية ، ومن الذين يظنون ان تربية العواطف، تكمل بغير الغناء والتمثيل .

اذا كان التمثيل على ماذكرنا، قاعدة من قواعد تربية الأمم كان الممثلون هم بالضرورة المؤدبين المربين، والمرشدين الناصحين

ولئن فات كوكلان أن يكون حكيما منتشر المذهب، فلقد كان ممثلا طائر الصيت . خدم اللغة الفرنساوية والأدب الأوروبى . وكان الصلة المتينة بين مبادىء الحكماء وبين عقول الأمم ، كما كان الرسول بين الكمال وبين العواطف . فلم يكن لبنى الانسان باقل نفعا من فيلسوف مبتكر . ولا عالم مكتشف . ولا كاتب مفيد . بل لم يكن أقل على قومه بركة من قائد شجاع أروع، يكسب لهم المستعمرات . ولا من سياسى يحل لهم المشكلات . ولا من اقتصادى يملأ لهم الخزائن .

كان الممثل كوكلان واسع الصدر، سخى اليد؛ أقام ملجأ للعجزة من الممثلين واشتهر بصحبة كثير من رجال السياسة خصوصاً « والدك روسو »

Digitized by Birzeit University Library

وليس بمشرف له ما نروى من فضائله الخاصة، بعد أن اشتهر نفعه فى تربية الأخلاق، وبعد أن كان مصدر سعادة من السعادات الانسانية .

كانت عائلة كوكلان مستودع قوى التمثيل، ومهبط سلطان التأثير، حتى كان أعضاء العائلة الثلاثة كوكلان الكبير وكوكلان الصغير وحنا كوكلان، مظاهر هذه السلطة القوية التى تخالف السلطات الأخرى فى انها محبوبة، وكل ماعداها تقبل على النفس بالطبيعة، إلا سلطة الأمة . كانوا يتنازعون الشهرة ويتقاسمون آراء الناس فى حسن التأثير . بقوا كذلك حتى جن كوكلان الصغير على المرسح . والجنون من العبقرية قريب . وهذا كوكلان الكبير قد مات مأسوفا عليه . ولم يبق على مراسح التمثيل إلا ابنه حنا كوكلان ؛ فاليه نرسل عبارات التعزية على هذا المصاب العام ، ونسأل له عمراً طويلا ليستمر فى خدمة الانسانية على النحو الذى ذكرنا . وليكون لأبيه الخلف الصالح .

Digitized by Birzeit University Library

الرجل الطيب

لست فى حاجة الى مصباح ديوجين (١) لأبحث عن الرجل أو عن الرجل الطيب .

انى لأراه من غير مصباح فى ذلك الرجل الفلاح طويل القامة ، كبير الرأس ، كثيف اللحية ، يسوق المحراث طول النهار بحركة بطيئة ، تدل على نفس صبورة مملوءة بالرجاء ،لا يروعها خوف الحوادث الجوية تذهب بما يبذر . نفس هادئة لا تهيجها الانفعالات المتعاقبة للاعصاب المتوترة، التى هى دائماً محل لوقع الحوادث فى المدن . يمر به المترفون فى عرباتهم أو على ظهور الجياد وهو ماش طول النهار على قدميه العاريتين، أو اللابستين نعالا من جلد الجمل . يمرون به لابسين الحرير وجسده نصف عريان، معرض لحرارة الشمس تشوى جلده فتغير لونه . ينظر اليهم حين يمرون به على السكة الزراعية، فلا يهيج نفسه المطمئة هائج الحسد ، وحسبه من الحياة ثقته بان الله غير مضيع أتعابه سدى . يجيئه العمدة أو العسكرى او الضابط فيشتمه بسبب ومن غير سبب، وهو فى سكونه لا يضطرب، كأنما أوتى من حكمة الفلاسفة حظا وافرا، لا تغرس الاهانة فى نفسه شجرة الحقد والبغض، كما ان شتم الحكيم ظلما لا يزيده الا عطفا على شاتمه واستغفارا له . غير ان الحكيم يتشبث بمبادىء الطيبة والرحمة، لتصير له خلقاً ، ولكن هذا الفلاح الطيب لا يكلف نفسه التفكير الطويل فى تطبيق تلك المبادى، بل هى فى نفسه كأنها طبيعة لا يحاول كسبها .

أرى عنوان ذلك الرجل الطيب فى الفلاحين الاصحاء ، الذين لم يصل

الجريدة العدد ٥٩٥ فى ٢٣ من فبراير سنة ١٩٠٩

(١) ديوجنيس الكلبى أحد أعلام المدرسة الكلبية عند اليونان — ناشر

Digitized by Birzeit University Library

اليهم مرض الكذب والجبن، ولم يقلب الحسد فى نفوسهم احساس حفظ الوجود الخاص، إلى حقد دنىء وشهوة قاتلة.

أرى الرجل الطيب حتى فى المدينة، فى شخص ذلك الصانع الذى يظل نهاره يعمل وروحه الموسيقية تجعله يغنى من غير ملل ولا تعب، ألحانا مضبوطة وغير مضبوطة، ولكنها تزيدفى سروره وطمأنينته. وهو لا يفكر كثيراً إلا أن يسكن إلى زوجه بعدتعب النهار، ليبكر الى عمله، راضياً من الحياة واسعة الزخرف بذلك القسم الضيق. قسم القوت اليومى. وهو من الأنفه والقناعة بحيث لا يورد نفسه مورد التعذيب. فلا يعللها بخيالات الغنى ولا أوهام كسب الجاه. بل لا يفكر أبداً فى أن يجر وراء اسم لقب بك أو باشا.

هذا هو الرجل الطيب متى خلت نفسه من الشره، وتجردت من الحسد، ورضيت من الحياة بالحاضر، كأنها نفس عرفت قيمة الحياة وانه ليس فيها ألذ من القيام بالواجب..

أرى الرجل الطيب فى ذلك التاجر يمضى النهار ولا يحلف بالطلاق على انه مغبون فى صفقة البيع ولا يجار بصوت خبيث يستنزل غضبة الله على جاره من غير سبب. ولا يختلف الى عرض صانه الحَصَان. ولا يبالغ فى حب الكسب حتى يخرج من حدود الحلال إلى مهواة الحرام. يظل فى دكانه ينتظر كسبه بالطرق المشروعة راضياً من العيش بالسعى فيه على الوجوه المشروعة، صامتاً أو قارئاً أو محادثا من غير أكل لحم الناس، والبحث عن ماضى كبار التجار، وتتبع زلات الغير وسقطات الأقربين.

أرى الرجل الطيب فى الحاكم العادل الكفء لما يزاول من أعمال الحكم فى القضاء والادارة، لا تسحره رفعة المنصب، ولا يرم انفه أن يعلم مالا يعلم ولا تأخذه العزة والغطرسة على خلق الله، ولا تجرى به أغراض الرقى الى مخازى الرذيلة من الملق والنفاق، وظلم الضعيف إرضاء للقوى. يعلم انه فى

Digitized by Birzeit University Library

مرسح لا يبقى الممثلون فيه الا ريثما يتم كل منهم دوره ، ثم يجىء الحق والحساب على الفضيلة والرذيلة .

أرى الرجل الطيب فى العالم المجتهد والكاتب ، لا يصده الادعاء عن التواضع . يفسح صدره لكل منتقد ولو ساء قصده . ويحتمل مع الصبر الانتقاص والشتم فى سبيل كلمة الحق . ويدعو بالهداية والخير لمن يظنهم من أمرهم ومبادئهم فى ضلالة . يفنى نفسه طوعا لخدمة الانسان وينزل عن شهواته ولو سياسة الى مبادىء الحق والعدل ، ويروض نفسه على الصراحة ولو أضرت شخصه . وعلى مقابلة السيئة بالحسنة ولو رمى بالجبن والاستكانة. يعتقد ان الكتاب هم ورثة العلماء والاصفياء ، وقادة الرأى العام لا يحملون ضغنا ولا يأتون منكرا من القول وزوراً . وإذا مروا باللغو مروا كراما .

إذا كنت أرى الرجل الطيب فى كل هؤلاء وهم طبقات العالم ، وجب على أن أترك ما يفهم من نظريات « هوبس » من ان هذه الدار الدنيا دار حرب يجب أن تتمشى فى سياستها على نظرية حق الأقوى . بل أقول ان طبيعة الانسان هى السلام . وما بواعث الحرب إلا أمراض اجتماعية تلحق جسم الانسانية، فتظهر بهذه الدماء التى تقطر على ظبا السيوف ، وهذه الاجساد التى تهتكها قنابل المدافع ، وتلك المدن التى تخربها أيدى الفاتحين . فاذا عاد مزاج الجمعية الى الاعتدال وأعصابها إلى السكون، عادت إلى أصولها الطيبة التى تظهر كما وصفت فى جميع الطبقات . وان عدد الحروب فى العالم لنراه يقل شيئا فشيئاً . ولست إلا شديد الوثوق بان الطيب يغلب الخبيث ، وتصل الانسانية إلى كمالها الوجودى الممكن ، فيكون غالب الناس هو ذاك الرجل الطيب الذى لا تزدهيه القوة ، ولا يخمده الضعف . لا تسحره النعمة . ويذهب بخلاله الفقر ، ولا يغتر بكونه الوقتى الذى مصيره للفساد .

انما النفس الانسانية طاهرة باصلها ، فلا يتكلف الذى يريد أن يكون رجلا طيباً إلا أن يحاسب نفسه على الشر ، ويلفتها إلى فعل الخير ، وأنها باصلها القدسى قابلة لأن تشفى من أمراض الغضب والحقد والحسد وتصير ينبوعا غزيراً للمحبة، تعرف كيف تحب العدو كما تحب الصديق .

Digitized by Birzeit University Library

شيء في الاخلاق

يدخل اليك رجل، فلا يكاد يتمكن نظرك من الاحاطة به حتى تجد فى نفسك شيئا من الضيق، فلا يفتح الله عليك بكلمة تحية تحييه بها أكثر من الاشارات أو عاديات العبارات. يقول عنه الناس ان ريحه ثقيل، وقد يكون من وسامة الخلق وحسن الهندام على مايكون عليه الشرفاء. فما وجه هذا الثقل الذى أجمع الناس على إضافته إلى نفس هذا الرجل! هو انه مدع

يظن بعض هذا الصنف من المدعين ان انتسابه لآدام وحواء، لا يكفى لتحقيق ماهية الانسان، فيلتمس له جدا من الانبياء ذوى المعجزات أو الأولياء ذوى الكرامات؛ أو القواد ذوى الفتوحات، يجعله رأس ماله فى الشرف وعلو النسب واظهار الرفعة على بقية بنى حواء. ثم يصير هذا الانتحال فى نفسه حقيقة يصدقها هو، كالذى يصنع بيديه تمثالا من الخشب، حتى اذا أتم صنعه، جعله معبودا له يطلب إليه الغفران مما جنت يداه. يقبل عليك هذا المدعى رفعة النسب، فيحادثك حديثا يجب أن يكون متناسبا مع شرفه النسبي الموهوم، يضيق به صدرك وان كان فسيحاً، ويأباه ذوقك ولا تدرى سبباً لهذا التأثير الخبيث الذى بعثته إليك هذه النفس الثقيلة، ولو بحثت قليلا لعرفت انها وضعت نفسها فى غير موضعها وأنكرت حقيقة ذاتها، فخبث أمرها وثقل ريحها، وتلك هى نتيجة الادعاء.

يظن بعضهم انه لايكون كبيراً فى نظرك إلا إذا علمت مقدار ما يملك من الأطيان، وما هو فيه من سعة الرزق أو ما كان له من الثروة فى الماضى فذهب بها الزمان. يظن ذلك فيحتال على الحديث، يجعله قابلا لأن يدخل فيه شذرات من حكايات معاملاته الواسعة مع الناس وحسدهم له على ثروته.

الجريدة فى ٢٨ من فبراير سنة ١٩٠٩ العدد ٥٩٨

Digitized by Birzeit University Library

يريد بذلك كله أن يؤكد لك انه حقيق باحترامك أنت وجميع الناس لشخصه المضافة اليه تلك الثروة الحقيقية أو الوهمية . يقصد ذلك بعض الأغنياء ، فيكون نخره هذا الناشىء ، عن الضعف والبساطة ، أو عن الكبرياء والتبجح ، مدعاة إلى سخرية السامع أو ابتسامة من قلة عقل ذلك الفخور وغلظة ذوقه. ولكن تحدث الفقير المدعى الغنى عن ثروته الوهمية، يجعله ثقيلا لا تحتمله النفوس

يظن بعضهم أن العلم هو أيضاً يكفى لِنَيْلِهِ ادعاء الجاهل أنه عالم، وما أكثر العلماء بالفطرة عندنا ، خصوصا إذا كانت المسألة المطروحة داخلة فى اختصاص العلم الاجتماعى أو التربية أو علم القانون . وإن أكثرهم ظهوراً بهذا الادعاء هو ذلك الذى نبه اسمه بين قومه لأنه ولد بالصدفة من عائلة غنية أو لأنه أحرز ثروة طائلة، أو لأن الصدفة رقته يوماً إلى منصب الحكام الكبار . يعز عليه أن لا يضيف إلى شهرته النسبية أو شهرته المالية أو إلى رتبة الباشوية ، نصيباً من العلم وشيئاً من الشهرة العلمية ، أو حسن الرأى فى القضايا العلمية . قد يكون وسيلته إلى هذا الادعاء البارد، أنه يمسك أمامك بأسماء العلماء فيصفهم بالصدفة بصفات يخلقها الخيال، ويصورها عدم المبالاة. يصف أحدهم بأنه جاهل مدع ويصف الآخر بأنه عالم وما أجمل عبارات الثالث وأكثرها انطباقا على قواعد اللغة، والرابع هذا رجل المنطق (يريد بذلك أنه فصيح بليغ) ثم يخوض فى الموضوعات على غير هدى. وألطف من ذلك كله أنه يأتيك فى الكلام بعبارات يدلك بها على شدة تواضعه بنوع من التبسم خاص بالذين يريدون اخفاء الأعجاب بأنفسهم ، من حيث يظهرون، ويتواضعون من حيث يتفاخرون. ويثقل هذا المحدث على نفسك. وما ثقله إلا نتيجة من نتائج ادعائه .

يظن بعضهم أنه يكون ناقص القيمة فى نظر الناس ، إذا ظهر لهم بذاته المجردة عن كل اضافة . فيدعى أنه كان مدعوا للعشاء على مائدة الوزير فلان « والله يا سيدى ما ألطفه أنه كان يوصلنى إلى باب الشارع مع أنه مشهور عند زملائه بالكبرياء . . . الخ »

Digitized by Birzeit University Library

ثم أن سمو الأمير دعاه لحضرته ، فكلمه فى الشئون العمومية والشئون الخصوصية ، وأنه استوقفه فى التشريفات فاسر اليه كيت وكيت . كلام لا أصل له، يقول لك ذلك بمناسبة ومن غير مناسبة ، ليرفع نفسه فى عينك بادى الأمر ثم يكون هذا دأبه فيتقوله من غير غرض . فاذا أحسست بثقل هذا المحدث عليك، فذلك لأنه مدع ،

صعب على النفس الانسانية أن تعرف نفسها حقيقة ، وأن تضع نفسها من هذا الوجود فى مكانها من غير صنعة ولا اعتلاء . من غير تفريط ولا افراط . فان غاية الحكمة أن تعرف نفسك . وأن النفس الانسانية قد تتغافل عن درجتها من الوجود ، فتنزل عما يليق بها الى مواطن الهوان والخسة، وقد تتعالى عن مركزها الطبيعى أو العرفى، فتكون نفسا كاذبة. تفقد بكذبها ثقة غيرها من النفوس وجاذبيتها نحوها . فتعرف نفسك بالآت القياس العلمية وأربابها عن الضعة ، وأنزل بها عن الادعاء وابتغ بين ذلك وسطا تألف الناس ويألفك الناس . فان المؤمن آلف مألوف .

التضامن القومى انما نشأ عن المشابهات بين الأفرادومن أخص هذه المشابهات ما تكون نتيجته الألفة بينهم. وليس ادعى الى تحقيق هذه الألفة من أن يشفى مدعوهم من أمراض الادعاء، التى هى من أسباب النفرة . وانى أشك كثيراً أن يتفق المتنافران على عمل يستمر بقاؤه، وتحسن نتائجه .

مكتبة جامعة بيرزيت الرئيسية
Digitized by Birzeit University Library

احبوا الجمال تحبوا الحياة

يلذ لبعضنا أن يكون خارج المدينه ، فينشق النسيم بملء الرئتين ، ويأخذ جمال الطبيعة منه بالناظرين، يشعر بادىء الأمر بلذة أو سعادة لا تلبث أن تفتر ويعتل فى النفس أثرها . وما ذلك إلا لأنه يعرف الجمال معرفة مبهمة . يعرف جمال الطبيعة بوجه ما، فيشبع منه بسرعة مناسبة لقلة تأثره به، وإداكه لمختلف مظاهره فى الأشياء والناس .

أنك إذا قست بين مقدار معرفتنا الجميل وبين المستوى العلمى فى مصر، وجدت أن القدرين ليسا متناسبين، وأن عقولنا تسبق كثيراً أذواقنا، فانها تستنير بما تشغل به من تحصيل العلم وتطبيقه فى العمل . وأما أذواقنا فتكاد تكون جامدة على الحالة التى كانت عليها يوم كنا فى ظلمات الجهل . ذلك لأننا لم ندخل فى مجموع علومنا، الفنون الجميلة ؛ ولم نجتهد فى ترقية أكثرها طبيعية وانتشاراً فى جميع الأزمان، وهو فن الموسيقى

إن حكومتنا حين أعوزها من المصريين آلات لاقامة الجسور وبناء القناطر على الطرق الهندسية ، وأعوزها ضباط يجرون الكتائب فى ميدان الدفاع عنها أو عن البلاد أو فتح المستعمرات . وأعوزها أطباء للعسكر وعمال للادارة، أدخلت فى مصر علوم الهندسية والحرب والطب والقوانين . ولكنها إلى اليوم لم تفكر فى المساعدة على نشر العلم ، للعلم ولم تلحظ بعين الواجب المساعدة على إدخال الفنون الجميلة، أو جعل فن الموسيقى الوطنى تضبط أصوله ، فيرقى مع رقى البلد فيتناسب تقدمنا فى الذوق والتهذيب ، مع تقدمنا فى المعلومات .

نحن نطرب لنغمات العود والقانون والكمنجا، ونطرب بالمزمار والأرغول.

الجريدة فى ٣ من مارس سنة ١٩٠٩ العدد ٦٠١

Digitized by Birzeit University Library

نطرب لها مع كون ألحانها الشجية، دائما هى ألحانها من يوم أن خلقت فى العصور القديمة؛ بل على طريقة نتخيل أنها أحط جدا فى باب التأثير من طرائق المغنين فى الدولة العباسية من عشرة قرون .. نطرب لهذه النغمات ولو نقلها « الفونوغراف » وإن كان ليس لها ضابط غير أذن المغنى وأصابعه. ذلك لأنها طبيعية، نكتفى بالناقص منها لعدم تيسر الكامل. وبعيد أن لا يكون فى أذواقنا فرق بين الخبز الشمسى وخبز الرمالى؛ على أننا نطعم الأول عند عدم وجود الثانى — فلنعترف بأن سعادتنا من جهة الموسيقى ناقصة جداً.

ومنا طائفة المتعلمين الذين رقت عواطفهم بعض الشىء بالتربية لا تطربهم موسيقانا، ولا آذانهم كاسبة عادة اللذة بالموسيقى الأوربية، التى قد تصدع رؤوسنا، ولا تأتلف مع ذوقنا الشرقى.

هؤلاء علت ملكة الطرب فيهم عن أن تشيع بالأرغول والمزمار، ونبت عن قبول قطع « فاجنر » مثلا فتعطلت عن هذه اللذة البريئة. وحرمت من نتائج تلك السعادة الطبيعية. سعادة سكون النفس إلى الألحان.

ان هذا الجيل هو جيل الانتقال؛ فليس هو الجيل الماضى المتوافق الأجزاء فى التأخر، السعيد بما عنده. ولا هو الجيل المستقبل الراقى المنشود، إلا انه على ذلك محروم مظلوم. ولو أننا سعينا من يوم ادخال العلوم الحديثة الى بلادنا، فى أن أدخلنا اليها أيضا فكرة الفنون الجميلة لخلصنا هذا الجيل الناشىء من مرار الحياة الحاضرة التى لا حلاوة فيها من أى وجه من الوجوه.

نعمل النهار وننام الليل. فلا نجد من علمنا بالفنون الجميلة ما يفرق بين الحكمتين. ويحلى ما بين المرين. ويريح ما بين التعبين، ولا نجد من نظام جمعيتنا ما يرطب هذه الحياة الجافة، ويرغب فى طول الحياة. على ذلك يظهر أننا نحب الحياة لا لسعادتنا فى الحياة. ولكن نحب الحياة لأننا لا نحب الموت

ليس كل الغرض من سماع العود أن تهيج نغماته الشجية فى نفسك هائج الهوى الحاضر، أو ذكرى القديم، أو أن تحرك فى نفسك دواعى الحزن.

Digitized by Birzeit University Library

فليس الحزن فى حاجة الى أن يحرك بهذه النغمات الشجية، بل غرض الموسيقى يتناول تنبيه كل خاطر من خواطرك، وانماء كل عاطفة من العواطف. يتناول انماء الأنفة والعزة تنفعك حين تقدم نفسك قربانا الى وطنك، اذا حضرك وقت الدفاع عنه. يتناول غرض الموسيقى انماء عاطفة الرحمة عند القوة، والعفو عند المقدرة. فما بال هذا العود وتلك الكمنجا، رخيمة الصوت جذابته، لا تفيض على النفس الا تأثيرات متشابهة، كلها يرمى الى معنى الذكرى والأسف والحزن ؟

ليس عندنا عدد كثير من الموسيقيين المجيدين. على أن بلادنا شعرية وحواسنا سريعة الهياج. لا باردة ولا حارة هائجة. ولغتنا لغة الشعر. لغة المجاز والتورية والاستعارة. لغة الحب والحماسة. ونحن قوم عرب نطرب. والكريم طروب. وما لهذا النقص من سبب، الا ان الموسيقى جمدت على قديمها أو مسخت عنه. وكبراء كل أمة أو أهل البطالة، هم الذين كانوا فى كل زمان يعتنون بترقية الفنون الجميلة؛ وكان منهم مشاهير الموسيقيين. فما بال كبرائنا يأنفون أن يكون أحدهم عالما بالموسيقى بل قد يترقون عن سماع الألحان. على أنهم إذا جدوا فى سماعها صارت الموسيقى ؟ العربية مطلوبة فى السوق، فتروج بضاعتها ويكثر صناعها؛ ومتى كثروا تزاحموا، ومتى تزاحموا أتقنوا الصناعة.

كما هو الأمر فى القواعد الاقتصادية، أن الرواج نتيجة الطلب. وكما هو مقرر فى العلوم الطبيعية، أن الوظيفة توجد العضو. فان عز عليهم احياء الموسيقى العربية التى لا تطرب إلا بها، لا يعز عليهم أن يتحللوا من الجمود الذى يسمونه الوقار. وأن يوطنوا أنفسهم على السماع ولا أدرى ما فى هذا من العيب؛ مع أن أحدهم يعرف الطعام الجيد ويطعمه، من غير أن يكون طاهيا. فهل لا يجوز عليه عملا بهذا القياس. أن يتعرف الموسيقى ويسمعها، من غير أن يكون عالما بالموسيقى، علماً عملياً!

Digitized by Birzeit University Library

وهل تتفضل علينا نظارة المعارف أو الأشغال أن تفتح محلا لتعليم الموسيقى ؟ وهل تشجع الحكومة هذا الفن فتجعل موسيقاها تلعب بألحان عربية حين ترسلها لتسمع الجمهور فى حديقة الازبكية حتى يزيد ذوق الناس لموسيقاهم ويتعشقوها ؟ وهل تسمح بتياترو الاوبرا الخديوية للأجواق العربية ، كما تسمح للأجواق الافرنكية حتى لا يكون المصرى غريبا فى بلاده ؟

اذا تم من ذلك شىء سهل على مصرى هذا الجيل أن يحب الجمال، وإنه إن أحب الجمال ، ذاق طعم الحياة فأحبها على ما يجب أن يكون .

Digitized by Birzeit University Library

بناتنــــا

يجزع الوالدان وقد رأيا ابنتهما قد رمدت عينها رمداً يهددها بفقد العين ، يجزعان من تصور أنها سقطت من على السلم ففقدت إحدى ذراعيها . يخشيان أن ينتشر فى وجهها النمش فيشوه جمالها ، يجزعان لكل عرض يلحق بجسمها ويكون من شأنه تشوه أعضائها ، أو تقليل مقدار جمالها ، فتبور فى سوق الزواج . يجزع الأبوان وحقهما أن يجزعا من فقد ابنتهما لما يرغب فى خطبتها الرجل الكفء لها . ليس فى ذلك عجب . ولكن العجب هو أن الوالدين يشفقان على ابنتهما من العيوب البدنية ، ولا يشفقان عليها من العيوب المعنوية ، عيوب النفس والعقل . يتركانها من غير تربية تصفى نفسها من كدورة الوسط وما ورثته من سوء الطباع . يتركانها من غير تعليم يحدد عقلها وينيره ويجعلها انسانا خليقاً بصحبة زوج كفء طول الحياة . يفكر الوالدان فى المبالغة فى تجهيز ابنتهما فيبتدئان من سن طفولتها يثقبان لها أذنيها اللتين قد نسيت الطبيعة أن تعطيهما خلقهما الكامل، وأن تجعلهما موطن زينة تعلق فيها الحلقات . ثم يأخذ الوالدان بعد ذلك فى أن يشتريا لها كل عام شيئاً من الحلى ثم من الأثاث الجميل مما ينضد فى البيت للاستعمال أو لمحض الزينة . يشتغل الأبوان على هذه الطريقة المضحكة لتجهيز ابنتهما للزواج كأن الزواج قرط فى الأذن، وخزام فى الأنف، وأساور من الذهب المرصع فى الساعدين ، وخواتم تأخذ بالأبصار فى الأصابع، وقلائد فى اللبة وجلاليب وفساتين ومكاتب وطاولات و ... الخ . وليس الزواج بشىء من ذلك . بل الزواج امتزاج روحين امتزاجا لامفرق له إلا الموت . فكم من شابة بضع لها أبوها من أنفس العروض، وزفها به إلى زوجها، فما أغنت

الجريدة فى ١٤ مارس من سنة ١٩٠٩ العدد ٦١٠

Digitized by Birzeit University Library

تلك العروض ولا التحف فى أمر الوفاق شيئاً، بل كان مآل هذه المسكينة التى لاذنب لها إلا عدم عناية والديها، أنها لم تعرف أن تكسب جاذبية زوجها، فاختلف الزوجان، وهنالك يفسد ذوقهما لطعم العيشة الراضية، وهل تقدر العروض والفرش أن تفيض على الزوج محبة زوجته !

ذلك بان الأقارب لايزالون يظنون إلى الآن أن الوفاق بين الزوجين محض صدفة. وأن المحبة توفيق من الله يأتى ببركة نية الوالدين أو بجمال العروسين. ومادام الوفاق والمحبة يأتيان بالصدفة ولا علاقة لهما بتجانس الزوجين فى التربية وتفاهمهما بالتعليم، فلا فائدة من اهتمام الوالدين بتربية النفس، ولا بتعليم العقل، بل يصرفان جهدهما فى إيجاد مالا توجده الصدفة وهو (الجهاز).

تلك هى سخرية صرفة. فان الحس يقدم لنا أمثلة يومية تدلنا على أن الرجل لاتصفو مودته. ولا تطول صحبته. إلا بذلك الصاحب الذى يتفق معه فى النظر إلى أمهات المستقبل. فلا تجد صاحبين أحدهما متعلم والآخر جاهل، تدوم صحبتهما إلا ريثما ينقضى المطلوب منها كشركة مالية أو منفعة مشتركة أو جوار فى البيوت. أما الصحبة المؤسسة على التمتع بالصحبة لذاتها، فقل أن تجدها بين مختلفين فى التربية والتعليم.

واذا كان هذا شأن الصاحبين فماذا يكون شأن الزوجين، لاسعادة لهما إلا أن تختلط روحاهما تمام الاختلاط، ويتفق ذوقاهما تمام الاتفاق، ليحصل كلاهما على السعادة المنشودة فى الزواج.

الشبان المتعلمون يدركون هذه الحقيقة تمام الادراك، فهم لايطلبون الزواج إلا بالسيدة المتعلمة، وقد يغلون فى الطلب، فيحب أحدهم أن تكون زوجته تتكلم لغة أجنبية ولا تقصر معلوماتها الموسيقية عن الضرب على العود أو القانون، بل يريد فوق ذلك أنها تجيد اللعب على البيانو. كماليات

Digitized by Birzeit University Library

لاتهم . ولكنها أهم كثيراً مما يصرف الوالدان فيه مالها وقواهما من الحلي والنضائد .

تعمل الوالدة لابنتها ما تتذكر أن أمها قد اهتمت بعمله لها ، وتنسى انها كانت تعد لزمن قد انقضت أيامه . وأما ابنتها فانها تعد لزمن جديد لا يؤسس فيه الزواج إلا على المحبة الصحيحة والمودة الطويلة والألفة التى من أهم أسبابها أن تفهم زوجها المتعلم ويفهمها ، وذلك لا يكون إلا بتقاربهما فى التربية والتعليم

سيقولون إن طرائق تعليم البنات لا يزال يوجد فيها عيوب كثيرة معها قد يفضل حجبهن فى البيوت ، على أن يعلمن مايزيد مسافة الخلف بينهن وبين أمهاتهن وخالاتهن وعماتهن ، ولكننا نقول إن العيوب الموجودة فى طرائق تعليم البنات موجودة فى طرائق تعليم البنين . وأن أول الأغراض لتعليم البنات هو السعادة العائلية . وان السعادة تبنى دائماً على الوفاق والمشابهة بين الزوجين . فأن بناتنا المتعلمات على الطريقة الناقصة كما يقولون، هن اللواتى يتفقن مع شبابنا المتعلمين على الطريقة عينها . وليس من سعادة العائلة البحث عن عيوب التربية المدرسية ، ولكن من سعادة العائلة الاتفاق بين الزوجين ، فلا بأس من تعليم البنات على طريقة تعليم البنين ، وان كانت غير حسنة فى نظر الكثيرين .

السعادة العائلية هى حجر الزاوية لسعادة الأمة ، فالوالد الذى يعمل لهذه السعادة بتربية ابنته ، انما يخدم أمته أجل خدمة يمكن للفرد أن يسديها ، فاصرفوا ماتصرفوه فى الحلى والعروض، فى تعليم البنات ، فأنه الحلى الدائم فى جمال الشبوبية وسنى المشيب. وإن الآباء إذا فعلوا ذلك، فانا لانشك فى أن بنات البلد جميعاً يصبحن متعلمات . لأن ما يصرف على إحداهن فى الزينة المادية يكفى لتعليمها وزيادة . أعطوهن حظهن من التعليم وخلوهن يحصلن على سعادتهن التى هى سعادة الأمة .

Digitized by Birzeit University Library

الموظف المصرى

لدينا عيب قديم فى نظام الروابط بين الأمة والحكومة . هو استحكام سوء الظن بين الفريقين . ذلك أن نظام الحكومة إنما كان لمصلحة الحكام فقط، وما كانت الأمة فى نظرهم إلا موضوع استغلال لمنافع الحاكم الأكبر وشهواته . كانت الأمة تعرف ذلك ويمنعها التفرق والضعف من أن تقلب تصرفات الحاكم إلى مصلحتها . على هذا كانت الأمة تعتبر كل نظام جديد حملا جديداً عليها وخسارة على جيوبها . أو بعبارة أظهر من ذلك، إن العلاقة بين الأمة وبين الحكومة كانت علاقة آكل ومأكول . ولا نظن إلا أن هذه العلاقة مستحيل عليها أن توجد بين الطرفين إلا سوء ظن مستمر . تظهر قوة الأمة على صورة المعاملة بالجفوة ويخفيه ضعفها على صورة المسالمة والاستسلام للقوة . فأصبح بذلك سوء الظن فى الحكام من قبل الأمة، خلقاً لها لا يمحوه من نفسها إلا الزمان وصلاح الحكومة حتى تعتقد الأمة أن النظام والجباية هما لمصلحتها لا لمصلحة الحكام .

يدلك على هذا أن الشيوخ عندنا أكثر من الشبان خوفاً من الحكام وأسوأ ظناً بهم . لأنهم تعودوا من زمن بعيد على المجاملة الظاهرة للحاكم دون الاخلاص له . وقل أن يفرقوا بين نائب اليوم المقيد بالقانون وبين ناظر قلم الدعاوى المقيد بشهواته، ولا بين المأمور الذى يكاد يتصرف دائماً فى حدود التعليمات المكتوبة، وبين ذلك المأمور الذى كانت سياسته الكرباج وحدوده شهوات رئيسه التى لا حد لها . غير أن علاقة الحاكم بالمحكوم لم تنتقل كثيراً عن طابعها الأول إلا فى الظواهر . فان أكثر الناس يعلمون حق العلم ان شهوات الرؤساء من الانكليز ومن الوطنيين لا زالت تغلب

الجريدة فى ١٦ مارس سنة ١٩٠٩ العدد ٦١٢

Digitized by Birzeit University Library

القانون على نفس الموظف . ولئن تغيرت عندنا أشكال الشهوات ، فان أثرها السيء لم يتغير .

يعلم الناس أن مأمور المركز قد يحمل العمدة أو المبلغ على تغيير بلاغه مرة أو مرتين ، حتى يخفف من فظاعة الحادثة المبلغ عنها أو ينقلها من جناية إلى جنحة . أو من سرقة وسيلتها النقل ، إلى قتل حصل بالانتقام ، أو خطأ أو قضاء وقدراً ، على حسب مهارة المأمور فى تغيير الحقائق إرضا لرؤسائه الاخصائيين

يعلم الناس أن وكيل النيابة إذا وجد أن الدعوى التى فى يده موجهة على شخص كبير فى قومه، اجتهد فى إثبات التهمة عليه بكل وسائل الاثبات ، أو على الأقل عامله فى التحقيق معاملة أشد مما لو كان متهماً عادياً من الأفراد الذين لا ينتصر لهم أحد . ذلك ليشتهر عند رؤسائه بالاستقلال ، كأنما أعد له كيلين ووزنين ، للتصرف فى الأقضية المرفوعة إليه . وكأنه لا يريد من الوظيفة إلا منفعته لا منفعة الحق والعدل فى ذاتهما . يخاف أن يتهم بالميل للمتهم الكبير ، فيميل عليه بغير الحق . والذى فعل هو الميل بعينه . فما هو الفرق فى الأثر السيء بين تصرف هذا النائب الطاهر الذمة ، وبين ناظر الدعاوى المرتشى ، وكلاهما يخدم ذاته حسبما يقتضيه الزمان . لا إنه يخدم الحق والعدل .

يعلم الناشيء أن بعض المديرين فى هذا الزمن كان يجنى على الحرية الشخصية بأن يستعمل الاكراه المعنوى فى الوصول إلى غرض ما . وقد يكون غرضه حسناً جداً ، كأقامة كتاتيب للتعليم ، أو تحصيل إعانات خيرية تصرف فى وجوهها . ذلك ليشتهر عند رؤسائه بالقدرة على حكم مديريته فيرقى الى أعلى منها. فهو بذلك يشتغل لمصلحته لا لمصلحة الأمة فى تأييد الحرية الشخصية التى تستحق أن تكرر أمثلتها حتى ترسخ فى النفوس . فأى فرق بين قتل الحرية بالاكراه المادى الذى كان سلاح المدير القديم ، والاكراه الأدبى الذى هو

Digitized by Birzeit University Library

سلاح المدير الجديد فى سوء الأثر، وكلاهما يعبث بحرية الأفراد ؟

ذلك النظام القديم وهذا النظام الجديد قد ولد أولهما فى النفوس عدم ثقة المحكوم بالحاكم، وثانيهما ساعد على بقاء هذه العلاقة السيئة فى نفوس المحكومين بصورة عامة شديدة الضرر على مجرى الأعمال العمومية والأمن العام .

قلة ثقة المحكومين بعدل الحكام وطهارة أخلاقهم ، قد ولدت قلة ثقة الحكام بالمحكومين . فأينا لم يسمع من أحد الحكام من كبارهم الى صغارهم الشكوى المرة من الأمة والرأى العام . أينا لم يسمع أحدهم يقول :

إن هـذه الأمة لاتعضد خدامها وأنها بذلك لاتستحق أن تخدم . خصوصاً إذا تعارضت مع استقالته مصلحة يمضيها أو مضرة يحتمى من مباشرتها . يقول لك أنا أفضل الاستقالة لو أن الأمة تعترف لخادم بخدمته. أماوهى على ماترى فأنى لاأجد من الحكمة أن أحرم نفسى من جاه الوظيفة وراتبها. وذلك هو أدل الأشياء على قلة ثقة الحكام بالأمة.

على ذلك تكون علة مانحن فيه من التأخر دائرة بين عدم ثقة الأمة بأبنائها الموظفين وعدم ثقتهم بها أيضاً .

أخشى أن يترتب على ذلك فوضى فى الحكم ، خصوصاً مع تعدد الآمرين وتعدد الجهات التى يخشى غضبها ويطمع فى رضاها . وإن دواء هذه الحال بعد الدستور طبعاً ، هو معلق فى أعناق الموظفين . فأنهم دون غيرهم الذين يمكنهم مداواة هذه الحال بالتنازل بعض الشىء عن خدمة أشخاصهم على حساب الحق والعدل . وهم الذين يقدرون بشىء من حسن النية أن يفتحوا صدورهم للأمة لتقرأ فيها استقامتهم وخدمتهم لها خدمة صادقة فى كل عمل ولتعتقد أن كبارهم لايخدعون على أمتهم بل هم يستقيلون ، كلما لم يستطيعوا أن يقوموا للأمة بالخدمة المطلوبة منهم .

Digitized by Birzeit University Library

إن موظفينا ليسوا – كما يظن الناس – غير متمسكين بمبدأ الاستقلال في وظائفهم التي هي لهم مورد الرزق . أجلهم عن ذلك، وأحب جداً أن ينقلب ظننا اعتقاداً بأنهم لا ينقصهم من أسباب حسن الخدمة إلا ثقة الأمة بهم، فاذا راضوا أنفسهم على كسب هذه الثقة بالعمل الطيب، حسن الحال .

Digitized by Birzeit University Library

قلة الثقة

إذا صح أن قلة الثقة المتبادلة بين الحكام وبين المحكومين سببها ما ذكرناه أمس أو نحو ما ذكرنا ، فما وجه قلة الثقة بين الأفراد.

يجيء الحديث باسم واحد منا قد رشح لوظيفة مدير فيقول أحدهم : فلان مدير ! لقد هزلت . فاذا ناقشه الحاضرون وكان موضوع المناقشة شاباً ولم يجد له الطاعن مطعناً جدياً يقنع غيره ، قال إنه طائش . فان كان فوق الشباب قال أنا لا أكرهه ، وأعرف إنه متعلم ذكى العقل كفء ، غير أنه سيء النية أو غير مخلص ؟

فى حديث آخر يقال فلان ذو مرة لا يحاول شيئاً إلا حصل عليه، ولقد عنى بتحصيل المال فأصبح من الأغنياء — يقول أحدهم من غير علم إن نصف أمواله حرام ، وإنه مدين ديناً مستغرقاً لما يملك . وما كفاءته إلا مخاطرة نجح فيها مرة وانخذل مراراً . وكيف تحصل مثل هذه الثروة الطائلة ، إلا من ظلم الضعفاء .

يقبل عليك أحدهم يستشيرك ويستنصحك فى أمر أشكل عليه فيه وجه الصواب ، فلا يدرى هل يأخذ به أو يتركه . تشير عليه وتنصحه بما تعتقده من الصواب، ولكنك مع ذلك يبين لك من نظراته ومن بعض أسئلته أنه متظنن فى نصحك ، لأنه متردد فى كفاءتك للنصح ، مع أنه هو الذى جاء برجليه يسعى إليك . متردد فى إخلاصك . يرد على ذهنه ، أنه ربما كانت لك مصلحة فى الرأى الذى ذهبت إليه . ويكون من وراء هذا التردد أن يزيد الأمر الذى يحاول إمضاءه إشكالا فى نفسه هذه التى ما وثقت بذاتها ،

الجريدة فى ١٧ من مارس سنة ١٩٠٩ - العدد ٦١٣

Digitized by Birzeit University Library

حتى فى اختيار الناصح والمستشار، فيعمد إلى غيرك ثم إلى غيرك وهكذا، حتى لقد يتفق أنه بعد كل الاجهاد يأخذ بالرأى الخطأ دون الرأى الصواب. وإن المحامين ليعرفون هذا الصنف من الناس حق المعرفة.

يجلس بعضهم مع أحد الوزراء أو كبار الموظفين، فيسأله الوزير عن أسماء أشخاص لينتخب منهم واحداً لوظيفة قد خلت، فاذا كان ليس لصاحبنا قريب يريد محاباته ولا صاحب يريد ترقيته، هاله ذلك السؤال واعتقل لسانه كأنه يطلب منه عرض شخص يراد منه أن يطلع السماء من غير سلم ولا جناح. يجول بخاطره جولة فى قاموس معارفه وأقرانه، ثم يرجع من هذه الجولة بغير جواب إلا هذه الكلمة الجميلة التى من شأنها أن تزيد ثقة الوزير به وهى: أعترف بأنى ما وجدت ولست بمحمل ضميرى مسئولية لا قبل له بها. وإن صاحبنا لصادق فيما يقول، وذلك لأنه قليل الثقة بالناس. يعتقد أن من عداه من أقرانه لا يستحق ثقته.

يستشهد أحدنا فى أحاديثه أو فى رسائله بكلمات بعض المعاصرين من الكتاب والشعراء فلا يعدم لائماً يقول له: ما الذى أعجبك فى فلان حتى وثقت براجح عقله أو صحيح خبرته، فأقمته حجة لك على ما تحاول إثباته؟ ذلك لأن المعاصر عندهم أقل من أن يستحق الثقة بعقله الراجح أو خبره الصحيح.

نورد هذه الأمثلة اليومية من غير أن نلاحظ فيها عوامل نفسية خاصة تحمل الرجل على انتقاص غيره، كعوامل الحسد والكراهة الذاتية والمنفعة الشخصية. بل نحن فى هذا الموضوع لانضع تحت بحثنا الا النفوس السليمة من تلك الأمراض الخبيثة، والقلوب الطاهرة التى تقول ماتعتقد من غير أن تغمط حق إنسان. ولكننا نحاول الوصول الى أسباب هذا الاعتقاد غير الصحيح أى أسباب عدم الثقة التى تجعل الرجل يقلل قيمة الآخر من غير قصد سيء، بل لأنه قليل الثقة به.

Digitized by Birzeit University Library

إن الثقة بين الأفراد على وجه خاص لاتتولد إلا من الصلة والتجربة والمودة . ولكن الثقة بوجه عام لاتتولد إلا من الشعور بالتضامن بين أفراد الأمة الواحدة . فقد ترى الانكليزى فى أى بلد يفضل أن يكون طبيبه انكليزياً ومحاميه انكليزياً . بل يفضل ان يكون خادمه انكليزياً إذا استطاع ، ولامعنى لذلك إلا أن ثقته بالانكليزى ، أكثر بثقته من غير الانكليزى . كذلك الفرنساوى والطليانى واليونانى .

أما نحن فليست الثقة بيننا ظاهرة تماماً فى أعمالنا وأقوالنا . وذلك يدل على أن اتصاف الشخص بالمصرية ، ليس فى نظر المصرى مجلبة للثقة بوجه ما ، على النحو الذى يكون عليه الاتصاف بالانكليزية أو بالتركية كافياً فى نظر الانكليزى أو التركى لأيجاد الثقة فى نفسه .

ليس ينقصنا لتوثيق عرى التضامن بين أفرادنا إلا أن نفكر فيما يترتب على التضامن من السعادة للأفراد وللمجموع ، وما يترتب على فقد التضامن من شقاء الفرد والمجموع معاً . إن المرء إذا فكر فى نتائج التضامن اقتنع اقتناعاً صحيحاً بضرورته . ومتى اقتنع به ظهرت آثاره على أعماله وأقواله من غير إرادة ، بل تصدر عنه الثقة بالمصرى عفواً كما تكون ثقتك بأخيك أو بصديقك أو بذى مودتك ، حتى من غير أن تجربه فى العمل . وإن أهم الوسائل لنشر روح التضامن هو توحيد طرائق التربية والتعليم ، وأن يجعل الكتاب أكبر همهم تقريب الناس بعضهم من بعض ، لا توسيع مسافة الخلف بينهم وتعميق هاوية التقاطع بين أفراد الأمة الواحدة . وإنهم إن شاء الله لفاعلون .

Digitized by Birzeit University Library

بناتنا وأمهاتنا

خذ مثالا على سلامة العقل وسلامة الصدر وحسن الاستعداد للرقى الطبيعى، ذلك الرجل شديد البدن. ذلك الفلاح الذى استكمل خلقه وصار تمثالا لجمال الصورة الانسانية. لا ينقصه شىء إلا تنظيف بدنه وثيابه بالغسل، وتنظيف عقله بتعلم العلوم، وفيما عدا ذلك فانه الانسان كل الانسان كما أراد الله أن يكون، لا كما أرادت البيئة الضالة وما يسمونه مقتضيات المدنية الحديثة أو مرض العقول والصدور.

هذا الرجل يغتدى بكرة النهار قبل الشمس هادىء البال ساكن الأعصاب، يذهب إلى المسجد يمشى دون المسرع وفوق البطىء، مشية منتظمة جدا، تدل على راحة الضمير وصفاء النفس وحسن الرجاء فى وجه الله. فاذا عاد إلى بيته كلم وزجه فى أمر عمله وإلى أى غيط هو ذاهب، وما الذى سيحمله إلى الغيط من أدوات الحرث، وماذا تحمل زوجته منها أو ماذا تقود من الماشية إلى الغيط. يخاطبها مخاطبة الرجل للمرأة، مخاطبة المساوى للمساوى، مخاطبة الشريك للشريك. وهى كذلك تحبه وتحترمه، ولا تعتبر أنه ملك مستبد عليها له كل شىء وليس لها شىء. بل على العكس من ذلك تحس بأن علاقتها به — بصرف النظر عن الحب — علاقة شريكين عدلين، أحدهما قوى والآخر ضعيف، يتحابان ويتباغضان، يصطلحان ويتحاسبان. يتشاتمان ويتصافيان، يشكو كلاهما الآخر عند الحاجة لشيخ البلد أو المأذون ليحكم بينهما بالعدل، وليعتذر الذى عليه الحق للذى ظهر الحق فى جانبه. وكأنى لا أعرف الألفاظ التى أبين بها للقارىء هذا المعنى الراقى جداً، معنى أن هذا الرجل الفلاح يعامل امرأته معاملة المساوى للمساوى، ويعتبر أنها انسان موجود مثله لها من

الجريدة فى ٢٢ من مارس سنة ١٩٠٩ العدد ٦١٧

Digitized by Birzeit University Library

الارادة ما يجب احترامه إلى الحد المحترم من الارادة . تخرج وتدخل فى دارها عشرات المرات فى اليوم الواحد . ولا يبدو فى دماغها أنه سيجىء أحد يحاسبها على حرية الدخول والخروج، وأين كانت، ومع من من الرجال تحدثت ، وماذا كان موضوع الحديث . فاذا حاسبها الزوج على جيئاتها وروحاتها يوم السوق جرح هذا الحساب شعورها وعزت نفسها ، حتى لقد تغلظ إليه فى القول لأن كلماته تدل على أنه يظن بها سوءا وما بها من سوء . كما أنها إذا بان عليها من نظراتها ومن عباراتها أنها ترتاب فى أمر زوجها ، غضب لذلك غضباً شديدا وربما انتهى غضبه بأن يضربها كفاً أو كفين كما كان يفعل ذلك ، لو أن شاتمه أحد اخوانه الفلاحين .

هذا الرجل الطيب وهذه المرأة الجميلة الطيبة، أو هذان الزوجان الفلاحان، هما أكثر الأزواج ذوقا لمعنى عيشة الزوجيـة الراضية ، وأكثرهم تحصيلا للسعادة المنشودة من رابطة الزوجية، ينتج عن رابطتهما غالباً أولاد أصحاء الأبدان أصحاء الحواس والعقول . هم الذين يستحقون البقاء لانهم يسبقون غيرهم من أبناء المدن والأمصار إلى القيام بالواجبات الانسانية

أريد بذلك الرجل المثال الفلاح السليم الذى يشعر حقيقة باحساس الحب على الطريقـة الفطرية للانسان، لاذلك الرجل فاسد الذوق الذى قلد المتمدنين المرضى ، فأصبح ينظر إلى الأشياء بنظارة ملونة . يعتقد أو يظن أن امرأته إنما خلقت إجلالا له . تسبح بحمد رضاه وتهيب غضبه الذى هاجه السكر أو سببه ضعف الأعصاب ، يغضب إذا وجد الشباك مفتوحا . يغضب إذا خرجت امرأته من بيته لبعض شؤونها . يغضب إذا لم تقابله كل يوم بالف تحية وألف اطراء كأنها مستخدمة فى بيته كشاعرة تطرى منه الحسن والقبيح . أو كأنها يجب ألا تحس إلا بأعصابه المريضة ، وأن لا تفهم إلا بعقله الضائع . أستغفر الله أن أعنى بهذا الفلاح الطيب ذلك الظالم المتكبر الذى فطر على ظن السوء بزوجته بل بثيابه أيضاً . لأنا لانفهم معنى لهذا

Digitized by Birzeit University Library

التضييق على النساء فى المدن إلا ظن السوء ، واتهامهن بما هن منه براء . ولا أعنى بتلك الزوجة الفلاحة الصالحة ، إلا تلك التى أصفت المودة إلى زوجها وترفعت بنفسها عن أن تكون له رقيقة ، بل هى له أهل وسكن وعون على السراء والضراء . لا أعنى بالزوجة الصالحة تلك الزوجة التى حلل الاستعباد أخلاقها فلا تماسك لها ، وتلونت نفسها بالمهانة فجعلتها ترضى بالتهم التى توجه اليها كل يوم، لأن المراقبة الشديدة هى فى ذاتها تهمة بالضرورة . وأما المراقبة الخفيفة كما يكون مراقبة الصاحب لوداد صاحبه، فتلك ضرورية وطبيعية أيضا

انظر الفرق بين الزوجين الصالحين اللذين قد تأسست علاقتهما على الحرية والمساواة . وبين هذين الزوجين المدنيين وقد تأسست علاقتهما على سوء ظن كليهما بالآخر . واجتهاد الزوجة أن تخفى عن زوجها مايجرى فى وهمها من الخيالات ، وما يختلج بقلبها من صنوف الميل إلى الأشياء. تخفى عنه زياراتها ، تخفى عنه حياتها ، تخفى عنه كل شىء إلا شيئاً واحداً هو الظهور له بمظهر كاذب مزور . وهو يخفى عنها أيضا كل شىء حتى صور أصحابه من الرجال . يخفى عنها أعماله ومقاصده ، فهى لاتعرف من أمره إلا شيئا واحدا، هو أنه كاذب فى حبه لها ، كاذب فى رضاه بها خليلة الى الممات .

فالى متى يصبر أهل المدن والمقلدون من أهل القرى على هذه المعيشة الخسيسة ، ولا يفكرون فى تحسين الروابط العملية بين الزوجين وإرجاعهما الى ذلك المثال الطبيعى من الزوجية الفلاحة الصرف ، المبنية على المساواة والتسامح ، لا على الاستعباد وسوء الظن ؛ المؤسسة على الحب المتبادل بين الزوجين قبل عقدة الزواج ، لا على مال الزوجة أو مال أبيها الذى سترثه بعد عمر طويل .

نكتب لضرورة المساواة ونقول بها فى المجالس . ننقلها عن الشريعة الاسلامية نصوصاً وأعمالا . ننقلها عن التمدن الغربى وقائع وأمثلة . ونحن مع ذلك أقل عزيمة من أن تجرى مبادئها فى بيوتنا وعلى أخص الناس لنا

Digitized by Birzeit University Library

وألصقهم بنا أى نسائنا . نطلب نظاماً ديموقراطياً «المساواة بين جميع الطبقات فى الحقوق» ونحن فى بيوتنا على أشد ما يكون المستبد ، وأقسى ما يكون الظالم . نطلب لأولادنا الحرية وندع أمهاتهم رقيقات راضيات بالرق مجردات عن الميل إلى الحرية المشروعة . أليس يكون هذا هو أقطع الردود حجة علينا فى أن نقول مالا نعتقد ، او أننا أعجز من أن ننفذ ما نعتقده الحق ؟

سيقولون إن تخفيف الحجاب وإرجاعه الى أصله المشروع مفسدة للسيدات لأن الشبان غير مربين . ومع أننا نظن أن كل عذر فى عدم المساواة غير مقبول ، إلا أننا مع ذلك نقرر بأن عدم تربية الشبان جاء من أنهم أولاد رقيقات ، لا أولاد سيدات أحرار . ولا شك فى أن الحرة تدس فى أخلاق ابنها طبائع الحر . والرقيقة ترمى فى أخلاقه طبائع العبيد . وكرم الحر يأبى عليه أن يؤذى النساء ولو بنظرة . وخساسة العبد تبيح له الايذاء عند القدرة عليه .

لا أقول اخرجوا نساء المدن من بيوتهن كما يخرج نساء الفلاحين ، أى اجعلوا الجزء الأقل فى الأمة يشابه الجزء الأكثر فيها ، بل أقول كل تعليم للبنين والبنات لا يأتى بالنتيجة المقصودة مالم يكن للمرأة من الحرية ما يجعلها تشعر بأنها مثل الرجل ، وأن عليها حقوقا للجمعية الانسانية يجب أن تقوم بها هى أيضا ، وأهمها تربية الأولاد على الحرية . ولن تعطى هذه المربية المسكينة إلا ماعندها من طبائع الاستبداد .

وإنا لنرجو آخر الأمر من جماعة المنتقدين ألا يجعلوا كل سمرهم الانتقاد على زينة النساء ، بل حسبهم أن ينتقدوا بطالة الرجال ، وسوء معاملتهم لأخواتهم . بل أرجو أن تحرر أمهاتنا ، قبل أن تحرر أوطاننا .

Digitized by Birzeit University Library

صلاح العائلة صلاح الامة

إذا رأيت العائلة المصرية ولحظت علاقات الزوجية خصوصاً فى الطبقة التى عقد بها الرجاء لترقى البلاد . واذا رأيت فوق ذلك هذه الأزمة الفاشية فى سوق الزواج بين الشبان والشابات . إذا رأيت كل ذلك ، حكمت أن علينا واجبات لا آخر لها ، وجهادا شديدا وطويلا فى اصلاح حالنا الاجتماعية . وإننا يجب علينا أن نستخدم جميع القوى التى ندفع بها عن حريتنا الشخصية وحريتنا السياسية فى إصلاح حالنا العائلية . لأن نجاحنا فى الأولى ، يتوقف دائما على نسبة تقدمنا فى الثانية . لا تتألف الأمة من الأفراد المجردة ، بل هى تتألف من العائلات . إن البيت يبنى من الحجارة لا من ذرات الرمل التى تتكون منها الحجارة ، فكلما كانت الحجارة أكبر حجما وأشد صلابة ، كان البناء أدعى إلى المكث زمنا طويلا ، وأصبر على مقاومة الحوادث التى تصب عليه من الخارج .

كنا نصبح أشد رجاء وأسعد حظا لو كانت العائلات المعول عليها فى رقى الأمة هى تلك العائلات الفلاحية التى ليس فيها بين الزوج والزوجة من الفروق ، إلا تلك الفروق الطبيعية أو الشرعية ، التى لا مناص منها . ولكن مع الأسف إن السنة المطردة فى نظام العالم تجعل هذه العائلات الفقيرة لا تحدث فى جمعية الأمة أثرا إلا وراء العائلات الأخرى ، عائلات الطبقة العليا والطبقة الوسطى من الأمة . على أن هذه العائلات الفقيرة أو عائلات العمال فى بلادنا ، هى فى الحقيقة قريبة فى نظامها من المعقول لأنها مؤسسة على جانب عظيم من المحبة والتسامح والشعور بالمساواة بين الزوج وزوجته ، بنوع ما من المساواة .

الجريدة فى ٦ من إبريل سنة ١٩٠٩ العدد ٦٣٠

Digitized by Birzeit University Library

يرى الشاب الفلاح ابنة جار أبيه فى البيت أو فى الغيط ، أو يلمح ابنة نزيل عندهم فى القرية أو ابنة أحد أقارب أو أصحاب أبيه أو غيرهم فى بلد أخرى . يلمح هذه أو تلك فيبتدرها بالسلام . يسلم عليها باسمها من غير كلفة ، وهى كذلك ترد السلام عليه باسمه ، ثم يتحادثان كما يتحادث الأخ مع أخته . ثم يكون من بعد ذلك أن يجد الشاب فى هذه البنت الصورة المرسومة فى ذهنه من المرأة التى يبتغيها له شريكة فى الحياة ، فيخطبها له أبوه . وهكذا هى العامة ، إلا ماشذ منها فى العائلة التى يكون رئيسها غليظ القلب ، جافى الطبع ، يزوج ابنته كرها لمنفعة يرتجيها ، أو فخر يحلم به . أو يزوج ابنه بمن لا يحبها ، لأنه يحب إرضاء مطمع له أيضاً . ولقد علم الناس أن مثل هذا التصرف يأتى دائماً على نتيجة تناقض مافى حسبان الآباء ، فكفوا عنه الآن كثيراً . وليست هذه الأمثلة فى الواقع إلا شواذ من القاعدة العامة التى هى أن الشاب الفلاح والشابة الفلاحة ، يتزوج كلاهما بعد ميل خاص ، وجاذبية حقيقية . إذا أخطأ الشاب فى اختياره أو أخطأت الشابة فى اختيارها ، فخطؤهما شخصى خاص بهما لا يد لنظام الجمعية فيه ، ولا مسئولية على هذا النظام إلا فى أنه لم يعط هذه الشبيبة الفلاحة من العلم قسطها ، حتى يحسن اختيارها .

أما الطبقة الوسطى من الأمة ، وهم طبقة الذين يحجبون نساءهم فى المدن ، والموسرين فى القرى ، الذين يقلدون أهل المدن فى حجب النساء ، فتأليف العائلة عندهم مضحك . وشر البلية ما يضحك .

تخطب السيدة المصونة ، والجوهرة المكنونة ، على الطريقة التى نعرفها جميعاً . لعبة فى علبة . لا يشترط فيها إلا أن تروى عنها السيدات المكنونات أيضاً ما شئن من الجمال الذى لا يعرفن له معنى ، إلا السمن والبياض . والأدب الذى لا يعرفن له صورة ، إلا غض الطرف ووضع اليدين بانتظام على الركبتين ، كتماثيل سقاره . ثم تنقل هذه الشابة التى عقد عقدها إلى بيت زوجها كما تنقل البضاعة الذى حصل اتفاق المتعاقدين عليها عقدا عاما ، ليس فيه شرط

Digitized by Birzeit University Library

ولا خيار عيب ، ولا خيار رؤية . وكأن الأزواج فى هذه الحال عمى يحبون بالسماع ، ويختارون بالسماع ، ويعولون فى سعادتهم الزوجية على السماع . قد تكون الصدفة سعيدة، فيحصل كلا الزوجين على ما كان يحب . ولكن الصدفة أبعد جداً من أن تصلح نظاما عملياً للروابط الاجتماعية ، فأنها تسعد مرة ، وتخبث مرارا .

إن هذه السيدة كانت مكنونة فى الحجب فى دار أبيها ، مكنونة فى بيت زوجها ، وجهها عورة يجب سترها ، وصوتها عورة يجب كتمانه ، وملكاتها عورة يجب خنقها تحت الحجاب . واسمها عورة ، وكلها كذلك ، ثم يطلب منها بعد ذلك أن تكون إنساناً حراً تام الشخصية ، عليه للاجتماع أثقل الواجبات ، وهو واجب تربية البنين والبنات .

يبين لبعض الذين يأخذون بظواهر الأشياء أن السيدة المحجوبة هى موضوع الاحترام والأجلال ، أو فى نظر أبيها وزوجها أكثر احتراماً ورعاية من تلك الفلاحة التى لا حجاب عليها . ولكن ذلك خطأ محض . فأن الفلاحة ملحوظ فيها أنها إنسان أمين على نفسه ، أى إنسان تام الخلقة ، له من الحرية ما وهب الله لكل مخلوق ، وأما السيدة أو الهانم ، فأنه ملحوظ فيها انها ليست أمينة على نفسها . لاقوام لها بغير المراقبة الشديدة . أو لا وجود لها إلا بصفتها متعلقة بأنسان آخر ، هو وليها أو زوجها .

يظهر لنا أن هذه الأعتبارات هى التى تجعل شبابنا يحجمون بعض الشىء عن الزواج . وهذا الأحجام بلية يجب علينا أن نتداركها بقدر الاستطاعة . ولا يمكننا أن نتداركها إلا بأرضاء أطماع الشبان التى خلقتها فيهم التربية الحديثة . ولا يكون ذلك إلا بتعليم البنات وتقريب مستواهن العقلى والعلمى من مستوى الشبان حتى يكون الزواج مرجحاً فيه جانب السعادة على جانب الشقاء .

بناتكم أصبحن بحكم البيئة والتعليم يدركن أن لهن إرادة يجب أن تحترم ،

Digitized by Birzeit University Library

كما تحترم إرادة الشباب . يعلمن أن لهن حظاً من السعادة فى هذه الحياة الدنيا ، يجب أن يستوفينه كما يستوفيه الشبان . لا تضاروهن ولا تضيقوا عليهن ؛ ولا تفرقوا فى المعاملة بينهن وبين إخوانهن .

إذا أحست المرأة بحريتها ومسئوليتها . وأحس الرجل بمسئوليته عن المساواة بينه وبينها ، تألفت العائلة المتينة التى تصح أن تكون هى الوحدة فى تأليف أمة ، أهل لأعلى درجات السعادة القومية .

العائلة أساس الرقى ، أصلحوها وكل إصلاح بعد ذلك سهل مستطاع .

Digitized by Birzeit University Library

حدود اللياقة

يخرج بعضهم من بيته الى القهوة القريبة لابساً قفطان النوم، وعليه «جاكيت» أو «بالطو» وفى رجليه خف البيت. يجلس فى الشارع يمر به الرائح والغادى، وهو على ذلك الزى الذى ليس هو زيه العادى، مع أن له فى قومه مركزاً محترم الجانب. إنه لا يفعل ذلك استهانة بالانتقاد ولا تطبيقا لمذهب يريد نشره، ولا زهادة فى حسن الهندام، ولكن صاحبنا لا يعرف اللياقة

يدخل أحدهم عند رجل من ذوى الأقدار وعصاه فى يده والمسبحة والسجارة فى اليد الأخرى، من غير أن يستأذن عليه فى الدخول، ثم يتصنع السلام البارد الذى هو من عادات المتغطرسين. وليس هذا الداخل متكبراً فى الواقع ولا هو مستهيناً بقدر الرجل الذى يزوره، بل هو يظن أن صحبته بذلك الكبير المزور تبيح له عمل الاجلاف، ذلك لأن هذا الزائر لا يعرف اللياقة

يهديه بعض أصحابه هدية، فيريد أن يرد له مقابل الهدية بخير منها، فاذا أخذته الحيرة فى تقدير قيمتها ذهب الى صاحبه المهدى فسأله عن ثمن الهدية، هذا أيضا لا يعرف اللياقة

يركب أحدهم الترامواى وأمامه المحال خالية تسعه بالراحة وتسع أكثر منه ثقلا، فلا يطيب له أن يختار المحل الفسيح الذى لا يثقل فيه على أحد، بل يلقى ببدنه فى مكان غير فسيح بين سيدتين تنقبض كلتاهما وتلم من ثيابها لتفهمه أنه ضايقها من غير موجب. ولكن شعوره لا يتأثر بهذه الاشارات الجارحة، بل يمكث فى مكانه مستريحا بحجة أن أريكة الترام معدة لأربعة

الجريدة فى ٣ من مايو سنة ١٩٠٩ . العدد ٦٥٢

Digitized by Birzeit University Library

لا لثلاثة . إن صاحبنا ليس من قليلي الأدب الذين يطوون فى نفوسهم أغراضاً من الجلوس بجانب النساء فى الترام ، ولكنه عديم اللياقة

اللياقة معنى عام هو مرآة للفضائل أو كما يقول سيسرون « اللياقة هى الصيغة العامة لجميع الفضائل الأخرى كالحكمة والعدل وحب الخير والشجاعة . فكما أن صحة الجسم تفيض عليه غالبا نور الجمال واللطف ، كذلك فضيلة الروح ، يجب أن تتزين بشىء من اللياقة ، بأن تلاحظ الحد الوسط فى كل شىء »

مبالغة الرجل فى الزينة على غير المألوف ، ومبالغته فى رثاثة الملابس على غير المألوف ، وتنطعه فى تطبيق المبادىء التى تعلمها على كل شىء وفى كل موطن من غير تمييز ، وكذلك تجاوزه فى الترفع الى درجة السخرية وفى التواضع الى درجة الضعة والمهانة ، كل ذلك هو عدم اللياقة .

اللياقة تَجَمُّل يتشبث المرء ذو الطعم ، يكسو به فكره وأقواله وأعماله ، لتكون مقبولة فى الجمعية التى هو فيها ، ولتأتى بالأثر الذى يريده منها

غير أن اللياقة التى صارت بهذه الصورة التى وصفناوا اجباً من الواجبات ، قد يعارضها واجب آخر . فيقع المرء فى الحيرة ، أى الواجبين يتبع

سكت على بن أبى طالب عن الخوض فى حديث جرى فى مجلس أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، فقال له مالك لا تقول؟ فأجابه بما معناه : إن قلت لأسمعتك مالا يرضيك ، وليس لك عندى إلا ما يرضيك .

فى هذه الحادثة تعارض واجب الصحبة واللياقة مع واجب الصدق فى القول ، فكان السكوت خير طريقة للخروج من تعارض الواجبين .

قال سيسيرون : متى تعارضت الواجبات وجب ترجيح أقربها الى الطبع والنفع ، ومتى تعارض الواجب الخاص والواجب العام ، وجب الأخذ بالواجب العام ، وترك الواجب الخاص .

اذا تقرر ذلك وجب علينا أن نسير الى طرف مما يتحدث به الناس

Digitized by Birzeit University Library

الآن فى قضية حرية الدفاع ، أى فى حادثة الهلباوى . يقول بعض العلماء الأذكياء إن دفاع الأستاذ الهلباوى عن احمد افندى حلمى (١) مع كونه متهماً بأنه عاب فى ذات الحضرة الخديوية ، وبأنه بذلك مغضوب عليه من المعية ، وباعتبار أن الهلباوى هو محامى الأوقاف المتصل بالمعية مباشرة . إن دفاعه مع هذا الاعتبار ، فيه شىء من قلة اللياقة .

لسنا ندرى من أى باب تدخل اللياقة فى هذه الحادثة، فان أصل تعريف المحامى أنه رجل وقف وقته وملكاته على الانتصار للحق حيث وجد والدفاع عن المظلوم أنى كان . وليس يوجد فيما نعلم علاقة بين الهلباوى بك وبين المعية أكثر من علاقة أى محام آخر من المحامين المشهورين بالمعية . بل يجب علينا أخذاً بما قررته الشرائع على الحاكم من وجوب التسوية بين طبقات الأمة، أن نقول إنه إذا كان فى دفاع الهلباوى عن احمد افندى حلمى شىء من عدم اللياقة ، ففى دفاع كل محام عن هذا الأفندى شىء من ذلك، لأننا جميعاً يجب علينا أن نراعى حدود اللياقة بين كل فرد منا وبين سمو الأمير . وعلى ذلك يجب أن حلمى افندى يؤخذ من الدار الى السجن، من غير أن يجد محامياً يدافع عنه!!

على فرض أن اللياقة داخلة فى هذا الباب ، فأنها قد تعارضت مع واجب الدفاع والانتصار للحق . ولا شك فى أن اللياقة التى هى واجب عرفى صرف، يجب أن تسقط أمام الواجب الاجتماعى المقدس، بل الواجب الطبيعى الذى هو المحافظة على الجمعية البشرية بالانتصار للمظلوم .

لعل الأمر ليس فيه شىء من عدم اللياقة، ولكنهم أرادوا أن يقولوا إنه يجب على كل امرىء أن يعمل مافى وسعه ليسترضى السلطة عنه ليفوز بمنافعه الشخصية ولو كلفه ذلك أن يطأ بقدميه أقدس المبادىء الاجتماعية وألزم المصالح القومية . إن كان الأمر كذلك فعلى المبادىء العفاء .

---

(١) محرر من محررى جريدة اللواء توفى هذا العام عليه رحمة الله .

Digitized by Birzeit University Library

الشرف

لا يعرف التاريخ أن بنى الانسان كانوا يوماً من الأيام على حالة الهمجية أو الوحشية . بل الذى نعرفه جميعا أن الانسان عاش دائما فى حالة المدنية ، والمقصود بالمدنية أن أفراده كانوا مرتبطين فى كل بقاع وفى كل زمان بأربطة متفق على صحتها، مثل القيود التى تنتج عن روابط العائلة أو روابط المساكنة والاشتراك فى المصالح أو روابط الدين وآدابه ، أو روابط الأفكار والمشاعر التى تخلقها فى المرء رؤيته للطبيعة وفكرته فى هذه المسألة الكبرى : مسألة لماذا خلق الانسان والى أين يذهب به ؟ هذه الروابط التى تنتج عنها الاحساس بالخير والشر والاحساس بالحق والواجب ، كانت دائما هى قوانين بنى الانسان، بل حدود ذلك المعنى العام غير المتناهى الذى يسمونه الشرف .

اذا قلت فصدقت فى القول . ووعدت فوفيت بالوعد . وقبلت مركزاً فى الاجتماع فأفرغت جهدك فى الأخذ بحقوقه والقيام بواجبه على أكمل الصور التى تستطيعها، فأنت شريف .

يبنى الرجل بزوجه فيتعهد لها صراحة أو دلالة بدوام الود لها دون غيرها والقيام عليها وحسن معاشرتها، ثم هو بعد ذلك يتبرم بها و يتغير لها.

يرزق الرجل أولاداً فلا يفكر فى أمرهم ولا تأخذه الغيرة على مراقبة سلوكهم، ويهمل أمر تربيتهم بقدر مايستطيع .

يتخذ الرجل صاحبا يصفى له المودة ، ثم لا يلبث أن تبرد فى قلبه نار المحبة له فلا يصدق معه الصحبة، ويتجنى عليه اذا كلفته صحبته قليلا من العناء .

يرجو الشاب أن يكون موظفاً فى الحكومة قائما بأعمال عامة يترتب عليها صلاح الناس وفسادهم . فيسلم له التصرف على حسب أهمية وظيفته فى مصالحهم ، حتى فى الحكم فى دمائهم وأعراضهم . فلا يلبث أن تقل فى

الجريدة فى ٩ من مايو سنة ١٩٠٩ العدد ٦٥٧

Digitized by Birzeit University Library

نفسه حدة العمل ويتهاون فى القيام بالواجب، ويفضل راحة بدنه وشهوات نفسه على مواصلة الليل والنهار فى إصلاح حال الذين ولى عليهم. وقد يكون من مسلياته على وخز الضمير، أن قرينه الموظف الآخر ينقد راتبا أكثر من راتبه وهو كذلك لا يعمل شيئاً طول النهار، بل هو يفكر كل يوم ساعة فى الحيل التى يتخذها لدرء المسئولية عن نفسه، عند ما يتهم لدى رؤسائه بالتقصير والاهمال.

ويجتهد فى أن تكون توقيعاته على مايعرض عليه من الأوراق توقيعات مبهمة تحتمل وجهين. ويعمل فكرته إعمالا دائماً فى الطريقة التى بها يترقى من درجة الى أعلى منها.

يتفق الرجل مع الرجل على القيام بعمل خاص أو عام، وبعد ذلك الاتفاق اذا بدا له أن فى نقض قوله ودوس شرفه شيئا من الغنم أو الأمل نقض قوله من بعد قوة وايمان، ولعب بالاتفاق مهما كان.

يتصدر الرجل للعمل فى السياسة بالدفاع عن حقوق أمته وهو يعلم أن من وراء هذا الدفاع تضحية الراحة وتضحية المال وتضحية حريته وحياته عند اللزوم، ولكنه مع ذلك يتخذ العمل هزؤ او لعباً، بل يتخذه وسيلة لأرضاء شهوة، كمن يتفق مع احدى السلطتين المتفقتين،(١) ثم هو فى الوقت نفسه يضا السلطة الأخرى حتى يحفظ للناس ظواهره الوطنية وينسى أن الموافق للموافق موافق.

ألا إن ذلك الزوج وذلك الوالد وذلك الصاحب وذلك الموظف وذلك الشريك وهذا السياسى، كلهم قد جاوزوا حدود تلك القوانين الطبيعية أو الروابط الأدبية التى لا يعرف لها فى العالم أول، أو بعبارة أخرى إنهم خسروا الشرف.

ضيع ما شئت من المال فما عاقبته إلا الفقر. وما شئت من الصحة فما العاقبة إلا المرض أو الموت. وما كان الفقر عاراً ولا كان المرض خطيئة. ولكن الخطيئة والعار هما فى خسران الشرف: ولئن خسر المرء كل شىء، فحقيق به لا يخسر الشرف.

---

(١) السلطة الشرعية (الخديو) والسلطة الفعلية (الانجليز)

Digitized by Birzeit University Library

فى الاخـــلاق

القصد فى الـكلام

اذا جاءك بعضهم يرجوك فى مساعدته على قضاء أمر يرغب فيه، فمن الأدب والذوق أن تسمع لقوله وتصبر على اكثاره. فانه يقدم لك مقدمات طويلات جداً ويحشو ذهنك بمعلومات مختلفة أكثرها غير داخل فى موضوع الأمر الذى يعنيه. وقل أن يبعد فى رواياته عن ذكر طرف من ماضى الأمة وحاضرها والدول التى تغلبت عليها، والأخلاق التى علقت بأهلها، إلى غير ذلك مما لا يسمى تلطفا فى الطلب ولا مقدمات لموضوعه

وقد يجىء أحدهم لزيارة الآخر يفتح أبواب المعلومات المختلفة على التوالى، يخوض فى كل منها بمسحة من الثقة برأيه حتى ليدهشك جهل هذا الزائر وثقته بعلمه، مع أنهما فى العادة متنافيان.

ترد على خاطره الفكرة أثناء الحديث يوصل بها كلامه ويؤكد صحتها، حتى يخال السامع أنها فكرة صحيحة مختمرة وناضجة ومتولدة عن بحث طويل. وما هى فى الحقيقة إلا بنت ساعتها، ولم يجىء بها البحث بل جاءت بها ضرورة اكثار الـكلام.

اذا جمع أحدنا كمية الـكلام الذى ينفقه على أغراضه الضرورية فى اليوم الواحد، من غير اسراف لا يبلغ مقدارها كلام ساعة من الزمان

ولـكننا جميعاً نـكثر من الـكلام، فأن الخطيب السياسى يمضى ساعة أو ساعتين ليقول لنا كلمتين: سلطة الجماعة فوق سلطة الفرد

الجريدة فى ٢٤ من مايو سنة ١٩٠٩ . العدد ٦٧٠

Digitized by Birzeit University Library

أو ليقول إن المشروع الفلانى ماس بحرية الأفراد أو ضار بمالية الأمة. كذلك العاشق يصرف فى الكلام ساعات وأياما ليقول لمحبوبته إنه يحبها. والشاعر ينشد القصائد الطويلة لينبه الغافل إلى جمال الطبيعة

والمتعاقدان على سلعة يصرفان كثيراً من الكلام فى مقدمات للعقد على السلعة. بل قد ينفق الرجلان سهرتهما فى السمر وهو الكلام الذى ليس لأحدهما من ورائه غرض يرجو تحقيقه. فالظاهر أننا نحب الكلام للكلام. أعنى أنه أصبح هو أيضا لذة من لذاتنا الدنيوية، بل هو من خير لذاتنا. سئل معاوية عما بقى من لذته، فقال محادثة الرجال.

على ذلك يظهر أن كثرة الكلام ليست كلها معيبة وليست كلها ممدوحة، بل الممدوح منها الاطناب المقبول الذى يراد به الاقناع بحق أو الاقلاع عن باطل. اطناب يلتزم فيه حدود التفكير ومراعاة المناسبة فى التعبير، أما القبيح من كثرة الكلام فهو الخروج عن القصد ومجاوزة حدود الغرض، ليظهر المتكلم بأنه متكلم لسن، وقلما يخف هذا الغرض على آذان السامعين، وقل أن يكون له فائدة إلا فى امتحان طلبة العلم.

إن من كثر قوله كثر خطؤه. ومن اعتاد ذلك نقص شعوره بالمسؤولية التى تترتب على الكلام. فقد يطيل بعض الناس فى القول الهراء حتى يصل به الحد إلى المساس بأقدار الناس والنيل من أعراضهم، والقذف فى ذواتهم لغرض ومن غير غرض. وهو فى هذه الحال لايرد على خاطره مطلقاً أن هناك مسئولية قانونية وأدبية هى النتيجة الطبيعية لثرثرته واكثاره. إنه لايقدر هذه المسئولية وقت الاكثار، ولكن له سلاحا ماضياً يحميه شرها عند الحاجة. هذا السلاح هو الكذب. يعتمد على حلف الأيمان الكاذبة بأنه ماقال ولا سمع ولا حضر المجلس ولا أكثر من القول على الأخص. يكذب الشهود ويكذب نفسه ويكذب كل شىء، حتى دلالة الالفاظ على

Digitized by Birzeit University Library

معانيها . وكل هذا الفساد نتيجة من نتائج الاكثار فى الكلام وإلقائه على عواهنه من غير فكرة ولا تدبر

أرى كل عارض سلعة فى السوق يمجدها ويظهر محاسنها ، ويذكر أجمل خواصها ، حتى بائع الترمس يكنى عنه باللوز ، وما علمت إنسانا يبخس بضاعته وينادى عليها بالبوار إلا المكثار . ذلك بأن القول دليل على رجحان العقل أو بلادته ، دليل على فساد القلب أو صحته . فكل قائل إنما يعرض ذكاءه وشعوره على الناس . ومن شأن المرء فى سوق الحياة أن يبيع غاليا ويشترى رخيصاً إلا هذا المكثار فأنه متطوع يعرض على الناس حمقه وقلة عقله وانحطاط شعوره . وما ذلك إلا لأن لسانه يصور عقله وقلبه فى أخس الصور وأقبح الأشكال . نعلم أن اللسان خلق لمنفعة الانسان ، وننكر تماما أن من وظائفه الأولى أن يضر به ، كما أننا نمنع أن من خواص اقتناء السيف أن ينتحر به صاحبه ، ولكن العادة وعدم الشعور بالمسئولية قد يخرجان المرء من حب المحافظة على وجوده الخاص وعلى الجمعية التى هو أحدها الى أن يكون عدواً لنفسه عدواً لأخوانه . وما ذلك إلا أنه كسل عن محاسبة نفسه واستهان بتقدير واجباته الشخصية والأجتماعية فى لذة هى أكذب اللذائذ وأكثرها اتصالا بالمكدرات ، هى لذة الأكثار من القول والأخذ بعادته

فضيلة القصد فى القول وعدم الخروج به عن أغراضه التى وضع لها ، فضيلة اجتماعية أثرها فى الوجود يقرب أفراد النوع الانسانى بعضهم من بعض . وأصلها فى النفس حب الرفعة المعنوية والشعور بالمسئولية . وهى كغيرها من الفضائل لا يتكلف المستعد لها إلا إلفات نفسه إليها وتعويدها عليها حتى يصير القصد عادة له .

على أن هذا العلاج يكون بطيئاً إلا أنه على ما نظن ، هو العلاج الوحيد.

Digitized by Birzeit University Library

من مصر الى باريس

باريس فى ٢٥ يونيو سنة ١٩٠٩

فى السفر ما يملأ العقل راحة والنفس رضى ، ويفرج عن القلب هماً ، وما أكثر هموم المصرى . وكيف يسرى عنه الهم والنظام العملى للعائلة المصرية صار أشل لا تماسك فيه ولا نتيجة من ورائه ، والحكومة شخصية لها كل الغنم وعلى الأمة كل الغرم ، والديار محتلة بأجنبى لا هو صريح نقدر لشقائنا معه حداً ، ولا نحن معه من الرجاء أو من اليأس فى إحدى الراحتين؟ ولكن القدر المتيقن من عمله ، أن وجوده لم يساعد الى الآن على رقى حالنا الاجتماعى ولا السياسى، بل لم يقدر على أن يزجى الى نفوسنا شيئا من الثقة به أو خيالا من السعادة القومية فى المستقبل . وكثيرا ما يريح الشقى ، أن يتخيل أنه سعيد

فى السفر ما ذكرت من الرضى، ولكن فيه أيضا مايميت القلب ويشغل الفهم، اذا قارن المصرى بين ما يراه فى بلده من فشل الأمة عن حقها ، وتضافر الحاكمين على التسلط عليها، وبين ما يراه فى غير مصر من ديموقراطية صحيحة كاملة، فيها الفرد يساوى الفرد حقيقة، ولا فضل لأحد على أحد إلا بمقدار نفعه لقومه ، وليس لأحد من السلطة إلا ما أرادت الأمة أن تعطيه ، لا هبة ولا مكافأة، بل حملا وواجباً يحاسب عليه حسابا عسيرا .

فى السفر ما رويت من الحالين ، وكذلك فى الحياة لا شىء إلا يدور بين النفع والضرر ، ولا حال إلا بين النعيم والشقاء

ليس علىّ أن أدخل للقارىء من باب الشعراء فأتكلف له وصف السماء وما تفعل الريح فى وجه الماء ، ولكن على أن أنقل له الوقائع بالضبط الذى

الجريدة فى ٥ من يوليه سنة ١٩٠٩ . العدد ٧٠٦

Digitized by Birzeit University Library

تقتضيه أمانة النقل بقدر الامكان . وإنى شديد الاقتناع بخطئى فى الحكم على الأشياء ، فحكمى لى ، وللقارىء حكمه ، فأنى لا أكفل صحة الحكم ولكنى أكفل صحة النقل

فى البحر كما فى البر ، الناس هم الناس ، لا ينزلون عن شىء من طبائعهم الأصلية ولا ماصار لهم بحكم العادة والتقاليد . فاذا جاء الغروب نزلوا جميعا كل الى مخدعه ليمضى وقتاً غير قليل فى تنظيف وجهه وما علاه من غبار وفرق شعره ولبس السواد المعروف «بالاسموكن» للرجال ، وتلبس النساء من خير مالديهن ، وخيره واسع الطوق . وليس هذا عندى بمنتقد فى ذاته ، فما كانت النظافة إثماً ولا التجميل عيبا . ولكنى أرى بوجه عام أن فكرة الزينة تأخذ من الناس مأخذها ، حتى لقد يفضلها المرء على راحته وهى أحسن ما يكون ، ويغلو فى المحافظة عليها حتى أصبحت من حاجاته وما هى منها فى شىء ، فعلما يلزم من المال لانشاء مخبز أو مصنع للمحاريث والفوس ، عشر مايلزم لفتح دكان «دانتله» ، بل القناطير المقنطرة التى تصرف فى معامل الحرير ، وما كان للحرير الغالى مزية على القطن والكتان فى حفظ الأبدان وجمال الهندام ، الا رفعته عن المعوزين ولمعانه فى أعين الرائين . من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ لا حرمة فيها . ولكن الغلو فى الزينة وإرضاء شهوة التجمل بالعريض ، تجعل للانسان حاجياً ما ليس بحاجى ، فتزيد فى مقدار أسره وتقوى حلقات القيود التى يربط نفسه بها فى هذه الحياة . وليست هى قليلة حتى يزيدها ، خصوصا ذلك المصرى الذى هو فى قيد من لغته التى لا يراد أن يدخل بها فى أبواب الاستعمالات الحديثة . فى أسر من عادات ما ولدتها عادات آبائنا الذين يشرفنا الانتساب اليهم . بل هى عادات «بنات حرام» خلقتها طبائع الاستبداد ، فى قيد من هذه الحكومة الشخصية التى تقف بعقله عند حد معين أن يدرك فيعمل لجعلها مقيدة لا مطلقة ، وتقف بتعليمه عند حد ثابت أن يصح علمه فتهون الحياة فى نظره ، ويموت خوف الحاكم فى قلبه ، وهذا مالا تبتغيه . فاذا كنا من الحياة على هذه

Digitized by Birzeit University Library

القيود، حق علينا ألا نكثرها وأن نلزم القصد فى الزينة والاعتدال فى التجمل. وأكرم بالاعتدال أن يكون سبيلا.

اختلف منا إثنان قال أحدهما إن العادة القومية هى جزء مهم من مقومات الفرد، من حيث كونه فرداً من أمة معينة، فالتنازل عن العادة هو تنازل عن احدى المقومات. وليس من عادتنا أن نلبس ملابس خاصة للعشاء فما أنا بمغير ملابسى. قال الآخر إنا بين قوم نعيش فيهم الآن فمن اللياقة أن نشاكلهم فيما يصنعون، مما لا يذهب بالمروءة أو تحرمه العادة الشرقية. ولو أن لنا شركات ملاحة مصرية تنقل الناس من قارة إلى قارة والتزمنا فيها عاداتنا، لاتبعها الذين يركبون مراكبنا، على ذلك كانت أغلبيتنا نحن المصريين تتراوح فى العمل بين هذا الرأى وهذا الرأى، أعجبنى منهم هذا التسامح من الفريقين. إلا أن المبادىء التى يطرقها لنا العلماء والكتاب كل يوم لتكون لنا أصلا للسلوك فى هذه الحياة، قل أن تخلو من الخطأ. بل من النادر جدا، بل من شبه المستحيل، أن تخلو قاعدة عامة من الاستثناء والتخصيص. صدق الشافعى إذ يقول: «ما من عام إلا وخصص، حتى هذه القاعدة».

على أنى أسوق هذا الحديث القليل القيمة لبيان ما استطرد اليه بحث المتناظرين من الأسف على فقدان مصر بحارتها وبحريتها التى لو دامت وتبعت الرقى الزمانى لولدت كفاءات بحرية تكون مصدراً لتأسيس شركات الملاحة والنقل. وما استتبع هذا الحديث من النتيجة التى قدمتها بادىء ذى بدء، أن المصرى قلما يمر عليه فى سياحته وقت يشعر فيه بالسعادة مهما توفرت لديه أسبابها المادية، ما دام يشعر بأن له وطناً عظيما جردته الأيدى القوية من أسباب المزاحمة فى الحياة العامة، وجردته فوق ذلك من الحرية القومية والاستقلال.

وصلنا إلى «مرسيلية» فاذا هى هادئة على ما فيها من الأعتصاب الذى يدعو الى الأسف لما فيه من الخسائر العظيمة، ولكنه من جهة يدعو الى الاعجاب بقوة التضامن بين عمال البحر، وتضافرهم على الوصول الى حقهم، مهما مسهم

Digitized by Birzeit University Library

من جراء الاعتصاب من الفقر والعذاب. وبعد ذلك الى مدينة «ليون» مهد الجد والعمل وموطن الحرير وكثير من صنوف المصنوعات الفرنساوية. أهم ما الفت نظرى فى زيارة هذه المدينة هذه المرة ملاحظة بسيطة جداً أجعلها أساساً للمقابلة بين ماتعمل حكومة الأمة، وما تعمل حكومة الفرد.

هذه المدينة العظيمة تتخللها جنات كثيرة فى معظم ميادينها بعضها صغير وإن كان وارف الظل، نافعاً جداً ليكون مرسحاً للعب الأطفال آخر النهار، وبعضها كبير جداً «كالروضة الكبرى». دخلت فى كثير من هذه الرياض الجميلة — التى يظهر من تخطيطها وتقسيمها أنها ينفق لحفظها مبالغ طائلة — فما رأيت على أبوابها بوابا يعترضنى فيطالبنى بدفع رسم، كما يقف بواب الازبكية، يطالب الصغير والكبير والغنى والفقير بخمسة مليمات، ولا يدعه يدخل إلا اذا دفع هذه الضريبة، التى إن خفت على أولاد الموسرين، فأنها ثقيلة جداً على أبناء المعوزين الذين هم أيضا لهم الحق بالتمتع بالجنينة التى أنشئت على مصاريف الأمة، وخصصت الآن لتكون مرتعاً لأبناء الأمة. أتكون الأرسطوقراطية وتفضيل بعض الطبقات على بعض، متغلغلة فى مصر حتى فى حق التمتع بما خصص للمنافع العامة؟ لست أرى بعد ذلك من الغريب أن تضرب الحكومة بابا من الحديد على أفواه شوارعنا الجميلة كشارع كامل وسليمان باشا.. الخ حتى لا يسير فيها الفقير ولا يدخلها إلا الذى فى جيبه خمسة مليمات فى غنى عنها، كما أن جنينة الأزبكية محرم دخولها على الفقراء وأولاد الفقراء. اذا كان يشترط للتعلم فى مدارس الحكومة أن يكون التلميذ من طبقة الأغنياء، ويشترط للانتخاب أن يكون المنتخب من الأغنياء، ويشترط للصحافى أن يكون من الأغنياء، ويشترط لدخول الرجل فى أى لجنة من لجان الأقاليم أن يكون من الأعيان، أى من الأغنياء، فما الذى بقى من الحقوق للفقراء؟ لم يبق لهم شىء إذا كان دخول الأزبكية محرماً عليهم أيضاً. وإلا إذا فرضنا موظفاً

Digitized by Birzeit University Library

راتبه سبعة جنيهات وأولاده ستة — وهذا المثل كثير فى القاهرة — وكان يجب عليه كل يوم لأدخال أولاده فى الجنينة الوحيدة المتوسطة القريبة لجميع السكان ، وجب عليه أن يدفع لهم كل يوم ثلاثة قروش مثل ثلاثة القروش التى يجب أن يدفعوها فى الترامواى . من يقول انه يمكن أن ينفق حوالى ثلث راتبه الشهرى لفسحة أولاده ! بل من يقول إن هذا الفقير يجب عليه أن ينفق على الحكومة ، حتى تسمح لأبنائه باستنشاق الهواء ؟ إن حكومتنا غنية بميزانيتها ، غنية عن جمع رسم ضئيل مثل هذا الرسم لا ينفعها ويضر جميع الفقراء . فمن مبلغ عنا الحكومة بأن البلاد التى نقلدها مملوءة مدنها بالرياض النضرة ليلعب فيها أولاد المدينة ، وليرتاض فيها أهلوهم مجانا حفظاً للصحة وترقية للذوق ، وانماء للعواطف ، وإراحة لنفوس الفقراء الذين لم يسعدهم الاجتماع بقصور ذوات جنات وبساتين ، وإن تلك الجنات العامة ما أقيمت إلا للفقراء ، فكيف يحرم منها عندنا الفقراء ؟ لا نزال نظن أن حكومتنا أكثر عدلا وأدنى ديموقراطية ، من أن تحرم الفقراء ما جادت به الأمة عليهم ، وأن تستغنى عن هذا الرسم فيستظل الفقير فى هذا الصيف المحرق بتلك الأشجار التى أقيمت بماله وعلى أرضه .

إنى أؤكد لأنصار حكومتنا الشخصية ، أن فتح أبواب الجنينة للفقراء لا يترتب عليه الجلاء ، ولا ينتج إعلان الدستور ، ولا يزيد سلطة الأمة مثقال ذرة ، ولا يجر إلى تحقيق أمر من شأنه أن يهدد الحكومة الشخصية فى شىء يعز عليها ، ولا يترتب عليه إلا ظل من تحقيق المساواة التى يدعوننا ، وراحة للفقراء الذين هم عيال الله .

Digitized by Birzeit University Library

فى باريس

لندن فى ١٨ مايو

فى باريس كثير من الأشياء غير معدات اللهو ، و واعى الطرب ، ومراسح اللعب . ولكن كثيراً من كتاب الشرق قد اعتادوا أن يصفوا ماظهر لأعينهم لأول وهلة ، فى شوارع الزينة ، دون مابطن فى جوف المصانع الكبيرة والصغيرة من المخترعات ، وما امتلأت به معاهد العلم من التقريرات والشروح والحواشى فى العلوم المختلفة، من علوم الدين ، إلى أفكار الكفر ، ومن تحليل الظواهر الطبيعية إلى تقييد الظواهر الاجتماعية بقوانين جامعة ، لاتجد الأنسانية إلى الخروج منها سبيلا . فما كل باريس لهو ، ولا عيب عليها فيما به يرمون ، ولكن العيب على من يكتفى من النظر إلى الأشياء بلمحة ، وفى الحكم عليها بمسحة من الظاهر ،والظاهر غرور .

كذلك يصنع بعض كتابنا ، وأغلب كتاب الغرب يطبقون علينا نظرية الظاهرية ، ولكن بغلو يبعد قولهم عن حدود المعقول ، ويقرب سياحاتهم من قصص ألف ليلة وليلة . يتفق لأحدهم أن يرى جماعة يصلون على النبى فينقل عن مصر أن معبودها هو محمد بن عبد الله . لايظننى القارىء قدوقعت من المبالغة فيما أحذر منه ،ولكن بين يدى كتابا من صديق من الفرنساويين يسيح الآن فى أميركا ،جاء فيه أنه قابل انكليزيا على ظهر الباخرة انتقل بهما الحديث من موضوع إلى موضوع حتى وصل إلى العرب . قال الانكليزى وأكدتأكيد ذى الرابطة بين قومه وبين العرب ،إن العرب يعبدون الشمس ، ألا تراهم يصلون لها عند الغروب ؟

وزارتنى فى باريس سيدة تشتغل بتحضير محاضرة عن وصف مصر ،

الجريدة فى ٢٦ من يولية سنة ١٩٠٩ العدد ٧٢٤

Digitized by Birzeit University Library

ومن جملة ما أشكل عليها من المسائل الأجتماعية ، بل المسائل المتعلقة بتحديد مركز مصر السياسى ، كيف أن النساء المصريات محجوبات عن الرجال غير المحارم ، ومع ذلك فأنهن غير محجوبات عن الخدم والأتباع الذين هم بالضرورة أجانب عنهن ؟ واستنتجت فكرتها هذه من كونها رأت فى أبواب البيوت المصرية وأفنيتها رجالا يروحون ويغدون ، ولما لم تكن تدخل إلى باطن البيوت لتعرف أن هناك «حرملكا» خدمه نساء «وسلاملكا» خدمه رجال ، قد حكمت حكمها على الظاهر !!! وإنى لأرجع بالقارىء سنوات إلى كتاب «الدوك دار كور» ، ولا إلى غيره ، بل المثل حاضر حى ، كله وقع فى هذا الشهر .

أنظر كيف يجنى الآخذ بالظواهر على أمانته فى النقل ، وعلى الناس فى الحكم . لا أنكر أن السائح من مشارق الأوض أو مغاربها إذا سألته عن قصده وكان من أهل اللهو أجابك إنه يقصد باريس . أجابك بوجه لألاء وابتسامة خاصة ، هى حسبك فى فهم غرضه من غير أن يركن إلى التصريح بغرضه البعيد عن الجد . ولكنى لا أنكر أيضاً أن السائح يأتى من اليابان والصين ومن أمريكا والروسيا ، ليتتلمذ على أساتذة باريس ، ويعرف منهم أسرار الحكمة وقواعد الحق والواجب وسبيل الاقتصاد ، بل ليتعلم فى فرنسا علم اللاهوت على الرغم من فصل الكنيسة عن الحكومة ، وفصل الدين عن العلم .

أجل إن باريس تؤخذ عنها مودة الأزياء ، ولكنها تؤخذ عنها أيضاً أسعار البورصة فى جميع العالم ، ولئن كانت «الأولامبيا» و «المولان روج» وما بينهما من محال اللهو المبالغ فى اتقانها وفى غشيانها فأنها أيضاً مدينة السوربون والكليات ، مدينة التجارة والصناعات . ولئن اشتهرت بجمال النساء وتبرجهن ، فقد اشتهرت أيضا بكاتباتهن وفضلياتهن ، ولا يغرنك خفة روح الباريسى وميله إلى النكات والمزاح ، فأن فى قلبه ناراً تلتهب على وطنه حمية وغيرة ، وفى نفسه ذكاء يتأجج لتحصيل العلم والنبوغ فيه ونشره فى العالمين . فانه المازح

Digitized by Birzeit University Library

الجاد الآخذ من الحياة بطرفيها من غير تفريط ولا إفراط . ولا يدلك على ذلك أكثر من أن باريس تملك شهرتها هذه من مئات من السنين ، فلم يتقلص مجدها ولم تسبقها غيرها من المدائن إلى صفتها الجامعة بين دواعي الجد ودواعي الهزل . ولكن لكل مدينة فضائل ورذائل يستحيل أن تخلو عنها إحدى المدائن ، إلا المدينة الفاضلة ، التي لم يوجد لها شبه في العالم إلا في رأس واحد من حكماء اليونان ، وأيما مدينة كبرت مدنيتها ، كانت مظاهر الرذيلة فيها متناسبة دائماً مع مقدار ما بها من الفضيلة والجد .

ليس في المقام سعة للتفصيل ، ولا يهم القارىء المصري إلا أن يعرف حال طلبتنا المصريين في باريس . زرت باريس في سني ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٠٦ وهذه الدفعة ، وكنت في كل زورة لي أختلط بالطلبة وأناقشهم وأتحرى معلوماتهم وأتسمع على حالتهم الأخلاقية وسلوكهم الشخصي من مخالطيهم ، وأشهد أني ما عهدت الطلبة المصريين أكثر إقبالا على طلب العلم وأشد اقتناعاً بالمسئولية التي يحملونها أمام ضمائرهم وأهليهم وأمتهم منهم في هذه المرة . آنست منهم أنهم يعلمون جيداً بأنهم ما جاءوا إلى باريس إلا لينقلوا منها العلم إلى القاهرة ، وما تغربوا عن أوطانهم إلا ليشرفوها ويجعلوها قوية محترمة كفرنسا وانكلترا وغيرها . لمحت في وجوههم آمالا كباراً من حيث نشر العلم في مصر وزرع المبادىء العالية في بقاعها الخصبة . وأقل همومهم فيما يحاولون المسألة السياسية ، لذلك عجبت من مقدار جهل حكامنا في مصر بسير هؤلاء الطلبة الراشدين . عجبت كيف تتغير صور الأشياء إذا انتقلت من أوروبا إلى إفريقية ، وتحور صيغ الأخبار بين باريس والقاهرة . عجبت كيف أن أولي الأمر في مصر يظنون أن الطلب في باريس بركان الهياج والقلاقل ، وما هو إلا سعد وسلام على مصر .

وإن طلبة اليوم وعلماء الغد وأساتذة الاستقبال ، لا يهجس في خواطرهم للسياسة إلا ما يحصل لغيرهم من الشبان في بلادنا مثل استقبالهم مشروع

Digitized by Birzeit University Library

مجالس المديريات ، وما ثبت فيه من تقرير سلطة الأمة بالسرور والانشراح ، والنظر إلى إعادة قانون المطبوعات بالأسف والامتعاض . وما الأمر فى حالى السرور والأسف ، بخارج عن طوق السعادة ، إلا إذا أريد طلبتنا على ألا تنفعل نفوسهم ببسائط المشاعر وتجرد أفئدتهم عن الحس بما حواليهم والحب لوطنهم وذلك بالضرورة غير مرجو ولا مستطاع .

لقد كان الطلبة الاوروبيون على العموم يظهرون آراءهم السياسية من غير مبالاة ؛ فأن طلبتنا فى أوروبا على العموم وفى باريس على الخصوص لا يعملون من ذلك إلا أن يقرأوا أخبار بلادهم ، وذلك من أبرأ ما يكون

ولئن عمد بعض الطلبة من الهنود إلى العمل فى السياسة بالذات والدخول فى ساحة التهديد والوعيد أو ارتكاب العدوان . فأن طلبتنا يعلمون حق العلم أن مركزنا السياسى ليس له شبيه فى التاريخ القديم ولا فى السياسة الحالية ، وأن أسرع السبل لتحرير بلادنا هو نقل التمدن إليها ؛ وقاعدة التمدن ماهم الآن يتعلمون . ولكن هل تتنازل حكومتنا لتأخذ حكمنا على الطلبة حكم الناقل الأمين فلا تعتبر باريس موبوءة بالسياسة الضارة فى عرفها ولا تضيع وقت المرسلين من أبناء البلاد لتتميم دراستهم فى غير موطنها الحقيق . فأنها أرسلت ارسالية الحقوق إلى لوزان ، فخير لها ألا ترسلها ، فلقد علمنا من الخبيرين أن الحقوق فى لوزان لا تزيد كثيراً عن الحقوق فى مصر . ولو أنصفت لأبعدت عن نفسها ما يهجس به وسطاء السوء ، فان المصرى لا يستطيع أن يخلع أخلاقه الوراثية من السكون والروية ، إذا فارق جسمه شواطىء مصر . لأن روحه لا تزال مصرية كما قد رأيت .

Digitized by Birzeit University Library

من باريس الى لندرة

ليفربول فى ٢٣ يولية

سافرت من باريس إلى لندرة ، وأنا لا أعرف من الانكليزية ما يكفى لاستيفاء أبسط الأحاديث موضوعا . ولكنى مع ذلك كنت معتمداً على أن اللغة الفرنساوية معروفة هناك فى كثير من الطبقات ، خصوصاً طبقة الكتاب والطبقة التى لا غنى للسائح عن محادثتها ، فأن أمثالهم فى بلدنا خصوصاً فى الفنادق الكبرى يتكلمون لغتين أو ثلاثا احداها الفرنساوية

وكان يذهب عنى فكرة الحيرة بعد هذه الاعتبارات ، أن لى فى لندرة وغيرها من المدن الانكليزية أصحاباً من المصريين .

فلما كنا فى كالى (المينا الفرنساوية) انقلبت الحال فجأة ، حتى أن الحمالين الفرنساويين أخذوا يكلموننا باللغة الانكليزية ، وكأن الفرنساوية قد غسلت من الوجود على شاطىء المانش ، فشق ذلك على رجل فرنساوى كان معى فى العربة أجاب الحمال الذى بادرنا بالانكليزية : « إنا نعرف من الفرنساوية ما يكفينا للحديث عند الضرورة » قالها ساخراً معنفاً هذا الحمال الذى يعدل عن لغته لغير ضرورة ، فانقلب الحمال بفضل هذه الجملة فرنساوياً يفهمنا ونفهمه . وقد ذكرنى ذلك بعض أصحابنا المصريين الذين يتكلمون بينهم فى بلادهم بالفرنساوية أو الانكليزية ، وما هم بذلك بمحتقرى لغتهم ، ولكنهم يتراطنون باللغة الأجنبية سهواً فيأخذ من ذلك سامعهم أنهم قليلو الاعتداد بقوميتهم ، وأنهم لا يحاولون صقل لغتهم الفصحى على الألسنة بكثرة الكلام بها ، فتصبح بذلك لغة العامة والخاصة معاً ، لغة السمر ولغة العلم جميعاً . فما أجدر بأحدنا أن يجيب زميله الذى أقبل يحادثه بلغة أجنبية بجملة ذلك

الجريدة فى ٣ من أغسطس سنة ١٩٠٩ العدد ٧٣١

Digitized by Birzeit University Library

الرجل الفرنساوى الخبير : « للضرورة أتكلم العربيـة أيضا » لست أعلق أهمية كبيرة على اجتناب الحديث بالأجنبية إلا لضرورة ، ولـكن الحس قد أرانى أن هذا الشعور دليل على حب المرء للغته وحبه لقومه ووطنه ، وهو من علامات التضامن المنشود فى كل البقاع . أترى أن المحامى يصغى لك كثيراً أو يطرب من حديثك إذا أخذت تقرر له آخر مذاهب الأطباء فى المعالجة بالماء أو بالهواء ، إذا لم يـكن ممعوداً ؟ أم تراه كله آذانا إذا بسطت له قضية فى التشريح إلا أن يـكون ذلك نافعاً له فى قضية يترافع فيها هذا الأسبوع !

ولـكن ما أصبر أحدهم على الآخر حينما يسرد عليه وقائع دعوى بعينها لاتهم أحداً لأنه قد حـكم فيها نهائيا . يصبر على محادثته فى سرد الوقائع كما يتلذذ حين تجىء نقطة تطبيق القانون ليناقشه فيها . ألخ ألخ .

وما ذلك إلا لأنه يحب صناعته فوق كل الصناعات وعلمه فوق كل العلوم ، ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره ، ومن جهل شيئاً عاداه . فكلام المرء بلغته حب لها وخدمة للفصيح منها وتعرف لآدابها ، خصوصاً إذا كان المحادث من المتعلمين وكانت لغة الحديث هى لغتنا العربية ، تلك اللغة التى لا يكاد علماؤنا وكتابنا بل ووزراؤنا وقضاتنا أيضاً يحسنون الكلام بها أو يقرأون الجرائد من غير لحن . فهى بذلك أحوج اللغات الحية الى أن تصقلها الألسن وتعتاد فصيحها الآذان

*
* *

فرغنا من حمالنا بهذه الملاحظة المفيدة ، ودخلنا السفينة التى تجوز بنا المانش إلى دوفر . ولا حاجة بى أن أشق على القارىء فأشركه فيما كنا فيه من الضيق فى هذا البحر الضيق ، ولـكنى أذكر له خيراً من ذلك . رأيت فى الركب رجلا هندياً يجتنب الناس ويقترب منى ، وكان كلانا يشعر بجاذبية له نحو الآخر ، ولم يكن فى المركب من اللون الأسمر إلا نحن الاثنين . وكفى بالتقارب فى اللون وبالشرقيـة جامعاً بيننا نحن الاثنين . وقد كانت حادثة

Digitized by Birzeit University Library

الشاب الهندى «دنجرا» الذى قتل السير كورزون فى لندرة جديدة العهد ، فوقع فى نفسى أنى سأشرك جارى الهندى فى استقبال النظر الشزر من الانكليز الذين اشتهروا فى العالم بأنانيتهم حتى اضطر حكيمهم «هوبس» إلى أن يقول إن أصل الخير والشر فى هذا العالم هو حب الذات وإنه هو أساس علم الأخلاق عنده . كما اشتهروا بالتضامن الشديد وحبهم لكبار رجالهم مثل السير كورزون القتيل . عولت على ألا أبعد عن جارى ، وقلت فى نفسى عادة المصرى، أن يكون ضحية لغيره ، وما كانت بلادنا أيضا إلا ضحية يضحى بها على مصالحه القوى . للانكليز مصلحة فى أقرب طريق إلى الهند ، فماذا جنت مصر حتى تكون هى الضحية لتلك المصلحة ، فقد قال أحد ساستهم يوم فتح قنال السويس : الآن لزم لنا احتلال مصر . وقد كان . وعلى هذا القياس كان أمر بلادنا الجميلة الخصبة فى التاريخ القديم . لما ذكرت ذلك وذكرت أنى من قوم هم ضحايا كرما وصبرا ، توقعت أن يضايقنى الانكليزى بصفتى هنديا مع صاحبى الهندى . ولم يكن مما توقعت شىء ، فلم أر أحدا أبدا بان عليه أثر لما قد ظننت من التأفف من رؤية الهندى ، فأكبرت أخلاقهم ، ووقعت من ظنى بهم على لا شىء ، وبعض الظن إثم ، ولكنى بعد ذلك لما خرجت إلى البر ، وكان ذلك يوم المرافعة فى قضية الهندى ، صرت أسمع نقلا عن المجالس صحة ما كنت أظن، فأن الهنود مضايقون الآن بالبوليس السرى - كما سمعت همساً - وإن كثيراً من الانكليز يكررون ما قاله بعض كبرائهم فى العام الفائت، ن طرائق التربية الغربية ، تربية الحرية والعلم، مفسدة للشرقيين، وإنه لا بد لصلاحهم (يعنون بالصلاح رضاهم عن حكم الغربى فيهم وتسلطه على بلادهم) من تركهم على ماهم عليه ، فان ذلك خير طريق لسعادتهم (أو دوام استعمار الأوربيين لبلادهم)

ولقد يظن بعضهم أن الكليات الانكليزية لن تقبل بعد فى ربوعها هنودا كثيرين بعد الذى ظهر من هذا الشاب، وبعد ما كان من تحمس الطائفة المتعلمة على الانكليز ، وبعد خروج ذلك الزعيم الذى تعلم باكسفورد وتتلمذ

Digitized by Birzeit University Library

على سبنسر، ثم صار وهو شاب وزيرا فى الهند، فاتهم بالتغير للانكليز والممالأة عليهم، فأخرج من الوزارة أو منها ومن البلاد، وهو مقيم الآن فى باريس رئيساً لحركة المطالبين بالاستقلال، يصدر جريدة تمنعها انكلترا من الدخول فيها وفى مستعمراتها. وقد ذكر عنه أنه يبرر جريمة الشاب الهندى، مستنداً فى ذلك على بعض أفكار أستاذه «سبنسر»

ولقد قيل إنه شطب اسمه من عضوية الكلية التى تخرج فيها .. الخ الخ

لست ممن يبررون جريمة هذا الشاب الهندى الذى هو من خير العائلات ومن خير الطلبة، مهما قال الزعيم الهندى، ومهما كانت حجة القاتل من أن انكلترا قتلت كذا من الهنود، وأخذت كذا من مال الهنود. فان هذا القول وأمثاله لا يمكن أن يطفىء نور القواعد المتينة التى اصطلح العلماء عليها والتى يؤكدها العقل والعدل وضرورات الحياة بين الأمم.

لم يكن قاتل السير كورزون ليحمل له ضغينة خاصة، بل على العكس من ذلك كانت العلاقات بين القتيل وبين عائلة القاتل على غاية مايكون من الصفاء والمودة المتبادلة. ولكن الشاب الهندى يرى أنه ينتقم لأمته من السير كورزون. غير أن الغدر لا يبرره أحد فى أى زمن من أزمان البداوة والحضارة، إلا ما يكون من مفاجأة الجيش المحارب للجيش المحارب بعد إعلان الحرب واشتباك طرفى القوتين. إن العداء بين الأمتين —على فرض أنهما فى وقت حرب مشهودة — لا يتناول العداء بين أفراد إحداهما والاخرى إلا بصفة كل فرد جزءا غير منقسم من السلطان (الأمة بصفتها حكومة وأمة فى آن واحد) فيحرم على كل فرد من أمة محاربة قتل أى فرد آخر إلا فى ميدان القتال عند عدم اعتبار الفرد إلا بصفته جزءاً غير منقسم من العدو. فاذا سلم فرد سلاحه، فقد حرم قتله، لأنه بذلك تزول عنه صفة أنه جزء من العدو وترجع له صفته الأصلية، وهى كونه فرداً إنسانا محترم الدم غير مهدوره إلا فى حد، أو فى دفاع عن نفس أو عرض بالقيود المعينة، شرعا وقانونا. ولما لم تكن أمة الهند محاربة ولا كان القاتل والمقتول كلاهما

Digitized by Birzeit University Library

فى صف من صفوف المحاربين، فليس من الجائز مطلقاً فى أى شريعة من الشرائع، ولا فى أى قانون من القوانين ولا لمصلحة المبادىء العامة فى بنى الانسان، أن يعتبر مثل هذا القتل الغدر إلا جناية من الجنايات الأخرى، وإن الانتقام من الانكليز فى شخص السير كورزون غير جائز. كذلك لا يجوز للانكليز أن يميلوا إلى حرمان أبناء الهنود من تعلم العلوم كغيرهم، انتقاما من القاتل فى أمته. قد يقال: للانكليز أن يقولوا نحن لا نعلم علومنا فى مدارسنا لأشخاص يستعملونها لضررنا، ولكن ذلك القول لا يغير شيئاً مما يرمى به الانكليز — إن فعلوا — إنهم ينتقمون من أمة بأسرها على عمل فرد من أبنائها. وهذا غاية فى الشطط، فان حرمان أمة محكومة من تعلم العلم مع رغبتها وقدرتها عليه قتل لها، وقتل غدر أيضاً.

سيقولون ماذا يعمل الفرد الذى يعتقد أن أمته مهضومة الحق، ونفسه عليه أهون من أن يحرص عليها فى خدمة بلاده. يعمل كل شىء يبيحه القانون من الارشاد إلى طريق الرقى والهداية، إلى التضامن القومى والتعليم ونشر مبادىء الأخلاق والاجتماع والسياسة، ولا يقرب ماحرم القانون مادام فرداً. ألا ترى أن الذين قلبوا سلطان العثمانيين وشاه الفارسيين، لو كانوا فردا لما قبل منه عمله، وحق عليه اشد العذاب لمجرد تعديه على الملك بالقول دون التهديد، والمحاصرة والمحاربة؟ أما وكل فردمنهم قد عمل ما عمل بصفته جزأ غيرمنقسم من أمة أرادت ذلك، فلا عقاب على أحد منهم، بل على كل منهم ثناء الناس ورضى الله.

ذلك ما أجمع عليه بنو آدم وإنهم لا يجمعون على ضلالة. بل الجمعية الانسانية لا ترضى لمبدأ بالبقاء فيها إلا إذا كان منها وضروريا لحفظها، فحكمها فى ذلك كحكم الظواهر الطبيعية، لا يجوز للذى يحكم على الطبيعة أن يدع هذه الظواهر فى ناحية، ويحكم هو من دماغه.

وما كان بنا — وبلادنا والحمد لله فى غنى عن هذه النصائح — من حاجة إلى تقرير الرأى فى مسألة الهندى إلا ليثبت أن الناس لم يسيئوا الظن فى أنانية الانكليز وتضامنهم الشديد، بل هم فى ذلك عند ظن الناس بهم أجمعين.

Digitized by Birzeit University Library

فى انكلترا

جست خلال انكلترا فى بعض أقطارها ، وكان أطول ما قطعت فيها مسافة من لندرة إلى ليفربول . يمر القطار فيها بقرى ومدائن لا يدل منظرها على حب الشذوذ الذى اشتهر به الانكليز ، ولا على الابتكار الذى أخذ من فكرة الأوروبيين مأخذا عظيما حتى صار مقياسا لشخصية الفرد وعلامة على النبوغ . فان الكاتب الذى لا يولد لغته أسلوبا جديدا ، لا يعد كاتبا . وكذلك الشاعر الذى لا يأخذ خياله من الطبيعة أفكارا حديثة ومقاصد أبكارا ، لا يعد إلا شاعرا عاديا . كذلك لا يلفت النظر إلى الشىء إلا غرابته وجدته . ولكن على الرغم من هذه الاعتبارات فان المدائن الانكليزية والقرى الانكليزية متشابهة جدا فى تخطيط الشوارع وارتفاع الأبنية وألوانها ، حتى يخيل للرائى أنها بنيت على فكرة المحافظة أو فى حكومة المحافظين، على أن حرية الفرد الانكليزى فى فكره وفى عمله — إلا فى هندامه فى المحافل وحركاته فى الصالون — هو مبتكر طبعا كما يسميه أوربيو القارة بأنه «أوريجيناك» . مر بنا القطار بغير المدائن بالضرورة ؛ مر بحقول جميلة فسيحة لا يهمنى من وصفها للقارىء إلا أنها قليلة الغلة جدا فمعظمها كلأ ترعاه الأنعام ، ومنها قليل جدا مزروع حنطة وأقل منه قدرا مزارع الخضر وحقول الفاكهة . خطر فى نفسى لمشهد هذه الأرض قليلة الغلة ، كيف أن الانكليز بهذه الأرض أغنياء ؟ خطر لى هذا الخاطر العجل غير الناضج لأنى فلاح من قوم كل ثروتهم مما تنبت الأرض ، كأن فى نفسى فكرة عادية أولية هى أن الثروة فى قطن تجنيه وقمح وشعير وأرز تحصده وقصب تعصره وكتان. ولم ألبث أن لحظت موارد الثروة الانكليزية الطائلة من الصناعة التى يبين علينا نحن المصريين أننا نحتقرها بعض الشىء ، والتجارة التى يظهر أننا نمجها

الجريدة فى ١٦ من أغسطس سنة ١٩٠٩ العدد ٧٤٢

Digitized by Birzeit University Library

بعض الشيء، وما يولد هذا الأخذ والعطاء من المكاسب التي ليست مكاسب الأرض في جانبها شيئاً مذكورا . بسمت لهذا الخاطر وذكرت ذلك المثرى المصري الذي كان لا يجلس اليه أحدا إلا سأله كم فدانا يملك ؟ أو كم فدانا من القطن يزرع هذ العام ؟ وأمثال هذه الأسئلة التي تشف عن فكرته رحمة الله عليه ، في أن قيمة الرجل ثروته، وأن كل الثروة هو ما يملك من الأرض وما يزرع فيها من القطن . فلقد كان مثلي في هذا الخاطر الناقص ، كمثل ذلك السرى المصري ، وذهلت عن حقيقة اجتماعية من أكبر الحقائق :

إن غنى الأمة وسعادتها ليسا بخصب أرضها ولا بصفاء جوها واعتدال منطقتها، بل ولا بضخامة مدائنها، بل هما بمقدار عدد المهذبين من أبنائها، فهم الذين يبنون مجدها وهم الذين يخلقون غناها . نعم إذا أعوزتهم خصوبة الأرض خلقوا لأمتهم بعقولهم وعلمهم من الصناعة والتجارة والاعتماد على الذات والمخاطرة في سبيل المنفعة ، ثروة تفوق الثروة الزراعية أضعافا، ومجدا طارفا لا يطاوله المجد التليد .

في أبناء الانكليز عادات تأصلت في نفوسهم وصارت لهم أخلاقاً ، أزعم أنها هي وحدها السبب في قوة أمتهم، تلك القوة المستفادة من جدهم في العمل وتقديسهم لمعنى الواجب . بل هي السبب أيضاً في زيادة تلك القوة على مر الزمان ، أو على الأقل حفظها في مستوى ثابت لا يأتيه من النقص والتغير السريع ما يلحق بمجاوريهم من الأمم المتمدنة . ومن أخص ما لاحظت من تلك الصفات حرية القول والاستماع لكل قائل من غير أن يصادره أحد في فكرته أو يقطع عليه مقاصده من القول إلا في الأحوال النادرة كما علمت. من ذلك أني رأيت خطباء كثيرين يخطبون في متنزه «هايد بارك» بعضهم واقف على الأرض وسط حلقة السامعين ، وبعضهم يعلو منبراً منقولا منهم. الشيخ الذي جاوز السبعين ،والشاب الذي لم يبلغ الثلاثين، بعضهم على مقربة من بعض ، حتى نقدت عليهم سوء اختيارهم لهذه المزاحمة المادية للمكان والمرج فسيح الارجاء لا يضيق بآلاف الخطباء . كان أحدهم يعظ الناس

Digitized by Birzeit University Library

ويلفتهم إلى القيام بالواجبات الدينية — وما هو بقسيس — يفيض فى اثبات أن السعادة الدنيوية رهينة بالاعتقاد فى واجب الوجود واتباع أوامره واجتناب نواهيه وانتظار الثواب والرحمة فى الداز الآخرة ، دار البقاء والسعادة الأبدية وحواليه جمهور من الناس كلهم مصغون له حتى إذا أعجبهم منه شىء صفقوا له استحسانا . وعلى مقربة من ذلك الخطيب ، خطيب آخر أشد من الأول حدة فى قوله وأوسع منه فكرة علمية ، ولا أعرف إن كان أفصح منه لسانا وأجلى بيانا ، ولكن كثرة الزحام على حلقته ربما تدل على ذلك . هذا الخطيب كان يزين للناس الكفر ويهديهم إلى غير طريق الدين بل يضلهم عنه ، وكان يقول بأنه يسند حججه إلى الواقع المحسوس وقواعد العلم . وإلى جانب حلقته رجل شيخ يشرح للناس قانون الميزانيـة ويفصل فيه تفصيلا ويلعن الحكومة والنواب ، وهو ينتصر فى ذلك للفقراء وطبقات العمال ، خصوصا بعد الضرائب الجديدة على التبغ . وآخر يتكلم فى مذهب الاشتراكيين يهدى إليه ، ويطمع الناس فى نتائجه الحسنة وموافقته للانسانية والعدل . وبعد هذا قسيس ورجال دين يقيمون الصلاة بالترتيلات والنغمات من جوق من الشبان والشابات . الخ الخ .. تمر جماهير الناس بهؤلاء الخطباء كما يمر نظرك فى مكتبتك بما فيها من الكتب متناقضة المذاهب والكتاب ، تختار منها ما يلذك من الموضوعات ساعة الاختيار ، من غير أن تمزق منها الكتاب الذى لا يطيب لك رأى كاتبه فى تلك الساعة . كذلك كانت حال الجمهور مع الخطباء ، يطوفون بهم سراعا ثم يقف كل واحد على الخطيب الذى يعجبه قوله فيصفق له مع المصفقين . فكأنى بهذه السوق سوق عكاظ أو سوق الكلام ، لا يختلف بالناس فى شىء عن سوق الخضر والفاكهة ، يمر به الطاهون والطاهيات ، والآكلون والمربيات ، يقف كل على ما يطيب له ويدخل فى ذوقه ويعرض عن الذى خبث من السلع فى نظره ، ومع ذلك لا تجد إنسانا يحاول عنوة إقفال حانوت الفسيخ لأن رائحته

Digitized by Birzeit University Library

تؤذيه ، ولا يلطم بائع الجميز بحجة أن نفسه تمجه أو لا تشتهيه . لكل طعام ذوق ، ولكل ساقطة لاقطة

ليس « الهايد بارك » هذا منبراً خاصاً بأولئك الخطباء العاديين الذين قد يبدأ الواحد منهم خطابته على فردين أو ثلاثة ، بل هو أيضاً موضع المنبر العام لكبار الخطباء المفوهين وبلغاء السياسيين . فقد كان غلادستون كلما ضاقت قاعة البرلمان بصوته العالى وأغراضه الكبيرة ، عمد إلى هذا المتنزه العمومى الكبير يخطب الألوف من الناس الساعات المتوالية ، فيحول الأمة من فكرة إلى فكرة ، ويخرجها من مقصد إلى مقصد . كذلك يفعل « كرهاردى » وغيره من الخطباء الانكليز إلى اليوم . يخطبون فى الناس من غير ملاحظة رسوم ولا نظام ولا اشتراط دعوة ولا تكاليف ، حتى تكون الأمة واقفة بواسطة هذه الألسن الرسمية على ماجريات الحال فى الحكومة ، فلا يفوت فرد من الأفراد أى مقصد من المقاصد الكبيرة للحكومة ، كاعلان حرب أو سلم أو تقريب بين أمتهم وبين أمة أخرى ، أو ضرب ضريبة عامة أو ايتاء النساء حق الانتخاب . وبهذه المناسبة يحسن بى أن أثبت هنا حديثا جرى بينى وبين أحد الفعلة الانكليز فيما يتعلق بحق الانتخاب ، وإنى لأتسامح الآن فى أن أنشر ذلك الحديث من غير ذكر اسم محادثى لأنى لا أعرفه ، ومن غير إذنه لأنى ما فكرت وقتئذ أنى سأنشره ، ولأن حديثه يكاد يكون فكرة الفعلة الانكليز أو أغلبهم .

جلسنا إلى جانبه أمام مقبرة العظماء « وستمنستر أبى » فوجد بيد صاحبى جريدة النساء الطالبات حق الانتخاب ، وفيها طعن على « أسكويث » ومداعبة للسير « إدوارد جراى » . قال العامل لصاحبى ! ماذا تقرأ وما رأيك فى انتخاب النساء ؟ وكان هذا السؤال فاتحة القول بيننا جميعاً على هذا الموضوع . قال العامل : أنا لا أرفض مشروعا يحقق معنى المساواة بين الناس ، ولا بين الرجل والمرأة ، بل على العكس من ذلك أرى مصلحتى ومصلحة أمثالى العمال فى أن المساواة تأخذ ما يمكن أن يكون من كمالها بين الناس . ولكنى لا أرى هذا

Digitized by Birzeit University Library

المشروع يحقق شيئاً من المساواة ، بل هو يفضى إلى نقيضها ويجعل العمال والطبقة الفقيرة أكثر أسرا فى يد الطبقات الغنية مما هى عليه الآن . قال : إن الطالبات حق الانتخاب هن محافظات بالطبيعة ، فسيكون انتخابهن طبعاً للمحافظين دون الأحرار ، وهيهات أن يلاحظ المحافظون منفعتنا ، وقد قصر عنها الأحرار ومنا نواب عديدون بينهم . قلت له وما بال المستر « كرهاردى » رئيس حزبكم يوافق على هذا المشروع ، ولا يكون فى سبيل تنفيذه عقبة إلا المستر « اسكويث » رئيس الوزارة كما يقولون . عندئذ هز العامل كتفه وقال: إنى أشارك كرهاردى فى المبادىء العامة للحزب ، ولكنى أخالفه كثيرا فى التطبيقات العملية ، وكل حر فيما يفكر . قال : وإنى أظن رئيس الوزارة خير هؤلاء جميعاً ، وأنفعهم لوطنه وأبعدهم عن حب الشهرة وتمليق الرأى العام

ناشدتكم الله : إذا كان مقصد السيدات هو جعل الحكومة دائما فى يد المحافظين، أيكون من الحكمة أو من مصلحة الطبقة الدنيا موافقتهن على كسب حق الانتخاب ؟ إنهن يدعين أن طلبهن لهذا الحق لا حظ لهن منه إلا مساعدة النساء الفقيرات اللاتى لا يجدن من الرجال الآن حامياً يحميهن من البطالة وبؤس العيش . وما أبعد ما يقلن عن أن يصدقه الواقع ، فاننا نحن العمال لدينا كشوف بأسماء آلاف من العمال الواقعين فى مخالب البطالة لعدم وجود الأعمال ، فهل أتين بكشف واحد فيه أسماء النساء اللاتى وقعن فيما وقعنا نحن فيه ؟ لا إنهن لا يأتين بشىء من ذلك ، إذن ليس هناك مصداق لما يدعين ، وعليه فلا سبب لمطالبتهن بحق الانتخاب إلا مضايقة العمال .

كلام وجيه أقل مايدل عليه أن العامل البسيط فى لندن يعرف من خطب الوزراء والنواب فى « الهايدبارك » طرفاً أو نتفاً من قواعد مصالح الأمة التى مصلحته الشخصية بعض منها . ولكن وزراءنا ونوابنا يجتنبون الكلام فى سياستنا الداخلية حتى فى مشروعات القوانين ، إلا مايكون من التهامس فى الآذان فى الخلوات والمنادر بينهم وبين أخصائهم الأقربين ، هذا كله إذا

Digitized by Birzeit University Library

عرفوا جليا مقصد الانكليز أو مقصد السراى فى مشروع من المشروعات. هل منهم من يقف يوم الجمعة فى حديقة الأزبكية ، الحديقة العمومية بالاسم والقانون ، الخصوصية بالفعل ، المحرمة على كل من ليس فى جيبه نصف قرش فى غنى عنه . هل يقف أحدهم بها ، فيبين للناس مقاصد الحكومة فى أى أمر من الأمور العامة كالسبب الذى دعاها مثلا إلى رفض طلبات الأمة والشورى من تأليف مجلس نيابى محدود السلطة ، أى توسيع مجلس الشورى الحالى فى شكله واختصاصه ؟ كلا . إن رجال حكومتنا لا يهمهم إيقاف الأمة على مشروع أو إقناعها برأى أو فكرة ، ولكن الذى يهمهم أن يكسبوا من مجلس الشورى كل مشروع يريدونه بأية طريق من الطريق .

إذا كانت أمتنا ليست كأمة الانكليز فأن وزراءنا قد تعلموا مع وزراء الانكليز فى مدرسة واحدة ، فهل من رأيهم هم أيضاً أن الشرق شرق والغرب غرب ؟ أم هم فى القربى من الأمة لوزراء الانكليز ، زملائهم فى المدنية الحديثة مقلدون ؟ .

Digitized by Birzeit University Library

فى انكلترا أيضا

دوار نبنيز فى ١٢ أغسطس

كنت أظن قبل اليوم أن فى الديموقراطية الانكليزية نقصاً شديداً وتأخراً بعيداً عن الديموقراطية الفرنساوية ، لما يوجد فى الأولى من الطبقات الممتازة بعضها على بعض فى شىء من الحقوق . لكنى قد رأيت بالحس ، ميل الأمة الانكليزية الى سبق فرنسا فى الليبيراليسم (العمل على قواعد الحرية).
عزم جلالة الملك ادوارد فى العام الماضى على زيارة جلالة قيصر الروس ، فقام بعض أعضاء البرلمان يعارض فى تلك الزيارة. لم تمنع المعارضة من الزيارة ، ولكنها كانت دليلا على أن هذا الشعب الانكليزى الملكى طول عمره يأبى على الملوك حتى الأجانب ، أى عمل من أعمال العسف ويحتج عليه لذاته . ثم شاع عزم القيصر على زيارة انكلترا هذا العام . فقامت قيامة الصحف الانكليزية تشنع عليه وعلى أعماله فى مملكته ، على الرغم مما هو بين الدولتين الآن من حسن العلاقات والوفاق الودى، بل ما بينهما من الاشتراك فى الأعمال السياسية لمصلحة الفريقين .

على أن صحافة الدولة الفرنساوية وهى ديمقراطية صرف وجمهورية حرة، قد رحبت بزيارة القيصر وزادت فى ترحابه عن المألوف إلا فئة اشتراكية لم يشاركها فى رأيها الرأى العام ، كما كان فى بلاد الانكليز . لذلك نقول إن هذا المثل وما يأخذه القارىء من كثرة البحث فى أمر مجلس الأعيان والميل إلى الغايه أو الاستعاضة عنه بمجلس آخر يحقق معنى الليبيراليسم .

كل ذلك يجعلنا نكرر ما نقوله بحق إن انكلترا وهى ملكية ، من أميل الشعوب إلى الديموقراطية الكاملة . وإن الملكية عندهم وطبقة الأشراف

الجريدة فى ٢١ من أغسطس سنة ١٩٠٩ العدد ٨٤٦

Digitized by Birzeit University Library

أثر من الآثار القديمة لا تغير شيئاً من الأخلاق الديموقراطية ولا وزن لها إلا بمقدار ما تأتى من عظيم الأعمال .

تدخل لندرة وأول ما يلفت نظرك فيها تمثال نيلسون . تمثال أقيم على قاعدة عالية جداً على غير المألوف ، بحيث لا يطاوله فى مكانه الرفيع تمثال أمير من الأمراء أو ملك من الملوك . فأن رؤوس أولئك مهما علت لا تطول ربع القاعدة التى يقف عليها نيلسون بقدميه . أجل إنه كان فى الحياة رجلا عالياً ، فأعلى قومه مكانته فى الممات ، على كل من عداه .

كذلك يجل الانكليز رجالهم مهما كان قدرهم فى الشرف الاصطلاحى ، مادامت أعمالهم تشرفهم وترفع أقدارهم على أقدار الذين نالوا الشرف بمجرد الميلاد .

لا يغشى السائح مجلساً من مجالس السمر ذكر فيه الأدب ، الا وترى الانكليز يتحدثون عن شاعرهم شكسبير بلسان الفخر وصوت الاجلال والاحترام . ترى تمثاله فى المتاحف وتسمع ذكره فى الأندية وتشهد قطعه على المراسح ، ولم يمنعه أنه كان ممثلا ، من أن يكون فى قلوب الانكليز أعلى مكانة من ملوكهم الأولين .

* * *

على ذكر شكسبير يرد على خاطرى أنى سمعت أنه استعمل من اللغة الانجليزية نحو عشرين ألف كلمة ، أو أن فى بعض أساليبه خفاء على كثير من العامة ، ولكنى لا أصدق أن أحداً سمع أنه رمى بالتقعر ، بحجة أنه لم يقتصر فى كتاباته على مئات الكلمات التى تكفى للتعبير عن المقاصد فى اللغة الانكليزية . وهنا يرد على أيضاً أن أبا العلاء المعرى يجب أن يكون استعمل فى شعره وفى نثره قاموساً من الكلمات أكبر عددا من قاموس شكسبير ، ولم يكن أبو العلاء ليكتب بلغة العلماء والشعراء الذين لا يزيد عددهم عن المئات

Digitized by Birzeit University Library

وقتئذ ، بل كان يجهد قريحته ليخرج للكافة أفكاره الحكيمة وما اطلع عليه من أسرار الطبيعة . إنى لا أظنه كان يكتب متسلياً ولا معجزا ، ولكنه كان يكتب لينفع قومه بما يكتب ، وأنه على ذلك يستحيل على رجل يذوق طعم الكلام ، أن يرمى أبا العلاء المعرى بالتقعر

فما بالنا فى بلدنا نجد كل يوم لهذه الكلمة رنيناً خبيثاً فى الآذان ، بل نراها على سوء استعمالها ، وقبح مدلولها تسيل بسهولة على كثير من الألسن كلما صادف بعضهم فى الكتب أو على الجرائد كلمة يظنها غريبة ، وما هى بالغريبة إلا عنده ، أو أسلوبا جديداً ، وما هو بالجديد إلا أنه لم يصادفه فى مطالعته أو لم يألفه فى كتابته . كأن الواحد منهم يرى أن يمحو شخصية كل كاتب ويحيلها إلى شخصيته ، وأن يستبد على كل قلم حتى لا يكتب إلا ما يألفه هو . إنه بذلك يطلب المحال ، بل يجنى على تقدم الفن وحياة اللغة .

لست أدرى على ذلك ، مع قلة ما أعلم من اللغة ، أن استعمالهم لهذا اللفظ عربى ، بل الاستعمال العربى فى ذلك على الضد مما يستعملون كما قال الكميت :

البالغون قعور الأمر تروية
والباسطون أكفاً غير أصفار

إلا أن يكون غرضهم بذلك اللفظ إيراد المقدمات الطويلة المملة من غير فائدة ، أو لفائدة تفهة ، وهذا مقصد خسيس وأسلوب سمج ، ولكنه مع ذلك لا يسمى تقعرا

إذا كان شكسبير كما سمعت قد استعمل عشرين ألف كلمة ، مع أن راسين على غناه لم يستعمل إلا أقل من أربعة آلاف ، فأولى بالعربى ألا يحد لغته الفسيحة بحدود ما يستعمل منها فى ميدان باب الخلق أو فى سوق الخضار . إن لم يكن التوسع فى الألفاظ للمعانى ، ولا لمنفعة الأدب ولا لخدمة اللغة ، فليكن على الأقل لخدمة القرآن الذى بات الكافة

Digitized by Birzeit University Library

لا يفهمون معنى ألفاظه ، ومن واجبهم أن يفهموه ، فأنه انما يتلى ليفهم ، ولكيلا يكون التفسير إلا لبيان حكمة التنزيل ومناسبته وكيفية استخراج الاحكام الفقهية منه .

لا يعلم إلا الله متى نرى شوقى وحافظ بالعين التى يرى بها الانكليز شعراءهم ، بل متى نحب وطننا ولغتنا وآدابنا ! ومتى يكون للحق سلطان على نفوسنا حتى لا نتخذ الجد لعباً ، ولنتعلم حسن الظن وصدق الانتقاد

Digitized by Birzeit University Library

عليكم أنفسكم

فينستير فى ٢٧ اغسطس سنة ١٩٠٩

ليس فينا الا من يشكو إلى الله وإلى الناس من مصائب مصر: نقص فى التربية المنزلية ، عدم كفاية الكتاتيب لجعل التعليم اجباريا ، عدم كفاية المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ، نقص التعليم فيها جميعا ، اختلال الامن العام ، فشو الأمراض المختلفة وعدم وجود المستشفيات والملاجىء للمرضى والقعدة والذين تقطعت بهم أسباب الحياة فلا يعيشون الا من الشحاذة ، كثرة العميان ، عدم تقدم الزراعة الى حد يتفق مع تمدن العصر الحاضر ، العجز عن منافسة التجارة الأوروبية التى كادت تؤدى بالتجارة الأهلية ، عدم الصناعة خصوصا ما هو ضرورى منها للزراعة والبناء والحاجات اليومية .

كل هذا النقص لا يحتاج فى سده الا الى همة تعمل ، ومال ينفق ، وزمن ينضج العمل ويظهر نتائجه . أما الزمان فموجود لا طاقة لأحد ولا للانكليز بوقف دورة الفلك ، وأما الهمة فهى فى طوق المصريين ، والمال فى جيوبهم ، فما الذى يمنع المثرى من أن يتبرع لأمته بالمال اللازم لذلك ، وما الذى يمنع الطبقة الوسطى من الاجتماع لتكوين شركات المعاونة وتنظيم الأعمال وفتح المحال التجارية والصناعية وتأسيس جمعيات البر المختلفة الأنواع .. ؟

أيكون المانع للأعيان والتجار والمفكرين من سد النقص الموجود فى البلد المتوقف عليه نجاحه ، أنهم أو بعضهم كان مشتغلا بجمع اعانة لمنكوبى الزلازل فى ايطاليا ، أو لجمع المال اللازم للسكة الحديد الحجازية ، وبعضهم لازال يشتغل الى اليوم فى تأليف جمعيات للاكتتاب لاعانة البحرية العثمانية أو لأنشاء أسطول جديد ؟ عمل انسانى جليل . بل واجب من أخص الواجبات الانسانية أن يساعد المرء غيره ، وأن تساعد الأمة جارتها .

الجريدة فى ٧ من سبتمبر سنة ١٩٠٩ العدد ٧٦٠

Digitized by Birzeit University Library

يستأهل الاعجاب بعمله ذلك المصرى الذى تهزه الرحمة الى منكوبي الزلازل أو تدفعه المجاملة الى مساعدة الدولة المتبوعة (التى لها علينا حق السيادة) ، سواء مكنتها الظروف من مساعدتنا أم لم تمكنها من ذلك ، وسواء أكانت المسالة المصرية فى بروجرام أعمالها أم لم تكن فيه . ذلك لأن الذى يقوم بواجبه نحو غيره لا ينبغى له أن يفكر فيما اذا كان هذا الغير يقوم هو أيضا بواجبه نحوه . الواجب يؤدى لذاته من غير انتظار مقابل له . ولكن الذى يحملنا على التفكير فى هذا الموضوع هو الوقوف على مصدر هذه المساعدة فى نفوس المساعدين ومقدار هذه المساعدة بالنسبة للامة العثمانية كثيرة الأملاك ، الغنية بوفرة رجالها المهذبين الذين أدهشوا العالم بخروجهم من الاستبداد الى الحرية بنظام وسرعة غير مسبوقين فى بلاد الشرق .

أما قيمة المساعدة فانها يستحيل أن تزيد على آلاف من الجنيهات ، لا تنفع البحرية العثمانية فى شىء ، ولكنها تنفع الاقليم الذى تجمع منه فى بناء مدرسة أو ملجأ أو تأسيس معمل زراعى كيميائى لتخفيف مصائب الزراعة المصرية . أما ان كانت قيمة المساعدة هى أدبية صرفة معناها ارتباط الأمة المصرية بالأمة العثمانية ، فذلك أبلغ فى العبث من المساعدة الحقيقية المادية ، لأن جمع بعض الجنيهات وارسالها الى الآستانة ، ليس أدخل فى باب الروابط بين الأمتين من رابطة التبعية المقررة فى الفرامانات المتفق عليها من العثمانيين ومن المصريين ، بل المتفق عليها بين الدول جميعا ؛ وانه لا يزيد التابع فى عين المتبوع احتراما أنه يدلى اليه بهدايا ، كسبها لا ينفعه ، وعدمها لا يضره .

وأما مصدر هذا الاحساس فى نفوس المساعدين إن كان الغرض منه الدفاع عن الأمة العثمانية وتقويتها ، فان تقوية مصر والدفاع عنها أوجب على المصرى من كل واجب غيره . وإن كان الغرض منه ايلام الانكليز ، فان الذى يؤلمهم ليس هذا ، بل الذين يؤلمهم حقيقة — اذا كانوا يرمون فى

Digitized by Birzeit University Library

سياستهم الى استعمار بلادنا على الرغم من وعودهم — هو قيام مثل هذه الجمعيات لنشر المعارف والأفكار الصحيحة فى الأمة ، وتعليم الحق والواجب وحض الناس على التمسك بحقوقهم ، والتفانى فى خدمة وطنهم واستقلاله ، وأن من غير الصواب أن يعمل بعضنا لفناء شخصية المصرى فى شخصية العثمانى ، لأن هذا الرأى مع بعده عن الصواب ، لا يتفق مطلقا مع مصلحة مصر ، ولا يتفق كذلك مع اعتبار مصر اقليما ممتازا مستقلا كالبلغار بالامس ، ولا يتفق مع نظر العثمانيين أنفسهم الى مصر . نعم إن هذه الفكرة قد نجحت مع بعض مواطنينا ، فنالوا بها احسانات سلطانية ، كرتب ونياشين ، ولكننا نجل الذين يقومون بجمع الاعانة عن أن يشوب مقصدهم من ذلك شىء .

عليكم أنفسكم ، جودوا على بلادكم بالمال ، فأصلحوا من شأنها ما فسد ، تصر قوية محترمة ، فأن أحب الأشياء الى الباب العالى ، أن يرى مصر فى غاية القوة والاستقلال ، تخدمه فى مواطن كثيرة وتساعده فى السلم والحرب ، فمتى نصرف عنايتنا كلها الى بلدنا ؟ بل متى نقتنع أننا مصريون قبل كل شىء ؟

Digitized by Birzeit University Library

الأعمال العامة والحياء

فضيلة الحياء قد تظهر فى الناس على شكل الانزواء والعزلة وكراهة الظهور، وإن هذا الشكل قد لا يتفق فى شىء مع حب العمل للمصلحة العامة ذلك العمل الذى يقتضى لذاته الظهور فى ميدان العمل العام ووقوف العامل من الناس موقف المعلن عن آرائه، المدلل على صحتها، المروج لها فى هذه السوق الكبيرة.

وعندنا أن هذا الموقف، موقف ترويج الآراء السياسية والجرى على كسب ثقة الأمة، لا يخالف فضيلة الحياء إذا خلا مما يعتبر فى نظر العرف قلة حياء، كالطعن فى أشخاص الخصوم بما لا يبرره الأدب، أو اطراء الذات والفخر الكاذب والتمدح الممقوت. فلا بأس أن يرشح المرء نفسه للانتخاب فيقف فى الميدان وينادى الناس، حتى إذا اجتمعوا عليه أبان لهم مقصده وفصل لهم أغراضه السياسية وذكر لهم البرنامج الذى يسير عليه، إذا هم تفضلوا بأن ينتخبوه عنهم فى المجلس، وأنه يعدهم بالعمل لتحقيق تلك المقاصد التى ذكرها لهم تفصيلا. ومن باب أولى يجوز لهذا المرشح نفسه للانتخاب أن يستبدل الخطابة بالكتابة، فيكتب على صفحات الجرائد، أو يلصق اعلانات بترشيحه فى الأماكن التى يرشح نفسه للنيابة عن ساكنيها. يكتب فى ذلك الاعلان مذهبه السياسى وخطة سيره فى العمل إذا تم له الانتخاب. له أن يخطب وله أن يكتب، وله أن يتفق سرا وعلنا مع منتخبيه، وكل ذلك داخل فى عموم الفضيلة، لا يخالف أية فضيلة من الفضائل، ولا فضيلة الحياء ذاتها عند من يعرفون حدود الحياء.

الجريدة فى ٢٩ من سبتمبر سنة ١٩٠٩ العدد ٧٧٩

ذلك الذى يرشح نفسه للانتخاب بهذه الطريقة، طريقة اقناع الجمهور، لن يخلو من انتقاد الجهلاء، بل ولا من سخريتهم به ونكاياتهم فى أول مرة، لأن الناس من شأنهم أن ينظروا بعين الغرابة لكل عمل لم يألفوه من قبل، ولكنه مع ذلك يكسب جاذبية العقلاء واعجابهم بشجاعته الأدبية ووطنيته الصحيحة التى لا يثنيه عن العمل لها استهزاء الجاهلين.

إن قومنا يقلدون الأوروبيين فى اللبس وفى أثاث المنازل ورياشها، وكل زينة من الزينات. يقلدونهم حتى فى شرب الكحول، ويفضلون الشراب الأوربى على الشراب الشرقى. يقلدونهم فى طرائق التعليم وفى شكل الحكومة وفى كل صنف من صنوف المدنية الحديثة، سواء كان فى ذاته حسنا أو قبيحا، ويكفيهم دائما من الشىء أنه أوروبى حتى يصح تقليده، وأن الأوروبيين جميعا يرشحون أنفسهم للانتخاب بالطرق التى ذكرت طرفا منها والتى يظنها الشرقى نقصا فى المروءة أو قلة فى الحياء. فما بالنا لا نقلدهم أيضا فى هذه الطرق المفيدة، طرق اشهار الانتخاب، لأن فيها وصلة ما بين المنتخبين ونائبهم فى المجلس. وهى الضمانة الوحيدة لمعرفة آراء النواب ومذاهبهم السياسية، بل تصريحات المرشح تعتبر دائما حجة عليه فى كل مدة انتخابه؟

ها نحن أولاء على باب الانتخاب لمجالس المديريات، ونرجو أن يظهر الكفء أمام الناس بمظهر المرشح نفسه علنا. وألا ينقبض عن السعى فى الانتخاب. أولئك الذين عرفوا مقدار الحياة فشبعوا من زخارفها الباطلة، ومحوا ذلك العلو الموهوم الذى يحصل لبعض الناس من مجرد العضوية فى مجلس من المجالس النيابية.

إن أحدنا إذا أراد أن يشترى عزبة، استعمل لذلك كل الطرق المشروعة، ولا يشعر فى نفسه مطلقا بخجل يلحقه من الاطالة فى المساومة، ولا فى السعى بنفسه وبأعوانه عند مالك العزبة وأصحابه وجلسائه، ليقتنع المالك بأن البيع

Digitized by Birzeit University Library

لمصلحته . فما بال الذي يشترى أنفس شىء فى العالم وهو ثقة الأمة ؟ ما باله لا يصرف فى سبيل الحصول عليه مجرد التنازل عن الحياء الكاذب ، والعزة الموضوعة فى غير موضعها ؟ وما باله لا يجعل جبنه المحبوب لديه داخلا فى ثمن تلك الثقة ، فينفض عنه هذا الجبن ويتسلح بالشجاعة الأدبية ويسعى لكسب تلك الثقة .

إن العمل للأمة من غير كسب ثقتها عمل عقيم النتيجة فى الغالب .

وعادة الرأى العام فى كل أمة أنه غير ضنين بثقته ، بل هو يسرف فى اعطائها لكل من يظهر بخدمة الأمة ، صحت نيته فى الخدمة أو فسدت . فالواجب على كل كفء لمجلس المديرية أن يظهر أمام الرأى العام ، ويعمل لكسب ثقة المنتخبين ، التى هى كما قلت وسيلة الكفء لنفع وطنه . « وخير الناس أنفعهم للناس » .

Digitized by Birzeit University Library

الجامعة المصرية

تتألف الجمعية المصرية من المصريين الأصليين ومن عناصر أخرى جديدة من الأجانب حَلّوا مصر على سبيل القرار، وجعلوها موضع سعيهم، فصارت بعد قليل محل ثروتهم وموطن حياتهم فى الحال والاستقبال.

فأصبحوا بذلك مصريين، يرون من الواجب عليهم ألا يكونوا أقل غيرة على مصر من بنيها الأصليين. فيها أملاكهم ومنابع ثروتهم، ومقابر آبائهم أو أبنائهم ومتعلق رجائهم فى المستقبل، لا يسهل على أحدهم أن يتركها نهائياً من يوم إلى آخر، بل لا يسهل عليه أن يفهم له وطناً حقيقياً غيرها. غير أن هؤلاء مع كل هذه الاعتبارات لا يزالون يظنون أن المصريين يعتبرونهم أجانب عنهم، ويكادون يتحللون بهذا الظن من كثير من الواجبات الوطنية التى يجب على المصريين احتمالها لسعادة بلادهم. وإن هذا الظن مهما كان سببه ضعيفاً ومهما كان فاسداً لا يستحق البقاء، فأنه مع الأسف موجود ومنتج جميع النتائج التى تترتب عليه.

نحن المصريين لم نتلق دروس الحرية مختزلة ولا بعيدة عن كمالها بمراحل كما تلقتها الأمم الأخرى من قبلنا فى القرون الثلاثة الماضية، بل نحن نتلقى مبادىء الحرية على آخر طراز لها، وعن أكمل أساتذتها علماً بها، وهو القرن العشرون. لذلك نحن نبنى عملا لبلادنا على قاعدة المنفعة، من غير أن يكون لمختلف المعتقدات والأجناس أثر كثير أو قليل فى السياسة المصرية العامة. وأن كل مصرى اعتاد أن يرى المستقبل بعينه يود من صميم فؤاده لو أصبح كل من على أرض مصر من العثمانيين والأجانب، أرباب الامتيازات، مصريين متساوين فى الحقوق والواجبات، يعملون لسعادة هذا الوطن، أى لسعادتهم أجمعين.

الجريدة فى ٥ من اكتوبر سنة ١٩٠٩ العدد ٧٨٤

Digitized by Birzeit University Library

ليس الوطن مقولا على أرض محدودة مجردة فى الذهن عن كتلة من السكان متجانسة متشابهة أفرادها فى كثير من الشخصيات . ولكن الوطن مقول على الأرض المحدودة مقترنة فى الذهن وفى الخارج، بكتلة السكان القائمين عليها على سبيل القرار ، المشتركين فى المنافع المتضامنين فى السراء والضراء، الشاعرين بهذا التضامن

وإن الذين جاءوا إلى مصر واستوطنوها غير سكانها الأصليين، قد برهنوا على اختيارهم لها وطناً ، كما برهنوا على كفاءتهم للحياة العملية وذكائهم وقدرتهم على نفع هذه البلاد . وبعيد عن الحكمة ألا نعمل نحن الأكثرية كل ما فيه استطاعتنا للانتفاع بكفاءة هؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم أجانب وضمهم الينا ضماً حقيقياً صريحاً، تزيد به نسبة الكفاءات المتنوعة فى مصر ، ويخرج به هؤلاء الأكفاء إلى الحركة السياسية والاجتماعية ، ليكون عليهم نصيب من الواجبات يعادل نصيبهم من الحقوق .

إذا كانت الامتيازات الأجنبية تجعل الأوربيين المقيمين فى مصر يفضلون أن يبقوا أجانب مؤقتاً عن تحمل واجبات الوطنية المصرية ، حتى يظهر المستقبل قرار السياسة المبهمة التى تختبط فيها الأحوال فى مصر ، فما الذى يمنع السوريين مثلا ـ ولا امتياز لهم ـ أن ينفضوا عن أنفسهم صفة الاجنبية ، فيدخلوا فى الحركة المصرية ، يدخلوا فى الانتخابات ، ويدخلوا فى الأحزاب السياسية ، ليقوموا بخدمة وطنهم مصر خدمة عملية حقيقية ؟ وما الذى يمنع المصريين من دعوة بنى عمهم إلى ذلك ، وأن يقتلعوا من نفوسهم ذلك الظن الذى أشرت إليه ، والذى رأيت أثره كثيرا فى محاورة بعض السوريين الأكفاء الذين لم يكسبوا فقط الوطنية المصرية بالاقامة المحدودة قانوناً ، بل لهم فى مصر آباء وأجداد ، ومن له فى وطن أب كمن له آباء ؟

إنه لا يجوز للمصرى الذى يحب الخير العاجل لوطنه ، أن يستهين بقوة

Digitized by Birzeit University Library

العناصر الأخرى التى تتألف منها جمعيتنا المصرية، فأنها بالنسبة لعددها العام وعدد المتعلمين منها وكفاءتهم الاجتماعيـة والاقتصادية، تكون جزءا مهماً جدا من حركة الحياة المصرية، إلا فى السياسة العملية مع الأسف. فاهمال الجامعة الصريحة بين المصرى الأصلى، وبين أى عنصر يمكن كسبه من العناصر الأخرى، خسارة كبيرة على هـذا الوطن المشترك ومساعد على تأجيل التقدم المنشود.

وعندى أنه إذا ابتدىء من اليوم فى إدخال العناصر غير ذوات الامتياز فى الوحدة المصرية - وتلك العناصر هى وسط متناسب بين العادات المصرية والعادات الغربية - كان ذلك فألا حسناً على جمع سكان مصر الأجانب أرباب الامتياز إلى الوطنية المصرية عاجلا أو آجلا، أعنى تأليف الجامعة المصرية المنشودة، وإنها لأكبر الضمانات للخروج من هذا المركز الخطر فى أقرب زمان ممكن.

على أنى لست أعرف من أولى الرأى من المصريين من ينكر على السوريين العمـل لمصلحة مصر وطنهم، كما أنى لا أعرف من السوريين المصريين من لا يتقدم إلى تحقيق هذه الأمنية، وما الأمر موقوف إلا على خطوة من كل جانب من الفريقين.

Digitized by Birzeit University Library

الجامعة المصرية

ليس مفيداً فى العمل أن نبحث فيما كانوا يسمونه بحق وبغير حق، جفاء بين المصريين والسوريين . مضى الوقت على مثل هذا البحث، وأصبح الخوض فيه من جانب السوريين أو من جانب المصريين، تجنياً من أحد الفريقين على الآخر. ولكن البحث فى الجامعة المصرية لا يكون مفيداً إلا إذا كان قاصراً على تقدير المنافع التى ينالها مجموع الأمة من امتزاج عناصر الأقلية بعناصر الأكثرية .

ألا إن المنفعة هى قاعدة كل عمل من الأعمال الهامة، ولا يجوز لنا أن نقدر الاعتبارات التى تناقض المنفعة أو تؤجل تحقيقها الى حين، إلا صغائر لا يقام لها وزن بجانب ما تصبو اليه كل أمة من الوحدة القومية، والتضامن بين الأفراد والمجاميع .

وإنه ليسرنا أن صادفت دعوة الجامعة قبولا تاماً فى قلوب المصريين والسوريين الذين يقدرون الوحدة القومية قدرها، ويرتبون عليها كل سعادة عامة فى الحال والاستقبال ، ذلك يدلنا على أن استعداد الفريقين للاشتراك فى السياسة العملية موجود تام الوجود لا ينقصه كما قلنا، إلا خطوة مباركة يتحقق بها النفع المنشود .

خير لنا ألا نقلب فى الماضى ، فان فى رواية الماضى من الأغلاط التاريخية والحوادث الافرادية، ما من شأنه أن يكدر الحال . وكفى بالتزاحم على الحياة الفردية كدورة ليس من العقل أن يضاف اليها ماذهب به الزمان . خير لنا من ذلك كله نحن الصحافيين، أن نوطن الرأى العام إلى هذا المجتمع القريب الذى سينعقد من بعض أولى الرأى من المصريين، وأولى الرأى من السوريين، لتتم به الجامعة الضرورية للاستقلال .

الجريدة فى ٩ من اكتوبر سنة ١٩٠٩ العدد ٧٨٧

Digitized by Birzeit University Library

التسامح فى الحقوق العامة

لأجل خاطرك أنا أعطيه صوتى .... هذه الجملة هى التى يجيب بها العمدة أو العين الذى جاءه صاحب له عزيز عليه رده ، يرجوه فى أن يعطى صوته لفلان بيك عند الانتخاب لمجلس المديرية . شاهدنا أن هذا الرجاء كل مافيه من ألفاظ التوسل والاقناع أن المتعرض للانتخاب هو قريب الواسطة أو صهره أو صديقه ، وليس فى معانى الرجاء ولا فى ألفاظه ذكر أو إشارة إلى أن المطلوب انتخابه رجل نافع يعرف أوجاع الأمة، ويستطيع أن يسعى فى تخفيف آلامها . وإن هذا الرجاء على ما فيه من المغايرة لما تقتضيه الأمة ومن التضاد لمصلحة البلاد ، فانه مع ذلك صريح خلو من التمويه والتزوير . ذلك لأن الذى يرشح نفسه للانتخاب لا يقيس قواه العقلية وقدرته العملية ، ليعلم إن كان انتخابه مفيداً لبلاده أو مضرا بها . كذلك هو لا ينظر بعين الانصاف إلى المقارنة بينه وبين غيره من الأعيان ، ليعلم ما إذا كان حسن الذمة ، وصدق الوطنية ، يقضيان عليه بأن يسعى فى انتخاب نفسه إن كان هو خير زملائه كفاءة ، وبأن يتنحى عن الانتخاب ، إن كان مفضولا فى الكفاءة . لا شىء من ذلك يرد على خاطر المرشح عند ما يوسط أصحابه لدى المنتخبين . بل هو لا يلحظ فى أمر الانتخابات إلا مصلحته الذاتية ، تلك المصلحة التى يستحيل أن تعتبر مصلحة يسعى إليها عند غير مرضى العمول . فانه لا مصلحة له إلا أن يجلس إلى جانب المدير ، أو يسر نفسه بتكرير عبارة « ياسعادة المدير » التى هى المفهومة من أكثر ما يقول . وأن يحسن عليه آخر الأمر برتبة بيك إن لم يكنه ، أو متمايز أو باشا ، والله يعلم والناس أجمعون وسعادته أيضاً ، أنه لاقيمة لاشارة الشرف

الجريدة فى ١ من ديسمبر سنة ١٩٠٩ العدد ٨٣١

Digitized by Birzeit University Library

إلا إذا دلت عليه دلالة حقيقية، لا دلالة حكميـة . لا ندخل فى هذا الباب ؛ لأنه بالرغم من اعتبارنا هذ المصالح الذاتيـة من سقط المتاع ، فانها عنـد صاحبنا العين غرض يسعى إليـه بالولائم والدعوة ووساطة الأصدقاء. كذلك الواسطة قد خلا عقله من كل اعتبار لكفاءة المرشح ، وبعدت عن خاطره كل فكرة فى المنفعة ، ولم يبق لديه من مسوغات ترشيح صاحبه إلا أنه صاحبه . فاذاكان الرجاء الذى يبسطه هذا الواسطة للمنتخبين خلوا من فكرة المنفعة العامة ، فذلك لأن قلب مرشحه خلو هو أيضاً من حب المنفعة العامة ، وغرضه من الانتخاب بعيد عن المنفعة العامة . صدق المرشح للانتخاب وصدق وسطاؤه .

كلا أنا لا أعطى صوتى لصاحبك لأنى وهبته لصاحب لصاحبنا فلان من قبل . وإنى مع ذلك آسف على أنك قد جئت متأخراً ...

هذا هو الجواب الذى يستعمله مندوبو الانتخاب ليردوا به جواب وسطاء الانتخاب . لم نسمع أن أحدا من المندوبين يقول للواسطة إن الناس ائتمنونى على هذا الصوت فلا أخونهم فيه ، ولا أعطيه لصاحبك لأنه غير كفء للنيابة عن الأمة ، أو لأنه مع كونه كفؤا مطعون عليه فى ذمته أو فى أخلاقه، فلا يؤمن بذلك على مصالح العباد . أو لأنه مع كونه كفؤا أرى فلانا أكفأ منه ، وأنا أعتبرنى خائنا فى الأمانة الموضوعة بين يدى، إذا أنا وضعت أمر الناس فى عنق من لا عقل له يزن به المصالح ، ولا علم عنده يقيس به الأشياء على نظائرها ، ولا خلق يمنعه من مجاوزة ماينفع الناس ، إلى ما ينفع نفسهوذويه

هذا مع الأسف هو الذى كان جاريا عندنا بين مندوبى الانتخاب وبين وسطاء الانتخاب والمرشحين للانتخاب ، الا الذين يتقون الله فى وطنهم ويعلمون أن التسامح فى الحقوق العامة هو الغلة الوحيدة لما نحن فيه من سوء الحال . هؤلاء لا يجعلون لصداقتهم فضلا على وطنيتهم ،ولا يلحظون فى

Digitized by Birzeit University Library

المنتخب سعة الأطيان ولا كثرة الأصحاب والاخوان، ولا أنه حسن البزة، وصاحب العزة. بل لا يلحظون من النائب إلا قلبا ذكيا وأنفا حميا وعقلا راجحا. وهؤلاء المندوبون الأخيار، كانوا فى الانتخابات السابقة مع الأسف قليلين.

فهل لنا أن نلح فى رجاء مندوبى الانتخاب ألا يخونوا الاهالى فى الامانة التى علقت بأعناقهم، فلا يتساهلوا فى الحقوق العامة اكراماً لخاطر أصدقائهم، بل ولا لخاطر حضرة المأمور أيضاً، ولا لخاطر سعادة المدير؟. نقول ذلك ونحن نعلم من أوثق المصادر أن الداخلية شددت كل التشديد على موظفيها حتى لا يتدخلوا فى أمر الانتخاب. على ذلك نحب أن نصدق أن المندوبين أصبحوا فى مأمن من اكراه رجال الادارة ولم يبق إلا اكراه الأصحاب والأقارب، ومن الهين أن يرد الانسان صاحبه عن الباطل ردا حسنا. والا فانى لست أرى فرقا بين الذى ائتمن على نقود أو عروض، فخان الأمانة وبددها، وبين الذى ائتمنه الأهالى على انتخاب العضو النافع لمجلس المديرية فخان فى ذلك، وانتخب العضو النافع لصداقته الشخصية، لا لمجلس المديرية ولا للمصلحة العمومية.

لذلك نرجو أن يلتفت مندوبو الانتخاب الذى ستكون مصر جميعها مرسحاً له مدة عشرين يوماً من هذا الشهر، فلا يتساهلوا فى هذا الأمر الجلل، ولا يخرجوا عما تحكم به ضمائرهم فى أمر الانتخاب.

Digitized by Birzeit University Library

الى الامام

منـا من يدرس حالتنـا الاجتماعية والاقتصادية والسياسـية ، بتتبع الأشخاص أولى المظاهر منا فى أعمالهم وأقوالهم ونتائج أفـكارهم والطرق التى يسلكونها لبلوغ أغراضهم ، ومقدار ثباتهم على المبادىء فى سياستهم والتضحيات التى يجودون بها لترقية وطنهم ، وكيفية معاملاتهم المالية وغبنهم فيها أو ربحهم منها ، وقعودهم عن محاولة اظهار كفاءتهم التجارية والمالية . ثم ينعم نظره فى الشبيبة المصرية ، فيقدر مالها من الكفاءات المتنوعة بالنسبة لما سيثقل به المستقبل كاهلها من الواجبـات ، ويرقب حال العائلة المصرية ووقوفها عن التطور إلى حال تتفق مع التطورات الاجتماعية الأخرى . ثم يطيل النظر فى كل هذه المسائل تفصيلا واجمالا ، فيدخل إلى نفسه اليأس من صلاحيتنا عاجلا إلى مانطلبه من الاستقلال ، وهو لا يحفظ هذه النتيجة السوداء لنفسه ، بل يجود بها كل يوم على خلطائه ومجالسيه كلما قرأ فصلا عن سلطة الأمة ، أو رأى مظاهرة تؤيد القول بسلطة الامة . وأقل ما يجود به لسانه الطاهر على قومه ، أن الصحف مخرفة ، تصوغ أقيسة مقدماتها من الخيال ، وأن هذه أمة لا تنفع ، وإذا كان من عادة هذا اليائس المجاملة فى القول ، أدخل نفسه فى عداد من يرميهم بالصغار والقعود عن اعلاء كلمة الوطن ، فيقول هؤلاء قوم لا سبيل إلى إصلاحهم وأولهم أنا .

منا هذا المفكر اليائس الذى قصر نظره عن النظر فى ماضى الأمم ، وضاقت نفسه عن الصبر ، وخلت أقيسته من كثير من المقـدمات العلمية ، وانبنت على ظاهر من الحوادث الافرادية التى تحصل فى كل أمة ، مهما كان مركزها من الرقى . منا هذا ، ومنا صنف آخر هم ساسـة الصدفة أو ساسـة

الجريدة فى ١٢ من ديسمبر ١٩٠٩ العدد ٨٣٩

Digitized by Birzeit University Library

«المناظر» وهم لنكد الطالع كثيرون ، تسأل أحدهم عما إذا كان رشح نفسه للانتخابات الجديدة فى مركزه فيجيبك : «ذا كلام فارغ» أى انتخابات أرشح نفسى إليها ، وأى مجلس تريد أن أحضر فيه ؟ أنا أربأ بنفسى دائما عن العضوية فى مجلس يكون المدير فيه . هو الكل فى الكل ، وليس لأعضائه الا أن يصادقوا على ماقاله المدير . هذا هو عذره ، والله يعلم أنه كاذب فيه . ولكنه فى الحقيقة ، ساقط الهمة ، معدوم واسطة السعى ، مفضول فى قومه ، يخشى أن يسخر منه الناس إذا تعرض للانتخاب ، ولكنه مع ذلك فخور ، لا يطلب من الحياة إلا أن يقدره سامعوه فى «المنظرة» بأكثر مما هو عليه فى الواقع ، وأغرب من عذره الكاذب هذا أنه يندفع من غير حياء فى الحط من قيمة مواطنيه وأمته ... إلى آخر ما يتدفق به لسانه مما لا حقيقة له فى الواقع ولا فى نفسه أيضا . ويكون ختام حديثه نحن قوم لا ننفع . يقول ذلك عفوا من غير روية ، وتفضلا من غير نظر طويل ، كنظر ذلك اليائس الذى بنى حكمه على ما اعتقد خطأ من الحوادث التى شاهدها بنظارته السوداء .

منا هذان ؛ ومنا ذلك الموظف الذى يشكو لك مر الشكوى مما يلقاه من الصغار فى خدمته ، أو من المضض الذى يلحق نفسه حين يكلف بوضع مشروع ضد مصلحة البلاد ، أو التصديق على مشروع يعتقد أنه ضار لا نافع ، أو تنفيذ فكرة ، أو القيام بعمل يعتقد أن بينه وبين الحق والعدل بونا بعيدا . يشكو لك حاله التعيسة ، فاذا قلت له : وما يمنعك من أن تدفع عن نفسك هذا الألم وتوفر على وطنك ماتعمل له من الضرر بأن تستقيل من وظيفتك ، فما أنت فيها مكبلا بالسلاسل ، أخذ يعتذر عن بقائه بعذر أبرد من عذر ذلك العامى المرشح للانتخاب . يقول لك وهل فى قومنا من يقدر الفضيلة قدرها ويثنى على الثناء الجميل ، أو يحترمنى على الأقل بعد خروجى من الخدمة ، كما هو يحترمنى وأنا فيها ؟ . هذا الموظف أيضا يلقى التبعة من جبنه على الأمة ، كما ألقى العين قعوده عن السعى للانتخابات على عاتق الأمة

Digitized by Birzeit University Library

وكما ألقى المفكر اليائس تبعة فساد علمه أو قلة عقله وصبره على عاتق الأمة.

كل امرىء حر فى أن يفكر ماشاء، ويقول عن نفسه وعن قومه ماشاء وعلى الاخص ما اعتقده فيهم. ولكن هذا المبدأ مبدأ القعود عن العمل الصالح يأسا من الاصلاح، والكف عن التقدم إلى الأمام على فكرة أنه غير نافع، والعدول عن إتيان الفضيلة اعتمادا على أنها غير مقومة عند العامة، هذا المبدأ مع كونه خطأ محضا فى ذاته، فانه خطر جدا وربما كان هو السبب الحقيقى فى عدم تقدمنا بعيدا إلى الامام.

فأما الأمة من حيث الحالة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فهى بخير، وغاية الأمر أنه ينقصها ما كان ينقص كل أمة من الأمم العظمى فى أوائل أدوار انتقالها. وما كان النقص فى بعض معدات الرقى داعيا لليأس ولا محلا للتجنى، إنما هو موضع للعمل لتكميل النقص. وإذا كان من الوطنية أن يطعن الانسان فى نظام من نظامات أمته لينبه الأفكار إلى تغيير ذلك النظام أو إصلاح الخلل، فليس من الوطنية فى شىء أن يعوقه غيره عن السعى لمصلحة بلاده ليتخذ ذلك عذرا لخموله، ومناصا من التبعة التى تلحق ضميره من القعود. وإذا كان من الحرية أن يعلن المرء رأيه لما يراه نافعا لبلاده مهما كلفه ذلك من التضحية، فان من العار أن يتسلى الرجل بالحط من كرامة أمته، حتى يشهد له الانكليز أو اليائسون، بأنه حر الضمير، وهو يعلم أنه مراء فيما يقول.

وبعد هذه الاعتبارات ننصح للعاملين ألا يصغوا لما يقول اليائسون، مهما علت مراكزهم فينا، وليتقدموا دائما إلى الأمام.

Digitized by Birzeit University Library

اطلبوا الحرية اطلبوا الاستقلال

يجب علينا أن نثبت — لا لغيرنا فقط بل لأنفسنا — أننا أحرار متحللون من كل عقال يربطنا عن نيل الحرية، نحن أسرى السلطة السياسية، أسرى السلطة المالية. فاذا أعوزنا أن نسترد حريتنا السياسية فما الذى يمنعنا من العمل لاسترداد حريتنا المالية وهى لا يستهان بها؟

الاستعمار فى نظر الدول المستعمرة على العموم وانكلترا على الخصوص، غرضه الأول الكسب المالى. ومن يستقر أعمال الانكليز وتصريحاتهم فى الحال وفى الماضى، وطريقة انتفاعهم بمستعمراتهم، يحكم من غير تردد أن الانكليز علموا أن وضعهم الطبيعى وعزلتهم الجغرافية، وقصور أرضهم عن أن تغذى ساكنيها، يجعلهم مضطرين دائما إلى توسيع أملاكهم فى الخارج ليكسبوا متسعا من الأرض يصرفون فيه مجهوداتهم الزائدة عما يلزم لوطنهم، وليتسلطوا على سكان المستعمرات ليجعلوهم زباين لهم، يصرفون بينهم صناعاتهم العديدة ويربحون من الاتجار عليهم. يبيعون لهم بالاكراه ويشترون منهم بالاكراه، ويستخدمونهم فى مصالحهم والدفاع عن امبراطوريتهم بالاكراه. كذلك لا خير فى البحرية العظيمة والقوة القاهرة، إذا لم يكن من ورائها كسب مالى لأصحابها. فلقد مضى أوان فتح البلاد لمجرد الشرف العسكرى وإظهار البأس، ونشر صيت ملك قادر أو قائد ماهر. فات هذا الوقت وقلبت المدنية الجديدة وجوه الاستعمار وأغراضه، فصار فى هذين القرنين الآخرين، الوسيلة الوحيدة لترويج بضاعة كاسدة أو صناعة زائدة عن حاجة الأمة المستعمرة، فأيما بلد ضعيف يريد حماية نفسه من استعمار الانكليز له، فلتكن أرضه مجدبة لا ينبت زرعه، ولا يجرى ماؤه،

الجريدة فى ٢١ من ديسمبر سنة ١٩٠٩ العدد ٨٤٧

Digitized by Birzeit University Library

ولا يشمل فى طبقاته على مناجم المعادن المختلفة . ولا رجاء للاصلاح فيه . مثل هذا البلد فى مأمن حقيقى من تطلع الانـكليز إليه بأبصارهم والتطاول إليه بأيديهم . ولئن ملـكوه عن جهل بمنفعته لتركوه فى اليوم التالى راضين من الغنيمة بالاياب، كما كان أمرهم فى جزر اليونان التى ملكوها وعانوا فيها المصاعب ثم تركوها . وأيما بلد خصبت أرضه ووفرت غلته أو استغنى عن الخصب الزراعى بالخصب المعدنى، فأنه دائما مطمع لأنظار الانكليز وغرض لاستعمارهم حتى تحين الفرصة لامتلاكه واستخدام أهليه فى منافعهم تحت ذلك الستار ذى اللون البراق ، ستار التمدين ، هكذا يقول حكيم الشعراء .

وقد تنجو النفوس بأرض جدب ويهلك أهله البـــلد الخصيب

هذه النظرية نظرية ، الاستعمار المالى والاحتلال المالى ، قد تحققت مع الأسف فى بلادنا، وصارت بارزة ينمو بروزها فينا من يوم الاحتلال العسكرى حتى أصبحنا فى هذه الحال المالية التى ليست مستورة على أحد من سكان مصر، مهما قل علمه بأحوال قومه .

إذا كنا نستعبد لأننا مدينون ، فمن البديهى أنه كلما زادت ديوننا زاد استعبادنا ، وكلما خف الدين عنا خف نير استعبادنا على أعناقنا . فمتى أصبحنا غير مديونين، أصبحنا أحرارا على الرغم من الاحتلال العسكرى والقوة القاهرة ، أو على الأقل حصلنا على الحرية المالية التى هى المحضر الأول للحرية السياسية . وإذا كان فى قدرتهم أن يمنعونا الاستقلال فى الوظائف السياسية بقوة الجيش، ويمنعونا من تأليف حكومتنا على نمط عادل معقول بقوة الجيش ، أى إذا كانوا يمنعوننا حريتنا السياسية بقوة الجيش، فليس فى قدرتهم أن يمنعوننا من كسب حريتنا المالية بقوة الجيش أيضاً . ألا أنه يستحيل على أية قوة قاهرة أن تمنع المدين من سداد دينه فى هذا القرن العشرين

ومن الخطر الشديد علينا أن يكون عملنا فى السياسة قاصرا على الاحتيال على كسب الوظائف فى الحكومة، وتغيير القوانين من غير التفات إلى هذا

Digitized by Birzeit University Library

العامل السياسى الفعال، بل إلى أصل الأصول فى السياسة الاستعمارية، وهو المال . فهب أننا ملكنا جميع الوظائف ذات الأثر فى بلدنا، وهب أننا كسبنا الدستور، أيكون ذلك محللا لنا من هذا العقال الثقيل، عقال السلاسل والاغلال المالية التى تثقل اليوم أعناقنا، وتكتف أطرافنا، عن السعى لخير بلادنا ؟ إننا بذلك لا نكون كسبنا شيئاً كثيراً، بل نكون كسبنا العرض دون الجوهر، كسبنا القشر وخسرنا اللباب .

إن تحريرنا المالى مسألة سهلة التقرير، ولكنها صعبة التحقيق جداً معقدة الطرائق، إلا إذا شفيت نفوسنا من أوهام الأحلام، وصحت عزائمنا فى حلها . كل عمل لحلها ينفع، ولكن أين الذين يريدون الكسب الشخصى وكسب الحرية العامة فى آن واحد، يعملون أفردا إذا لم يتفقوا على العمل جماعات للتسلح، للمزاحمة المالية، والمعارك التجارية ؟ كل عمل فى هذا السبيل نافع، قليله وكثيره . ينفع لذلك تأليف النقابات الزراعية، ينفع لذلك إنشاء بنك زراعى أهلى (بمعنى الكلمة) ينفع فى ذلك أن كل امرىء منا ساعدته الظروف فصار عنده مال احتياطى (وهذا الصنف عندنا غير معدوم) أن يشترى بماله الاحتياطى سهاماً من الدين المصرى، وألا يقلد حكومتنا فى استعمال احتياطيها . خصوصاً إذا لوحظ أن فائدة الدين الاحتياطى أكثر من أكبر فائدة يأخذها الذى يضع نقوده الاحتياطية فى أحد المصارف . فلو أقبلنا على شراء أسهم ديننا، لانتفعنا بجزء من فائدته التى ندفعها نحن أنفسنا إلى الخارج كل عام، ولقلت أرقام الدين المصرى وكثرت الثقة بمصر، وأصبح لنا بالزمان رأى فى حريتنا المالية التى كلها فى يد أوربا . ينفع فى هذا السبيل أن نعضد المحاصيل المصرية بأن نشتريها هى والمصنوعات المصرية، تفضيلا لها على سواها كما يفضل الانكليز المصنوعات الانكليزية، وكما يفضل الفرنسيون المصنوعات الفرنسية . بذلك يزول استعبادنا أو يخف، إذا كنا نبغى زوال الاستعباد ونيل الاستقلال .

Digitized by Birzeit University Library

أول العام

إلى الشبيبة

لاندرى ما الزمان . ولكننا نعرفه حق المعرفة ، مضافا إلى أعمالنا ، وظرفا لها ، يشرف بشرفها ، ويخمل ذكره بخمولها ، فيكون بعضه عيداً سعيداً تشرق فيه وجوهنا فرحا واستبشاراً ، ويقوى ذكراه رجاؤنا فى الاستقبال ، ويكون بعضه ذكرى ليوم سوء نحب أن ننساه أو نتناساه ، وبقية حركة سريعة تحملنا إلى حيث يشاء الله .

لاندرى ما الزمان . ولكننا نعلم أنه أثمن ما يجب الحرص عليه ، فهو الآلة الأولى لاتمام الواجب الذى فرض علينا على ظهر هذه الأرض ، واجب القيام لله بالفرض الذى خلقنا لأجله ، وهو عمارة الكون ، وإقامة العدل ، وتحرير نفوسنا من الشهوات ، وأمننا من تسلط الحكومات المطلقات

لاندرى ما الزمان . ولكنا جربنا منه أننا إذا لم نسخره لمصالحنا تركنا بالندامة ، وما نحن بقادرين على أن نرد إلينا منه ماضينا ، وأمس الدابر لا يعود

نحن فرطنا من غير شبهة فى استعمال زماننا هذه القرون الأخيرة فأدبر عنا الزمان ، وولى وجهه شطر الأمم التى صحت عزائمها بالعمل على إلفاته إليها ، فصارت أيامها أعيادا ، وصارت أعيادنا ذكرى أيامنا الأولى ، أيام العمل ، أيام التضامن ، أيام الثبات على الحق . تلك الأيام التى ابتدأت بذلك اليوم الفرد الذى نحى ذكراه هذا النهار ، وهو يوم الهجرة . يوم لم يكن للنبى محمد بن عبد الله من ينصره إلا الله وصاحباه . يوم كلفته الدعوة إلى الحق ، أن يهجر وطنه وبيته وعائلته ورحمه .

الجريدة فى ١٣ من يناير سنة ١٩١٠ العدد ٨٦٣

كانت لنا وقائع تشرف تاريخ الأمم ، وفتوحات لم يسبق لها نظير . وأعمال عاليات ، فلم يصلح ولا واحد منها أن يكون تاريخاً إلا ذلك اليوم الذى لم يقع فيه طعن ولا ضرب ، ولم يكن له فى العالم المادى الجلبة والضوضاء التى تنتشر فى أيام الحروب . ذلك اليوم الذى مر سرا فى ضمير الزمان من غير أن يبرز بجلجلة وصلصلة وقعقعة ، ذلك اليوم الذى لم يعلم بما حدث فيه أهلوه وشاهدوه ، ولكن الزمان جميعه يعلم بأن هذا اليوم الخامل فى العالم المادى، الذى لم يكن من أعماله إلا خروج اثنين من البشر من مدينتهم خفية إلى مدينة أخرى ، يعلم بأن هذا اليوم سيكون تاريخاً لمبدأ العزة ، مبدأ الثبات على الحق ، والدعوة إليه ، مبدأ التوحيد ، مبدأ مكارم الأخلاق ، مبدأ الاسلام .

يعلم الله أن هذا اليوم كان هو العلة الحقيقية لتنظيف وجه الأرض من رجس الاشراك . والسبب الأول لتلك الفتوحات والانتصارات الباهرة ، والمدنية الاسلامية الواسعة . لذلك كان هو مبدأ تاريخنا .

إلى الشبيبة أسوق الحديث فان حديث الرجاء فى المستقبل ، إنما يساق لأمة الاستقبال .

مرت بنا سنو دراستنا وشبيبتنا الأولى فلم نظفر من عملنا بطائل ذى نتيجة محسوسة، فما شأننا إلا الأسف على ما فات من أعمارنا من غير عمل ذى نتيجة ايجابية لبلادنا ، ولكن لا ندامة، فان الجيل اللاحق ابن الجيل السابق . وحسبنا تهوينا للندامة ورجاء فى المستقبل أن نرى بين ظهرانينا الشبيبة الحالية التى هى أمة الاستقبال .

أكثروا ولا تقلوا ، فما أحوجنا لكثرة المتعلمين . وأتقنوا عملكم فان النبوغ غاية الاتقان . وإن النابغة الواحد ليغنى غناء الملايين من الناس فى خدمة البلاد . وليكن شعاركم فى العلم والفكر إطلاق العقل، وفى النظامات تقييد الحكومة . وليكن أول شعور فى قلوبكم حب الحق ، وكل ماتخطه

Digitized by Birzeit University Library

أقلامكم وتقوله ألسنتكم عبارة الحق . كرروا الحقائق ما استطعتم، فأن أحوج الأشياء إلى التكرار انما هى الحقائق الأولية . الاحتفاظ بالمبدأ والثبات عليه، ما لم يظهر فساده . السلطة فى أى وطن لا يجوز أن تكون لغير الأمة . اعتبار الحياة آلة لخدمة الغير، بل لخدمة الوطن . اعتناق الأسوة الحسنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنه فضل النفى الاختيارى وهجرة الوطن عن أن يقبل السكوت عن الحق، أو الأناة فيما أوحى الله اليه تنفيذه . وإنكم إن شاء الله على ذلك لعاملون مفلحون .

مكتبة جامعة بيرزيت الرئيسية
Digitized by Birzeit University Library

فى الواجب

من الصناع من إذا أسلمت إليه عملا بعد الاتفاق على زمنه وأجرته، يعتمد دائماً على تأجيل ميعاد التسليم، فلا يبتدىء فى العمل إلا آخر الوقت المضروب لنجازه، ثم يجتهد بعد ذلك فى أن يفرغ منه من غير أن يتمه على أصول الصناعة، بل يتمه على أقرب وجوه التمام خالياً من الذوق ومن الاتقان. بل قد يبلغ به التهاون فى اسمه وفى وعده إلا أن يسلم عمله مشوها دالا على سوء صناعته. كأن صاحبنا أو ما يهتم به من عمله، هو أن يسىء إلى سمعته الصناعية، ويجعل صناعته محرضاً للناس على السؤال عن صانعها حتى لا يكلفونه بعمل أصلا. فلقد رأيت عند أحد أصحابنا خيمة مبطنة بآى القرآن الكريم. رأيت فيها لفظ (توكلت) تاؤه غير منقوطة. ولو سألت صانعها لاعتذر بأبعد ما يمكن أن يؤول لمصلحته، كان يقول إنها مع ذلك تقرأ، كأنه ظن أنه كتب تلك الآيات لغير الزينة وأول درجات الزخرف التمام. أو كان يعتذر لك بضيق الوقت أو كسل صبيه. كل ذلك لا يجديه نفعا، بل تبقى صناعته دليلا دائماً على انحطاطه وداعياً لكساد حاله. وما ذلك إلا لأنه متساهل فى آداء الواجب.

ومن المزارعين من يبيع قطنه وهو قائم على سوقه ثم يتركه من غير جنى حتى يتساقط على الأرض فيحمل من ترابها، وربما تركه كذلك حتى ينزل عليه المطر، واعتذاره عن ذلك لا يمكن أن يقبل عند التاجر بل الذى يثبت عنده، هو أن هذا الزارع من شر المزارعين لا تصح معه المعاملة، وقطنه يجب أن يساوم بأحط الأثمان، وما ذلك إلا لأنه مزارع متساهل فى أداء الواجب.

الجريدة فى ٢٥ من سبتمبر سنة ١٩١٠ العدد ١٠٧٩

Digitized by Birzeit University Library

ومن الموظفين من يكون كل همه فى القيام بعمله أن يدرأ عن نفسه مسئولية سوء النية أو مسئولية التقصير . ويجتهد أولا فى أن يخلص قلمه - كما يقولون - ثم فى ارضاء رئيسه بأية طريقة من طرق الارضاء . ولا شك فى أن أخفها كلفة وأقربها نتيجة هى طريقة الطاعة العمياء والخضوع والتزلف . وكأنه يرى أن المركز الذى هو فيه ليس إلا قنطرة يمر من عليها بأية صورة إلى مركز أعلى منه، يتقاضى فيه راتبا يرضيه . وإن كان له ضمير يؤنبه يستعين عليه بالطريقة عينها التى أرضى بها رئيسه وهى طريقة الخدعة. يظن بعد ذلك أنه قد خلص من مسئولية العمل ومن مسئولية الضمير جميعا . يجتهد فى ذلك كله ولا يحب أن يفكر مرة فى أداء الواجب لذاته . هذا الموظف متساهل هو أيضاً فى الواجب .

ومن رجال السياسة من يرضى إسناد الوزارة إلى شخصه، ولكنه يظهر على أعماله أنه لا يرضى أن يكون سياسياً . بل يوطن نفسه على أنه موظف عادى كبقية الموظفين يعمل ما يؤمر بعمله ، ويكف عما ينهى عنه . يجتهد كغيره من الموظفين فى إرضاء السلطة التى عينته، فان كان له قبل الوزارة مبدأ سياسى، خلعه عن نفسه ، وإن لم يكن له فكرة خاصة فى سياسة بلاده، ونقطة يجب أن يوصل قومه إليها، لا يجتهد من يوم الدخول فى السياسة أن يفكر فى اعتناق مبدأ من المبادىء يكون قواماً لخطته العملية ؛ بل كل ما يهمه هو أن يبقى فى منصبه إلى يوم تعتذر له السلطة بأن ظروف الأحوال السياسية تقضى عليه بالاستقالة . فهذا السياسى الذى يقبل المسئولية من غير أن يأخذ مقابلها من الاستقلال، هو أيضاً متساهل فى الواجب .

ليس الواجب أمراً اصطلاحياً ككثير من المعاني العامة ، بحيث يكفى فى أدائه حكم الجمهور . ولكن الواجب أو الشعور بمسئولية الضمير نار تأجج فى صدر الحساس، فلا يهدأ إلا إذا أطفأها بالرضى عن ذاته من حيث القيام بالعمل الذى تعهد بعمله لغيره أو لنفسه ، والقيام لله بما خلق من أجله .

Digitized by Birzeit University Library

الشعور بالواجب وعدم إمكان التساهل فيه، هو وحده الذى يجعل المرء محلا للثقة فى الاعتماد عليه وقت الحاجة إليه ، والاعتداد به واعتباره إنسانا نافعاً وضرورياً بنوع ما لوطنه وللوجود الانسانى .

كل مزية من المزايا الانسانية كالذكاء ورجوح العقل وحسن المعاشرة .. الخ . يمكن أن تجعل المرء صالحاً لأن يعتد به فى حل مسألة أو فى المرافقة والمصاحبة . ولكن لا واحدة من هذه المزايا يمكنها أن تكون ضمانة كافية للغير فى الاعتماد على المرء ؛ بل الضمانة الوحيدة فى ذلك، هى فضيلة معرفة الواجب وعدم التساهل فيه . فمن أحب أن يكون أهلا لثقة قومه ولشرف خدمتهم، فعليه ألا يتساهل فى القيام بالواجب .

Digitized by Birzeit University Library

الصداقة

فلان صديق خالص الصداقة، بيننا من الألفة ما يسقط الكلفة. لا أحتمل أن يقال عليه شر. بل أحفظ غيبه كما يحفظ هو غيبي، لكن صداقتي له لا تمنعني من أن أقول الحق له أو عليه. إنه على الرغم من فضائله الكثيرة خبيث الطباع يكذب لسبب ومن غير سبب، لا يفي بوعده ولا يحترم لنفسه كلمة، وليس له في الحياة مبدأ ينظم سلوكه. هو صديق وكل امرىء منا له عيب، و « كفى المرء نبلا أن تعد معايبه » ولكنه مع صفاته الطيبة ليس له خلق لجعله محل ثقة الناس، وهو على طول لسانه فارغ القلب، فارغ العقل، أقول عنه الحق وأنا كاره. إنه صديق، ولكن الصداقة شيء وتقدير الناس شيء آخر.

على مثل هذا النمط يصف الأصدقاء بعضهم بعضا في أغلب المجالس، فبئست الصداقة ولبئس الرجلان: الصاحب منهما والمصحوب.

هذا الذي لا يذكر لصديقه من الفضائل إلا المبهم العام، وينساب يذكر له على سبيل التفصيل جميع الرذائل الانسانية واحدة واحدة، حتى لا يدع للسامع محلا من الظن بأن لصديقه المتكلم فضيلة واحدة؛ هذا الرجل هو أحد اثنين: رجل لا يعرف الصداقة في حدودها ولا في حقوقها وواجباتها؛ أو رجل يعرف معنى الصداقة في ذاتها، ولكنه لا صديق له، بل هو يعامل كل من يعرف معاملة الصديق في المقابلة والمجاملة الظاهرة، وهو لا يشعر في قلبه لأحدهم بمنزلة خاصة ممتازة عن منازل الباقين، فهو كما جاء في الأثر: « لا صديق لمن كان الناس جميعا أصدقاؤه ».

من لا يعرف ماهية الصداقة وحدودها، فهو رجل غافل أبله، ليس له

الجريدة في ٢٥ من اكتوبر سنة ١٩١٠ العدد ١١٠٢

Digitized by Birzeit University Library

شخصية ولا كرامة ذاتية، إذا قعد فى مجلس جاءت فيه سيرة صديق له (كما يقول) ورأى الناس ينتقصونه، مال به ضعفه إلى مجاراتهم وأبى عليه حبه لذاته أن يرد غيبة صديقه (المزعوم) خشية أن يدخل مع صديقه فى الذم، وأن يخرج من رضى الجالسين. فينحدر على صاحبه بأنواع السباب، ويقفى كل عبارة بما يفيد أن صديقه المذموم مقبول الشهادة عليه. هذا الضعيف الذى أوشك أن يعد منافقاً وهو لا يعرف النفاق بالضبط، ماكراً وهو لا يعرف من المكر إلا اسمه، عدوا ومعرفته بالعداوة ليست أشد من معرفته بالصداقة؛ هذا هو الصديق الذى يعنيه المثل القائل (عدو عاقل خير من صديق جاهل).

أما ذلك الرجل الثعبان الذى يعرف حدود الصداقة جد المعرفة، ويعرف ما توجبه الذمة على الصديق للصديق، ذلك الذى يلبس من ثياب بنى آدم قوامهم وإهابهم وصورتهم، لا يحترم لهم دينا يأمر بالعرف وينهى عن المنكر، ولا خلقاً مجمعاً عليه ولا عادة مكملة لطبائعهم؛ ذلك الذى لا يطلب من الحياة إلا شهوة ذاتية ولا يعتقد أن فى الموت غير رقدة أبدية، يحارب الناس بأخس الاسلحة، وهو سلاح النفاق: إذا نال منهم نيلا، فأنعم بالنتيجة فى نظره، وإن ناله خذلان خلا من المسئولية الظاهرة. يستهين بالوجود الانسانى وشرفه، كما يستهين بضميره وسريرته. فاذا جاءه وخز الضمير سخر وهز كتفيه وقال فى نفسه: إن هى إلا حياة الشهوات نقضيها ونمر سراعاً إلى حيث الفناء المطلق. مثل هذا المنافق فى مبادئه، المداجى فى صداقته، إنسان فسد منه الطبع، ومرض منه القلب، فلا بد من علاجه، وخير ما يعالج به عدم التسامح لنفاقه حتى يذوق نتائج رذيلته.

أتعلمون لماذا نحن قليلو الثقة بعضنا ببعض، أو عديموها بالمرة، حتى صرنا فى غاية التحلل بعضنا من بعض، والتخاذل بعضنا عن بعض. ذلك كله لأن معنى الصداقة عندنا غير مستوف ما يجب له من الاحترام، وإن أمثال هذين الرجلين فى المثل السابق عندنا مع الأسف كثيرون.

Digitized by Birzeit University Library

وعجبت لرجل يألم من الحياة وله صديق

صديق أذكره كلما لمعت أمام عينى لامعة من نور السعادة . أذكره كلما طابت نفسى ورضيت بمركزها الخاص والعام فى الحياة . أذكره كلما نعمت بشىء من نعم الحياة . أذكره عند الضائقة النفسية . أذكره عند الشدة الخاصة والعامة ، أذكره عند الرجاء وعند اليأس ، أذكره عفوا لا على طريق التفكير ، بل كأنه لازم من لوازم النفس ، وأعتقد أنه كذلك . وما أظن الذى يرضى بصحبة الناقص الا ناقصا ، ولا أظن الذى يرضى بانتقاص صديقه الا منتقصا لنفسه .

الاخلاء فى كل زمان ومكان قليلون ، ولكنهم دائما موجودون ، يقل وجودهم ويكثر ، تبعا لقوة الاخلاق وفهم معنى الحياة وتقدير الفضيلة .

كدت أقول إن الصداقة هى معنى النعيم فى الحياة ، فمن حارب هذا المعنى خطأ كذلك الأبله ، أو عمدا كذلك الثعبان ، فانما هو وحده بعمله الصغير وتفريطه أو نفاقه ، يسلب من بنى آدم نعيمهم الوحيد فى هذه الحياة المتعبة .

كل فضيلة وكل رذيلة تنتقل بالعدوى دائما ، فعلى الجلاس أن يحجروا على قلوبهم أن تدخلها عدوى التفريط فى الصداقة ، وأن يصموا آذانهم عن أن تسمع منادى السوء يناديهم بأن يهدموا سعادتهم بأيديهم . فتربو بذلك الفضيلة وتنمو فى منتدياتهم

وإن نفس المرء ، هى أحذق المربين له

Digitized by Birzeit University Library

مات الرجل

أحاول أن أكتب كلمة عن «تولستوى» حيث أنا الآن فى قريتى ، تحيط بى أشباه المناظر التى كان يحبها تولستوى ، وأعاشر أشباه الناس الذين كان يحبهم تولستوى : يحبهم ويتفطر قلبه اشفاقا عليهم رحمة بهم أن يقتربوا من المدائن فتحرقهم نار الشهوات ، وتلعب بقلوبهم البريئة شياطين الاطماع الخسيسة، فتغير مجرى فطرتهم الصالحة إلى عادات البذخ والترف ، وتجرى ألسنتهم على الكذب وتسكن أمزجتهم إلى رؤية الزور وسماع الهجر من القول والصبر على الباطل .

أكتب عن هذا الرجل الكبير ، حيث أنا فيما كان يحبه رحمه الله من السكينة ، لا أسمع إلا حفيف الهواء وصهيل الخيل وصياح الدجاج ونعيق الغراب وصفير العصافير . فلا شك أنى فى أليق ظرف من الزمان والمكان

أحاول الكتابة عن تولستوى ، وإن لم يكن تحت يدى ولا مؤلف واحد من مؤلفاته الكثيرة . وإنى على ذلك لا اجدنى خليقا برثائه ، الا كما يرثى امرء هذه الأرض الواسعة ، قد خلت من أحد مصابيحها ذوات الضوء الساطع ، أو كما يشفق أحد بنى آدم من فقد هاد من هداة الفضيلة ، وواعظ من أكبر الواعظين .

أشعر بأن مصيبة العالم فى هذا الرجل ليست كالمصائب التى تفجع لها القلوب ، وتألم لها الانفس بحزن حار : يجرى الدموع ويسلم اللسان لهذيان من فرط الجذع : لا أشعر بذلك ، بل أشعر بأن المصيبة بفقد هذا الحكيم مصيبة كبيرة ، واقعة على النفوس وقعا فاترا ، لا تدمع عينا ولا تخفق قلبا ، ولا تحرك ألما من آلام الأحزان، كأنما هى تقع على العقول لا على القلوب.

الجريدة فى ٢٤ من نوفمبر سنة ١٩١٠ العدد ١١٢٧

Digitized by Birzeit University Library

فأولى بوفاة تولستوى أن تشبه بكسوف الشمس أو بخسوف القمر، أو بأية ظاهرة من تلك الظواهر الطبيعية، التى أكثر ماتهتم لهاعقولنا لتدبرها وتعرف آثارها فى الوجود.

لم يكن هذا الرجل روسيا فقط، بل كان انسانا قبل كل شىء يحب أمته ويحب أعداء أمته، يحب السلام على الدوام، يحبه أيام السلام وأيام الحرب على السواء. يكره الحرب سواء كانت الغلبة فيها لقومه أو على قومه

ولم يكن كذلك مسيحيا محدود المشاعر بحدود النصوص أو التقاليد، بل كان مسيحيا لاحد لتسامحه، يسع صدره الرحيب آراء موافقيه فى الدين ومخالفيه، يرى فى الدين أنه طهر للنفس والمشاعر وحب القريب والغريب، ويرى فى العمل به السعادة فى هذه الدار الدنيا والدار الآخرة.

فاذا كان تولستوى ليس رجلا روسيا وحدها، بل رجل العالم والسلام، وإذا كان تولستوى ليس مسيحيا محدودا بمذهب معين متعصبا له، بل متسامحا يقبل دين الفضيلة حيثما وجد من غير تحرج بحدود مذهب غير مذهبه الواسع، فأخلق بمصيبة تولستوى أن تكون كما قدمنا خسارة عالمية، لاخسارة روسية أو خسارة مسيحية.

إن الله يبعث الجيل بعد الجيل على هذه الكرة رجالا من الناس يؤتيهم طرفا من حكمته وقبسا من نور أسراره، ينصرون الحق على الباطل ويشعرون بنور هديه فى الأزمنة المظلمة والمكان القفر، يتبعون سنن الأنبياء فى إرشاد الناس ويقفون نفوسهم وملكاتهم على بلوغ ما يريدون من خير الانسانية، فاذا مات أحدهم كان موته خسارة تتأثر لها الحقائق العلميــة ومكارم الأخلاق، ولم يكن تولستوى إلا أحد هؤلاء. فمن بعده للفقراء والمساكين يقف لهم فى وجه الظلم والبؤس والنفى والعقاب على غير جريرة. ومن للدين ينصره بشجاعة فائقة لاتقف أمامها انتقادات المنتقدين ورمى الرامين له بالزندقة والخروج عن القصد، بل لا يقف فى وجهها حرمان الكنيسة له

Digitized by Birzeit University Library

فى حياته، ولا توقفها عن ضمه إليها بعد مماته . بل من للمساواة والمعاملة بالعدل، ينصرها من تعدى الطبقات القوية عليها فى كل مظاهرها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . بل من يهدى الرجال إلى العمل الصالح، وقد مات الرجل .

اشتغل تولستوى بالفلسفة، فلم ير رأى النظريين بجملته ولا رأى الماديين أو الوضعيين . كان عقله الواسع يأبى دائماً وفى كل شىء، أن يتقيد بالقيود المذهبية التى يستحيل أن تخلو من التعسف .

اشتغل بالسياسة فكان يكره الاستبداد وينفر منه ويغلب إرادة الجماعة على إرادة الفرد، يقول بسلطة الأمة ويعمل بنفسه وبأنصاره وتلاميذه (وهم أكثر من الكثير) على تحقيقها، وقد تحققت فى بلاده أو كاد يتم تحققها بالفعل .

اشتغل علماً وعملا بالاقتصاد، فكان مذهبه اجتماعياً قريباً جداً من الاشتراكية أو كان هى بعينها . وهو وإن كان لم ينجح فى تجربة، إلا أن ذلك ليدل كثيراً على عقله المرتب الذى ظهرت آثاره متجانسة فى جميع الفروع المختلفة التى اشتغل بها .

اشتغل بالدين؛ فنفى منه كثيراً جداً من التقاليد الكنائسية المادية على الأخص، واتخذ له انجيلا خاصا به اتبعه كثيرون فى تعاليمه.

وقد كان تولستوى على ذلك كله يجب أن يحسب فى كتاب الحقيقة (كتاب الواقع) لا كتاب الخيال (الذين يكتبون عن الانسان باعتبار ما يجب أن يكون لا باعتبار ما هو فى الواقع) . فانى أذكر أن قصته الموسومة (بالبعث) لم يكن فيها عن الشهوات إلا حقائق عريانة، لاحظ فيها تغليب الشهوة على النبل فى نفس بطل الرواية، ثم أظهر فيها أغلاط العدل الانسانى على صورتها التى نراها بأعيننا كل يوم . ثم التفت إلى بطله الخاطىء فأرجعه إلى أخلاق النبل والعطف التى كانت قد فارقته مؤقتاً عند

Digitized by Birzeit University Library

استحكام الشهوة . وذلك ما نجده عاماً فى الانسان كل يوم . ثم رجع إلى تأثير الوسط وتغلب ميول النساء ، مما لا يشذ كثيراً عن الامثلة اليومية التى يجدها مخالطهن ، ولو كان غير عمار ذى كناز الذى قال فيهن :

أراح الله عمـــارا ... من الدنيا ومن هن

قريبـان بعيدان ... فلا كان ولا كن

يمنـــين الاباطيـل ... ويجحدن الذى قلن

كذلك كان وصفه لحال الزوجية فى قصصه (لاسونانت اكرتزر) غير ناب عن الواقع وإن كان وصفه فيه غير عام فى العائلات مع السرور . ولقد سبب له هذا الكتاب امتعاض السيدات منه ، واتهامهن له فيما كتب ، وأرسلن له خطابات الانتقاد والشتم . وعندنا أنه فى هذا الكتاب لم يكن خيالياً ، ولا كاتب واقع إلا كما كان (إميل زولا) فى كتاب: (الاسوموار) فان عيشة الناس ليست كلها سكراً ، وليست كل الأبنية ولا غالبها فى المدائن حانات وخمارات . كما أن جميع النساء لسن على تلك الحال التى وصفها . ولا ريب فى أن تولستوى أراد أن يبين عيوب التربية الحاضرة وقتئذ ، وأنماطها المتخذة لتعليم البنين والبنات ، فكتب هذا الكتاب ليجعل الناس يلمسون بالحس نقص تلك التربية ، ليلفتهم إلى التربية التى لها قاعدة من الاعتقاد الدينى ترتكز عليها لتأتى بنتائج السعادة المنشودة فى العائلة . إقول إن هذا النظر لا يخرج تولستوى من كتاب الواقع ، كذلك يؤكد زعمنا سؤله (ماالعمل) ؟ و (الذى يجب عمله) ، وإن كان له ما يصح أن يجعله من كتاب الخيال كبعض قطع (الايمبتاسيون) و (حرب وسلام) . فكذلك لا يكون إلا لأن عادة عدم التقيد بالمذاهب الضيقة التى اتخذها شعاراً له قد غلبت عليه . وليس لنا أن ندخل فى بحث موضوعاته الدينية ، وتعاليمه اللاهوتية ، بل نترك الحكم على ذلك لغيرنا

Digitized by Birzeit University Library

حسب تولستوى فى أنه خالد الأثر فى حكمته وتعاليمه ، خالد فى آثار شجاعته الأدبية ، إن حياته الطويلة إنما قضاها فى صرف ملكاته وماله لخير الناس . وقد عرض نفسه لكثير من الأخطار فى نصرة الحق ، فان الرسائل التى أرسل بها للقيصر وللوزراء ولرجال الايكليروس، تدل على شجاعة تفوق شجاعة أغلب الذين وقفوا فى وجه الظلم . رحم الله ذلك الكبير، فانه كان من الآحاد الذين وقفوا أنفسهم لمنفعة بنى آدم . وخير الناس أنفعهم للناس .

Digitized by Birzeit University Library

الثقة

رجل يعيش مع زوجه ناعم البال فى الزوجية ، يبكر إلى عمله وعلى وجهه سيما ذلك السرور الهادىء الذى يدل على الرضا بالعيش، ثم يرجع آخر يومه إلى داره يحادث زوجه بقلب مفتوح وريق حلو وصوت طرى بين السر والنجوى، لا هو من أولئك العشاق الذين تملكهم وساوس الغيرة ، وخيالات الخوف من الفراق أو الهجران ، لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس . ولا هو من أولئك المتطيرين الذين يتظننون فى زوجاتهم وأقربائهم وأصحابهم ، بل كما يقال يتظنن الواحد منهم فى قميصه؛ قلبه منصرف عن السعادة مقفل عن النظر إلى هذه الحياة نظرة الراجين فيها المتوكلين على الله فى عملهم المؤملين خير الجزاء فى الحياة إلى حسن نيتهم . تمر بهذا الظان السوء ساعات غير قليلة ، يود لو يفرق الله بينه وبين عرسه بالموت ، أو بأى سبب لا يمس الشرف . يغلب على ظنى أن ذلك الزوج السعيد بالزواج لم يحصل على سعادته إلا بأن الله قد أنعم عليه بنعمة الثقة . وأما هذا الأخير المتطير الذى لا يرى إلا الشقاء ، ولا يشعر فى الزوجية إلا بشقاء، فذلك لأن الشعور بالثقة لم يخالط قلبه . ولو استطعت أن أفترض للسعادة أسباباً معينة ، لقلت إن الثقة هى أول تلك الاسباب.

صاحبان يحب أحدهما الآخر حباً عميقاً هادئاً، يحبه بملء القلب، يفرح بلقياه ذلك الفرح الذى لا يحتاج فى ظهوره إلا اللسان . كلاهما سعيد بصحبة الآخر، سعيد بالاعتداد به والاعتماد عليه، إلى ما لا نهاية له من فروض الاعتماد . لا شك عندى فى أن سعادتهما تلك مبناها الثقة .

شريكان فى تجارة ، شريكان اختيـــاراً لا اضطرارا ، يقومان بالعمل

الجريدة فى ٢٧ من ديسمبر سنة ١٩١٠ العدد ١١٥١

Digitized by Birzeit University Library

المشترك كما لو كان كلاهما يشتغل لنفسه فقط . هذان الشريكان أيضاً سعيدان خليقان بالوصول إلى غايتهما من الشركة . وما كانت هذه السعادة التجارية ، وذلك النجاح المالى ، إلا من الثقة .

الثقة فى كل مثل من هذه الأمثلة منبت للعدل فى الزوجية وفى الصحبة وفى الشركة . منبع للعطف والرحمة بين الزوجين ، واستدامة الصحبة بين الصاحبين ، ومناط للنجاح بين الشريكين . فمن البديهى أنى متى اعتقدت أنى لك ، وأنك لى ، أحببت طائعاً لا مكرهاً ، ألا أعمل لك مالا أعمله لنفسى ، وأن أخاف عليك كما أخاف على نفسى ، وهذا الشعور هو السبب فى دوام العلاقة بين العشيرين .

ليست الثقة أساسا للنجاح والسعادة فى المعاملة وفى الصحبة وفى الشركة الضيقة : شركة التجارة والصناعة والزراعة فقط ، بل هى أساس التقدم والنجاح فى إدارة الشركة الكبيرة ، شركة المنافع المتبادلة فى الوطن الواحد ، شركة الأمة

حلل الاستبداد القديم المتواصل فى نفوس الامم المستضعفة أربطة الثقة بمعناها العالى . ونجح الاستبداد فى ارتكاب هذه الجريمة حتى صارت تلك الامم أشبه بمجموع أفراد متحاربين ، لا عائلات مشتركة فى المنافع متضامنة فى الوجود ، شاعرة بذلك التضامن الذى هو قاعدة الجمعية المدنية قابلة الرقى إلى الكمال الممكن . ومع الأسف لا أتأخر عن القول بأن أمتنا المصرية قديمة المدنية لا تزال إلى الآن عليها شىء من طابع هذه الرذيلة القاتلة ، رذيلة سوء الظن وعدم الثقة بين الافراد .

يضمك مجلس يدور الكلام فيه على الوزارة وسقوط الوزارة ، فيقول قائل : ومن ذا الذى يصلح بعد هذه الوزارة لولاية أمورنا ؟ أصغ إلى أقوال جلسائك وانظر إلى حركاتهم التى تصحب أقوالهم ، تجد أنهم لا ثقة لهم فى رجل من رجالهم ، حتى الذى لم يعرف له فى الماضى سقطة معدودة عليه فى

Digitized by Birzeit University Library

زعمهم. هو فى نظرهم غير أهل للثقة أيضاً، لأنهم يقولون عنه إنه إذا ولى الوزارة تغيرت أخلاقه وفسدت مبادئه، ولم يعد بعد صالحاً لخدمة بلاده

ليس هذا فى المجالس فقط بل على صفحات الجرائد، فقلما وجد قلم يكتب عن رجل من رجالنا إلا بغاية التحفظ، هذا إن كان بالغاً منتهى الأدب فى التعبير. كذلك فى الدوائر الرسمية، تجد الوزير أو الموظف الكبير إذا عرض عليه اسم شاب من الشبان لينتقل من وظيفة صغيرة إلى وظيفة عالية باستحقاق، وجد فى نفسه استكبار لهذا الرقى السريع، ولا يُوَقِّع فى أمر الرقى الاستثنائى أو التعيين الفجائى، إلا وهو متظنن فى كفاءة الشاب المعروض الذى لا يعرف كفاءته بالذات، كأن الأصل عنده هو عدم الكفاءة، وأما الكفاءة فهى الاستثناء.

أقول بجرأة إن عدم ثقة المصرى بالمصرى دليل على احتقار المصرى للمصرى. أو بعبارة أخرى دليل على احتقار المصرى لنفسه. تلك هى كما قدمنا طبيعة من طبائع الاستبداد؛ ولكن أعجل إلى القول بأن هذه الرذيلة قد خفت وطأتها كثيراً عن ذى قبل، وأننا فى طريق الثقة بعضنا ببعض على وجه عام. لأن الأمثال الملعونة التى كنا نضربها لنفسنا وللناس، ونتخذها حكمة صالحة لأن تكون قواعد لسلوكنا فى الحياة، قد ماتت وقبرت مع السرور. مات المثل. (وإن كان ينفع من الخشب ماشه ينفع من الفلاح باشا) مات غضبة الله عليه، وصار «باشواتنا» كلهم فلاحين مات المثل (الفلاح لا أفلح) ولقد أفلح الفلاحون فى زراعتهم وفى سياسة أمتهم وقد خطوا بها إلى الأمام، إلى غير ذلك من أمثال الذل التى كنا نستقبلها من غيرنا بغاية الاطمئنان ونضربها أمثالا لأنفسنا بغاية الاعتقاد والاسراف. فنحن فى ذلك أيضاً إلى الأمام، ولكن القدر الذى وصلنا إليه من احترام أنفسنا واعتبار أن المصرى، الأصل فيه أنه شريف صادق ثابت على مبادئه متقدم لمصلحته نشيط فى عمله طامع دائماً فى استقلاله. الأصل فى كل مصرى ذلك، إلا أن يأتى برذيلة مبينة، تناقض صفة من تلك الصفات

Digitized by Birzeit University Library

المصرى للمصرى كفؤ، فمن الظلم ألا يثق أحدنا بأخيه ، ومن الغفلة أن يني رجالنا فى إنماء عاطفة الثقة بين المصريين

ليسمح لى أن أقول إنى خالطت بيئاتنا المختلفة، وأؤكد بعد هذه المخالطة أن شعور الثقة موجود بين الفلاحين من درجة الشغالين فى القرى، أكثر منه بين الأعيان أو بين المتعلمين . فليس على أحدنا من طلاب السعادة الشخصية والسعادة العامة، إلا أن يطرد عن نفسه وساوس السوء وألا يحكم على أخيه بالظن . متى اعتدنا ذلك اعتدنا الاعتماد بعضنا على بعض،وفى ذلك كل ما نرجوه من التقدم والاستقلال .

Digitized by Birzeit University Library

أفكار عامة

١

الاستقلال الذاتى

صبيان يلعبان فى الشارع ، يضع أحدهما فى فم الآخر أو فى عنقه خيطا كاللجام يشده إليه ثم يسوقه أمامه ليمثل الصبيان حال الفارس وفرسه . لعبة بريئة تنبه الجهاز الهضمى ، وتساعد النمو الطبيعى ، رياضة مألوفة ظاهرة الفائدة . ولكن للملاحظ الاخلاقى من بعض صور هذه اللعبة ، عبرة لا يجوز إغفالها ، وهى أنه إذا كان الصبيان يتناوبان بينهما دور الفارس ودور الفرس ، كان ذلك دليلا على العدل فى القسمة والاعتداد بمبدأ المساواة . ولكنك قد ترى أحد الصبيين يمثل الفارس دائماً ، والثانى يمثل الفرس دائماً . على أن الصبيين متحدان فى السن ، وفى المولد ، وفى الثروة ، وفى التربية ، ولكن أحدهما لا يرضى باللعب إلا إذا كان هو الفارس ، والثانى يرضى دائماً أن يكون هو الحصان . ذلك يدل على أن هذا الصبى الأخير ، هانت عليه نفسه ، فجعلها دائمة التعلق والمحكومية بنفس أخرى ، ذلك لان حب الاستقلال الذاتى والمحافظة على الشخصية ، ناقص فى نفسه .

ومن الشبان الأغنياء بحكم مولدهم من يرى وجوده ناقصا إلا أن يكمله بالتعارف بحاكم من الحكام أو عالم من العلماء أو بذى مرتبة أدبية واسم مشهور ، فيتطوع إلى التعلق به والانتساب إليه ، ووضع نفسه لاماله تحت تصرفه ، يستخدمها ذلك الحاكم الاختيارى فيما يشاء لما يشاء . ثم نجد صاحبنا يحشو حديثه العادى بالتحدث بمفاخر صاحبه ، وهو لا يعرف منه شيئا .

الجريدة فى ٣٠ من يناير سنة ١٩١١ العدد ١١٧١

Digitized by Birzeit University Library

ولكن لمناسبة ومن غير مناسبة، يذكر صاحبه الحاكم فلان، أو العالم فلان، ولو أنصف لسماه سيده بدل أن يسميه صاحبه، ينقاد إليه كما ينقاد الصبى الممثل للفرس، للصبى الممثل للفارس. ذلك لأن هذا الغنى قليل الاعتداد بنفسه، لا يعرف لها قدرا إلا باضافتها إلى صاحب يعرفه الناس ويحترمونه. هذا الغنى بماله، فقير فى شخصيته؛ بعيد عن أن يكون له حظ معلوم من الاستقلال الذاتى.

رجل من الأعيان ينتفخ فيضيق الفضاء عنه إذا نال رعاية من وزير أو أو تحية من أمير أو ابتسامة من قدير. كأنما هو قد نال بذلك السؤدد. ولقد غاب عنه أن القادر على الرفع قادر على الخفض، وأن السؤدد إذا جاء من رضا الحاكم ذهب بغضب الحاكم، فما عساها تكون قيمة ذلك السؤدد الذى ينقلب فى الحال مهانة وضعة، إذا انقلبت رعاية الوزير جفاء، وتحية الأمير إعراضاً وابتسامة القدير وجوما. بل ما هو هذا السؤدد الذى يرتفع وينخفض فى اليوم الواحد تبعا للظروف والأهواء، كأنما هو عرض ذو قيمة إسمية فى البورصة، يعلو وينزل فى النهار عشرات المرات. غفل مثل هذا الرجل عن هذا الاعتبار الجدى، فظن السؤدد فى تحيات الكبراء ورعايتهم، فتعلق بها وباع لها شخصيته ورأيه ونفسه، مخافة الضعة. والذى فعل هو الضعة بعينها. ولكن هذا الرجل فاقد إدراك الشخصية، قليل الاستقلال الذاتى.

فى هذه الامثلة الثلاثة: الصبى الممثل للفرس، يحب اللعب فتغلبه شهوته هذه على حب الاستقلال الذاتى. والشاب الغنى يحب نباهة الاسم فيقدر أسبابها تقديرا فاسدا، فيحصل نتيجته التى يبغيها على صورة متناسبة مع فساد الاسباب التى استعان بها. فتكون نهاية أمره أن يشتهر اسمه، ولكن بماذا؟ يشتهر بأنه من عباد غير الله. وذلك الرجل العين يحب السؤدد والجاه ونفوذ الكلمة بأن يكون مقربا لدى الأمراء. ولكنه يحصل من ذلك على اضطراب فى معيشته خوفا على سقوط جاهه الموهوم، ثم هو يبيع نفسه، أى يميتها

Digitized by Birzeit University Library

ويمحو شخصيتها ووجودها فى الحقيقة ، لأجل أن يصل إلى احيائها فى المجاز . تجارة خاسرة ، تجارة المرء بنفسه يبيع رقبتها ليكسب عرضا من أعراضها . إن الذى يوقع نفسه فى الرق الحقيق لقوته الضرورى المقوم للحياة ، عمله ممقوت ، ولكنه مع ذلك مفهوم أكثر من ذلك الذى يقع بنفسه فى الرق الاختيارى ، لا لينجو من الهلاك ، ولا ليحصل القوت الضرورى لوجوده المادى، ولكنه ليزين صدره بنيشان كم زينت به صدور ماوسعت رحمة ولا انطوت على نبل وشرف . أو ليزيد فى طول اسمه بلقب يجره وراءه ، أو ليقال عنه إنه من النبلاء . أراد ذلك، وغفل عن أن النبل لا يضاف إلا إلى نفس موجودة ، فاذا كان قد باع نفسه وأمات شخصيته ، فالى أى شيء يضيف ذلك النبل الموهوب أو الموهوم .

إنما النبل ماحزت به إرثا أو كسبا من الملكات ، وما قدمت يداك من الصالحات، لا مانلت من الرعايات والوسامات

ألا إن الاستهانة بالشخصية وقلة الاستقلال الذاتى فى الأمثلة المتقدمة، ضعف فى النفس مصدره فى بنى آدم عبادة البسالة ، وإن هذا الشعور الموافق لمزاج الجاهلية والفوضى ، يجب أن يموت فى حكم الدين والمدنية . يجب على الناس أن يحاربوا فى أنفسهم وفى أنفس غيرهم عبادة غير الله . يجب عليهم أن يقتلوا هذا الشعور الدنىء الذى هو أصل لجميع رذائل الضعف والمهانة . وأن يتمسك كل امرىء بشخصيته ويحافظ بكل قواه على استقلاله الذاتى، أن تعبث به سوافل الشهوات . اللهم إنا لانعبد الا أنت مخلصين لك الدين، فأعنا على ألا يعرف كل موظف منا الا مصلحة مصر رائدا له ، والا القانون طريقة لعمله ، والا ارضاء الواجب مكافأة على العمل . وأن يكون الفرد منا مستمسكا بشرف هذه النفس الطاهرة التى أودعتها فينا من نورك، لتستكمل فى هذا الوجود حظها من العمل بالحرية التى وهبتها أنت لاغيرك . وأن يحافظ على شخصيتها واستقلالها لا ان يدنس شرفها القدسى بتسخيرها إلى بعض خلقك واستعمال قواه فى غير ما اردت من عمارة العالم . إن الله بالناس لرءوف رحيم

Digitized by Birzeit University Library

أفكار عامة

٢

الحب والصداقة

يحب الرجل المرأة وتحب المرأة الرجل، من أول الخليقة إلى الآن . وقد حاول المفكرون فى كل زمان ومكان أن يقيدوا هذا الحب بضوابط معينة، وبحثوا عن مصدره الطبيعى فى النفوس واجتهدوا فى ترتيب درجاته، ووضعوا له الأسماء المختلفة فى كل تطوراته من الميل إلى الهيام . لكن الذى يهمنا إنما هو البحث فى هذه الظاهرة الطبيعية من حيث نتائجها الظاهرة بالنسبة لجمعيتنا الانسانية .

مهما اختلف الباحثون فى الحب، فان الاجماع واقع على أن هذا الشعور الطبيعى ما ركب فى الانسان إلا لحفظ النوع . وحاشا الطبيعة أن تتخذه للناس لهوا عقيم النتيجة أو زخرفاً لا يصح إلا للتفاخر، أو مصدراً جديداً للانصراف عن الأعمال النافعة، وشغلا شاغلا يحتوى حامله فيملك قلبه وعقله وملكاته ويشل قواه الوجودية، إلا عن الهوس بالفكرة فى المحبوب، والهجر والوصال، والنأى والقرب ؛ حاشا الطبيعة أن تقصر امرءا على عبادة شعور من المشاعر التى ركبتها فيه لمصلحتها لا لمصلحته . بل حاشا التربية الانسانية أن تجعل من الانسان آلة لا تصلح إلا للغرام .

على ذلك يتحقق غرض الطبيعة بأقل أقدار الحب وهو الميل أو الرغبة العادية التى لا يمنع وجودها من وجود الملكات الأخرى بجانبها سليمة،

الجريدة فى ٣١ من ينايرسنة ١٩١١ - العدد ١١٨٠

Digitized by Birzeit University Library

تؤدى كل منها عملها المنوط بها طبعاً . والحمد لله على أن ذلك هو الواقع فى العالم ، وأن أمثال مجنون ليلى نادرون ، بل هم أناس مرضى أصابهم التشوه فى أمزجتهم، فنبوا فى سلوكهم عن سير الانسان السليم

لا أنكر أن الحب فى درجاته العالية قد يكون ظرفا لظهور الرجل بما فيه من الاستعداد الكبير لصفات العفاف والنبل والبسالة ، كما تكون ساحة القتال ظرفا تظهر فيه صفات الابطال ، وكثيراً ما كان الحب من جانب المرأة مظهراً لفضيلة الاخلاص ، والتضحية غير العادية ، وعلى ذلك لا أرى بأساً من الحب فى أرفع مظاهره ، وفوق ما تريده الطبيعة . لا أرى منه بأساً إذا كان فى بعض الأفراد ، والضرر كل الضرر أن يكون الحب بمراتبه الشعرية من الشغف والغرام والهيام إحساساً عاما لأمة من الأمم أو قبيل من الناس ، ذلك لأن التجارب متفقة مع المعقولات البحتة فى أن أصل الحب فى الانسان هو حب الذات ، أى الأنانية والاختصاص ، فكلما زاد الحب زادت معه مظاهر الأثرة والأنانية إلى حد أن كلا المحبين يريد بكل قواه أن يمحو شخصية محبوبه من الوجود فيطمع فى ألا ينظر إلا بعينه ، ولا يسمع إلا بأذنه ، ولا يفكر إلا بدماغه ، ولا يطعم إلا ما يحب هو أن يطعمه . ولكن هذا طمع فى غير مطمع ، بل جنون وهوس لا محقق له من الطبع ، ولئن تحقق فانه إماتة معنوية بوجه ما لكلا المحبين ، وليس من مصلحة المجاميع أن تتكرر فيها مثل هذه الصور المريضة المضرة ، بل ليس من المصلحة أن يتألف مجموع ما من أناس شخصيتهم فانية فى غيرهم، أو استقلالهم الذاتى قليل أو معدوم . بل من مصلحة المجاميع فى أن يكون كل فرد داخل فى تأليفها مستكملا شخصيته التامة مستوفيا قسطه من الاستقلال الذاتى الذى هو أصل من أصول الرقى والنجاح .

على هذا الاعتبار أكاد أتمنى أن يكون عندى هنا قلم مطبوعات ، أى سلطة غير محدودة كقلم مطبوعات الحكومة ، ليضع كتاب القصص ومعربى

Digitized by Birzeit University Library

القصص تحت المراقبة ، حتى لا يضيفوا إلى التشويه الطبيعى فى الأمزجة تشويها آخر صناعياً ، فان الكاتب قد يكون ضعيف الأعصاب بالاجهاد الشخصى أو بحكم الوراثة . هائج المجموع العصبى من جراء المعيشة المدنيـة ، والاسرافات المتنوعة من شرب الكحول ، ومن السهر بل من البيئة المدنية المصفاة التى لاتكاد تفيق من اللهو واللعب . قد يكون الكاتب كما وصفنا فيجرد من شخصه المريض بطلا لروايته الغرامية

ولا شك فى أن أغلب الفتيـــان أو الفتيات فى سن معلومة تسحرهم القصة، فتسرى إليهم العدوى المعنوية من أخلاق أبطال الروايات إذا قرأوها فى خلواتهم أو شهدوها تمثل على المراسح ، فتكرر فى الجمعية بتلك الصورة المريضة ، ويفشو فى الناس التشوه الذى هو فى الطبيعة قليل المثال . بذلك يكثر فى الناس أمثال عطيل فى غيرته الطائشة ، ولا يرضى الفتى من خطيبته إلا تضحية (جوليت) . . . . الخ الخ . وما أغنى الانسانية وهى أحوج إلى الأعمال المنتجة فى سعادتها ورفاهتها عن اكثار عدد المرضى قليلى العمل كثيرى الهوس والخيالات العقيمة ، وكأنى بقلم المطبـــوعات الخيالى هو أيضاً يتفق مع الدكتور (نوردو) فى تفضيل الكاتب القروى صحيح العقل صحيح الأعصاب، يكتب عن بنى آدم ما يراه فى عيشة الفلاحين من الحب المعتدل البرىء الذى يبرره الطبع ولا يأباه العمل لمصلحة العمران، فان الحب من حيث كونه من المحرضات على عظائم الأمور ، خليق ببعض الأفراد أولى الاستعداد الخاص لاظهار الفضيلة فى أعلى مظاهرها ، ولكنه بصورته المتقدمة، ليس نافعاً فى المجاميع .

وهناك شعور آخر يأتى دائما بجانب الحب وهو أبرأ منه طبعاً وأعظم فى الوجود أثراً وإن كان ليس أقل من الحب كلفة . وذلك هو احساس الصداقة احساسا يشتبه كثيراً فى أصله وفى مظاهره بأحساس الحب ولعله بعضه، ولكن نتائجه كلها كانت وتكون سعداً على الفرد، سعداً على الجماعة، سعداً على كل الوجود .

Digitized by Birzeit University Library

نحن بنى آدم بطبعنا جماعات وبتطورنا جماعات، فللجمعية فينا وجود حقيق كوجود الفرد، لا اعتبارى كما يظن بعض المتفلسفين. جمعيتنا عمل من أعمال الطبيعة، كما أن وجود الفرد عمل من أعمال الطبيعة، لا شبهة فيه. لذلك جربنا فى الماضى ونجرب الآن وسنجرب فى المستقبل، أنه كلما كان الارتباط بين الجماعة قوياً بالمشابهات بين الأفراد، كانت الأمة قادرة على حالها غالبة على أمرها مالكة طريقها إلى الترقى تخطو فيه خطوات واسعات. وكلما تسرب الضعف لروابط الجماعة واتسعت بين الأفراد دائرة الفروق، تحللت عزائمهم وخارت قواهم ورجعوا القهقرى بغير نظام من ساحة المزاحمة فى الحياة، وتبدل غنمهم غرماً وأصبحوا أذلاء يؤكلون ولا يأكلون. كذلك سنة الله، لا حق فى الوجود إلا للقوى. ولا قوة إلا باستكمال العدد الطبيعية وأولها تضافر الجماعة.

إن إحساس الصداقة هو النواة التى تتكون حولها الجماعة إذ الأصل فى الصداقة الثقة المتبادلة بين الصديقين، وشيوع هذا الأصل فى الأمة أظهر، البشائر لاتساع دائرة المشابهات بين الأفراد وضيق دائرة الفروق. أكبر العوامل على تأليف الأمة من الجماعات القوية القادرة على العمل.

إن احساس الصداقة أساس للتفاهم فى المنافع المشتركة، وكلما كان التفاهم بين الأفراد سريعا سهل المنال خالصاً من الشبه، سهل تأليف الشركات. فان العمل يدلنا على أن المشروعات الخطيرة، إنما تولدت فى دائرة ضيقة بين جماعة من الأصدقاء كسبوا بثباتهم وتضامنهم ثقة الجماهير، فنجحت مشروعاتهم. ولست أتخيل أنى أعرف مشروعا كان الاتفاق على القيام به بين عدوين أو بين اثنين فاترى العلاقة أو بين غير صديقين. هذا مالا نعلمه إلى الآن، فانه مهما كان أساس المشاريع المفيدة هو اتحاد المنفعة، فان الاتفاق على المنفعة وتقدير نتائجها والارتباط بتحصيلها أقرب ما يكون بين صديقين، بل هو عسير أو متعذر بين غير الاصدقاء.

Digitized by Birzeit University Library

إذا كان التضامن القومى يكون فى البيئات المختلفة بالتعارف المجرد، فمن المعقول أن أكمل مايكون هذا التضامن بين الاصدقاء.

أدعو إلى الصداقة لا من حيث نتائجها المفيدة فيما تحاول من الرقى الاجتماعى والاقتصادى والسياسى أيضاً. ولكنى أشعر بأن فيها للفرد سعادة لاتعدلها سعادة. أدعو إلى صداقة الرجل بالرجل، صداقة بمعنى الكلمة، لاهذه الصداقة المزورة التى لا أتأخر عن أن أسميها طريقة من طرق النصب، أو كذبة من الأكاذيب، التى يظنها البله سياسة، وما فيها من رائحة السياسة إلا ما يكون بين النقيض والنقيض.

ليست الصداقة بشاً فى الوجه عند المقابلة، وإكثارا من تحيات «أوحشتنا» و «وشرفتنا» و «زارنا الغيث» وليست كذلك عناقا عند اللقاء بعد الغيبة، ولا إطراء فى الوجه أو بظهر الغيب، أمام رجل ينقل المجالس. ليست الصداقة فى ذلك، ولا فى توجه وقتى من توجهات النفس ساعة صفاء لا يلبث أن يمحى أثره متى انفض مجلس اللهو، أو متى ذهبت الفرصة السعيدة لرضى أحد الصاحبين عن الآخر، أو عن حديثه رضى وقتياً. إنما الصداقة نفس صادقة صحيحة تعرف أن تحب حباً هادئاً عميقاً، تعرف أن تكون محلا لثقة الغير، وتعتقد فى ثقة الغير

والصداقة بين النفوس التى تروض نفسها على معرفة الوفاء وإتيانه بقدر ما تستطيع. وإنى لأشعر أن من يؤتى غيره صداقة، يؤتيه شيئاً كبيرا ونفعا كثيرا. وإن الشعور بالصداقة يوثق حزام الصديق، ويشد من عزيمته، ويحبب له البقاء فى هذه الحياة، ولو كانت فى عينه موطن المكاره والأرزاء، فمالنا نتراخى فى حقوق الصداقة، والصداقة ائتلاف: (المؤمن آلف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف، وخير الناس أنفعهم للناس)

Digitized by Birzeit University Library

أفكار عامة

٣

التفاؤل بالخير

أف من هذه الحال ، ما أصبر المتفائلين ، كأنهم عما يحيط بهم عمون . كأنما هم يظنون أن رقى البلاد تكفى فيه الأمانى المجردة . أو أنه نتيجة من نتائج الصدفة ، لا نتيجة لازمة لمقدمات عملية من أنواع شتى . يظلون متفائلين بالخير منتظرين أنواع الرقى ، تدخل عليهم من الأبواب كالباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه . يعترفون بأن الحال الاخلاقية عندنا فى اضطراب شديد ، بل فى انحطاط مستمر ، لا مقطوع ولا ممنوع . يعترفون بأن الروابط العائلية بين أفراد العائلة الواحدة تتراخى وتوشك ان تنحل . يعترفون أن الروابط الاجتماعية بين الصديقين وبين الشريكين وبين الجارين وبين المصريين، قد انقلبت فى موضوعها وفى لونها . فموضوعها الشر لا الخير ، والمفسدة لا المصلحة ، ولونها الملق والنفاق ، يعترفون بأن حكامنا كأنهم أغراب عنا وهم أبناؤنا الأعزاء . همهم الخروج من المسئولية لا احتمال المسئولية ، ودفع الضرر عن أنفسهم لا جلب المنفعة لنا . يعترفون بأن الحكومة فى شكلها الحاضر كأنما هى لمصلحة الحكام لا لمصلحة المحكومين ، يعترفون بأن التعليم الذى تقوم به الحكومة بأموالنا لم يخرج لنا جيلا يقوم من اعوجاجنا ويصلح ماأفسد الاستبداد من أخلاقنا . ويفتش عن مواطن الضعف فى جمعيتنا فيقويه ؛ يحمل همنا ويكسب ثقتنا ، فيجعل من مصر وطنا عزيز الجانب بارا بأبنائه ، سائرا إلى الأمام لا راجعا إلى الوراء . يعترفون بأن أبناءنا المتعلمين نحن نطعمهم ونحترمهم وهم فى مقابلة ذلك يدفعون لنا وعودا

الجريدة فى أول فبراير سنة ١٩١١ العدد ١٨١١

Digitized by Birzeit University Library

بأنهم عاملون على خيرنا، ولكننا مع ذلك لانجد منهم امرءا فضل الاستقالة من وظيفته على أن يمضى أمرا يقول هو عنه فى مجالسه إنه ضار بالبلاد. فكأننا من يوم المرحوم شريف باشا، ننزل فى درجات التأخر فى الوطنية، بدل أن نرقى على درجات التقدم بفضل هذا الجيل الجديد المتعلم. يعترفون بذلك كله، ولكنهم مع ذلك على تفاؤلهم عاكفون. ينكرون الحس: ينكرون بأفواههم ما تعترف به ضمائرهم. بل هم يعترفون بحالنا السيئة وهم صادقون. ثم يزين لهم مذهب التفاؤل أننا على الرغم من ذلك كله سائرون إلى الأمام. فما أصبرهم على التناقض فى أفكارهم وأحكامهم. ألا ساء ما يحكمون.

كذلك يقول المتطيرون. أما المتفائلون فأنهم يقدرون الحال تقديرا لا تشوبه الحدة ولا تبالغ فيه العجلة فى النظر. يرون حقيقة أن الروابط الاجتماعية تتفكك شيئاً فشيئا. وأن عاداتنا وأخلاقنا، بل مشخصاتنا القومية جميعها، قد قل فيها التجانس وكثر فيها التضاد والتصادم. يرون حقيقة أن قوتنا فى بلادنا تتضاءل مع الزمان، حتى أن وزارتنا التى هى مظهر القدرة الأهلية فى مصر، لا تشبه وزارات شريف ورياض ونوبار من حيث كونها تملك شيئاً من السلطة تستخدمه لمصلحتنا. يرون كل ذلك، ولكنهم يرون معه أن هذا الاضطراب دليل على الانتقال، ومن المستحيل عندهم أن يكون الانتقال إلى حال أقبح من الحال الحاضرة، بل الانتقال صائر إلى حالة أحسن من هذه الحال. لأن مشخصاتنا القديمة مع كونها كانت متجانسة ومتماسكة، إلا أنها فى الحقيقة كانت مظهراً لطبائع الاستبداد القديم الطويل، فاضطرابها وتغيرها وانعدام الاستبداد على صورته الأولى، سبب قوى يحمل على الاعتقاد بأنها بعد زمان قريب أو بعيد، يتم انتقالها من الحال التعيسة، حال طبائع الاستبداد إلى الحال الحسنى، حال طبائع الحرية.

وهناك يمكننا أن ننادى أن مصر العجوز قد صارت مصر الفتاة. وأن مصر المحكومة صارت مصر الحاكمة. وما هؤلاء المتطيرون إلا ضيقو

Digitized by Birzeit University Library

الصدور قليلو الصبر . يتطيرون من الخير ومن الشر على السواء . ألا إنما طائرهم عند الله ، ولكن أكثرهم لا يعلمون . وعندنا أن التطير أو التشاؤم بمعناه الجديد فى لغتنا، أى باعتباره مذهباً من المذاهب يطبقه أصحابه بطريقة مطردة، بمعنى أن هذا العالم شر ، وأنه صائر إلى شر مما هو فيه، بهذا الاعتبار نراه مذهباً فاسداً لا يؤكد الطبع موجبه . بل لا مصلحة لأحد فى العالم منه ، لأنه يهدم كل سعادة من السعادات الشخصية أو العامة . بل يسمم الأمل الصحيح الذى هو أصل لحب العيش . أصل للعمل فى الحياة

إنما هو يدل على أن أصحابه لا ينظرون الى هذا العالم الا من جهة واحدة ولا يكلفون أنفسهم النظر إليه فى مجموعه أى من جميع جهاته . وعلى ظن أن الذى حدا بهم إلى هذا المذهب أنهم يرون مايسمونه الشر يتغلب على مايسمونه الخير . يرون الشرير يفتك بالرجل الخير ويقدر عليه . يرون الأمة الطامعة تأكل الأمة القانعة ، ولا مخلص للثانية من الأولى فى كثير من الأحيان، يرون ذلك فيخدعهم هذا النظر السطحى، ويحبون أن تفكر الطبيعة بعقولهم أو أن تستشيرهم قبل أن تمضى أمراً من الأمور . ونسوا أن الطبيعة تسير على نظام كامل ماوصلت عقولنا إلى معرفة كنهه . إنما هى تسير فى طريقها جاهلة قواعدنا التى ما كفانا أن نحكم بصحتها متعسفين ، بل أردنا أن يكون ماوضعناه ملزماً لهذا الكون العظيم الذى لا يكاد لا يحس بنا ونحن بعض أنواع المخلوقات ، ندب على ظهر أحد أجرامه الصغرى التى لا عدد لها . تباركت اللهم ! إنه لا يقع فى هذا العالم إلا ما أردت أنت من غير التفات إلى مايريده المتطيرون".

وعندنا أن فساد هذا المذهب من حيث هو مذهب ، لا يمنعنا من تقدير النتائج اللازمة للمقدمات التى نعرفها بالعلم وبالتجربة ، كما لا يمنعنا من الاعتراف بأن ماهو واقع فى بلدنا هذا من الفساد فى الخلق أو فى النظامات ، موجب للأسف، موجب للتغيير، ولكنه غير موجب فى أية حال من الأحوال الى

Digitized by Birzeit University Library

هـذا اليأس غير المفهوم ، فان الذى يئس من صلاحنا كالذى يحارب وسائل الاصلاح .

ألا إن كل عمل من الأعمال محتاج بالبداهة لزمن يقع ويتم فيه . وإذا كان إصلاح الفرد الواحد بالتربية والتعليم ليصير عاملا منتجاً ، محتاج لعشر أو عشرين أو عشرات من السنين ، فمن المعقول أن إصلاح الأمة التى أفسد الاستبداد عليها كثيراً من حالها لا يكون إلا فى أكثر من ذلك . وإن هذا الاضطراب الذى نراه فى كل بيئة من البيئات ، بل فى أخلاق الفرد الواحد ، إنما هو بشير الانتقال من حال عتيقة جامدة إلى حال خير منها . وإن القانون الذى تسير عليه الظواهر المادية هو بعينه القانون الذى تسير عليه الظواهر الطبيعية المعنوية ، كالاخلاقية والاجتماعية والسياسية . ولاشك فى أن المادة عند انتقالها من حال إلى حال أخرى يحصل اضطراب فى كتلتها وفساد فى صورتها . كذلك الأمة عندما تتحرك للانتقال من الاستبداد إلى الحرية ومن الجهل إلى العلم ، ومن الجمود إلى التقدم ، يحصل فيها مثل هذا الاضطراب الذى يجب أن نعتبره سعداً ولا نتطير به ، بل هو فأل حسن على الخير والصلاح .

Digitized by Birzeit University Library

أفكار عامة

٤

سعادة النساء

بشارع قصر النيل دكان اسمه أو عنوانه « سعادة النساء » اتخذناه عنوانا لهذه المقالة طمعا فى أن هـذا العنوان يلفت أنظار السيدات لقراءتها ، كما يلفتهن عنوان ذلك الدكان . وإن كان القياس جائيا على الفارق، لأن فى ذلك الدكان من عروض الزينة ما تسر به النساء، وإن كان سرورهن بتلك العروض وقتيا، إلا أنه سرور فى الجملة . أما هذه المقالة فليس فيها إلا نصح والنصح مر المذاق . لذلك نستغفرهن مما عساه لا يطابق أذواقهن المصفاة بمصفاة المودة ، أو يضايق رغبتهن فى الاسراف التى دعا إليها الغلو فى حب الزينة. نستغفرهن ونستغفر معهم متاجر الجواهر والدانتلا والفرش والآنية وأمتعة الزخرف، تلك البيوت العظيمة القائمة على الزينة تقصدها النساء أو الرجال مدفوعين بأوامرهن، يبتاعون منها الزينة للسيدات ، تثقل بها أعناقهن وآذانهن وتسور بها سواعدهن . وزينة لملابسهن ترفل فى فضله . وزينة لبيوتهن قليل منها يستعمل، وأغلاها ثمنا يرصف فى الحجرات وفى أركانها لا عمل له، فهل هن مع ذلك سعيدات .

كلا انهن متفقات معنا فى أن السعادة لا تكون بعقد ثمنه ألف ولا بسوار ثمنه خمسمائة، ولا بقرطين كبيرين من أكرم الحجارة يضيئان فى شحمتى الأذنين ، كذلك ليست السعادة فى أثواب غالية ، واسعة الجيوب مجرجرة الأذيال . وليست السعادة فى نفاسة البسط ولا فى إحراز كثير من الطرف

الجريدة فى ٤ من فبراير سنة ١٩١١ العدد ١١٨٣

Digitized by Birzeit University Library

التى توضع للزينة على منابر الجوز والصياهير . ولا فى استعمال الآنية من الذهب والفضة . هن متفقات على أن السعادة شيء آخر غير كل ذلك .

إذا كانت هذه الـكماليات التى هى الآن فى البيوت أكثر عددا من قضايا نزع الملكية فى المحاكم . إذا كانت لاتجلب خيرا ولا تدفع شرا ، ولا تسمن ولا تغنى من جوع ، وليست من أسباب السعادة باتفاق الأشقياء والسعداء ، ففيم إذن هى نافعة وماوجه الغلو فى اقتنائها ؟

نحن لاننكر على المرأة حب الزينة ، ولاننكره أن تنشأ فى الحلية والعيش الناعم . ولـكن ماننكره هو الاسراف والخروج فى شراء أدوات الزينة عن حد قدرتها المالية . نقول ذلك ونحن فى مأمن من أن ترفع علينا أمثال هذه الدعوى التى رفعتها إحدى السيدات فى انكلترا على حميها ، لأننا نعتقد أن كل سيدة عندنا تظن أننا نعنى غيرها بوصف المسرفة . وذلك أمر طبيعى ، لأنها لو علمت أن ماهى فيه إسراف ، لخرجت منه بسهولة تعادل خروجها عن طاقة وليها المالية فى أوامرها النافذة . كل سيدة تعلم أن الاسراف رذيلة ، ولـكن الصعوبة هى فى أقناعها بان ماهى فيه إسراف . نكاد نعلم أن السيدة الغارقة فى الحلى إذا خاطبتها كان أول ماتلقيه عليك أنها تـكره الغلو فى الحلى وتميل إلى التواضع فيه كأنما هى تريد أن تظهر أن فى قدرتها أن يكون لها أكثر من ذلك ، ولـكن نفسها قانعة تعاف مافوق الضرورى من زينة متفقة مع الذوق الجميل . متفقة مع مركزها من الثروة .

يصعب علينا نحن أيضاً أن نضع حداً للاسراف الذى تأتيه السيدات فى بلادنا لأن هـذا الحد يختلف باختلاف سن السيدة ومقدار التسامح معها فيما عندها له ضعف من الزينة ، وباختلاف البيئة التى تعيش فيها ، والمدينة أو القرية التى تسكنها وقدرة زوجها على أن يكون لديه من المال فضل يسع الاحتياطى والصدقات والمشروعات الخيرية ، ويسع بعد ذلك كله شراء الزينة لزوجته . فمن الصعب وضع حد مرسوم للاسراف ، ولـكن من السهل

Digitized by Birzeit University Library

احصاء، بيوت التجارة الخاصة بالزينة ومقدار ماتبيعه فى كل عام بالنسبة لمواد الغذاء والملبس العادى المعروف . إذا فعلنا ذلك حكمنا من غير تردد أن سيداتنا مسرفات . وعليه يكون إسرافهن من أسباب الضائقة المالية لكثير من البيوت التى يزيد مصروفها على إيرادها سنة عن سنة .

السيدات الرفيعات المولد يقلن إن الرجال يقامرون وما يخسره أحدهم فى الليلة قد يفضل إسراف زوجته عامين . ذلك صحيح . ولكننا لا نتكلم الآن عن الرذائل المغلظة بل عن رذيلة الاسراف الخفيفة التى مهما كبر أمرها هى أشرف جداً من المقامرة . نحن نتكلم عن السيدات العاقلات لا عن الرجال المجانين .

كان النساء قبل هذا القرن ، ومن زمان بعيد ، يبالغن فى الزينة إلى مافوق الاسراف ، وكن معذورات فى ذلك لأنهن كن يتزين للرجال ولم يكن لهن من الهم مايلوى بهن عن ذلك . فما عذرهن الآن وقد قمن يطالبن بالمساواة بينهن وبين الرجال فيما يقدرن عليه من واجبات الحياة الثقيلة . تلك المطالبة وحدها تشف عن أن المرأة الحديثة قد أنفت موطنها الماضى ، فلتأنف معه أيضاً أن تستعمل ذلك السلاح القديم ، سلاح تسخير الرجل لزينتها . لأنها كان يبين عليها فى الزمن الماضى أنها رضيت بأخس الحالين لتملك أعظم النصيبين، رضيت بأن تكون سلبية الارادة ظاهراً لتملك إرادة الرجل، وليأتى هواها على آخر درهم فى جيبه غير مبالية بما يكون بعد فقره ، لأنها لا إرادة لها — كما يزعمون — ومن لا إرادة له غير مسئول عن نتائج عمله . كانت مظلومة لا بشريعة ولا بقانون ، ولكن بقوة الرجل، فاضطرها ذلك بواجب الدفاع عن نفسها أن تملك الرجل من جهته الضعيفة. فتكثر من المطالب وهو فى عزته وفى حجبها عن معرفة شؤونه ، لا يستطيع أن يظهر لها إفلاسه ، بل لعله كان يغررها ويزعم وهو معدم أنه (لابن فى الصيف تامر) كان للمرأة وقتئذ عذر من بعض الوجوه فى الاسراف وتكليف الرجل مالا يطيق .

Digitized by Birzeit University Library

فما عذرها الآن وقد أصبحت تطلب العدل ، وطالب العدل لا يظلم . وتطلب المساواة وطالب المساواة بلسانه لا ينقضها بعمله في الانفاق ؟ لأن ما ينفق الآن على المرأة في الطبقة الوسطى والطبقة العالية ، يفوق أضعافاً كثيرة ما ينفقه الرجل على نفسه .

الواقع أن السيدات يسرفن في إحراج أزواجهن بمناسبة الأفراح والأعياد ، بل بمناسبة المآتم أيضاً . يسرفن في اقتناء الزينة بأكثر مما تسمح به قدرة أوليائهن المالية ، يسرفن في مجاوزة حدود القصد . يسرفن في كل ذلك حتى أن كثيراً من الشبان ذوي الحال الرقيقة لا يستطيعون الاقدام على الزواج ، ويخافون إن هم قتروا سقطت مراتبهم في أعين زوجاتهم ! وإن هم طاوعوهن على مطالبهن التي لا تحصى ، أفلسوا وضاقت عنهم حالهم ووظائفهم ، وتلك حال يجب أن تلفت النظر بأكثر مما يلفته عنوان (سعادة النساء) .

بعيد علينا أن ندعو الرجال ليضاروا النساء أو ليضيقوا عليهن ، فذلك ما نأباه على كل الرجال ، ولكنا لا نسمع في المجالس من الرجال إلا شاكياً ، ولا نرى لما فوق الكمال من الزينة كل يوم إلا رواجاً ، ولا نجد من الشبان إلا خائفاً وجلا من مصاريف الزوجية . ولا شك في أن هذه الحال تستدعي النصيحة لا الجدال . نصيحة نرفعها لمن يتدبر من النساء ومن الرجال على السواء . فان عاقبة الاقتصاد أدنى إلى تحقيق سعادة النساء

Digitized by Birzeit University Library

أفكار عامة

٥

عبادة البسالة

الناس يعبدون الله تعالى من أول الخليقة ، يرجون رحمته ويخافون عذابه. ولكن إحساس العبادة فى ذاته قد يرقى وينحط تبعاً لمستوى الادراك والتربية فى نفوس العابدين . قد يرقى الشعور بالحاجة إلى عبادة الله حتى يصير حباً وإخلاصاً وفناء لنفس العابد فى حب المعبود .

وذلك من أرقى المقامات لا يناله إلا من تجردت نفسه عن الكونيات الفاسدة إلى التشبث بالمبادىء العالية ، كما كان عليه الخوارج فى بعض خروجهم على الملوك يبتغون رضى الله بتحقيق مبادىء العدل والأخاء والمساواة ، فان الواحد منهم كان يأتى إلى ساحة القتال يعقر حصانه ويكسر جفير سيفه ويحفر لرجليه فى التراب يدفنهما حتى لا يتمكن من الفرار ثم يقول بعد ذلك وهو يقاتل على هذه الحال : « وعجلت إليك رب لترضى » . مثل حسى على الفناء فى تحقيق ما أمر الله به أن يحقق من المبادىء النافعة لبنى آدم فى دينهم ودنياهم . ولقد ينحط شعور العبادة وينمسخ فيتحول عن طبيعته الأولى الشريفة إلى طبيعة غير لائقة بالعقل الانسانى : ينحط حتى يجعل النفس مستعدة لعبادة كل عمل عظيم والفناء فى كل كبير ، ولذكر الله أكبر لو كانوا يعلمون .

تسحر العوام قدرة بطل من أبطال الحرب فتعنو له وجوههم ويشعرون

الجريدة فى ٨ من فبراير سنة ١٩١١ العدد ١١٨٧

Digitized by Birzeit University Library

نحوه بشعور يفسر فى أعمالهم الظاهرة بأنه العبادة بعينها . إنهم بذلك يشركون بالله أرباباً جددا وهم لا يشعرون . تأخذهم عزة ظالم من الظلمة فيكبرونه ويقدسونه ويعينونه على ما هو فيه . بل هم يتزلفون له يرجون رحمته ويخافون عقابه . ذلك بأن الضعف قد ملك نفوسهم وأفسد الجهل عليهم نظرهم فى الأشياء، حتى يصبح تقديرهم لها تقديراً فاسداً .

يرون الأعمال الكبيرة فلا يلحظون فى تقديرها أى معنى من المعانى . لا يلحظون أسبابها ولا نتائجها كأنهم لا يرون منها إلا الجهة المادية .

تنجذب قلوبهم لأعمال الفتك والظلم ولو كانت واقعة عليهم بشرط أن يكون الفتك عظيما هائلا والظلم شنيعاً كبيرا .

أضرب لذلك مع الأسف مثل مؤلفى الأغانى وملحنيها وضاربيها ومغنيها وسامعيها فى الحفلات العمومية فى عهد الفرنساويين فى مصر . فمن تلك الأغانى مقطوعات الاطراء على نابليون والتودد إليه والإعجاب به هو وجيشه، وإظهار التلذذ الكاذب بفتك العساكر الفاتحة بالغز وبالعرب ومن تلك المقطوعات التى كان يغنيها « الآلاتية » المصريون فى الحفلات المصرية على أثر الفتح :

(١) ما أحسنك يافرط الرمان (بارتلمى)
لما تنادى بالأمان
وفى يدك ماسك الفرمان
تبقى الرعية قلبها فرحان
يا سلام

(٢) أوحشتنا يا جننار
يا جميل يا راخى العذار
وسيفك فى مصر دار

Digitized by Birzeit University Library

على الغز وعلى العربان
يا سلام

(٣) أوحشتنا يا جمهور
يا جميل يا راخى الشعور
من يوم جيت مصر فيها نور
زى قنديل من بلور
يا سلام

(٤) يا جمهور عسكرك داير فرحان
فى قطع الغز والعربان
يا سلام بونابارته
يا سلام لك السلام
يا سلام

فانظر كيف أن عبادة البسالة أفسدت على العوام شعورهم الطبيعى، أفسدت عليهم حب بلادهم. أفسدت عليهم تقديرهم للحوادث الواقعة تحت نظرهم، حتى سمحوا لأنفسهم أن يغنوا بمثل هذه المقطوعات. فنوا فى عبادة البسالة حتى نسوا أن الغز والعرب إخوانهم، بل المدافعون عنهم وقتئذ، وأخذوا يترنمون بذكر انهزامهم أمام الجيش الفاتح. رأوا عظمة القائد بونابرت، وشجاعته، وانتصاره عليهم ففنوا فى الاعجاب ببسالة الرجل وجيشه، ونسوا أن الحامل لهذا الجيش على الفتح هو الطمع فى حق الغير، وما كان الطمع فضيلة تستحق الثناء، وغفلوا عن أن عمله من أوله إلى آخره هضم لحق الضعيف واعتداء عليه، وما كان لأحد أن يمدح على الاعتداء على الغير. نسوا كل ذلك، ونسوا أن المعتدى عليه فى ذلك هم هم المغنون والسامعون

ذاتكم طرفان للعبادة: الطرف العالى جداً هو مقام الغناء فى عبادة الله مثله

Digitized by Birzeit University Library

فناء الخوارج فى حب مذهبهم ، والطرف السافل جداً الغناء فى عبادة البسالة، ومثله أولئك الذين سحرتهم البسالة عن الالتفات إلى الواجبات الوطنية بل إلى أنفسهم . وإلى ما هم فيه .

لعبادة البسالة أمثلة كثيرة قد تكون أقل سفالة من المثل المتقدم، ولكنها مع ذلك ليست أقل منه ظهوراً وتأثيراً فى إفساد أخلاق الافراد والشعوب

من تلك الأمثلة حب الحكومة الأوتوقراطية والرضى ببقائها ، لأن الحكومة الأوتوقراطية أساسها — كما يقول علماء السياسة — عبادة البسالة ، أى أخلاق الذل والضعف فى نفوس المحكومين ، ومظاهر هذه الأخلاق الفاسدة كثيرة فى ظل تلك الحكومات أبسطها الاسراف فى التعبير عن الحاكم بالسيد ، وعن المحكوم بالعبد ، وقلما تجد شكاية يرفعها فرد من أفراد الأمة المحكومة بالحكومة الاستبدادية إلا مصدرة بألفاظ العبودية صريحة أو مؤولة ، مختومة بألفاظ العبودية الصريحة . وبعيد أن يكون استعمال هذه الألفاظ من باب الأدب المجرد ، أو على طريق المجاز فان ألفاظ « العابد ، والمعبود ، والعبودية » إنما كانت تقال فى الحكومات الأوتوقراطية على طريق الحقيقة المجاز، لا يفهم منها الحاكم أنه معبود حقيقة، ويفهم منها الفرد من الرعية أنه عابد حقيقة ، وأن الرابطة بين الرعية والراعى هى العابدية والمعبودية ، وليس هذا المعنى غريباً عنا فى مصر فانه كان شائعاً إلى عهد قريب ، ومن المحتمل أن تكون آثاره موجودة إلى الآن على صورتها الأولى أو على أشكال أخرى لا تقل عن الشكل الأول فى إفادة الذل والضعة .

على ذلك ليس من الغريب أن نرى رجلا لا تسعد له حال ، ولا يرتاح له ضمير ، ولا يهنأ له عيش ، إلا اذا غمره حاكم الجهة التى هو فيها بفضل من رضاه عنه أو اختصاصه له لا لتحقيق منفعة يبتغيها ، ولا لتأييد مبدأ يسعى إلى تاييده ، ولا لشىء أصلا إلا ليكون مرضياً عنه من الحاكم رضى مجرداً . شأن العبد لا يرتاح باله ، إلا اذا قربه سيده عن غيره من البعيد واستخلصه لخدمته .

Digitized by Birzeit University Library

قد يحب البسالة الرجل الباسل كبير الهم ، يحبها فى نفسه، وفى غيره ، فمن المستحيل أن يكون الغرض من هذا المقال الحط من كرامة البسالة أو الاستهانة بعظائم الأعمال ، متى كانت أسبابها ونتائجها مشروعة عظيمة كذلك . ولكن الذى نحاول التنبيه عليه إنما هو تلك الرذيلة الشنعاء ، رذيلة عبادة القوة والاقوياء ، ومسخ شعور العبادة الشريف ، وتحويله من الخضوع إلى الله المتفرد بالقدرة إلى الخضوع إلى الاشخاص وإكبار القوة الوحشية .

من المفهوم أن التسليم للقوة عند العجز ضرب من العقل والصبر والتبصر ، فهو فضيلة فى أكثر الاحيان ، ولكن الرذيلة هى فى نسيان هذه القيود ، واعتبار القوة من جهة ، والضعف من جهة أخرى ، حالة من الحالات الطبيعية الدائمة يصح أن تسكن لها النفس ، وترضى بها طائفة ، ثم تترقى فى هذا الرضى الاختيارى إلى حد الحب ثم العبادة . هذا هو الذى لا يرضاه من يعرف أن القوة كالضعف عرض زائل . فالقوى يستحيل أن يبقى قويا إلى الأبد ، والضعيف يستحيل أن يبقى ضعيفا إلى الأبد . فمن استضعف مرة لا يجوز له أن يتخذ الضعف شعاراً له لا يريد الخروج منه ، حتى مع إمكان الخروج بالسهولة .

إن عبادة البسالة تعبير براق قد لا يلوح عليه لأول نظرة أنه أحط ما يكون من الصفات والأعمال . ولكنها ليست فى الحقيقة إلا مرادفا للجهل الممزوج بالذل ! أو الذل الممزوج بالخوف ، أو الخوف المصبوغ بصبغة الحب والطاعة . أى أنها رذيلة اجتماعية تفوق جميع الرذائل فى أنها ليست رذيلة بسيطة ، بل هى مركبة من جميع رذائل الذل والخوف والتملق والنفاق والكذب .... الخ الخ . فكل رذيلة من هذه هى على الأقل صريحة ، ولكن عبادة البسالة بالمعنى الذى نعنيه ليس فيها شىء من الصراحة .

فحقيق بالانسان أن يكرم بنى الانسان ، ويعطى كل امرىء حقه ، ولكن لا يصح أن يصل به سوء النظر أو الغفلة إلى حد أن يتخذ إلهاً مع الله .

Digitized by Birzeit University Library

الانتحار

يشق على الانسانيـة أن تسمع الوقت بعـد الوقت أن فلانا أفرط فى الأكل فمات ، أو بالغ فى الشرب فمات ، أو تناول مسدساً يطلع على نموذجه ويقلبه بين أصابعه فيخرج مقذوفه فى جسمه فيموت . ماتوا جميعاً منتحرين على الرغم منهم ، منتحرين لجهلهم ، أو لعـدم احتياطهم ، أو عدم قدرتهم على إيقاف شهواتهم عند الحد النافع ، أو غير الضار . فرحمة الله عليهم أجمعين يشق على الانسانية أن ترى بعض أبنائها يتساقطون منها ، ويغيبون عنها ، فتحرم بذلك من الاغتباط بكثرتهم ، والاستفادة بأعمالهم لسعادتها . ولـكن هؤلاء المنتحرين خطأ ، لم يتجـاوزوا على كل حال حقوقهم ، ولم يجنوا على الانسانية متعمدين . فحكمهم كحكم الذين قتلوا فى الحرب أو أصابتهم العـلة القاتلة من غير أن يكون بيدهم توقيها ، ولا الابتعاد عن مظانها ، عملا بالواجب من حفظ الوجود الذاتى ، وحفظ الوجود النوعى .

لذلك يكون الأسف العام على فقد هؤلاء الأعضاء المنتحرين خطأ أسفاً عاديا ، لأننا اعتدناه ، ولأننا لا نملك رده ما دام من المستحيل أن يسير جميع الناس على قواعد الحكمة ، يقظين لا تعروهم الغفلة ، متدبرين لا تملكهم الشهوة ، قوامين على ضبط أعمالهم المادية والمعنوية ، لا يقعون فى خطأ ولا نسيان . فان الكمال لله وحده .

أما الذى ينفطر له كبد الانسانية ، فهو ذلك الانتحار العمـد . وأمثلته مع الأسف قد كثرت فى العـالم وكثرت فى مصرنا أيضـا كثرة ما كنـا نتوقعها من قبل .

ولو استقرينا أسـباب حالات الانتحار لوجدناها كلها راجعة إلى أمر

الجريدة فى ٣١ من مايو سنة ١٩١١ العدد ١٢٨١

Digitized by Birzeit University Library

واحد : ثقل الحياة على الحى، حتى لا يطيق حملها، فيفر منها كما كان يفر بالأمس من أى خطر يهدد تلك الحياة المحبوبة ، كبيرا كان أو صغيرا .

نرى الرجل يصيبه مرض حاد فيوجعه، فلا يستطيع حمل الألم، فيفر من الحياة التى هى مناط الألم فينتحر .

ونرى آخر يصيبه مرض معنوى يوجعه كوخز الضمير - عند أصحاب الضمائر الصحيحة والمبادىء المحترمة - على جريمة ارتكبها . أو كخيبة الأمل - عند سريعى التأثر المرضى بأعصابهم - من مرجو مرغوب فى تحقيقه كنيل الشهادات عند التلامذة ، والرقى عند المستخدمين ، أو الخوف من الفضيحة عند من أتوا منكرا اشتهر أمره أو من تحقق من الافلاس من التجار ... الخ كل أولئك المرضى الوجعى بآلام معنوية ، إذا لم يطيقوا حملها ، انتحروا كما ينتحر أولو الآلام الحسية .

إن أعمال بنى آدم معلولة لعاملين إثنين، حفظ الوجود الذاتى وحفظ الوجود النوعى ؛ فكيف نستطيع أن نفسر الانتحار وهو عمل من أعمالنا ما كان له أن يخرج عن ذينكم العاملين ، وهو هادم لهما جميعاً ؟ لأن الذى ينتحر يجنى على وجوده الخاص فيعدمه، ويجنى على وجوده النوعى، فينقص أفراده ويقلل قوته

ليس من البعيد أن يرجع بهذين العاملين إلى حب الذات . ثم ارجاع أسباب الانتحار إلى حب الذات أيضا ، لأن جميع هذه الأمثلة التى ذكرناها عن الانتحار ، ظاهر فيها حب الذات ظهورا واضحا . فاذا اعتمدنا على هذا الغرض ، وجب علينا أن نفسر الانتحار بأنه غلو فى حب الذات ومظهر من مظاهره وضع فى غير موضعه المعروف . كل ذلك إذا أردنا أن نقول بأن المرء ينتحر وفيه من العقل الانسانى ما يهديه خلافا للذين يقولون بأن الانتحار لا يكون إلا بعد نوبة صرع أو جنون تذهب عن المرء نصيبه من الادراك العادى .

Digitized by Birzeit University Library

والظاهر أن القانون الألمانى على غير هذا الرأى الأخير، لأنه يعاقب على الشروع فى الانتحار، بعلة أن الفرد جزء من الأمة لايجوز له أن يتصرف فى حياته باعدامها، من غير أن يجنى بذلك على الأمة. فاذا شرع المرء فى الانتحار فخاب قصده فيه، عوقب بالحبس على هذه الجريمة التى ارتكبها على نفسه، أو على أمته، أو على الانسانية.

ومهما كانت الآراء فى أن الانتحار حالة نفسية لايمكن وقاية المنتحر منها أو عرض من الأعراض الطبيعية، فمن المحقق أن فى وسع الانسان مداواة كثير من تلك الأسباب. وأهم علاج لهذا الداء المعدى هو أن يحاول الاجتماعيون معالجة أعصاب العائشين فى البيئات المدنية (لأن الحالة البدوية قلما تعرف الانتحار) بادخال التعديلات على النظامات الصحية ونظامات الملاهى على الأخص وتوقى المشاعر الكاذبة التى تحصل للمدنيين من قراءة ومن شهود تمثيل الروايات التى يكون أبطالها مرضى بأعصابهم، يبعدهم الهياج العصبى عن الحالة العادية للفلاحين الذين فى طباعهم وعاداتهم قرب من الطبيعة. وأن يدخلوا على قوانين السلوك وقواعد العرف ما يرطبها بعض الشىء، ولا يجعلها قاسية مستحيلة الاحتمال على من يخطىء من الأبرار، فى حين أنها ألفاظ لا أثر لها فى نفوس الفجار.

لست أضمن نجاح مثل هذه الاقتراحات على رجال الاجتماع ولا أخليها من عيب الغموض أو بعض الابهام، ولكنى مع ذلك أرى على الأقل أن إرجاع الأجسام إلى قوتها الفطرية وحماية العقول والأعصاب من شدة التأثر بالمناظر المدنية الكاذبة بأية طريقة من الطرق، مرجع للعادات الانسانية إلى بدويتها الأولى أو عادتها الأولى التى لاتعرف فيها أمثلة الانتحار كما نراه الآن. وأقل الأدلة على أن للهياج العصبى بحكم العيشة المدنية أثراً لا يستهان به فى أسباب الانتحار، هو أن أمثلة الانتحار فى القرى ان لم تكن معدومة، فهى نادرة أو قليلة جداً بالنسبة لأمثلة الانتحار فى العيشة المدنية.

Digitized by Birzeit University Library

نقول ذلك لو شئنا أن نقسو فى الحكم على هؤلاء الذين يذهبون ضحايا للمدنية، ولتفريط دعاة المدنية . نعلن أن الانتحار جبن لامبرر له .

ولكننا يجب علينا أن نراقب الله والضعف الانسانى فى مثل هذه الأحكام، ونلقى مسئولية الانتحار من أوله إلى آخره، على نظاماتنا التى لانفتأ نمضى فى وجوهها الظاهرة من غير التفات إلى تحسين الميول وترقية الطباع .

Digitized by Birzeit University Library

تربية البنات

تحولت الحال، وتحول معها حزب المعارضة فى تعليم البنات ، فكان هذا الحزب فى زمن غير بعيد يضم أكثرية أولى الرأى فى البلاد ، ثم تضاءل شيئاً فشيئاً حتى صار يستحى من التصريح بمعارضته علنا ، بل انحصرت قواه فى التدليل على صحة مذهبه بين جدران المنادر ، وهمسا فى الآذان ، ثم تضاءل وأصبحنا والحمد لله لا نرى لحياته، أمارة ولا نسمع عن وجوده خبرا.

مات هذا الحزب ، ونستغفر الله من شر العقبات التى وضعها فى سبيل المدنية المصرية الحديثة ، فمتى تجىء ساعة ذلك الحزب الآخر الذى يتراوح بين التقدم والتأخر ، فلا هو صريح المعارضة كالحزب القديم ، ولا هو سائر فى تيار العلم والحرية كالحزب الجديد ، ونعنى بهذا الحزب أولئك الذين يقولون بأن الحرية أساس لكل مدنية صحيحة ، ويقولون إن المرأة هى حجر الزاوية لتلك المدنية ، ثم هم على ذلك ينكرون حقها فى الحرية ، ويأبون عليها التطور الاجتماعى، والسير على قانون النشوء والارتقاء ، يبغون النتيجة ولا يبغون وسيلتها الوحيدة ، يحبون السعادة الاجتماعية ، ويكرهون أسبابها.

من هؤلاء جماعة البسطاء الذين يتخذون الخوض فى المسائل الاجتماعية العويصة لهوا وتسلية يقتلون بها الوقت ، فاذا وقعت فى «الحارة» واقعة من الواقعات الشائنة، صاحوا فى مجالسهم، تلك هى النتيجة اللازمة لتحرير المرأة، وتطيروا بقاسم أمين وأصحابه. فان قيل لأحدهم : وعلام ترسل ابنتك إلى المدرسة ؟ قال ما للتعليم والحرية ، التعليم واجب على كل مسلم ومسلمة . ولكن التعليم شىء، وتحرير المرأة شىء آخر . فان المرأة متى أحست بحريتها وأن لها حقا فى تلك الحرية تطالب به أباها وزوجها والأمة بأسرها، أساءت

الجريدة فى ٦ من يونيه سنة ١٩١١ العدد ١٢٨٦

Digitized by Birzeit University Library

استعمال هذا الحق واتخذته سلاحاً تقتل به نفسها . يقول قائلهم ذلك وينسى أن العبودية ابنة الجهل ، والحرية قرينة العلم ، وأن طباع السوء إذا تولدت مرة عن الحرية، تولدت ألف مرة عن الاستبداد ، وأن الحرية أكبر ضمانة يمكن اتخاذها لصون المرأة ، كما أن الاستقلال الذاتى للرجل هو المقوم الوحيد لأخلاقه، والسلم الذى يرتقى عليه إلى الأدب الكامل .

ومنهم الكتاب الناشئون الذين يحبون أن يكتبوا للناس لتقربهم أعيان آبائهم ، ولينالوا تهنئة إخوانهم على حسن تأديتهم للمعانى بعبارات مقبولة أو جميلة ؛ أولئك الكتاب الناشئون يرون الكتابة السياسية تحمل مسئولية عظيمة ، ولا تحتمل تزويق العبارات ، ولا استخدام أنواع البديع ، فيستعرضون الموضوعات الاجتماعية أمام أنظارهم ، فلا يجدون فيها أسهل من انتقاد العادات ، ثم يستعرضون العادات فلا يجدون موضوعاً يتقبل أكثر الناس الانتقاد فيه بالارتياح إلا تتبع خطوات النساء ، ويجدون فوق ذلك أن هذا الموضوع معانيه خفية لطيفة فى ذاتها ، وألفاظه حاضرة لكثرة ما ألف فيه المؤلفون ، فان تسعة أعشار الشعر العربى المقبول هو فى المرأة مدحا أو ذماً ، وفى الزينة استحساناً أو تقبيحا ، لذلك تراهم يطرقون هذا الموضوع من غير تهيب لأن العامة يحبون سماعه ، ومن غير كلمة لأن وجوه الانتقاد فيه حاضرة من قبل معنى ولفظاً ، ولأنه يقبل اللعب بالألفاظ والتزويق فى التراكيب ، يطرقون الانتقاد فلا تقرأ مقالة أحدهم إلا خيل لك أنه يرى الدنيا بنظارة سوداء ، وهو فى الحقيقة لا يراها فى هذا الاهاب من الشباب إلا روضا زاهرا ، ولكن حب الكتابة هو وحده الذى جعله يكتب ما يشعر بنقيضه إن كان واسع العلم ، أو يكتب ما لا يشعر به ولا بنقيضه إن كان من الطبقة الثالثة فى الشبان . يمسك الواحد منهم خبر المحصنات الغافلات اللاتى خرجن إلى الفسحة كعادة النساء القديمة والحديثة ، متزينات بما هو المعروف، فينحى عليهن بالانتقاد ، ويحيط انتقاده بحواشى تلذ للقارىء،

Digitized by Birzeit University Library

ولكنها ضارة بترويج تحرير المرأة ، مبطئة نتيجة الجهاد ، موقفة للمرأة نفسها ولأوليائها عن السير فى طريق الارتقاء .

على أن من الحرج أن تحرم المرأة الزينة ، وهى تنشأ فى الحلية ، كما أنه من الخطأ أن يظن بأن معنى التمدن هو القضاء على كل الضعف الانسانى وعلى الشرور العالمية . ذلك خطأ صريح ؛ لأن التمدن ليس إلا حالة من حالات الوجود الانسانى لا تغير طباعه ، ولكنها تقلل شروره أو تنوعها . وتسهل للمرء وللمجموع الوسائل الكافية لاستكمال القوة اللازمة لابراز ملكاته فى الوجود والانتفاع بتلك القوة المدنية فى توفير سعادته الفردية والاجتماعية

وليس ببعيد أن سرد الحوادث الوارد عليها الانتقاد لنتائج الحرية النوعية التى نالتها المرأة الجديدة ، من شأنه أن يكون معلماً للمرأة الصالحة، لسهولة الوقوع فيما ينتقد عليه .

ومهما يكن من تخبط المتخبطين فى أمر المرأة المصرية ، فمن المحقق أن هذا الاختيار يقع عادة وبغير حساب فى فترة الانتقال من حال إلى حال ، فهو بهذه المثابة لا يخيف طلاب الاصلاح الحقيقى ، لأن التقدم فى المدنية سيل جارف لا يقف أمامه إلا موشك أن يقع فيه . ولا يبقى من المذاهب إلا ما يوافق مزاج مدنية العصر ، فخير للذين يغلون فى الخوف من مستقبل المرأة المصرية، أن يعتصموا بالصبر على حال الانتقال ، وأن يروضوا أنفسهم على الاعتقاد بأن الامارة الوحيدة لحرية الأمة هى حرية المرأة . فاذا حصلنا على الحرية الاجتماعية للمرأة حصلنا بسهولة على الحرية العامة والاستقلال .

Digitized by Birzeit University Library

أسبوع فى المدينة المنورة

— ١ —

لا أتصدى لوصف معاهد المدينة المنورة قديمها وحديثها، كما لا أخوض فى وصف الحرم المدنى والحجرة الشريفة مقام الرسول عليه الصلاة والسلام، ولا أكرر النصيحة لزوار الحرم المدنى ولا أنقل طرفا من العادات، لأنى إذا فعلت، لا أكون إلا مكرراً لما ذكره صديقنا الفاضل لبيب بك البتنونى فى رحلته، فانى رأيت مصداق بعض ما جاء فيها من الوصف الحسى والمعنوى، وسمعت من الناس ماصدقات البعض الآخر. وبدلا من أن أكرر وصفه وأفكاره أكرر الثناء على دقته وتحريه الصواب. غير أنى أجد من النافع أن أنقل للقراء بعض ماشعرت به نفسى فى هذه الرحلة القصيرة إلى تلك الأمكنة الطاهرة. فما عرفت للفكر مرآة أصدق من النظر فى أفكار الغير. ولا عهدت للمرء راحة تعدل راحة استماع القصص.

أول ما أذكره من المشاعر التى تعاقبت على نفسى فى هذه الرحلة، مشهد وقفتى فى مكتبى لوداع ولدىَّ. إذ يقف كلاهما على كرسى ليستطيع عناقى من غير كلفة على هواه. ولئن أنكر على الرجل أن يصف المشاهد التافهة العادية التى تقع لجميع الناس على السواء، فانى من الذين يعطون المقام الأول لهذه المشاعر العامية، مشاعر الحنو بين الآباء والأبناء وآلام الفراق، والشوق إلى التلاق وحب الأوطان، والميل إلى مسامرة الأشباه، ومودة الأقرباء والأصدقاء، ورحمة الفقراء، ومواساة الضعفاء، ومداراة السفهاء. واحترام الكبراء. تعجبنى روايات هذه المشاعر، ولا أجد حقاً للذين يحتقرونها بجانب

الجريدة فى ١٠ من أغسطس سنة ١٩١١ العدد ١٣٤٢

Digitized by Birzeit University Library

مشاعر البسالة ووصف آثار القدرة والشجاعة ومآزق الخوف والفزع، والصفات الاستثنائية التى لا تتفق إلا لعدد محدود جداً من بنى آدم الذين يخطئهم العد. وإن الناس لمعذورون فى الولع بقصص مشاعر البسالة لأنها غير عادية. وقليل أن يجد المرء فى العادة لذة. ولكن تلك المشاعر العامية المتواضعة لا ذنب لها، إلا أنها عادية وإن كانت فى الحقيقة هى المؤلفة لحياتنا اليومية وهى التى بها ولها نحيا ونحب الحياة.

فما أنس الاشياء لا أنس وقفة وداع ابنى العزيزين، إذ ينظر أكبرهما إلى بملء عينيه مفتوحتين جامدتين، يسائلنى كم يوماً أغيب فى هذه السياحة. فأجبته ثلاثين، فاذا أنا بابنتى الصغرى وهى لا تجهل عد الأيام، تجول فى عينها قطرات الدمع، فقلت لا بل شهراً (واحداً)، ولو لا أنى كنت عزمت نهائياً على السفر وارتبطت به، لأحببت ارجاءه إلى أن يعتاد ولداى على خبره فيخف عليهما أمره، لأنه كان فجائياً لا يعلمانه إلا يوم سفرى. تركتهما ولا شغل لى فى الساعات التالية إلا تدبر هذا الشعور واستقصاء أصله فى نفس الحى، ومقدار فائدة الطبيعة من ايجاده ـ فى قلوبنا الضعيفة. جعلت أتساءل: كيف يغفل والد عن ولده المحبوب بهذا المقدار، فيتركه فى معترك الحياة البشرية أعزل لا سلاح له من العلم والتربية. عجبت لرجل يحب ولده حباً جماً فيجعل حبه له وقفاً على ما يضره دون ما ينفعه. يأمره بالكذب لتحصيل خير مزعوم أو دفع شر موهوم. والكذب مهلكة، يطبعه على الملق والرياء والنفاق، وكلها مهالك. يضرب له بفعله شر الأمثال من الاستهانة بالكرامة وحب البقاء إلى حد الجبن، والتبرم بالعهود إلى حد اللؤم. فأخلق بهذا الحب الأبوى أن يسمى الكره الأبوى. حاشا الطبيعة أن تكون هى الهادية لأولئك الآباء غلف القلوب إلى ما يجنون على أبنائهم، فما عهدنا فى البداوة الأولى والحاضرة هذه الأمثال، ولكنها أسباب عمرانية أفسدت فطر الآباء، وجلها راجع إلى طبائع الاستبداد الطويل.

Digitized by Birzeit University Library

أبناؤنا أجزاؤنا وصنع أيدينا . هم بررة إذا أردنا، وفجرة إذا أردنا . فهم على ما عودناهم ، والمرء أسير عادته . إنهم إن قست قلوبهم وفسدت طباعهم وكسدت عقولهم، فالمسئولية فى ذلك على ما أورثناهم إياه فى دمائهم وأمزجتهم من الرذائل الوراثية ، وما عودناهم عليه بعد ذلك من انتهاك حرمات الفضيلة ، وما قصرنا عنه من تصحيح عقولهم بتعليم العلم . وإذا نحن تدبرنا وتحرينا الأصلح لمستقبلهم ، فربيناهم على الفضيلة وصححنا بالعلم أحكامهم على الأشياء ، وسلمنا أذواقهم من عوارض الغلظة والمرض . . وقوينا فى نفوسهم ملكة الأخذ عن الغير وملكة الفهم وملكة الانتاج ، أخرجناهم إلى الحياة العملية مسلحين يغلبون ولا يغلبون . أحراراً لا يرادون على غير ما يختارون. ولا يسكنون الحياة على الظلم والجور ، ولا يرقدون تحت ظل حماية الغير . إذن نكون قد قمنا بواجب الأبوة وحققنا فى الوجود معنى هذا الحب الأبوى الذى كلنا فيه سواء .

ما أنس لا أنس تلك الوقفة وذكراها، يثيرها فى نفسى نداء الصغار «يابابا» ويا أ ، ويا أباه ، تبعا للهجات البلاد التى انقلبنا إليها على التعاقب ، فأشعر بفيض من الحنان لا يدع لغيره من المشاعر محلا من قلبى ، إلى أن أرجع النظر فى هذه الحقيقة المعنوية الحسية معا فلا أفهم معنى ولا أرى وجها لأولئك الذين يدعون الله لأنفسهم أو عليها بالعقم أو بقلة الولد ؟ ! انهم يخافون الاملاق ، وما يتمنونه أقبح من الاملاق . وما ضر أحدهم أن يبقى فقيراً بماله غنيا بولده . فياطالما كان الولد قرة العين ومدفع الفقر ومناط الراحة والهناء . أو ليس من الحمق أن يخشى الفقير من كثرة الولد ليخسر زينة الحياة الدنيا بطرفيها: المال والبنين ! ذلك هو الخسران المبين .

من هؤلاء أيضا المتفلسفة المتطيرون الذين يأخذون على ظاهره قول ملك المفكرين أبى العلاء المعرى ، يجأرون بالشكوى من سوء العيش . يغلون فى تقدير متاعب الزواج ويجبنون عن احتمال العناية بالأولاد ،

Digitized by Birzeit University Library

ويفضلون الرهبنة والعقم لا خوفاً من الفقر ولا فراراً من الذل، بل حرصاً على راحتهم وإرضاء لأنانيتهم . ياخذون من الوجود ولا يعطون . يستدينون ولا يؤدون . كأنى بأولئك لا يرون الولد إلا ثمرة لذة طائشة ولا يشعرون بمكانة الأبوة وطهارتها ولذتها التى لا تعدلها لذة عند الذين أوتوا قلوبا تعرف أن تحب ، وصدوراً رحبة تسع اللذائذ والآلام على السواء ، ونفوساً كبيرة تستحى أن تكون مدينة للوجود لا دائنة . مستهلكة غير منتجة . أولئك هم الآباء الاكفاء لشرف الأبوة ،وأولئك هم أسعد الانسانية الأكثرون .

Digitized by Birzeit University Library

اسبوع فى المدينة المنورة

٢

فى الطريق

ومما يهم نقله، بعض ملاحظات تتعلق بالسفر إلى المدينة ننقلها إلى شركة البواخر الخديوية وادارة سكة الحديد الحجازية، لا إلى قرائنا المسلمين. لأن المسلمين لم يمنعهم فى الماضى بعد المشقة وقطع عشرات المراحل لزيارة الرسول عليه الصلاة والسلام، فهم بذلك لا يمنعهم من إتمام هذه السنة الدينية ما قد يجدونه من قلة الراحة فى بواخر الشركة أو فى قطار السكة الحديد. غير أنه لا شك فى أنه كلما توفرت أسباب الراحة فى السفر زاد عدد المسافرين، وربحت الشركة والسكة الحديد أضعاف ما تربحه، إذا هى فرطت فيما تقدر عليه من توفير أسباب راحة الركاب.

رأيت ركاب الباخرة خصوصا فى العودة يشكون من معاملة خدام السفينة لهم بالخشونة أحيانا، والاعراض عن تنفيذ أوامرهم أحيانا، وأكثر هؤلاء الخدم من اليونان، وقد يظهر عليهم أنهم يكادون يظنون أن تبيعتهم لشركة أجنبية، تجعلهم أيضاً حكاما على المصريين!!

وليست الأمثلة على ذلك التفريط من جانب الخدمة قليلة جداً، ولكن سردها لا يتفق مع ما ترجوه من انتشار حسن سمعة الشركة. نعم نحن نعترف بأن مراكب الشركة تتسامح كثيراً للراكب فى اعفائهم من التكاليف المتبعة فى المراكب الأخرى، وأهمها النزول إلى قاعة الأكل بالملابس اللائقة بها. ولكن ذلك لا يفسر بأنه تسامح، إلا إذا كانت معاملة الخدام للركاب لا تتغير تبعا لتغير أزيائهم. ولم يكن احترام أولئك الخدم للأموات

الجريدة فى ٢٦ من أغسطس سنة ١٩١١ العدد ١٣٥٤

Digitized by Birzeit University Library

بأ كثر من احترامهم للأحياء ، فقد مات أحدنا من ركاب الدرجة الثالثة في يافا ، وهو في ضيافة المركب ، فلم أر من معاملة أهل المركب له ما ينتظر من المضيف إذا ما تضيفه، غنياً كان أو فقيرا ، كنقله إلى أودة مفروشة من غير أن يعرضه طريحا على أنظار الناس (كفى بالموت جلالا أنه الموت) ولكنى لم أجد لموت صاحبنا جلالا في نفس خدم المركب. على أنى لا أعرف أيهم المكلف بمراقبة تنفيذ مبادىء الانسانية في مثل هذه الحالة. نضيف إلى ذلك المضايقة المادية، كوضع سلال العنب من يافا في جزء غير قليل من ظهر المركب ، وهو المسرح الوحيد الذى يجد فيه المسافر سعة يخلص بها من ضيق السفر، على ظهر أكثر قلقا من قلب الجبان يوم الكريهة. لذلك نلفت إدارة الشركة إلى البحث في مراكبها عن أيها يقلق راحة الركاب فيستأصل تلك الأسباب، لأننا نعلم من جهة أخرى ، أن بعض مراكبها على غاية من النظام ، وخدمها في تأدية الواجب، لا يقلون عن خدمة المراكب في الشركات الأخرى .

أما سكة الحديد الحجازية فانا نعترف بأنها أدت خدمة عظيمة أيضاً للمسلمين . ونعترف كذلك بأن من الأمور الطبيعية أن النظام لا يتم دفعة واحدة في عمل من الأعمال ، بل لا بد للنظام من الزمن الذى يظهر عيوبه فيعين على إصلاحها . لذلك نلاحظ لادارة السكة الحجازية بعض ملاحظات عساها لم تكن تعرفها إلى الآن ، أو تعرف بعضها وتجهل البعض الآخر ، فتحاول الأخذ بأسباب الاصلاح المطلوب

يزدحم الناس على شباك صرف التذاكر في محطة قدم شريف (دمشق) وفي محطة المدينة ازدحاماً شديداً ، فلا تستطيع المرأة أو الرجل الضعيف البدن، أو القوى ذو الأناة أو الذى يأبى على نفسه الزحام، أن يأخذ تذكرته بنفسه . ويزيد في هذا الزحام أن صراف التذاكر عامل واحد يكاد لا يعرف العربية أو يتكلم بها قليلا ، فيأخذ صرف التذكرة منه وقتاً يكفى عندنا في مصر لصرف عشر تذاكر ، فمن الميسور القليل الكلفة أن تستعمل الحواجز

Digitized by Birzeit University Library

اسبوع فى المدينة المنورة

٢

فى الطريق

ومما يهم نقله، بعض ملاحظات تتعلق بالسفر إلى المدينة ننقلها إلى شركة البواخر الخديوية وادارة سكة الحديد الحجازية، لا إلى قرائنا المسلمين. لأن المسلمين لم يمنعهم فى الماضى بعد المشقة وقطع عشرات المراحل لزيارة الرسول عليه الصلاة والسلام، فهم بذلك لا يمنعهم من إتمام هذه السنة الدينية ما قد يجدونه من قلة الراحة فى بواخر الشركة أو فى قطار السكة الحديد. غير أنه لا شك فى أنه كلما توفرت أسباب الراحة فى السفر زاد عدد المسافرين، وربحت الشركة والسكة الحديد أضعاف ما تربحه، إذا هى فرطت فيما تقدر عليه من توفير أسباب راحة الركاب.

رأيت ركاب الباخرة خصوصا فى العودة يشكون من معاملة خدام السفينة لهم بالخشونة أحيانا، والاعراض عن تنفيذ أوامرهم أحيانا، وأكثر هؤلاء الخدم من اليونان، وقد يظهر عليهم أنهم يكادون يظنون أن تبيعتهم لشركة أجنبية، تجعلهم أيضاً حكاما على المصريين!!

وليست الأمثلة على ذلك التفريط من جانب الخدمة قليلة جداً، ولكن سردها لا يتفق مع ما ترجوه من انتشار حسن سمعة الشركة. نعم نحن نعترف بأن مراكب الشركة تتسامح كثيراً للراكب فى اعفائهم من التكاليف المتبعة فى المراكب الأخرى، وأهمها النزول إلى قاعة الأكل بالملابس اللائقة بها. ولكن ذلك لا يفسر بأنه تسامح، إلا إذا كانت معاملة الخدام للركاب لا تتغير تبعا لتغير أزيائهم. ولم يكن احترام أولئك الخدم للأموات

الجريدة فى ٢٦ من أغسطس سنة ١٩١١ العدد ١٣٥٤

Digitized by Birzeit University Library

اسبوع فى المدينة المنورة

٣

مقام الرسول

متى خرج المسافر من «تبوك» مستقبلا الحجاز، موجها وجهه نحو المدينة موطن الهجرة، ومهبط الوحى، ومقام الرسول صلى الله عليه وسلم، تنفعل نفسه انفعالات شتى، مرجعها إلى طبيعة الأرض التى يمر فيها من تبوك إلى مدائن صالح إلى المدينة المنورة. سهول قليلة مجدبة، وجبال كثيرة جرد، مختلف ألوانها، لاترى عليها شجرا قائماً، ولا نجما نابتاً، ولا طائراً، ولا شىء إلا الفضاء والسكون. منها جبال حمر وسود وزرق ضاربة إلى الخضرة، كلها موحشة لا يؤنسها إلا محطة السكة الحديد المسافة بعد المسافة. إن تجردت عن جمال الطبيعة المعروف لدينا، والمصطلح عليه بيننا، كجنات دمشق، أو مزارع سهل البقاع، أو مختلف مناظر لبنان، فقد بقى لها من الطبيعة جلالها. ولا شك فى أن الجلال قد يكون له فى النفس ما يفضل أثر الجمال. تعطيك هذه الطبيعة الجرداء المهيبة إكبار الصعوبات التى لاقاها النبى العربى محمد ابن عبد الله فى سبيل القيام بتبليغ رسالته فى هذه المناطق المترامية الأطراف العديمة الماء، النادرة العشب، الكثيرة الأوعار والأجبال. فاذا وصلت إلى مدخل المدينة تكتنفها الجبال، ولحظت على الشمال دار عثمان بن عفان، ثم رأيت مقام سيدنا حمزة تحت جبل أحد، على قرب من مصرعه، ثم أشرفت على المدينة ورأيت القبة الخضراء المضروبة فوق مقام المصطفى عليه الصلاة والسلام، ثار فى نفسك ثائر ذكرى ذلك المجد العربى القديم،

الجريدة فى ٢٧ من أغسطس سنة ١٩١١ العدد ١٣٥٥

Digitized by Birzeit University Library

المستعملة فى جميع البلاد يدخل فيها الناس وحدانا ، لصرف التذاكر الأول فالأول .

أما قطار السكة الحديد ففيه درجتان: الدرجة الثالثة وهى مع كونها غير مفروشة بالضرورة إلا أنها طيبة وفسيحة ، ويفضلها بعض الركب على الدرجة الأولى، فقد رأيت أناسا من وجهاء المصريين أخذوا تذاكر من الدرجة الأولى ونزلوا فى الدرجة الثالثة . أما الدرجة الأولى فالديوان الواحد الضيق مخصص لستة من الركاب ليجلسوا فيه متماسين بالمناكب ثلاثة أيام وثلاث ليال وأحياناً أربعا، كما كان من أمرنا فى الذهاب . وأما ما كان يروى لنا عن وجود عربات نوم فى القطارات فلم نجد له أثراً ، وعلى كل حال فان المشقة يحتملها الرجل مهما كان نوعها، ولكن من السيدات المخدرات ذوات النعمة ، من لا تستطيع أن تقطع هذه المسافة الشاسعة فى تلك الأيام الطويلة الحارة من غير أن تكون فى عربة نوم تأخذ فيها بعض عاداتها من الراحة فى الليل والنهار

لا يغيب عنا أن الدولة بمشاغلها الحاضرة قد ينقصها المال اللازم لتحسين السكة الحديد الحجازيه ، وعندها من الأعمال ما هو أهم من توفير أسباب الراحة للحجاج . ولكن قليلا من المال يكفى لايجاد عربات للنوم تقدر أجرتها تقديراً يخفف من الخسارة فى شرائها . وهى فى ذاتها ستكون ينبوع إيراد جديد للسكة لا يستهان به . قليل من المال وقليل من العناية بأمر الركاب ، وقليل من الاحتياط بايجاد بعض عربات خالية فى المحطات الكبرى، بحيث إذا تعطلت إحدى العربات فى الطريق — كما حصل لنا — لا يضطر الزائرون من الدرجة الأولى أن يقضوا يومين وليلتين فى الدرجة الثالثة. بل لا يضطر بعضهم إلى الرضى بالركوب فى عربة من عربات البضائع

قليل من المال والعنايه يكفى لراحة الركاب، ويكفل ازدياد دخل السكة ، ولنا الأمل فى أن شركة البواخر ، وادارة السكة الحديد الحجازية، تحل هذه الملاحظات من الاعتبار محلا يقطع الشكوى الصامتة، لأن مثل هذه الشكوى إذا انتشرت فى الأفراد، تكون أكثر أثراً من الشكاوى المنشورة .

Digitized by Birzeit University Library

فمن ذا الذى يعرف تقدير النسب بين الأشخاص والأشياء، ثم يزور قبر محمد ولا تخضع نفسه لهيبته أو لا يقصيه الأدب عن مس المقصورة أو إطالة المكث على مقربة منها، إلا على نحو ما كا يصنع فقيه المسلمين عبدالله بن عمر، إذ كان يعقل بعيره فى خارج الحرم ثم يدخل فيقول السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبى، ثم يقفل راجعاً من حيث أتى؟ على أنى مع ذلك أجد عذراً لهؤلاء العوام الذين يقتربون من الحجرة ويخرون على الاعتاب للأذقان سجدا. ثم يتمسحون بقوائمها ويدخلون شفاههم من الشباك يسرون كلاماً طويلا أو قصيراً. فان المحبة قد تجب كل ما عداها من الملكات فى تلك العقول التى نمت فى أحضان القلوب لا فى أحضان العلوم، فيذهلون عن تقدير النسب ويجاوزون حدود اللياقة. ومع ذلك فان من الاعراب من لا حظت من هيئتهم الوقوف عند حدود التأدب، سواء كان ذلك فى زيارة قبر الرسول أو فى زيارة الشهداء.

من ذلك أننا زرنا نحن وأصحابنا مقام سيدنا حمزة صبح يوم زيارته. فلما فرغنا من زيارتنا وقطعنا ميداناً فسيحاً من الرمل، حيث كانت تنتظرنا عرباتنا فى الجهة المقابلة، إذا بنا نرى الاعراب زمراً راكبين جمالهم حاملين أسلحتهم، كلهم يعلق فى كتفه بندقية ويشد فى وسطه خراطيش رصاص وقد يكون إلى جانبه غدارة أو خنجر، وسيفه إلى جانبه مع ذلك كله. وقفنا ننظر ماذا يفعلون، فاذا هم يفدون من المدينة جماعة جماعة، ينتظر بعضهم بعضا فى ذلك الميدان الفسيح تحت مسجد سيدى حمزة حتى كملوا أربعمائة هجان. وقفوا وأمامهم علم أخضر يظل رجلا منهم هو خليفة السنوسى فى مكة والحادى يحدو لهم شعراً بصوت جميل وهم يرددون عليه هذين البيتين:

سيدى حمزة وياعم الرسول   قد أتينا فى حماك
نرتجى منك الشفاعة والقبول   لا تخيب من أتاك

يردد هذا الجمع الكبير هذين البيتين فى آن واحد على نغمة ما أجملها، فما

Digitized by Birzeit University Library

وأشرق على روحك نور تلك المبادىء الشريفة التى كان هذا الحرم مهدها ، ومصدر تشعها على أطراف العالم من أقصاه إلى أقصاه . هنالك نعذر الذين يقولون رأينا النور ينبعث من المدينة فوق القبة الخضراء يشق طبقات الهواء إلى السماء . لم نر ذلك النور الحسى بالعين الباصرة ، ولكن هناك نورا لا يحتاج فى انبعاثه إلى هواء يحرك ذراته وينقلها ، ولا إلى أجسام ينعكس عليها نور العلم والفضل ، نور الهدى . إنهم لا يرون نوراً حسياً كما يقال ، وكأنهم يرون نور الهدى يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير .

دخلنا الحرم المدنى لأول مرة من باب السلام فى زحام من الزائرين مختلفى اللغات والألوان والأزياء والأجناس . دخلنا ذلك الفناء الرحب ، فناء الرجل العظيم والنبى الكريم والرسول الأمين . فما هى إلا نظرة إلى ما نحن فيه ، وتذكرة لما مضى من الأثر حتى يمتلىء القلب هيبة من الحضرة العالية ، ويأخذ النفس الخضوع حتى يبتل الجبين عرقا من الوقوف أمام مقام من لا يطاوله فى مجده مطاول ، ولا يضارعه فى مقامه واحد من بنى حواء . فكلهم لديه سواء . مغترف من بحر علمه ومستنير بهديه ، أو معترف له بسؤدده ورفعة مقامه . فالذين آمنوا بمحمد وما أنزل عليه ، يرونه بحق سيد الخلق على الاطلاق ، والذين لم يؤمنوا لا يجادلون فى أنه الرجل كل الرجل كرما وفضلا ، والشارع الحكيم أحاط بالعظائم والدقائق من أحوال الناس ، والشجاع عديم المثال . هاجر إلى هذه المدينة وهو لا يملك من الدنيا إلا نفسه وصحبة صديقه ، وهو على هذه الحال وفى تلك البلاد المجدبة وبين الاعراب لد الخصام . على هذه الحال قد أخاف الأكاسرة والجبابرة أصحاب الأموال والعروش والجنود أولى القوة بكل أسبابها ومظاهرها . لم يكن له مما فى أيديهم شىء ، ولكن الله آتاه العلم والحكمة والنبوة والرسالة فكان له النصر وما النصر إلا من عند الله

Digitized by Birzeit University Library

وللناس فى المدينة عناية بحضور الدروس ، فقد تجد فى الحلقة من غير الطلبة كثيراً من المستمعين . أما نحن فقد كنا نغشى الوقت بعد الوقت درس الأستاذ الكبير الشيخ حمدان الونيسى مدرس الحديث والبيان بالحرم الشريف . ولمناسبة ذكر المدرسين يمكننا أن نصرح بأنهم إنما يدرسون هناك التماساً للبركة ، لا يطلبون على عملهم جزاء ولا شكورا .

غير أن من ألزم الأشياء تشجيع العلم فى منبته، أى فى الحرم المدنى . وذلك قل أن يكون إلا بمكافأة أولئك المدرسين لا ليزيد اجتهادهم فى تعليم الناس شريعة محمد حول مقامه الكريم . ولكن لتستمر مجاورتهم ، لأن المدرس مهما كثر اجتهاده إذا ضاق به العيش فى المكان الذى يقطنه اضطرا اضطرارا لهجرته ، وليس ذلك من مصلحة العلم. حقيقة أنهم يؤتون بعض الرواتب سواء من الدولة أو من الوقف، ولكنها رواتب زهيدة جدا لا تفى بشىء من حاجات المدرس المنقطع للتدريس . بحثت فى ذلك فتلقفت أطرافا من الروايات مرجعها جميعا إلى أن المزورين المطوفين ، وهم الذين يتصدرون لتعليم الناس كيف يزورون، وماذا يقولون وبماذا يدعون ، هؤلاء وهم من غير العلماء بالدين ولا بالتاريخ ولا بغيرهما يأخذون هذه الوظائف بالوراثة . ومما بلغنا من غير سند، انه إذا جاء الحرم رزق يخصص للعلماء قال المطوفون إنهم هم العلماء ، فاذا كان للأشراف قالوا إنهم الأشراف . والعلماء أرفع بالضرورة من أن يحاسبوا أو يطلبوا ، فمن الحسن أن يذكر الواقفون فى أوقافهم والمتصرفون فى صدقاتهم ورجال الدولة فيما يتعلق ببر أهل العلم وتشجيعهم، أن مدرسى الحرم الشريف تجب مراعاتهم حتى لا يقل عددهم ، فأن خير مدرسة يدرس فيها كتاب الله وسنة رسوله إنما هى تلك الروضة التى كانت مهبطا لذلك الكتاب ، ومحلا لتلك السنة من قول أو فعل أو تقرير .

Digitized by Birzeit University Library

علمت غناء فى مثل هذا الظرف أشجى نغمة ولا آخذ بالقلب من هذا الغناء الذى سمعته؛ يفعلون ذلك على بعد من المسجد تحيــة القدوم ثم يترجلون فيدخلون للزيارة وسألت عنهم ، فقيل لى إن الخليفة السنوسى يخرج من مكة للزيارة فى هذا الموسم ، مولد سيدى حمزة وليلة المعراج ، فلا يحل بأرض قبيلة من قبائل الطريق إلا دعوه للاستراحة عندهم ، ثم يتبعه من مريديه جماعة ، فلا يصل المدينة إلا وهو فى مثل الجيش من العربان المسلحين من تلاميذ الطريقـة السنوسية . يا لله ما أفعل الاعتقاد فى القلوب ، وما أقرب البدوى من السير وراء اعتقاده .

على هذا الحرم الشريف تخيم السكينة فتزيده هيبة على هيبته ووقاراً على وقاره . ومع أنه غاص دائماً بالناس مختلفى الأجناس لا تسمع فيه صوتاً فيما بين أوقات الصلاة إلا تقريرات المدرسين فى زوايا الحرم ، وحفيف الحمائم تنتقل من الحصباء إلى ذرى الحرم لا يهولها كثرة الناس ، فهى فى غاية الإنس لا تعرف كيف يهاج الطائر ولا تتصور الوقوع فى حبائل الصيادين ، نواعم لا تعرف بؤس العيش . آمنة لا يأتيها فيما حرمه النبى خوف ، فانه حرم من دخله كان آمناً . فاذا جاء وقت الصلاة انقلب السكون ضجة ، وهرع كل من فى المدينة رجالا ونساء إلى الحرم لشهود صلاة الجماعة .

وللنساء هناك مصلى خاص بهن لا يتعدينه إلا إذا كثر عنه عددهن وضاق عن احتوائهن كما كان ذلك وقت صلاة العصر التى بعدها ، احتفل فى صحن الحرم بقراءة قصة المعراج . وقتئذ كان كثير من الناس فى المسجد إلى جانب الرجال ـ على كره من أغوات الحرم على ما نظن ، فانى رأيت بعضهم يحتفظ جداً بجعل النساء لا يتجاوزن حدود مصلاهن إلا للزيارة ـ ولما قرئت قصة المعراج قام بعض الأعراب الجالسين على الحصباء فى صحن المسجد يحصب بعضهم بعضا وهو يقول (حجينا حجينا) كأنه يشهد الناس أيضاً على زيارته للرسول فى هذا الموسم .

Digitized by Birzeit University Library

نعم إن جمال الأزياء اصطلاحى صرف ، بل هو أدخل ما يكون فى ميدان الاصطلاح الفسيح : فمتى تعودته العين ألفته، وربما رأته جميلا ، كهذا الزى الأوروبى الذى نلبسه الآن، لو رأيناه لأول مرة على ماهو عليه فى هذا الدور الأخير لاستغربناه وضحكنا من فكرة وضعه على هذا النمط، فانه يحكى أعضاء الانسان وقلما تكون هذه الحكاية مقبولة . يضايق الأعضاء وقد لاتكون خفة الحركة به معوضة للضيق الذى يحصل لها منه. ليس فيه من هيئة المهابة مافى اللبس القديم ، ولا مافى لباس القرون الوسطى ، ومع ذلك كله فاننا قد اعتدناه ، وألفنا النظر إليه ، وصار من المألوفات عندنا ، بل من المستحسنات عندنا نحن الشرقيين على العموم ، وعند نسائنا على الخصوص، بدليل أن كثيرا من رجالنا غير زيه المصرى بهذا الزى لأدنى سبب كرتبة حصل عليها ، أو مطاوعة لزوجه ، بل قد يكون تغيير الزى من غير سبب . على ذلك لم أجرؤ على الحكم بقبح زى النساء المدنيات مع اتفاق أصحابنا المصريين معى على هذا الرأى ، إلا بعد أن أخبرنى بعض المدنيين أنفسهم بأنهم لا يستحسنونه ، كما لا نستحسن نحن بعض أزياء الموضة الذى تلبسه بعض فتياتنا .

تعصب المرأة رأسها بفوطة تلف فيها شعرها كما أخبرني بعضهم، ثم تعصب فوقها الملاءة السوداء أو الزرقاء أو البيضاء أو الملونة بالألوان المختلفة، فتجعل من رأسها كمخروط كبير لا يناسب فى الغالب جسمها، أشبه ما يكون ببرنيطة القسس الكاثوليك . ثم ترسل من رأسها إلى قرب قدميها خماراً كثيفا قد يكون ذا فتحتين صغيرتين فى مقابل العينين ، وتلبس خفين أشبه بالجزم السوارى ليسا كالأخفاف الشركسية الجميلة .

ولست أظن أن فى هذا الزى غلوا فى التحجب، فانهن كسيداتنا فى مصر يتكلمن فى الطريق ويدخلن الحوانيت ومحلات التجارة يشترين منها كما تفعل النساء فى دمشق، إلا أن أزياء هؤلاء مملوءة ذوقاً سواء فى الزى أو اختيار

Digitized by Birzeit University Library

اسبوع فى المدينة المنورة

٧

المرأة فى بلاد العرب

لا ينتظر من مثلى أن يصف المرأة العربية بمشخصاتها ذاتا وصفاتا ، إلا أن يعمد إلى الخوض فى كثير مما ليس له به علم ، كما يفعل بعض السياح القصصيين . ولكن المرأة العربية وهى نصف الجنس العربى ، وعلى صلاحها أو فسادها يبنى الحكم على الأمة بأسرها ، لا يجوز أن يكون نصيبها من ملاحظاتنا الاهمال . لذلك لاحظت طرفا من الهيئات والأزياء ، واستمعت نتفا من الروايات الصادقات عن حال النساء العربيات ، أنقله للقارئين والقارئات .

تلبس المرأة العربية فى جزء البادية الذى قطعناه الملابس السود العادية والقناع المعتاد عند البدويات فى الأطراف الشرقية لمصر . وقد يكون زائدا على ذلك عباءة من الصوف كعباءة الرجل تمتاز عنها بوشى يجعل على حافتها مما يلى العنق والترائب من الجانبين . وهى على العموم لا تعطى فى هيئتها إلا مثالا من أمثلة الاعتدال فى الزينة المقدور عليها . وغض الطرف وشدة الأخلاق ، هذا هو الذى لاحظته من هيئتهن ومشيتهن ، سواء على بعض محطات السكة الحديد أو فى شوارع المدينة أو فى ضواحيها . وزى المرأة البدوية مع خلوه من الجمال الفنى وبساطته ومبلغه من التقشف فى اختيار اللون الأسود أو ما يقاربه ، مع ذلك كله مقبول فى نظر العين كزى الفلاحات فى مصر . ولكن زى نساء المدينة زى غريب فى بابه ، خلو من البساطة ، خلو من الجمال .

الجريدة فى ٢٨ من أغسطس سنة ١٩١١ العدد ١٣٥٦

Digitized by Birzeit University Library

عن زميلاتها فى مصر وفى بلاد الترك . ولكن تأخرها فى التعليم لم يفقدها شيئاً كثيراً من استقلالها ، ولم يمت فيها ملكة الارادة . وبالجملة لم يطبعها على طبائع الذل كما فى كثير من الأصقاع الأخرى . بل لا تزال هى هى المرأة العربية الحقيقة بأن تكون قرينة للعربى ، حمى الأنف قوى الارادة ، عظيم المروءة ظاهر الشجاعة والكرم .

روى لى أحد الأمراء المطلع بأحوال العرب لمعاشرته إياهم واختلاطه بهم، حادثة جديدة العهد فى بعض القبائل عن امرأة بدوية : أن رجلا قتل ابنها وفر ، فتبعه بقية أولادها ليقتلوه جزاء ماقتل أخاهم ، فلم يجد القاتل منهم مأمناً يأوى اليه إلا أمهم فدخل عندها واستجارها ، وهى تعلم أنه قاتل ولدها ، فأجارته فى بيتها، فجاء أولادها يطلبونه، فوقفت دونه تمنعهم عنه ، وهم يلحون فى تسليمه اليهم ، فصارت تردهم عنه بالحسنى ، وتبين لهم العار الذى يرتكبونه على أعقابهم بقتل ضيفهم والتفريط فى عزة جوارهم ، فلم تغنهم حجتها شيئاً وأصروا على أن يطالبوها بالاخلاء بينهم وبين قاتل أخيهم . فلم يتغلب حنوها الأموى على حب سلامة العرض من دنس العار . ولم تصغ إلى حجج بنيها بل أكرهتهم بالقول وبالفعل على الكف عن هذا القاتل المستجير ، وحالت بينه وبين الطالبيه حتى بلغ مأمنه .

ومهما يكن من التفسيرات البسيكولوجية فى عمل هذه المرأة، فأن القدر المتيقن من أمرها أنها مثل من الأمثلة على قوة الأرادة عند النساء العربيات وتغلب العقل على شهوة الانتقام ، أو على الأقل تغلب شهوة الرفعة وحب الذكر الحسن على غيرها من الشهوات الأخرى ، ومما لاشك فيه أن قوما هذه حال نسائهم آمنون من تطرق الضعف إلى نفوسهم وتحكم طبائع الأستبداد فى أخلاقهم ، آمنون من التخلى عن مشخصاتهم القومية وعاداتهم الذاتية، مهما اختلفت عليهم أيدى الحكام .

نضيف إلى ما سمعنا من تأخر المرأة العربية فى العلم أن أحد أصدقائنا

Digitized by Birzeit University Library

الألوان، فأنهن على العموم يلبسن الخمار الكامل أى المنديل الأسود أو الملون الذى يستر الوجه بتمامه، وهو هو بعينه (البيجة) الذى يلبسه كثير من فتياتنا المصريات فى هذا الوقت. أقول إن ذلك لا يدل على كثافة الحجاب عندهن ولا على مبالغتهن فى أمره. ولكنى أقول إنه زى مجرد ربما شرع للحجاب، ومع ذلك بقى الحجاب على نحو ما هو عندنا فى مصر. وفى هذا المقام يجب علينا ألا نبخس المرأة المدنية حقها من المسارعة إلى الصلاة فى أوقاتها فى الحرم والقيام لله بواجبه. ذلك ما يكاد يكون معدوماً عندنا بالمرة، وليس هناك مانع شرعى ولا اصطلاحى يمنع المرأة المصرية من شهود صلاة الجماعة. إن ذلك أطهر لقلبها وأدنى إلى ثقة زوجها بها وأقرب إلى طاعة ربها من الخروج إلى الفسحة المجردة أو إلى شراء حاجاتها بنفسها. وقد كانت هذه العادة فى مصر من زمان غير بعيد، فان بعض النساء كان يحضر صلاة الجماعة، وعجائزهن كن يجلسن إلى حلقة الدرس فى المسجد يستمعن ما يقوله العالم فى أمر الدين، ثم تذهب إلى بيتها وتقول قال العالم كيت وكيت.

حق أنها كانت تحرف كثيرا من الكلم عن مواضعه، ومن المعانى عن أصولها، ولكنها مع ذلك كانت تشعر بأن للدين دخلا فى حياتها، ووقتا من من أوقاتها، وأن الدين ليس اسما مجردا بل إن له تكاليف خوطبت بالقيام بها على لسان القرآن كما خوطب بها الرجل. كانت هذه العادة حسنة تتقدم وترقى تبعاً للرقى الاجتماعى العام، ولكنها قضى عليها التمدن الجديد، فمن لنا بابلاغ السيدات أن التمدين لا يمنع من التدين؟ وأن قراءة القرآن ألذ لمن يعرفه من قراءة الروايات؟ وأن دخول المسجد أشرف جداً من دخول أى محل من محال التجارة؟ وإنه إن كان خروجها لشراء ماتحتاجه بنفسها امرا أوجبته الضرورة، فان الضرورة توجب علينا قبله أن تقوم لربها بواجب عبادته

والمرأة العربية على وجه العموم متأخرة جداً فى أمر التعليم، متأخرة

Digitized by Birzeit University Library

اسبوع فى المدينة المنورة

٥

العرب واللغة العربية

اذا أراد الانسان أن يسمع اللغة الفرنساوية الخالصة قصد باريس. وان شاء أن يسمع الانكليزى الصيحح قصدلندره ، وعلى الأخص البيوت الارستوقراطية. على هذا القياس كان للمسلم إن رام أن يسمع الكلام باللغة العربية الفصحى أن يوجه وجهه شطر المدينة المنورة، وهى فى قلب الحجاز ومقر عترة النبي وهم من أفصح قريش. فلما كنا فى المدينة وخالطنا المزورين (المطوفين) وهم من أهلها، وسمعنا كلام الناس فى الاسواق، رأيناهم يتكلمون لغة عربية هى أبعد اللهجات فى هيئتها وفى ألفاظها وتراكيبها عما نعلم عن اللغة العربية . بل يكاد بعض ساكنى المدينة يرتطنون لغة عربية خالية بالمرة عن مراعاة قواعد الاعراب ، ناقصة جدا فى مخارج حروفها عن حدود قواعد النطق العربى . فتكاد تظن إذا سمعت أحدهم يتكلم من وراء حجاب أنه نوبى يتكلم بالعربية . كلمت بعضهم فى هذا فما ظهرت عليه علامة من علامات الأسف والندامة، وأعرض عن الموضوع باعتذارات قليلة كأنه لا يشعر أن خطأ لسان المرء فى لغته أمر يستحيا منه، خصوصا إذا كان ينتسب إلى قريش أفصح العرب ، وعلى الأخص متى كانت هذه اللغة هى لغة القرآن، لغة الدين الذى لا شغل لأحدهم يفضل الاشتغال به

وعندى أن الاحتفاظ باللغة والغيرة على خدمتها ونشرها وجعلها جديدة دائما سائرة مع الاساليب الحديثة والاصطلاحات الجديدة ، كل ذلك دليل

الجريدة فى ٢٩ من اغسطس سنة ١٩١١ العدد ١٣٥٧

Digitized by Birzeit University Library

روى لى عن بعض أمراء العرب ، وقد نزل عليه ضيفاً ، فرأى عنده النساء يأخذن بطرف من أحاديث الرجال، يروبن الشعر العربى القديم والحديث ، ويحسن استماعه ، ولهن آراء فى المسائل . قال محدثى فما شككت فى أنى عند أمير من أمراء العرب فى الدول الأسلامية الأولى .

ومهما يكن من تأخر المرأة العربية عن سواها فى تعلم العلم، فلا شك فى تفوقها على غيرها من الجهة الأخلاقية ، وتربية الأولاد على الفضيلة و تعليمهم مفاخر العرب ومساعدتهم على الأخذ بأسبابها .

Digitized by Birzeit University Library

حاجة خرجت قليلا عن منزل الركب أو انقطعت عنه يقتلونها أو يسلبونها، حاشا فأن فى كل أمة أشراراً ، ومن التعسف فى الحكم بل من البله أن يجرؤ على اعتبار أمة بأسرها من قطاع الطريق . خصوصاً الأمة العربية التى اشتهرت قديماً وحديثاً بالمروءة وحب السمعة الحسنة واشتراء الثناء بأغلى الأثمان وإكرام الوفادة والانتصار للضعيف وحب العدل والحياء من المكابرة . أجل إن هذه الصفات العاليات لا يزال يمتاز بها العرب عن كثير من الأمم الأخرى .

دار الحديث بينى وبين الأمير شكيب أرسلان على حال العرب فروى لى بعض الحوادث الحديثة التى يؤخذ منها مقدار استمساك العرب بمبادىء العدل وتفضيلها على كل ما عداها من شهوات النفوس .

قال : نزل أحد أمراء نجد ومعه ابنه ضيفاً على أحد أمراء العرب ، فأغارت إحدى القبائل على المضيف ، فخرج الفرسان لاستقبالها وفى مقدمتهم ابن الأمير الضيف وابن الأمير المضيف حتى أجلوهم عن ربوة استبق الأميران إلى اعتلائها . فعز على الأمير المضيف أن يسبقه إليها ضيفه ، فاختلفا فى ذلك فقتل ذلك الأمير الشاب ابن ضيف أبيه وحملت جثته إلى الحى ، فقضى الأمير المضيف بعد سماع شهادة الشهود على ولده بالاعدام ، وأعدم فوراً بعد الحكم .

كذلك حدث أن رجلا ورد ماء لقبيلة من القبائل ، فتنازع شبانها واياه على الماء ، وخافهم على نفسه فأطلق عليهم بندقيته فأصابت ابن شيخ القبيلة فمات لوقته . وفر القاتل يجرى إلى الحى فوجد بين البيوت بيتاً رفيع العماد ظنه أولى باجارة المستجير من غيره ، فدخله فاذا به قد وجد فى صدره شيخاً جليلا استجاره فأجاره وأدخله إلى مأمن فى البيت . وإذا شهود القتل جاءوا فى طلبه ، وقصوا الحادثة على الشيخ فاذا المقتول ابنه : فقال لهم لا تزعجوا ضيفى هلموا إلى ابنى القتيل واحملوه إلى موضع كذا وأقيموا له المأتم هناك حتى لا يعرف جارنا أنه قاتل ابن مجيره . ولما أن فرغوا من المأتم جاء إخوة

Digitized by Birzeit University Library

على وجود الذاتية واحترام النفس عند الاشخاص وعند الامم

حق ان من زهرة شيبتنا ومن علمائنا ووزرائنا الذين كل رأس مالهم هو العلم، من لا يقرأ العربية صحيحة ولا يكتب بها صحيحة، وهم مع ذلك لا يرون ذلك نقصا فى أنفسهم ولا تفريطا فى ذاتيتهم، بل ولا طاعنا على وطنيتهم.

ذلك موجود عندنا، ولكنه لا مبرر له أمام العقلاء ولا عذر منه أمام الواجب، ولكن من رجالنا أيضا من يحمر وجهه خجلا إذا أخطأ الاداء باللغة الصحيحة، أو إذا لوحظ عليه الخطأ فى الكتابة، سواء فى الألفاظ أو فى التراكيب. حتى كتاب الصحف الذين يضطرون إلى التنزل كثيرا فى الأساليب حتى يقرأهم العامة، فانهم مع ذلك يحرصون كثيرا على أن تكون تراكيبهم عربية أو كثيرة الشبه بالعربية. على أننا ونحن فى مصر عذرنا أوضح من عذر أبناء عمنا القاطنين فى منبت اللغة، والذين هم على اتصال دائم بالبادية التى لا يزال أهلها أحفظ للغة من سواهم من حواضر الحجاز.

سمعت أعراب البادية فى الشام يتكلمون لغة عليها شىء قليل من طابع العجمة، ولكنها مع ذلك عربية صحيحة، ملاحظ فيها أواخر الكلمات نوعا. مفرداتها عربية وتراكيبها عربية، ولولا لهجتها لقلت إنها أقرب إلى العربية من اللغة المصرية. وعندى أن اللغة المصرية هى على ذلك أفصح لهجات العربية بأسرها، خصوصا إذا قدر لنا أن نقف على أسهل الطرق لجعل العامة لا يخطئون فى حركات الاعراب، من غير تعليم علم النحو. وربما كان ذلك ميسورا مع الزمان واستعداد النفوس المحافظة إلى قبول رسم جديد فى الحروف، يظهر حركات أواخرها غير رسم الشكل.

أما العرب فانهم لا يزالون هم العرب، ومهما فرطوا فى بعض مشخصاتهم الأولى فان أمهات تلك المشخصات لا تزال حية فى طباعهم وأخلاقهم.

ومن الخطأ الشديد أن يظن بأن الاعراب هم أشباه أولئك الذين يتربصون لرجل انقطع عن القافلة يقتلونه ويسرقون متاعه ؛ أو يعتدون على امرأة

Digitized by Birzeit University Library

اسبوع فى المدينة المنورة

٦

المسالة العربية

العرب أكثرية فى بلاد الدولة العلية . أكثرية لا يكاثرها عنصر آخر من العناصر العثمانية ولو بعد زمان طويل . فلا شك فى أنهم بذلك أوفر العناصر حظاً من الانتفاع بالدستور ، والتقلب فى نعمته . ومهما كان عددهم الآن فى المجلس غير متفق مع نسبتهم لعدد السكان . فان تلك حال وقتية زائلة حتما اليوم أو غداً . لذلك لا نستطيع أن نفهم وجود مسألة عربية تستأهل النظر فى حلها . بل كل ما فى الأمر هو أن ينتبه العرب لتسجيل أسمائهم فى دفاتر الانتخاب ، وينتبه الأتراك الحاكمون لتنفيذ القوانين . ليس هناك مسألة عربية ، ولكن هناك قلقاً فى قلوب كثير من العرب سببه التفات بعضهم إلى إحصاء الموظفين من كل عنصر . وشيوع تهمة أن للحكومة يداً فى الانتخاب إن صدقا وإن كذباً . ومن العوام فى المدينة من يظن أن الدستور غير منطبق على قواعد الشريعة الاسلامية . لذلك هو لا يرضاه . ويثبت هذا الظن السوء بأن القضايا كان يفصل فيها فى المدينة فى ديوان الوالى ، وأما الآن فتعرض الاقضية على محكمة التميز فى الآستانة . اللهم إنا لا ندرى ما هى العلاقة بين الدستور وبين سرعة الفصل فى الأقضية ! ولكن هكذا يقولون . ومثل هذا القول الدال على قلق فى نفس الأهالى يجب أن يصل إلى أسماع أولى الأمر فى المملكة العثمانية ، وهم أقدر من غيرهم على وصف الدواء .

نقول إذا كان للمسألة العربية محل من الوجود ، فان وجودها الآن سابق

الجريدة فى ٣٠ من أغسطس سنة ١٩١١ العدد ١٣٥٨

Digitized by Birzeit University Library

المقتول يطلبون إلى والدهم القصاص على قواعد القانون وأنهم غير باغين على القاتل . فأقيمت الدعوى أمام ذلك الشيخ العادل فسمع الدعوى من بنيه وسمع دفاع المتهم ثم سمع شهادة الشهود، فثبت له منها أن القاتل كان فى حالة الدفاع عن نفسه فحكم ببراءته، وحكم بأن يوصل إلى مأمنه، فأخذ القاتل وقتئذ يبكى. فقال له ذلك القاضى العادل ماذا يبكيك وقد ظهرت براءتك ولم يبق فى عنقك دم لاحد، فان القتيل هو ابنى وأنا القاضى بالبراءة؟ قال الشاب إنى أبكى على أن مثلك يموت كما يموت الناس .

هذا قليل من كثير من أخلاق العرب، تراه عديم المثال فى غيرهم من الأمم الأخرى . ولا شك فى أن مبدأ العدل والانصاف من الذات هو عنوان على كرم الأخلاق وعلو الصفات .

Digitized by Birzeit University Library

احمد عرابى

اليوم يدفن نابغة من نوابغ المصريين : ورجل من رجالهم لعب دوراً مهماً فى تاريخها الحديث . ولا يزال وطنه يئن إلى اليوم تحت ما حمله من أثقال شهواته السياسية واعتداده بقوته الحربية . والذى يهمنا فى هذه العجالة إن نحكم حكمنا على هذا الرجل التاريخى الذى كان مستقبل مصر طوع يمينه ، إن أصاب الفكرة وحزم فى الرأى وأتقن العمل ، جعله مستقبلا سعيداً . وإن عجل ولم يتدبر وانقاد لشهواته أو شهوات زملائه ، وقعت مصر فى التعاسة . ومن نحس الطالع أن الذى جرى هو آخر الفرضين .

أضع أمامى حوادث هذا الرجل الكبير وأقارنه بغيره من القواد المجازفين ورجال السيف المتعسفين . أضعه وإياهم أمام مرآة النظر ، وإلى جانبهم شهوة العلو وحب تشريف الأوطان بسفك الدماء . أضعه مع رجال الثوارت السابقين ، والذين بغوا على قومهم فثلوا عروش الملوك وغشوا الأمة بنزاهتهم ، حتى إذا صارت وراءهم وألقوا فى البحر تيجان ملوكهم ، رجعوا عليها فكانت أهون عليهم من أولئك الملوك الأولين . فرقوا عرشها ولبسوا تاجها وظلموا أهلها ، مرة ببذخهم الفاحش وطوراً بتوريطها فى ميادين الفتح لا لتكتسب من وراء ذلك أرضاً تزرعها أو تجارة تديرها ، ولكن لتصل — على ما يقول هؤلاء السفاكون — إلى أوج العز والرفعة ، بعد أن تقدم لذلك الفخر الباطل ، أعز أبنائها وأفلاذ أكبادها . تقدمهم لا ضحايا للدفاع عن الوطن ، ولا مهوراً لكسب منفعة ، ولكن ارضاء لعظمة الملك وإشباعاً لصيت هذا الملك العظيم والامبراطور الكريم

أضع عرابى مع هؤلاء فلا أجد أكثرهم إلا مساويه فى الحسب

الجريدة فى ٢١ من سبتمبر سنة ١٩١١ العدد ١٣٧٧

Digitized by Birzeit University Library

لأوانه جداً . وخير للذين يسعون فى تأليف حزب لبث شكايات العرب ونشرها ، أن يرشدوا الاعراب إلى معنى الدستور، فانهم إن علموه أحبوه ، ولكننا لا نغفل عن أن نطالب رجال الفضل والسداد من جمعية الاتحاد والترقى أن ينزلوا فى العمل عن التمييز بين العنصر التركى والعنصر العربى ، كما نزلوا عنه بالقانون يوم أعلنوا دستورهم وجعلوا العالم بأسره يدهش لشجاعتهم وقدرتهم الفائقة على الوصول إلى ما يطلبون . وليكن من همهم أن يخالفوا العهد السابق فيجعلوا للغة العربية مقاماً يليق بمقام العنصر الناطق بها سواء فى المدارس أو فى المصالح الأميرية وعلى الأخص المصالح المركزية فى ولايات الشام والعرب والعراق . ولئن كان للمسألة العربية ظل من الوجود فحلها بيد العثمانيين من غير مضارة أحد . وعلى ذلك نحن لا نستطيع أن نحكم بأن جهاد النائب المحترم شكرى افندى العسلى مفيد للعثمانيين أو مفيد للعرب . بل الأفيد منه ألا تجر الجزئيات العملية إلى ميدان النظريات حيث يتعقد حلها .

مبدأ المساواة والانصاف ضرورى يجب الالتفات إلى تحقيقه قبل كل شىء . ولكن تجاوزه عمداً أو خطأ فى وقت الانقلاب السريع ، أمر عادى لابد من تلافيه عملا فى مستقبل قريب . فخير للعرب الذين يريدون خدمة عنصرهم وبلادهم ، وخدمة العثمانية جميعاً ، ألا يكثروا القول المفرق لقلوب الجماعات وأن يداووا الغلطات العملية بعلاج عملى من غير أن يوسعوا أمرها ويجعلوها فى عداد النظريات الدائمة .

Digitized by Birzeit University Library

لايجوز لنا أن نغمط حق الرجل فى انالتنا الدستور، بل يجب علينا أن نردد له شكر آبائنا يوم صدر قانون الانتخاب وقانون مجلس النواب، فان كانوا بنا لم يستطيعوا حفظ مراكزهم، أو اذا كانت انكلترا أغلقت المجالس وألغت قانونه يوم دخولها، فمما لاشك فيه أن ذلك ليس من خطأ عرابى ولا من ذنبه. ومع ذلك إذا كان عرابي فى أخريات الأمر أو فى عهد الثورة لم يحترم استقلال المجلس وضغط عليه بقوة السيف، فذلك عمل آخر يحسب عليه بعد أن يحسب له كسب الدستور.

لعرابى سيئات بعد ذلك فيما يتعلق بخروجه على خديو هادىء من غير مصلحة عامة للأمة. وفى عدم تقديره حالة أمته من القوة والضعف تقديراً صحيحا. وفى الجهل بالمقارنة بين قوته الحربية وبين قوة انكلترا. وفى الانخداع ببعض المهيجين الانكليز وببعض كلمات نوابهم الأحرار. وفى خطوط العسكرية وفى تركه ساحة القتال صحيحا سليما طليقا دون أن يترك نفسه يقتل أو يؤسر، ومهما قيل فى أنه كان من عزمه أن يخندق على القاهرة ويقيم خط النار فى العباسية، فان كل ذلك استمرار للخطأ الأول الذى هو الثورة.

عرابى له حسنة كبرى وسيئة كبرى. حسنته عمدية ومعظم سيئته خطأ وجهل. فأما الخيانة فذلك أمر لا نعرفه فى قوادنا المصريين المحسنين والمسيئين على السواء، وكان من شأن هذه السيئة التى عوقب عليها أن تأكل الحسنة الأولى كما أكلت آثارها وهى الاحتلال أثر الحسنة، وهو الدستور؛ فيصبح عرابى بعد ذلك على الأقل إنساناً لاله ولا عليه كبقية خلق الله الذين ماحركوا غضباً ولا هزوا قنا، مثل مجموع الناس الذين ليس لهم مايفخرون به. ولكن كان الأمر على غير ذلك، فان الرجل عاش فى منفاه مذموماً عند قومه مجانا وبغاية الجرأة. يقدر على ذمه والنيل منه من لا يقدر أن يدافع عن نفسه، فلما جاء من منفاه وهو شيخ فان أشيب لم يحترم له شىء من حسن نيته ولم يكن لحسن النية هذا من تخفيف القدح فيه نصيب، بل استقبل بألعن مما يستقبل

Digitized by Birzeit University Library

والنسب، مشابهه فى مركزه العلمى بالنسبة لقومه . بل أقل منه فى درجات فى الفضيلة الأخلاقية .

أضع عرابى مع هؤلاء. فلا أجد فى نفسى إلا معنى واحداً يساورها ويجذبها إليه ثم يملكها من الطرف إلى الطرف . هذا المعنى هو قول القائل :

والناس من يلق خيرا قائلون له   مايشتهى ولأم المخطىء الهبل

لقوا نجاحا فعظموا ولقى عرابى فشلا فصغر وجرد وأصبح متهما بخيانة الوطن ، متهما بأنه باع مصر بثمن دراهم معدودات، أوجنيهات آلافا مضروبات ، يقول بعض العامة إنها جنيهات مزيفة . فلم يكف الرجل أن أخطأ فى عمله لخير بلاده . ثم أخطأ فى انقياده لغشم أنداده ، ثم حكم عليه بالابعاد والتجريد . كأن لم يكفه ذلك أمام العامة نكالا ، حتى عدوه لصا بسيطا. ولو نجح لتراموا على أقدامه و ستدروا خيره وتوقوا شره ، ولكن تلك هى عادة الجماهير فى جميع البلاد .

لعرابى حسنات قبل الثورة وله سيئات فى الثورة . له حسنة رضيت عنها الأمة وفرحت بها ، رضيها المغفور له توفيق باشا وسار عليها العمل . تلك الحسنة الكبرى هى الدستور ، ولولا عرابى لم يكن الدستور . فالدستور المصرى من عمله ومن صنع يده ومن آثار جرأته . طلبه عرابي لا بوصف أنه عسكرى ثائر، ولكن بوصف أنه وكيل وكلته الأمة فى ذلك ، فان عريضة طلب الدستور كانت ممضاة من آلاف من وجهاء الأمة ومشايخها . فاما كون القوة العسكرية هى التى كانت الآلة لتنفيذ إرادة الأمة فى ميدان عابدين، فذلك ان لم يكن مشروعا قانونا، فانه مشروع بتقاليد الأمم . لأنه هكذا جرى فى كل بلد من البلاد ، وكان القائد للحركة الدستورية فى كل بلد يحمل على الأكتاف ويهتف باسمه فى الشوارع والنوادى والمجالس ويعتبر أكبر بطل من الأبطال. فعرابى حقق آمال الأمة بالدستور ولم يرتكب فى ذلك جريمة ولم يسفك دما، بل كانت الحركة فى حقيقتها سلاما لابسا كسوة حربية .

Digitized by Birzeit University Library

فى الرأى ، لما كان مع ذلك عذر لآبائنا الذين سهلوا لعرابى أن يثور وأن ينخدع بنصحائه من الانكليز ومن غير الانكليز . فكيف يكون لهم عذر ولم يقتل فيها واحداً ظلما ، على أنه وقف فى طريق الثورة . فعرابى لا يصح أن يتحمل وحده مسئولية جميع الأعمال التى كونت الثورة وأنتجت النتيجة السوداء .

ندفنه اليوم بطلاسىء الطالع ، ندفنه وندعو الله أن يتجاوز عن سيئاته ، وأن يرحمه برحمته الواسعة .

Digitized by Birzeit University Library

السارق والخائن، حتى لم تلحظ له جرأته، لأن النبوغ فى الجرأة له كرامة ما، ولو وضعت فى غير موضعها. لم يحفظ له شىء أصلا من تاريخه الطيب بل نشر أخبث أطراف تاريخه واتهم ضميره بالخيانة ولا يعلم الضمائر الا الله. فلما أقام بيننا كان الواجب أن يكون كبقية الناس بعد أن غسل العقاب ذنبه ولكنه كان يطعن عليه بأقبح المطاعن. الرجل ماعرفته أبداً ولا جالسته مطلقاً، ولكنى أظن أن سوء مقابلته من أصحابه ومواطنيه غيرت قلبه وحطت من همته، فأخذ يدافع عن نفسه بعض الأحيان دفاعا أقل تناسباً مع اسمه وملكاته، ثم أخذ يتذرع - كما يقولون - إلى انكلترا بطلبات شخصية كان حقيقاً بمثله أن يدفنها فى قبر فشله، وأن يعتبر نفسه قدمات من يوم التل الكبير. وأنه إن كان له أنفاس يرددها فى الحياة، فلتكن أنفاساً هادئة خاملة كأنفاس كل فرد من أفراد الأمة العاديين، نخطؤه فى الظهور مرة وفى الدفاع مرة وفى المطالبة بمعاش مرة أخرى، كل ذلك لا ينطبق على قائد كبير، قابله الدهر باليد العسراء، وجعل الفشل قيداً لجهاده فى خدمة بلاده.

لا أنكر أن عرابى أساء وطنه وأمته، ولكن يجب أن أسارع بأنه أساء غير عالم بأساءته. أساء من حيث أراد أن يحسن. وأضر من حيث أراد أن ينفع، فله ثواب النية، وعليه مسئولية النتيجة.

نعم عليه مسئولية النتيجة، ولكن ما أظنه منفرداً بها، لأن المغفور له توفيق باشا يجب أن يتحمل منها نصيباً أيضاً، ومجلس النواب يجب أن يتحمل منها نصيباً، كل على قدره، بل أمراء البلاد وأعيانها وتجارها، يجب عليهم أن يتحملوا من المسئولية شيئاً. يقولون إن عرابى أخافهم بحد السيف، وهل حد السيف يخيف الرجل ويلوى به عن مصلحة أمته؟ الواقع أننا ماسمعنا أن رجلا واحداً قتله العرابيون، لأنه تنبأ بسوء العاقبة وأنذر وحذر ووقف لهم فى طريق الثورة موقف الخصم الألد. ولو أنهم قتلوا من كان يعارضهم

Digitized by Birzeit University Library

لتطهير الأرض من أرجاس الجاهلية الأولى، ليقيموا على أطلالها مدنية قوية أساسها تطهير القلب وفك العقول من قيود الوهم القديم .

هاجر صلى الله عليه وسلم من غير عدة للهجرة إلا نفسه الزكية وقوة اعتقاده فى الله ؛ إذ لم يكن الا ثانى اثنين (إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) حتى أتم الله له وعده بنصر الحق والله لا يخلف الميعاد

سن صلى الله عليه وسلم بهجرته للناس أنه لا ينبغى للمرء أن يداجى فى الحق مهما أصابه فى سبيله . وألا يسكت عن الحق مهما كان إجماع الناس على نقيضه، ومهما لقى من جرائه . ثم قال : (الساكت عن الحق شيطان أخرس) وعلى هذه السنة الشريفة جرى سلفنا الصالح عليهم رضوان الله ، أبلوا فى اظهار معتقداتهم فى أصول الدين وفروعه وفى بيان آرائهم الصالحة للجمعية البشرية ، ولم يبال أحدهم بقوة السلاطين والأمراء ولا بكيد الخصوم الألداء ، وبعلمهم هذا قامت المدنية العربية على أساس متين من تقوى الله واصلاح حال العباد .

فلنذكر بعد هجرة نبينا . ولنعمل على سنته الشريفة بألا تنزل عن شخصيتنا ولا نكتم ما نعتقده الحق ، ونصبر على أذى مخالفينا . فالله يتولى العاملين .

Digitized by Birzeit University Library

أول العام

نحن فى دنيانا نعامل الزمان. نأسف لأمسه، ونطمع فى غده: نخاطبه ضارعين، ونرجوه خائفين ومؤملين. نطالبه بتحقيق أمانينا، نكرم منه يوم السعادة، ونسخط منه على يوم الشقاء، كأنما هو حليف نقاوله، أو خليل نساجله، أو عدو ننازله. ولكن هذا الكائن القديم، كأنه لا يطربه ثناؤنا عليه ولا يهمه امتعاضنا منه. لا يسمع لنا دعاء ولا يفهم لنا رجاء، بل يمر بنا تابعا سيره العادى، لا يستأنى إذا أقمنا له التشريفات. ولا هو يعجل حتى لا يسمع منا اللعنات، بل هو ينظر الينا بعين جامدة النظرات لا تدمع حنانا ولا تلحظ شزرا. ينظر إلينا فلا يتعرف من نحن ولا من أى الأوطان نكون. يتجلى علينا يوم الكريهة كما يتجلى يوم الزينة. لا تستوقفه الروضة الغناء فى ربيعها أكثر مما يستوقفه الجبل الأجرد فى وهج القيظ. أبيضنا وأسودنا فى حكمه سواء، ولكننا ألفنا مع ذلك أن ندعو الزمان، ونشفق من كوارث الزمان، ونرجو فى مستقبل الزمان.

وما الزمان الا ظرف حياة الأفراد والأمم. تضاف اليه أعمالنا فتخلع عليه فى عرفنا ألوان صفاتها. فهو بها لدينا شريف أو خسيس، سعد أو نحس، حقير أو عظيم.

فليعلم الزمان بوجودنا على هذه الأرض أو فليجهلنا، فانه على الأقل يسمع ويعى. يعى للأجيال المستقبلة احتفالنا بهذا الغد الكريم تذكاراً لجده الأول يوم الهجرة النبوية، إذ هجر رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم أهله وعشيرته فى القيام بتبليغ رسالات ربه. هجرها بعد أن تآمروا على قتله ليحقق وعد الله برجال مؤمنين ينصرون الحق ويخذلون الباطل. يجاهدون

الجريدة فى ٢١ من ديسمبر سنة ١٩١١ العدد ١٤٥٠

مكتبة جامعة بيرزيت الرئيسية
Digitized by Birzeit University Library

الأزمان نادرون ، يخرجون بعيشتهم عن الاحكام العامة . ولعل أولئك هم المهتدون .

أما نحن الذين بطبيعة عيشتنا الاجتماعية نتقلب فى أجواء من الأطماع الخاصة والعامة ، ونتمرغ فى هموم من الخوف والرجاء ؛ نعمل ونكد لنحصل على نتيجة عملنا ؛ والذين كنا ولا نزال هدفا للرذائل الاجتماعية المتولدة عن طبيعة عيشتنا ومقاصدنا فيجب علينا أن نتسلح لمعترك الحياة بما يضمن لنا النجاح ؛ وأول عدة لهذا النجاح هو الاستقلال الذاتى والحرص على الشخصية فى صورتها الفاضلة

تتألف شخصية الانسان المعنوية من معتقداته الدينية والاجتماعية والسياسية، أى من آرائه فى الحياة . تلك الآراء التى هى قاعدته فى جميع أعماله الخاصة والعامة . فاذا كان الانسان ناقص الشخصية ، أى عديم الرأى أو متردده فى عقائده ، فجدير به ألا يكون صالحاً لعمل نافع ذى نتائج مستمرة فى الحياة . لأن بلوغ الغرض هو الباعث على العمل . وبمقدار الاقتناع بصحة الغرض، تكون الغيرة على إتمام العمل الموصل اليه .

عجبت لرجل ينزل عن عقائده بسهولة إرضاء لشهوة سريعة الفناء كوظيفة يعطاها أو رتبة يهواها ، أو ابتسامة رضى يتلقاها، وهو هو لا يسهل عليه أن ينزل لهذه الشهوة عن اسمه ، مع أن الاسم لا يكاد يكون إلا مميزاً لذاته . وما العقيدة إلا مقوم لتلك الذات .

كما أن شخصية الفرد هى الشرط لوجود العمل ولنجاحه فى الحياة الحديثة ، لأنها مناط الثقة به، ولصلاحيته لتأليف مجموع عامل مفيد، كذلك شخصية الأمة هى الأساس الأول لرقيها بوصف أنها أمة لأن شخصيتها هى أساس احترامها فى عين غيرها . ومجمع حفائظها القومية وعقد عاداتها وأخلاقها . وبالجملة هى مجموع مقسوماتها بوصف أنها كائن طبيعى حى مستقل بوجوده عما عداه .

Digitized by Birzeit University Library

الشخصية

صاحبك الذى يجفوك لا لأنه غضبان منك ، ولكن بالوكالة عن غيره ، لا تلمه ، بل اندب شخصيته فانه ميت فى ثوب حى ، ومفقود فى زى موجود .

ناصرك ما ناصرك الناس ، وخاذلك ما خذلك الناس ، وهو فى الحالين يستتر برأيك ، ولكنه يخاف احتمال مسؤوليته ، إنما هو امرؤ إمّعة لا تنفعك نصرته لك : ولا يضرك تخلفه عنك . لأنه فاقد الشخصية ، وفاقد الشخصية لا يزيد نصراء مذهب بعينه قوة ، ولا عدهم واحداً

الشعور بالشخصية هو ضابط أعمال الانسان وموجهها إلى منفعته ، فمن تضاءل فى نفسه هذا الشعور من الأفراد أو من الأمم ، فهو كائن بعيد عليه أن يستوفى حظه من الكمال الذاتى . بعيد عليه أن ينال سعادة الاستقلال .

الشعور بالشخصية فضيلة اجتماعية ، التفريط فيها هو ان يوشك أن يمحو الذات ، والافراط فيها هو رذيلة الأثرة الممقوتة

وإن من الأتقياء من يبرأون إلى الله والى الناس من الشخصية بأنواعها الثلاثة ، يبرأون منها وهى رذيلة ، كما يبرأون منها وهى فضيلة . يرون أن الواجب عليهم فى الوجود أن يمحو وجودهم الخاص ليمروا بالحياة سراعا دون أن يشعر بوجودهم فيها . يتقون الثناء كما يتقون اللعنة ، لا يطلبون من الحياة إلا كفافا من الرزق ، ولا يصرفون همتهم إلا فى الابتعاد عن الجمعية الانسانية ليتقربوا بالخلوة إلى الله . أولئك هم قوم عزلوا أنفسهم وميولهم وأعمالهم عن هذا العالم الذى نحن فيه ، وسمت بهم مطامعهم إلى الفناء فى الروح العامة القدسية . أولئك هم الزهاد ، وهم فى جميع

الجريدة فى ٢٤ من ديسمبر سنة ١٩٣١ العدد ١٤٥٢

Digitized by Birzeit University Library

في الأخلاق

البغى

أساس البغى فى نفس الباغى قوة تخدعه . فيجعل لا يحترم مبدأ من المبادىء الانسانية التى كانت مراعاتها هى العلة فى بقائه وفى قوته، بل هو يشرى بها نفعا عاجلا لا يلبث أن يزول ، وعلى الباغى تدور الدوائر .

غير أن الأمثلة فى هذا العالم قد يدل ظاهرها على تخلف هذه القاعدة

قوى يسلط على ضعيف فيظلمه ، ثم لا يجد الناس يد الانتقام العاجل تأخذ بحق المظلوم .

لص يسلط على نائم أو غافل ، يتسلق جدار بيته فيقتله ، ويسرق متاعه ويفر آمنا ثم قد لا تقع عليه يد العدل .

أمة تبغى على أمة ويمكن لها فى أرضها فتبق فيها زمانا طويلا أو قصيرا تختص بثمراتها وتقاسمها قوتها اليومى ، ومع ذلك تعيش فى هذا البغى آمنة مطمئنة لا يأتيها الخوف ولا يقع عليها جزاء البغى . حتى تصدق القاعدة : البغى مرتعه وخيم .

تلك هى الأمثلة التى يراها الناس فى الوجود الحسى ، فيوشك الآخذون بالظواهر والمتطيرون يعتقدون أن مبادىء العدل حبر على ورق ، وأن مبادىء احترام حياة الغير وحريته وملكيته له صرف .

إن النظر السطحىَّ فى هذه الأمثلة الكثيرة الوقوع بين ظهرانينا ، هو على ما نظن الهادم الأعظم لسياج الأخلاق الفاضلة . والمقوض لدعائم الثقة فى مبادىء الخير . بل المزعزع فى بعض القلوب لقواعد الايمان بالله الواحد

الجريدة فى ٣٠ من ديسمبر سنة ١٩١١ العدد ١٤٦٧

Digitized by Birzeit University Library

رحمة الله على السيد جمال الدين الأفغانى ، لزمته فى الآستانة شهراً و بعض شهر، وكلما جاء الـكلام عن مصر كان يقول ما رأيت قوماً أقل استمسا كاً بشخصيتهم القومية من المصريين . فالا تعتصموا بشخصيتكم و تتعصبوا لجنسكم المصرى فلا بقاء لكم ولا حظ لـكم من الاستقلال .

صدق السيد ، فان منا من لا ينفك يفخر بانتسابه إلى العرب الأولين كأنما انتسابه إلى الجنس المصرى نقص وعيب . ولا يزال بعضنا ممن دست فيه الأعراق التركية يميل إلى تضحيته العصبية المصرية للعصبية التركية ، كما أن منا من يفضل الرابطة الدينية على روابط الجنسية والوطنية . فالم نذهب عنا بعزيمة هذا التحلل، نمت أسبابه وفشت نتائجه و تعذر علينا أن توسع بيننا دائرة المشابهات و تضيق دائرة الفروق . وبقينا كما كنا فى الماضى نقضى حياتنا القومية تابعين للمصادفة . بعيدين عن أشرف الأغراض القومية وهو الاستقلال .

Digitized by Birzeit University Library

فاما الذين هدى الله قلوبهم إلى الايمان بوحدانيته . وبأنه هو وحده القوى الباقى . وثبت فيهم الاعتقاد بالمبادىء الفاضلة ، وبأنها هى ملاك الاجتماع الانسانى وعلة بقائه ومصدر رقيه وتمدنه ، فانهم لا يرون فى أمثلة البغى مدعاة للشك فى مبادىء الحق والعدل ، بل هم يعتقدون أن القوى يستحيل أن يبقى قوياً إلى الأبد ، والضعيف يستحيل أن يبقى ضعيفاً إلى الأبد ، وأن القوة والضعف كلاهما عرض زائل ، وأن جزاء الباغى إذا أسهل ألا يهمل ، وأن إبطاء العقوبات على البغى ليس أساسه — كما يظن البسطاء — أن نظام العالم هو كذلك ، وأن الشر غالب على الخير بحكمه النظامى الوجودى . كلا ، إنما نحن على هذه الأرض ننظر النظامات العالمية من وجه واحد . ولذلك يكون حكمنا عليها ناقصا . كالذى لا يرى من البيت إلا وجهة واحدة ، وتكون بالصدفة هى الوجهة القبلية فى المبانى المصرية . فقل أن يجد فى هذه الوجهة إلا نوافذ صغيرة لا تتفق مع ضخامة بناء البيت ، بل لا تجد فيها محسناً واحداً من المحسنات الفنية . بل قد لا تكون هذه الوجهة مشيدة بالجبس ولا بغيره . فلو أنه كلف نفسه النظر إلى الدار من جميع جهاتها لرأى الجهة البحرية حافلة بالنقوش المعمارية الجميلة والأعمدة والشرفات والمشربيات الدقيقة الصنع ، مطلوة بأجمل الصبغات ، كذلك لو أن أفقنا النظرى غير محدود بالحدود الضيقة التى ليس من شأن طبيعتنا الانسانية أن تتعداها لما أنكرنا على النظام العالمى أمثلة البغى التى تقع كل يوم بين ظهرانينا ، بل لو نحن تركنا العجلة وأنعمنا النظر ، لوجدنا أن جزاء البغى يقع على الباغى حالا . لأن أول عمل من أعمال البغى ، هو بعينه أول سبب من أسباب سقوط الباغى وتحلل قوته . فاذا رأيت امرءاً بغى على آخر فاحكم بأن قوته ابتدأت أن تتحلل ، وسلطانه أخذ يتقلص ، وانصراف النفوس عنه قد أخذ بدايته ، واشمئزاز القلوب من عمله أخذ يظهر . فان أسباب قوة القوى رضى النفوس به واجتماع

Digitized by Birzeit University Library

القهار المصرف لأعمالنا والمسيطر على ضمائرنا وأفكارنا ، لأن القاضى الذى اعتاد أن يحكم على الحوادث بعينيه، دون أن يشرك معها قلبه وعقله، إذا رأى من يقف فى وجه الحاكم المخطىء ليصحح له خطأه أو ليثنيه عن عسفه، ما جزاؤه على اخلاصه فى النصيحة إلا الابعاد أو الاضرار بمصالحه أو بحريته . يرى العامى ذلك ثم لا يرى بعده نصيرا عاجلا من الانسانية ولا من المبادىء الانسانية ، فلا يلبث أن يدخل إليه الشك فى صحة ما يروى إليه كل يوم من قواعد العدل . واحترام رأى الغير وسمعة الغير يدخل اليه الشك فى صحة هذه الواجبات وفى فائدة العمل بها فى المجموع الانسانى، ما دام أن الفرد متى ملك رقاب الناس لا يحترم هذه القواعد ولا تلك القوانين، يدخل إليه الشك ثم يتجسم فى نفسه حتى يجعله يرى كل مبدإ من المبادىء الانسانية خادما للقوة . تتشبع نفسه من غير شعور بان القوة الفعالية أو المادية هى كل شىء ، وكل ما عداها لا شىء . متى اعتقد ذلك رأى استقلاله الذاتى خطرا عليه فيضحيه على مذبح القوة القاهرة ، ويصبح لا يفكر إلا كما يفكر الحاكم ولا يرى إلا بعين الحاكم ، ولا يسمع إلا بأذن الحاكم . يطيعه الطاعة العمياء لا فى حدود القانون المكتوب ، بل فيما يخرج عن حدود القانون والمصلحة أيضا . ولا شك فى أن هذا النظر هو الذى جعل الحكومات الاستبدادية خطرا على أخلاق المحكومين ، لأنها تورثهم طبائع الاستبداد.

إن المحكومين بالحكومات الاستبدادية يكثر فيهم الكذب اتقاء لبغى الحاكم ، وتقل بينهم الثقة لأن أفرادهم غير أولى قوة ولا ثقة لهم إلا بالقوة؛ يصغر فيهم مقدار حرية الرأى والاستقلال بالرأى ، لأن ذلك لا يتفق مع مصلحة الحاكم ولا يقف أمام قوته ، والقوة هى كل شىء . لذلك ضاق ذرع كل أمة عن احتمال الحكومة الاستبدادية أو حكومة القوة القاهرة ، حتى تسلم للناس أخلاقهم التى هى مصدر السعادة الفردية وقاعدة السعادة الاجتماعية .

Digitized by Birzeit University Library

عيد الجمعية الخيرية الاسلامية

نفرح بالعيد يسرى عنا بعض همومنا . ننسى فيه موقتا هموم الزراعة ورداءة المحصول وبخس الثمن، وهموم المالية ووقوف الحركة وانقباض أيدى البنوك وقلة النقود وكثرة نزع الملكيات المصرية فى ديون أجنبية . ننسى فيه الخصومات والمنازعات والاختلافات الواقعة فى المذاهب والآراء . ننسى به الوجوم الذى هو مظهر الهموم . نفرح به لأنه ينسينا ذلك، وإن كان لا يستطيع أن ينسينا همنا بالاستقلال

نفرح بالعيد يسرى عنا أسباب الخلاف فى المعيشة اليومية نتلهى عنها بجمعنا ورؤية أشباهنا ، والمرء ميـــال إلى شبهه . وشهود أزيائنا المختلفة ، ولنخرج به من الحالة العادية إلى عمل جديد كله ابتسام ومصافحة وتحيات متنوعة والنفس طلقة . فما أجمل العيد وما أحسن أن يعرف المرء كيف يصنع يوم العيد ، يترك المرء همه لساعة العمل، ويخلى بين نفسه وبين أسباب السرور . يتركها تستقبل ذلك الفيض الروحانى الذى يتجلى عليها من اجتماعها بالنفوس الأخرى . فان لم يفعل فهو فى العيد وليس من العيد على شىء .

(لـكل قوم عيد وهذا عيدنا .) عيد الذين يخافون الله ويطمعون فى ثوابه . يشعرون بأن حياة الرجل ليست له وحده . بل هى له ولجميع الذين يستطيع أن يكلفهم من عيال الله . عيد الذين يرون أن ملكاتهم وقواهم الكسبية تفيض عن حاجاتهم فينفقونها فى سبيل الله لمن لم يؤتوا منها ما يفى بحاجتهم. والذين صفوا نفوسا وطابوا قلوبا عن الأثرة الممقوتة فلا يذوقون للسعادة طعما إذا كان فى وطنهم من اخوانهم من يتجرعون

الجريدة فى ٣ من يناير سنة ١٩١٢ العدد ١٦٤١

Digitized by Birzeit University Library

القلوب على نصرته . فما بغيه إلا هدم لقوته التى هى سبب البغى . لذلك قالوا : على الباغى تدور الدوائر .

البغى فى الأفراد وفى الأمم مرض قتال هو بشائر الضعف ، ورسول الفناء . فلا يفرح الباغى ببغيه ، ولا ييأس المظلومون من عطبه ، فان لمعانى الشر آجالا ، ولكل أجل كتاب .

Digitized by Birzeit University Library

الحركة النسائية فى مصر

كانت ترمى هذه الحركة النسائية فى مصر إلى غرض أصلى كبير، هو تربية المرأة المصرية وتعليمها حتى تشعر لذاتها بوجود خاص وشخصية مستقلة، لتستكمل حظها هى أيضا من الكمال الذاتى، ولتنتفع وتنفع بخير الحرية المفيدة التى ما منعتها إياها شريعتنا، ولكن أنانيتنا وفرط غيرتنا.

لاقت هذه الحركة فى أولها معارضة شديدة، بل حربا عوانا من المحافظين، كادوا يقتلونها جهلا بمزاياها، وفزعا عن الانتقال مما يألفون إلى مالا يعرفون، شأنهم أمام كل جديد من الأفكار والآراء والمقاصد. كادوا يقتلونها لولا أن اجتمعت لها ظروف كثيرة عرفت أن تستخدمها لنصرتها، فكان من نصرائها الدين الحنيف الذى لم يحظر على المرأة من مقتضيات الحرية إلا ما يضر بكمالها الذاتى ولا يتفق مع الحياء والأدب اللازمين فى كل زمن من الأزمان. ولا شك فى أن حركة تتسلح بالشريعة، اى تتسلح بسيف يقطع حجج المحافظين وألسن السوء وتغطرس الجاهلين.

وكان من نصرائها أيضاً هبوب الأمة من نومها العميق للمطالبة بحريتها، وبعيد أن يقبل من المطالب بالحرية أن يثبت طويلا واقفا فى وجه حرية غيره، إنما يعتمد المطالب بالحرية على أن الحرية حق طبيعى لكل مخلوق، فما أسمجه حين يدعى هذه الدعوى ويمنع الحرية أمه وأخته وزوجته. إنما يعتمد المطالب بالحرية صيغة طلبه بأن الحرية هى وحدها مرقاة بلوغ المرء إلى كماله الخاص والأمة إلى استقلالها التام، وبعيد على قائل هذا أن يمنع المرأة وهى أخت الرجل ونصف الأمة، من الوسيلة الوحيدة لاستحقاقها أن تكون بحق زوج الحر وجزءا من المجموع الناهض إلى الاستقلال.

الجريدة فى ٢٧ من يناير سنة ١٩١٢ العدد ١٤٨١

Digitized by Birzeit University Library

كؤوس الشقاء . لا يزالون يألمون عيشة الرخاء حتى تشهد لهم ضمائرهم الصحيحة بأنهم قد واسوا الفقراء بما فى استطاعتهم . لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

لئن كان العيد لأية مناسبة ينبوعا للفرح فان عيدمساعدة الفقراء، عيد الجمعية الخيرية الاسلامية ، جامع بين الغبطتين ، غبطة العيد فى أثره السعيد، وغبطة راحة الضمير التى يجدها المحسن إذ يقرض الله قرضاً حسناً ليضاعفه له أضعافاً مضاعفة، فيؤتى شركاءه الفقراء من فضل ماله ما يخفف عليهم بؤس العيش ، وينمى فيهم عاطفة الاعتراف بخير الاجتماع ، وليقلل من موجدتهم عن هـذه النظامات التى جعلت أحدنا ميسوراً بمحض ولادته . والثانى بائساً مع فضل شغله وكده

وليتم الله على الجميع نعمة الاخاء فانها أساس التضامن القومى ، وعنوان السعادة فى هذا الوجود المتعب .

تقيم الجمعية الخيرية اليوم عيد الفقراء أو احتفالها السنوى لتوجد بذلك فرصة للكرماء والمحسنين يأتوا من كل فج ليثبتوا تضامنهم وليفرحوا بهذا الأثر المجيد ، ليغتبطوا بأن الدنيا لا يزال فيها خير .

وإن الخير قد يغلب الشر فيدحره ويخفى وجوده، وينفرد دونه بالوجود . ذلك ماتجده اليوم تتجلى روحه فوق هذا الاحتفال .

فنحن نرفع إلى الجمعية الخيرية الاسلامية آيات الثناء وعبارات التهانى ، على أنها ترينا الخير منفرداً بذاته نلمسه بحواسنا ولو يوماً واحداً فى السنة ، كما نرفع آى الشكر لأولئك المحسنين الذين سيملأون اليوم جنينة الأزبكية الفسيحة وتياترو الأوبرا الخديوية ، ثم لا يجدون فى أنفسهم بعد ذلك إلا عاطفة الاحسان على إخوانهم الفقراء . إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا

Digitized by Birzeit University Library

كانوا يجدون من ذلك على أنفسهم غضاضة . يبتل جبين أحدهم بالعرق حياء من مماشاة زوجه إذا قابله أحد معارفه ، كأنما هو يخزى من أن تكون له زوجة أو أخت أو أم أو خالة . والواقع أن هذه نسبة لم يخل منها أحد من بنى آدم ، وليست نسبة سوء فى عرف أحد من الناس . إنه لا يخزى من هذه النسبة ، ولكنه يخزى من سوء الظن به إذا خيل لرائيه أن صاحبته ليست زوجا ، ولا محرماً . ولئن تكن معروفة بأنها محرم منه ، أذاه ما يتوقعه من نظر غير المهذبين اليها نظراً لا يحتمله ذو المروءة . كأن هذا الشعور المختلف الأنواع من شأنه أن يجعل أولى المروءات من الناس يحجمون عن مرافقة نسائهم كما ينفرون من تركهن وحدهن أو فى زمام أحد الخدمة ، فيترتب على ذلك حرمانهن من حقهن فى الخروج مع الحاجة إليه . هذه العقبة قد زالت أو كادت تزول ، فقد دخل فى عادتنا كثير أو قليل من مران الرجال واعتيادهم على الكف عن أن يستلوا ألسن السوء تنال من رجل لمجرد مشيه مع امرأة . وأصبحنا نرى هذا النوع من التنزه العائلى كثيرا بين ظهرانينا وإن دخول هذا النوع فى عادات المدن جعل الحركة النسائية تتخطى هذه العقبة الثانية أيضاً . نقول فى المدن لأننا فى القرى لا نجد بأساً من مرافقة الزوج زوجه إلى المزارع وإلى الأسواق . بل تلك هى العادة عندنا نحن الفلاحين .

اجتمعت للحركة النسائية تلك الظروف المناسبة ، وتخطت تينك العقبتين ، فنحن فى حل من أن نأمن عليها طوارىء التأخر أو معوقات السير فى طريقها الصالح إلى الأمام وأصبحنا نشعر بمزايا نتائجها . فان المرأة المصرية قد أصبحت تتشبث باثبات وجودها الخاص بعد أن كان وجودها فانياً فى وجود من يكفلها من الرجال . وصارت تدخل بنصيب فى الأعمال الاجتماعية العامة ، وسواء كان مظهرها فى ذلك قد أفاد أو لم يفد فالقدر المتيقن من هذه المظاهر أنها أصبحت غيورا على إثبات وجودها ، ضنينا بشخصيتها أن تمحى فى شخصية ابنها الرشيد ، أو زوجها المسيطر ، أو أخيها الكفيل ، شاعرة

Digitized by Birzeit University Library

وكان من نصراء هذه الحركة المباركة سيل التمدن الجارف الذى جاءنا من الغرب بمبادئه الفاضلة ورذائله ، ونحن مكرهون على قبوله دفعة واحدة من غير أن نستطيع أن تقف فى وجه تياره السريع ، ولا أن نجعل بيننا وبينه ردما . بل كل ما نستطيع هو أن نحاول تمصير فضائله وتضييق مجرى رذائله ، حتى نملكه ونحكمه فيكون بيننا وبينه شأن ننفى عنه الضار ونتمتع منه بالمنافع هنيئاً مريئاً . ذلك التيار المدينى قد جاء أيضاً لمصلحة حرية المرأة ، ومكن له فى عزائم المحافظين فنقضها كما تنقض قوى الحبل الشديد أنكاثا لا قبل لها بالمقاومة .

اجتمع لهذه الحركة المباركة من الظروف المختلفة ما جعلنا نعتقد أنها حركة جاءت فى أوانها واستوفت عددها الضرورية للنجاح ، فسارت فى طريقها إلى الأمام وتخطت عقبتين . أولاهما شر تجريب الكاتبين أقلامهم فى الوصف . فان أهون موضوعات الوصف وألذها طعما فى أذواق العامة وصف المرأة المتبرجة ، والوقوع فيها بالانتقاد ، وتلمس عيوب لبسها ومشيتها وحديثها ، واستنزال اللعنات على الحالة الأجتماعية الحاضرة ، وسب الزمان والمكان ، أولئك الذين يخلقون من التبرج صورة خيالية يصورون بها امرأة محصنة غافلة سائرة فى قضاء حاجتها من السوق أو بارزة بريئة تستنشق هواء الفسحات العامة ، يخيفون بما يقولون الأزواج على سمعة نسائهم ، والآباء على بناتهم ، فيوقعونهم فى بؤس العيش من الحيرة بين اختيار الظن ومضارة النساء ، والتضييق عليهن بما يأباه الدين ودواعى التقدم ، وبين احتمال الانتقاد المر الذى مادعا إليه فى نفس الكاتب إلاحب الكتابة واستلانة الموضوع . فالحمد لله قد كف الكاتبون أو كادوا عن تجريب أقلامهم فى هذا الميدان ، فتخطت الحركة النسائية بذلك هذه العقبة الأولى .

وأما العقبة الثانية ، فهى تردد أولياء الأمر على النساء ، وبغضهم السير مع بعض نسائهن فى الطريق مشاة أو راكبين الترام والعربات . فانهم

Digitized by Birzeit University Library

معرضنا الصناعي الزراعي

نحن مهما سمت منا المطامع طوعا لعواطف المجد، يجب علينا دائماً أن نعيش. انما نعيش بالكسب، والكسب فى الزراعة والصناعة.

المجد معنى عام تخصصه أشكال الحاجة اليه. فمجد البدوى القدرة على حماية ماله ومائه، والاستفادة من فيء غاراته، ومجد الحضرى القدرة على الاخلاص للقانون وطاعته سراً وعلانية، والحصول على ضروب الكفاءات التى تفى بحاجة المجتمع وتضمن له السعادة التامة. فمن المجد القدرة على جعل الأرض تنبت لنا ما تستطيع أن تنبت من حيث الكمية ومن حيث الجودة. ومن المجد القدرة على إتقان صناعة المواد الأولية وتحويلها إلى مايسد حاجة المحتاج ويزيد فى نعيم المترف. من المجد الزراعة ومن المجد الصناعة. ولست أكاد أعرف الفرق بين مجد القائد الذى يكسب لبلاده بحد السيف إقليما من الأقاليم قد لا تستغله إلا بعد أعمار طوال، وبين الذى يكتشف لقومه صنفاً من أصناف الزراعة ينفعهم حاصله فى الحال، أو الصانع الذى يدخل بلادها صنعة تكون موضوع الاستغلال، على طول الأجيال. فما أبطال الصناعة وأبطال الزراعة إلا كأبطال ساحات القتال، عمال للمجد مستحقون للتكريم والاحترام

حياتنا رهينة الزراعة والصناعة. وللحياة منازل من الشظف إلى النعيم: وهو المثال الأعلى الذى هو غرض الانسان فى حياته، بل غرضه أيضا بعد مماته. فعلى نسبة تقدمنا فى الزراعة ورقينا فى الصناعة، يكون قربنا من العيشة الراضية، وهى المثال الأعلى الذى نسعى بطبعنا للوصول اليه. نعيش بحب الشعير. فى أطمار بالية وأكواخ متداعية. نعيش كذلك، ولكن

الجريدة فى ٢٤ من فبراير سنة ١٩١٢ العدد ١٥٠٥

Digitized by Birzeit University Library

بأن عليها مسئولية عامة بقدر طاقتها . فاننا نجد الآن على الصحف أسماء كثيرات من النساء متبرعات للخيرات ولو من أموال ذويهن ، وكاتبات في الصحف آراءهن ، وخاطبات في المجالس بأفكارهن . كل ذلك ليس على الرغم من ولاة أمورهن ، فلنا بذلك نتيجة مزدوجة ، وهى أن المرأة أخذت تشعر بوجودها الخاص ومسؤوليتها العامة في الأمة وأن الرجل أخذ يسهل لها سبل هذه الحياة الجديدة من غير إكراه ولا مضض . أعنى أن الرجل والمرأة قد اتفقا بهذا العهد على (تحرير المرأة) فلم يبق إلا الزمن الكافى للحصول على الثمرات المنتظرة من هذا التحرير .

نحن لا ننكر تماماً آثار الاضطراب الاجتماعى الذى قد يكون مسبباً على الحركة النسائية وكثرة توقف الشبان عن الاقدام بسهولة على الزواج . ولكننا نعرف أن هذا الاضطراب وقتى اقتضاه الانتقال من حال إلى حال أخرى ، فلن يكون من الصبر عليه إلا زواله والاغتباط بنتيجة الانتقال ، وهى الوصول إلى جيل تكون فيه المرأة المصرية مستحقة لزواج الشاب المتعلم كبير الأطماع . ذلك الجيل هو الذى نعتمد عليه فى جنى ثمرات أتعابنا الحاضرة . وهو الذى سيشرف صحيفة تاريخنا ، ويرد إلى مصر مركزها العالى فى مصاف الأمم الكبيرة إن شاء الله

Digitized by Birzeit University Library

نحن نزرع ونكسب من الزراعة أقواتنا وفضلا من المال نشترى به مصنوعات الخارج. فتكون النتيجة أننا نخرج من عملنا صفر اليدين، نستهلك كل ما نكسب كأنما نشتغل باللقمة — كما يقولون — أما إذا كان ما نحتاج إليه من المصنوعات موجودا كله أوجله فى بلادنا فيكون عملنا الصناعى مكملا لعملنا الزراعى، تشترى الصناعة مايلزمها من الزراعة وتشترى الزراعة ما يلزمها من الصناعة، وكلا الثمنين داخل فى جيوبنا، وهو الذى يكون حقيقة ثروة للبلاد تزيد عن حاجات استهلاكها اليومى. هذا الوفر أو هذه الذخيرة هى ثمن استقلالنا الاقتصادى، بل ثمن استقلالنا السياسى المنشود.

من أجل هذا يكون من الصعب على المصرى أن يقدر السرور الذى يلج قلبه، والفخر الذى يوشك أن يلعب برأسه عندما يطوف معرضنا الزراعى الصناعى فيعجب بسعته وحسن رصفه وتنظيمه، إلى نظام أحسن مايكون، والقائم بذلك فى هذه الدفعة من المصريين تحت رقابة سكرتير الجمعية الزراعية المصرى أيضاً، ثم يعجب بما يجد من أصناف الزراعة التى جدت فى بلادنا من يوم المعرض الأخير إلى الآن، كبعض أنواع القطن والتحسين الذى دخل عليها من الالتفات إلى جودة الأصناف واتقان تربية النباتات والحيوانات. يعجب بالصناعات المختلفة التى هى من الجنسية المصرية وما طرأ عليها من التنويع والتحسين الموافق لمقتضيات العصر الجديد، مثل أنسجة الأصواف والحراير ومنسوجات الكتان والنجارة الدقية وآنية النحاس والفرش والحصر والجلود والفخار، سواء كان التحسين فى الصناعة نفسها أو فى آلاتها الصناعية، مثل نول مدرسة المنصورة الصناعية الذى نوع بطريقة حديثة، واستعمال الآلات البخارية فى المصنوعات النحاسية كما هو الحال عند الحسينى بك. كما تعجبنا الأنواع الجديدة التى دخلت فى الصناعة المصرية لتكسبها قوة ونماء، كالآلات البخارية التى تقوم بها مدارسنا الصناعية كمدرسة دمنهور ومدرسة مصر الصناعية. وكالرسم والتصوير فى جميع مدارسنا

Digitized by Birzeit University Library

هذا عيش دلت التجربة الماضية على أننا لم نرض به يوماً من الأيام ، ولا ادخرنا وسعاً فى أن ننفض عنا خوف الفقر ، و ننزع عن حالنا بؤس القل . واتفقنا على أن الحياة نعيم أجزاؤه ألذ ما يؤكل ، وأجمل ما يلبس ، وأبهى ما يسكن . وفضل يدخر لمقابلة الفقر ومحاربة رذائله . وللدفاع عن الشرف والأوطان . فلست أرى بذلك فضلا لقائل قولة تنفع الناس على صانع « قطنية » يلبسونها . إلا أن الأول يصفق له سامعوه . والثاني يلبسون من صنع يده ، وينسون اسمه .

والواقع أن الرجلين فى خدمة المجتمع لا فضل لأحدهما على الآخر إلا بمقدار إجادته فى عمله . كما أنه لا فضل للعلم على الصناعة ، وعلى الزراعة العملية ، إلا من جهة كونه هو الضامن لحياتهما ، والفاعل فى رقيهما .

لهذا الاعتبار كان احترام الزراعة والصناعة لا يقل عن احترام العلوم . واحترام الحكام فى نظر العقلاء لا يزيد عن احترام الزراع والصناع الذين على سواعدهم القوية ، وعقولهم المتفننة يبنى مجد البلاد وثروتها .

لعل هذه المقدمات طويلة . ولكنها مع ذلك ضرورية لاقناع أولئك الذين تعجبهم آثار الصناعة ، ولا يعجبهم احترامها واختيارها لأنفسهم ولذويهم ذريعة للكسب . أولئك الذين يكبر فى صدورهم مجد الحكم ، وشهوة الاستعلاء الباطل ، فيعلمون أولادهم ليكونوا حكاماً وينفرون من أن يعلموا بعضهم ليكونوا صناعا . يظنون أن المجد قاصر على الجاه ، والجاه قاصر على الحكم . أولئك الذين ترضيهم من الحياة الشهادة الابتدائية أو الشهادة الثانوية ، يتخذونها مطرقة يطرقون بها أبواب الرزق و يفتحون بها أقفال الآمال . ولا يرضيهم أن يسلحوا أولادهم من الصناعة بسلاح يقطع رأس الفقر ، وينمى ثروة الاجتماع . ألا إن من يبغ الجاه فليبغ الاجادة فى الزراعة والصناعة ومن يبغ رزقا حسنا ومالا كثيراً فليبغ الزراعة والصناعة ، ومن يبغ مجد الوطن فليعمل لتقدم الزراعة والصناعة .

Digitized by Birzeit University Library

المعرض الصناعى الزراعى

صناعتنا

من أى المصانع هـذا الطربوش الذى تلبسه على رأسك . والحذاءن برجليك ، وهذه الجبة (الأمبريال) ومنديل الحرير الذى فى جيبك وعباءة الجوخ والأقمصة ؟ من مصانع الغورية والعقادين والمحلة وميانة ، وورشنا الصناعية ، أم هى من واردات التجارة الأجنبية والمصانع الأجنبية ، أيها المصرى المعمم ؟ بل من أى البلاد ملابسك الحاجية والكمالية أيها المطربش ؟ هل يكسىءكلا الفريقين نفسه وأهله من صنع مواطنيه ويفرش بيته من صنع مواطنيه . ويزين حجراته بالكراسى والأرائك والصياهير والآنية والصفر من صنع بنى جنسه لينمى بذلك ثروة الوطن وليحفظ بين أفراده روابط التضامن ويثبت إتيته ونسبه إلى قومه بكل دليل ومظهر ، ويقيم البرهان على أنه مستعد للمزاحمة ؟ والمزاحمة ملاك الحياة .

نحن لا نكفر بخير التجارة الأجنبية ولا نتبرم بود أساتذتنا الأوربيين فى هذا العهد الحاضر ، ولكننا يجب أن ننكر على أنفسنا حب البقاء فى تبعية غيرنا والتعلق بكل ما ليس منا ، والسعى بأرجلنا إلى فناء وجودنا الذاتى ، والطمس من معالم رقينا الصناعى . ننكر على أنفسنا الجمود عن تقليد الأوروبى فى كل مدنيته . فى علمه وفى فكره وفى جده وفى تفضيله مصنوعات بلاده من غير مرجح ، إلا كونها من عمل اخوانه .

لا أغلو إن قلت إن التقليد عمداً وبغير عمد هو المادة الأولى للحياة الاجتماعية ، والتقدم فى درج الكمال الانسانى . ونحن قد ظهرت فينا أكثر

الجريدة فى ٢٦ من فبراير سنة ١٩١٢ العدد ١٥٠٧

Digitized by Birzeit University Library

الصناعية ، والموسيقى على الأخص فى مدرسة الفيوم إلى غير ذلك من الفنون الجميلة التى كان تعلمها فى مصر مهملا فى العهد الأخير .

نحدث عن معرضنا الصناعى الزراعى الآن بالاجمال الذى يعقبه التفصيل ، نحدث عنه ونحن نغتبط على الأخص بهذه النهضة الصناعية التى هى ضرورية لحياتنا ،ضرورية لنمو ثروة البلاد وفكها من قيود الحاجة لغيرها على صورة أشبه الصور بالتبعية التامة أو بالعبودية الخسيسة . ننشر ذلك مقترنا برفع آى الشكر إلى مجالس المديريات والجمعيات الخيرية وإدارة الصناعة والزراعة الأميرية على جدها وحسن عنايتها بالصناعة الظاهرة الأثر للعيان . ونحيي أولئك الصناع كبارهم وصغارهم كما تحيي الأمم أبطالها ، لأن هؤلاء المعلمين الصناع وهؤلاء المتعلمين ،يبنون بسواعدهم وتفننهم نوعاً من أنواع المجد المصرى الخالد .

Digitized by Birzeit University Library

اللهم لا يأخذنا الغرور فنطاول بمصنوعاتنا حديثة السن المصنوعات الأوروبية. ولا تأخذنا الغطرسة والدعاوى الباطلة فنزعم أن كل ما يلزمنا موجود فى بلادنا، وأننا أصبحنا بحيث نستطيع أن نجعل بيننا وبين الخارج من صناعتنا سداً. ذلك باطل. والصحيح أن مصنوعات بلادنا تسد بعض حاجنا، فاذا نحن صرفناها فى بلادنا نمت بنسبة ما يصرف منها، فانها خاضعة لقانون العرض والطلب كلما طلبنا منها كثرت، وكلما كثرت اشتدت ونمت وقل عوزنا إلى نفى أموالنا إلى خارج بلادنا كما نفعل الآن. لأن الظاهر أن بيننا وبين مافى جيوبنا عداء، نلقى بها إلى خارج البلاد. كأن مافى جيوبنا حقيقة فى صدورنا لا تزال تلتهب فيها حتى نلفظها عنا.

وهانحن أولاء قد رأينا فى المعرض الصناعى صنائع تسد حاج الفقير وترف المترف، فما على كل مصرى إلا أن يوصى تلك المعامل والمصانع والورش بما يلزمه. حقيقة يجد المرء شيئاً من القلق عندما يوصى بأثاث وفرش لحجرة النوم وحجرة الاستقبال وحجرة الأكل والبهو والمجاز، أو عندما يوصى بعربة أو «فيتون»، أو بسرج وتوابعه، أو بجراب لبندقية صيده. فيبقى فى انتظار ذلك زمناً قليلا أو كثيراً فى حين أنه يستطيع الذهاب فى لحظة إلى أى محل من محلات التجارة فيقضى كل ذلك فى أقل من يوم. وميدان الخيار بين النفائس أفسح من أن يجعله يقاسى مضض الاصطبار. لكن كل محبوب لابد لاقتنائه من تضحية. أو ليست هذه التضحية التافهة تضحية الاصطبار على الصانع المصرى المبتدىء، توازى عند وطنينا المتفانى فى الوطنية، ذلك الرضى الذى يجده عند ما يعتقد أنه أدى خدمة عظيمة لبلاده من غير أن يخسر شيئاً من جيبه. وهذه الفرصة التى تمكنه من التفاخر بأنه فرش بيته أو كسا جسمه من صنع بلاده، واعتبار نفسه قدوة حسنة ومثالا صالحاً للوطنية المصرية.

Digitized by Birzeit University Library

من غيرنا المرونة الكافية لتقليد المدنية الغربية ، وأخذت تنطبع فى عقولنا قواعدهم العلمية، وفى نفوسنا طرائقهم السياسية . حتى مظاهر حياتهم الخصوصية، نبنى على طرازهم ، ونفرش على مثال فرشهم ، ونلبس من أزيائهم . ونستطعم من مطابخهم ، ونأكل على مثل موائدهم ، ونقلد من صناعاتهم ، فلم يبق علينا الا أن نعطف على صناعتنا عطفهم على صناعاتهم . نفضلها على غيرها ، ونروض أنفسنا على استحسانها دون سواها . فان الحسن والقبح أمران اعتباريان لاحقيقة لهما إلا فى نفس المستحسن أو المستقبح . فاذا أحب الرجل بلاده أحب صنعها ، وإذا احترم قومه وقر فى نفسه احترام مايصنعون ، وإذا فهم الرجل أن كل قرش يخرج من جيبه إلى خارج بلاده هو تقليل من ثروتها ومعول يهدم به ركن مجدها ، عز عليه ألا يشترى إلا مصنوعات بلاده . فما ظنك إذا كان ينفق كل ما يكسب خارج البلاد . ويشترى كل مايلزمه ومالا يلزمه من خارج البلاد . ألا تراه بذلك يعمل لفقر البلاد؟ أتراه بعد ذلك مغرماً بحبها . عاملا على أسعادها ، مهموماً برقيها واستقلالها . أم هو كذباح العصافير فى قول بعضهم :

وكنت كذباح العصافير دائباً — وعيناه من وجد عليهن تهمل
فلا تنظرى ياليل للعين وانظرى — إلى الكف ماذا بالعصافير تفعل

يبكى على فقر الصناع وهو يغل أيديهم ويسد الطريق على ملكاتهم ويغمط حقهم ويغبن بضاعتهم ويحتقر جهادهم . بل هو يوشك أن يذبحهم ذبحاً بالاعراض عن شراء مصنوعاتهم . يتنحب على ما أصاب الصناعة المصرية ، ومصيبة الصناعة به أعظم المصائب . لو قلب أحدنا صحائف تقارير الصادرات والواردات لاعتقد أن وطنيتنا كلام ، وأن تضامننا هباء . وأننا نحتقر أنفسنا لأننا نحتقر قومنا ، ونجهل قاعدة تقدمنا ، ولذلك نحن نقاطعها ونعاندها . ومن جهل شيئاً عاداه .

Digitized by Birzeit University Library

المعرض الصناعى الزراعى

صناعتنا

الصعوبة فى الخطوة الأولى . متى تجاوزتها الصناعة سهل عليها السير فى طريق التقدم . ولقد شهدناها تخطوها بثبات ، فما علينا إلا أن ندفعها إلى الأمام، ذلك علينا وعلى الحكومة .

على أرباب المصانع منا أن يعلنوا عن مصنوعاتهم ليشمل العلم بوجودها فيتخذوا لهم محال فى الشوارع المطروقة . ويعرضوا بضائعهم لانظار المارة ، وما عليهم فى ذلك إلا أن يلفتوا نظارهم إلى غيرهم فيعملوا عملهم ، فمن الخطأ أن يتخذ لعرض المصنوعات الحوانيت السحيقة الواقعة فى بطون الأزقة ومنعطف الحارات البعيدة عن الشوارع المطروقة جرياً وراء الاقتصاد فى أجرة الدكان . هذا خطأ بين ، لأن الفرق فى الربح بين ما يبيعه دكان ظاهر بارز للعيان ، وبين ما يبيعه دكان مخفى لا يهتدى اليه إلا بعد السؤال والبحث عنه فى مظان وجوده ، ذلك الفرق ، هو بلا شبهة أضعاف أضعاف الفرق بين أجرتى الدكانين . ومن الغطرسة ن يعتقد الصانع أن جودة صنعته وحدها كافية لجذب الناس إليه وتحريهم أخباره واستقصاهم مكان تلك الوكالة المظلمة التى لا يدل ظاهرها إلا على أنها ملجأ قديم للعجزة طرحته المدنية الجديدة فيما طرحت وراء ظهرها من الأحياء المهجورة ، لأنها ليس عليها اسم محل التجارة ، وإن كان عليها، فتراها مكتوبة بالقلم الرفيع فى زاوية غير ظاهرة كأنما خطتها يد الحياء من الاعلان عن النفس . وما يعلن الصانع عن نفسه ، ولكنه يعلن عن صناعته ، وليس هو وحده المنتفع من رواجها بل كل مواطنيه منتفعون مثله من هذا الرواج ،على أن طلاب الجيد

الجريدة فى ٢٧ من فبراير سنة ١٩١٢ العدد ١٥٠٨

Digitized by Birzeit University Library

أظن بل أعتقد أن الذى يبغى الغرض يبغى الوسيلة ، فمن أراد تعضيد الصناعة المصرية وانماء الكفاءة الصناعية ، فأول واجب عليه — لا أقول أن يهب المصانع المصرية أو يقف ماله على المصانع المصرية — أن يشترى من المصانع المصرية بالثمن الذى يشترى به من المصانع الأجنبية .

بذلك يحى الصناعة المصرية . ومن أحيا الصناعة . فانما دفع البلاد إلى الاستقلال .

Digitized by Birzeit University Library

فى حيازة الصناع الماهرين ، واستغلال مهارتهم وإتقانهم بأن يؤلفوا شركات الصناعة . فان جيل عمل الأفراد قد مضى ، ونحن الآن فى عصر الشركات ، ولا شبهة فى أن نظام الشركات هو الذى أفاد الصناعة والتجارة ورقى بها إلى ما نراها عليه اليوم فى غير بلادنا . نقول ذلك لأنه مهما كثر الطلب على الصناعة المصرية، فانها لا تستطيع أن تقوم بعرض يوازى الطلب إلا إذا كان للمصانع من رؤوس الأموال ما يسمح لها بتشغيل كميات وافرة من البضائع الاحتياطية التى هى موضوع العرض . ومصانعنا ليس لها الآن هذه القدرة، إلا إذا أخذت بأيديها شركات تقدم لها الأموال اللازمة لنفقات العرض وسد حاجات الطلب .

علينا ذلك ، وعلى الحكومة أن تلق نظرة إلى بعض المصنوعات المصرية فتشجعها وأن تشترى منها ما يلزمها ، وأن تحتال إلى حمايتها بتعديل التعريفة الجمركية . ونحن لا ننكر أن فى هذا الأمر صعوبات متنوعة لا تقوى حكومتنا الأهلية على التغلب عليها . ولكننا من جهة أخرى نرى اللورد كتشنر يهتم بأمر الصناعة المصرية ، ولا شك فى أن أفضل اهتمام بها هو حمايتها وهى حديثة السن ضعيفة القوة ، من شر مزاحمة البضائع الاجنبية . نقول ذلك لنوفى التقسيم العقلى حقه من البيان . ولكن أملنا فى تحقيق حماية الحكومة للصناعة المصرية ضعيف قياساً على ما نراه الآن من اشتغال السياسة الأوروبية فى الشرق كتفاً لكتف . فاذا فاتتنا حماية الحكومة لا تفوتنا حمايتنا نحن أنفسنا للصناعة ، فاننا أقدر على حمايتها من الحكومة ، إذا وضعنا نصب أعيننا أن الأصناف المصرية من البضاعة المعروضة فى السوق هى كل شىء ، وغيرها لا شىء . وبودنا لو تفضل كبراؤنا فأرسلوا للجرائد أخبار التوصيات التى وصّوا بها فى المعامل المصرية ، حتى يكونوا قدوة للناس فى هذا السبيل . قد يرى بعضهم

Digitized by Birzeit University Library

من الصناعة لا يزالون قليلين . فأنك ترى الناس فى عمومهم يلبسون القطنى، ولكن الذين يلبسون قطنيات الحمصانى قليلون ، لذلك ترى البضاعة الشامية تزاحم كثيراً البضاعة المصرية فى هذا الصنف ، وإذا كان طلاب الجيد قليلين، فأقل منهم بالضرورة أولئك الذين يضيعون وقتهم ويكلفون أنفسهم مؤونة البحث عن دكان البضاعة الجيدة فى الزوايا المهجورة من المدينة .

وعلى الزبائن المستهلكين ، أى على الأمة ، أن تضع نصب عينيها أن تفضل مصنوعات البلاد عن مصنوعات الخارج ، ولو كانت أغلى منها ثمناً ، أو أقل بهجة . لأنها دائماً أكثر متانة ، ولأنها بضاعة مصرية قبل كل شىء . حسب البضاعة أن تكون مصرية لتكون موضع التفضيل للمصريين، ترانا إذا جاءت الحكومة برجل أجنبى تستخدمه فى إحدى وظائفها امتعضنا من ذلك ، وورم أنف كل منا أن يقبض الأجنبى راتباً من مصر دون أبنائها . وقد يكون للحكومة كل العذر فى ذلك ، إما لعدم الكفء منا أو لأن الظروف السياسية تقضى عليها بما فعلت . ولكننا كلنا ، حتى موظفى الحكومة، لا نقبل لها عذر فى هذا الصدد . على أننا مع ذلك نسرف من أموالنا فى المصنوعات الأجنبية دون المصرية، أضعاف الألوف بما تنفقه الحكومة على الموظفين الأجانب . أليس ذلك بالصراحة وقوعاً فيما ننتقده ، وضرباً من ضروب ضعف الانتاج ، بل ذهولا عن مصريتنا وسوءاً فى تصرفنا ؟ هو كذلك . ولو أن صناعتنا قوية تستطيع أن تزاحم المصنوعات الخارجية وتصرف فى غير مصر، لهان الأمر . ولكن صناعتنا هى بحيث إن لم تجد لها مصرفا فى مصر ، ماتت كما ماتت من قبل . ماتت ولكنها تبدى الآن دلائل جديدة على أنها تبعث . فخير لنـــا أن نحيط هذا الطفل الحديث بعنايتنا ورعايتنا وحناننا من أن نتوقع به الموت ثم نأسف عليه حين لا ينفع الأسف . علينا أن يلفت رجال العمل والكسب أنظارهم إلى مكاسب الصناعة فيفكروا

Digitized by Birzeit University Library

تاريخ اداب العرب للرافعي

الأديب وعلم الادب والاخلاق

لا يزال المعنى المدلول عليه بالأدب معنى عاما شائعاً غير محدود الجهات حداً واضحاً فى الأذهان . بل إن هذا المعنى تأخذ منه النفس صورة لا تزال مبهمة حتى يأتيها المثل الجزئى فيحددها تحديداً ما . فاذا قرأت قطعة من الشعر فى الغزل أو فى الوصف أو فى الانتقاد ، قلت إن هـذه القطعة من الأدب . كذلك إذا وقفت على مقالة من النثر فى غير موضوع العلوم الدراسية البحتة، روعى فى كتابتها الفصاحة والبلاغة وقواعد اللغة الصحيحة، قلت إنها قطعة من الأدب . فاذا وقع لك كتاب فى التاريخ أو فى الارشاد مهما كان مساسه باللاهوت، فذلك من الأدب أيضاً .

يتعلم المرء فروع الطب فيصير طبيباً ، وعلوم الهندسة أو الحقوق فيصير بذلك مهندساً أو متشرعاً . أعرف ذلك ولكنى لا أعرف بالضبط بم يصير المرء أديباً ، إلا أنى أعرف أن الأديب يجب عليه أن يكون قد قرأ كثيراً مما كتب فى التاريخ والانتقاد والشعر ، وما وقع الاجماع على بلاغته من كتب السير أو القصص، وما وضعه الكتاب والشعراء السالفون والحاضرون وبلغ الشهرة العامة وأطرافا من نكات محاورات الأدباء الأقدمين .. الخ

من اجتمع له ذلك قلة أو كثرة، فهو أديب مع مراعاة البيئة التى هو فيها أو التى سمته أديباً . أو لو كان هذا الأديب لا يعرف نظام المجموعة الشمسية من الفلك ولا قاعدة عكس مُربّع البعدِ فى علم الطبيعة . ولا مساحات المستويات الهندسية العادية ، ولا شيئاً من أوليات العلوم ؟ نعم . الذى قرأ بامعان ما نسميه عادة كتب الأدب ، واستظهر بعض القصائد ، واستطاع

الجريدة فى ٤ من مارس سنة ١٩١٢ العدد ١٥١٣

Digitized by Birzeit University Library

أن الاقتراح غير لائق . ونراه كذلك . ولكن اللائق يضحى على مذبح النافع . فاللياقة لا تجب المنفعة . ونحن حقيقة فى أزمة من جهة المالية الصناعية ، يجب علينا الخروج منها بكل الوسائل المشروعة . ذلك علينا نحن دون غيرنا . فلنجرب همتنا ، ونستجمع وطنيتنا ، ونحي صناعتنا ، حتى يثبت لأنفسنا بالتجربة أننا صالحون حقيقة لخدمة البلاد من أقرب الوسائل .

Digitized by Birzeit University Library

قد يكون الانسان فى بعض الأزمنة أديباً إذا حفظ شيئاً من المواليا أو المواويل الحمر والأزجال وجعلها أقيسة له يزن على منوالها ، وإن لم يكن ليعرف مما ذكرنا عن الأدب شيئا . حتى لقد يطلق على ذلك الذى يرتجل كلاما مقفى أغلبه فارغ خال من المعانى التامة التى من شأنها أن ترتاح لها النفس، ومن ذلك البيان الذى يسحر النفس وإن من البيان لسحرا ، من أولئك المرتزقة بالدف وضروب الكلام فى الموالد والأسواق . فان هؤلاء كانوا يسمون أيضا أدباء ، ولعل هذه التسمية قد جاءت من أنه لم يكن يوجد غيرهم أكثر استحقاقا منهم لهذا اللقب، كما كان يسمى بعض المشعوذين ومدعى الطب، أطباء وحكماء. وكما سمى بعض البناءين مهندسين معماريين . لأن الظاهر أن الأسماء لا تعطل فى هذا الوجود، فان لم تجد مسمى تلبسه، لبست أقرب المعانى اليه وأكثرها له مشابهة ، ومن أولئك الأدباء أميون من البدو يرتجلون ضربا من الشعر ذا وزن خاص من غير أن يتكلفوا مراعاة الاعراب ولا قواعد اللغة ، يودعونه خيالاتهم وتشبيهاتهم التى من انحطاطها لا تخرج عن كونها مقدمات شعرية تلذ لسامعيها من البدو ، كما قال أحدهم :

جملها تحت اللى ميسور بها ويثور . فنار وولع فى بابور
جملها وبن يحبك بخط وهى فوقه عين الشهان
تركى شارب ومليط يطير مخ جابين السيسان
الله عليم إنه مشلط مرض لا فى لى لى زمان
هوى بى مولى الشال يغط يسحب كيف رياح الجان

أو كقول بعضهم فى وصف معركة :

حبك سوقها دار رنه وفرس الردى به غارت
وإن رأيت قرعات الحصنة مقات هوروها وبارت

وكقول الآخر فى وصف تلك المعركة أيضا :

يوما ياهنا من غاب عنه والا حاضره وكاسب ثناه

Digitized by Birzeit University Library

أن يقول عن فكرة بعينها لأحد الكتاب إنها فكرة ساقطة، أو عن تركيب لغوى إنه تركيب سمج .. الخ . هذا هو الأديب. لذلك نجد المزاحمة على لقب « أديب » أكثر من المزاحمة على أى لقب من الألقاب العلمية الأخرى كالطبيب والمهندس والمحامى .. الخ .

بل تكاد تكون المزاحمة عليه عامة حتى بين العوام . لأنه ليس للأديب شهادة بعينها ولا كمية معينة من الكتب يقرؤها ، ولا شرط ظاهر لحسن البيان غير مراعاة قواعد النحو البسيطة . بل مع عدم مراعاة تلك القواعد فى بعض الأحيان . وعلى هذا ليس لجماعة الأدباء حدود خاصة، بل قد يكون الطبيب أديباً ، والمهندس أديباً ، والفيلسوف أديباً .

من أجل ذلك ترى التفاوت بين الأديب والأديب كالتفاوت بين السماء والأرض . أى الأدباء أشمل إحاطة بضروب الفصاحة ، وأسرار البلاغة وعلماً بأطراف العلوم المختلفة ، وأوسع محافظة للمعانى ، وأقدر على نقد الأساليب وأشد ذكاء ، وأدق نظراً ، وأرق عاطفة ، وأصح ذوقاً . وأكثرهم استحقاقاً للقب الأديب وإن لم يكن خط قطعة واحدة طول حياته . فالأديب فى عرف الأدباء ليس هو المعنى بذلك اللقب الذى نجعله فى مراسلاتنا اليومية قاطرة تجر وراءها ألفاظ التفخيم وعنوانات الشرف فتقول (حضرة الأديب الفاضل المحترم . . .) خطاباً لذلك الذى لم يقرأ من موضوعات الأولين إلا الأبجدية وتوابعها

ولكن اسرافنا فى التلقيب بالأديب وتصدقنا بعضنا على بعض به وتحاشينا أن يلقب بالطبيب أو بالمهندس من لم يكن فى الحقيقة طبيباً أو مهندساً ، ذلك الاسراف دليل آخر على أن ماهية الأديب فى أذهاننا غير قارة وصورتها غير محدودة بحدود تميزها عما عداها ، إلا أن يكون المقصود بالاديب هو الرجل المهذب الطاهر الأخلاق . وهذا المعنى غير ملحوظ، لأن لفظ الأديب يقرن عادة بالفاضل ، ولا يستعمل إلا للقارئين دون الأميين

Digitized by Birzeit University Library

على أننا باطلاقنا الأدب على هذه الماهية التى فى أنفسنا منها صورة ما، أقرب تَنا سُبا بين اللفظ والمعنى من الفرنساويين . لأن لفظ الأدب عندهم مأخوذ من بعض لوازم معنى الأدب وهو (lettre) حرف الهجاء، أما عندنافان من معانى الأدب التعليم . أدبه أى علمه بالاطلاق، فالذى علينا هو أن نقيد هذا الاطلاق بالقيود التى نأخذها من اصطلاحنا، فيما يتعلق بمعنى الأدب .

وعلى هذا يمكن رسم الأدب بأنه مجموع الآثار الجميلة من النظم والنثر والتاريخ فى الموضوعات غير العلمية الجافة فى زمن بعينه أو فى حياة أمة بعينها، فالأدب بالنسبة للموضوعات الكتابية أو الخطابية كالفنون الجميلة بالنسبة لموضوعاتها . فكما أن سماعك الموسيقى يحرك العواطف ويدعو إلى الرضى، ورؤيتك لرسم جميل أو صورة جميلة أو بيت جميل ... الخ تبعث فى نفسك حركة مقبولة . كذلك قراءتك قطعة من الشعر الجيد أو النثر البليغ أو قصة خيالية أو تاريخية، تؤثر فيك ذلك التأثير .

وكما أن موضوعات الفنون الجميلة هى الموسيقى والغناء والرسم والتصوير بجميع أنواعه . . . كذلك موضوعات الأدب أو الآداب هى القطع من المنظوم والمنثور ولو كانت هجائية . ولا شك فى أن قوام هذه الموضوعات هى اللغة من حيث فصاحة الكلمة وبلاغة المعنى وصحة التركيب ومتانة الارتباط وجمال الأسلوب . فالبحث فى الأدب وفى تاريخ الأدب، يدعو حتما إلى البحث فى اللغة التى هى مادة نسجه . فقد أحسن السيد مصطفى الرافعى إذ قدم بين يدى بحثه فى تاريخ آداب العرب بحثا مستفيضا فى تاريخ اللغة العربية ونشأتها وتفرعها وما يتصل بذلك . ثم أردفه ببحث فى تاريخ الرواية، وهذا هو ما أفرد به الجزء الأول الذى طبع من الكتاب، وهو الذى بين يدينا الآن .

قرأنا هـذا الجزء . فأما نحوه فعليه طابع الباكورة فى بابه . يدل على أن

Digitized by Birzeit University Library

يوما فيه قرعات الحصنة كانايات بيت السبل جاه

وإنما ذكرنا مثل هذه الأمثلة ليعرف القارىء بعض التفاوت بين الأدباء، سواء كان فى العصور المختلفة أو فى عصر واحد. فمن هؤلاء الأدباء الأمين، الاشوقى وحافظ والمطران وحفنى بك والمويلحى والمهدى والمنفلوطى والرافعى ... الخ الخ. كل أولئك أدباء فى عرف الجماهير. وإنما جاء ذلك من أن صورة علم الأدب فى النفوس لم تأخذ حظها من الظهور، ولم تستوف حدوداً مرسومة كبقية طوائف المعلومات الانسانية الأخرى. أطلنا الشرح فيمن هو الأديب، لأننا نحب أن نأخذ تعريفات الأشياء من الوجود الحسى لا من التصوير المجرد، ولأن تعريف الأدب فى لسان العرب هو (ما يتأدب به الأديب من الناس) فمن اللازم أن نتعرف من يسميه العرف أديباً حتى نستطيع أن نحدد ماهية الأدب.

وإذا جرنا الحديث إلى الأدب فى اللغة فانا لا نجد مناصا من القول بأن ماهية الأدب لغة ليست بأظهر منها اصطلاحا، بل هى مثلها مترامية الأطراف قلقة فى ذاتها. إذ يقول علماء الفقه إن الأدب هو من مادة الأدب وهو الدعاء، ومنه قيل للصنيع يدعى اليه الناس مدعاة ومأدبة. وسمى الأدب بذلك لأنه يؤدب الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح. ولا شك فى أن هذا التعريف اللغوى لا يتمشى تماما مع ما نريده من الأدب المسمى بالفرنساوية (litterature) لأن الذى يؤدب الناس ويدعوهم إلى المحامد وينهاهم عن المقابح مباشرة، إنما هو علم الأخلاق. ولا يؤاخذنى أصحابنا الأدباء إذا قلت إن الأدب، أدب اللغة، لم يكن من آثاره الدعوة إلى تلك المحامد مباشرة، بل قد يكون ذلك بالواسطة، لأن الأدباء فى كل زمان لم يكن فى سلوكهم من التحرج ما للأخلاقيين الذين قد لا يعرفون من قطع الأدب شيئا كثيرا ولم يقرأوا خزانة الأدب للبغدادى ولا الكامل للمبرد ولا الجمهرة ولا دواوين الشعراء وكلام الخطباء.

Digitized by Birzeit University Library

موظفونا

لا خلاف فى أن موظفينا اقتربوا كثيراً من معرفة الواجب أكثر مما كان عليه أمثالهم فى العهود الماضية، بحكم الرقى الزمنى وبفعل المدرسة الجديدة. ولكننا باعتراف موظفينا الأذكياء، لا نزال بعيدين جداً عن المثال الأعلى للموظف.

نحن لا نعدم بين موظفينا كثيراً من الأذكياء الأكفاء الذين يستطيعون أن يأتوا بالاصلاح اللازم للبلاد. ولكن الذى ينقصنا، هى الروح العامة للادارة من جهة، واعتقاد الموظفين بالمسئولية الأدبية من جهة أخرى.

أما الروح العامة للادارة فى مصر فانها غير متجانسة الأجزاء مجهولة المقاصد والبرامج عند الموظفين أنفسهم. وليس كل أسباب ذلك راجعة إلى الاحتلال، وعجز السياسة عن إيجاد نقطة تلتقى فيها مقاصد المحتلين ومقاصد الوطنيين. بل من تلك الأسباب ماهو متعلق بولاة أمورنا، فان الحوادث لا تزيدنا كل يوم إلا علماً بأن الحكومة فى بلادنا إنما هى لمصلحة الحكام لا لمصلحة المحكومين. فاذا كانت هذه القاعدة هى روح الادارة المصرية عند العنصر الأهلى للحكومة، فلا غرابة أن تظهر هذه الروح على تصرف موظفينا فى فروع الادارة المختلفة. نكرر أن موظفينا لا تنقصهم الكفاءة، ولكنهم مدفوعون فى أعمالهم بهذه الروح العامة التى يستمدون منها السلطة إلى التوفيق طوعاً أو كرها بين القوانين المكتوبة وبين روح الحكم المنتشرة فى عالم الحكومة، والتى تبدو أشكالها المختلفة على أوامر الرؤساء الشفهية ونصائحهم لمرءوسيهم فى الظروف المختلفة. وإنه لا سبيل إلى الحصول على نتيجة سريعة للاصلاح، إلا إذا تغيرت من نفوس ولاة أمورنا قاعدة الحكم

الجريدة فى ١١ من مارس سنة ١٩١٢ العدد ١٥١٩

Digitized by Birzeit University Library

المؤلف قد ملك موضوعه ملكا تاماً وأخذ بعد ذلك يتصرف فيه تصرفا حسناً . وليس من السهل أن تجتمع له الأغراض التى بسطها فى هذا الجزء الأول إلا بعد درس طويل وتعب ممل ، لم يتأخر هو عن وصفه فى مقدمة كتابه . وأما أسلوب الرافعى فى كتابته فانه سليم من الشوائب الأعجمية التى تقع لنا فى كتاباتنا نحن العرب المتأخرين ، فكأنى وأنا أقرؤه اقرأ من قلم المبرد فى استعماله المساواة وإلباس المعانى الفاظاً سابغة مفصلة عليها لا طويلة تتعثر فيها ولا قصيرة عن مداها تودى ببعض أجزائها . وإن هذا الجزء ، بل هذه المقدمة ، تدل على أن المؤلف سيخرج لنا من تاريخ أدب العرب ما يجمع شملها بعد التشتت فى كتب متعددة ، ويكون بذلك قد أدى للأمة أعظم خدمة يؤديها أشد الأدباء غيرة على الأدب .

نقول ذلك ونكرره لأن الأدب ليس كما يراه أهل العجلة فى النظر آلة مجردة لسمر الأدباء . وقصصه مقتلة جميلة للوقت الثمين . بل الواقع أن الأدب وتاريخ الأدب ، مشخص من أقوى مشخصات الأمة يربط ماضى أجيالها بحاضرها ويحدد ماهيتها ويميزها عن ما عداها ، فتستمر شخصيتها وتتسع بذلك دائرة المشابهات بين أفرادها ، وتقوى روابط التضامن فيهم . غير ما يكسب الباحث فى الأدب من رقة العاطفة وحسن الذوق والقدرة على جمال التعبير عما فى نفسه من العواطف والأفكار وحمل الناس على الاصغاء اليه وقبول مذاهبه قبولا حسناً . فالأدب فى كل زمان هو الصانع الوحيد لآلات شيوع المذاهب من الكتابة والخطابة .

فمن الغفلة أن يغمط حقه بين المعلومات الانسانية الأخرى ، وفيه ما ذكرنا من نفع الأفراد والأمم . لهذا النظر أيضاً نكبر غرض الرافعى ونشكره على ما حققه من بعض هذا الغرض ، ونحسن الظن من الآن بما سيأتى به من تحقيق غرضه الكامل : ونقترح عليه أن يتحرى تاريخ العبقريين من الشعراء والكتاب السالفين ويطيل فيه بقدر الامكان وإن كان ذلك يدخله فى غمار الكاتبين قبله فى تاريخ الأدب . لأن عمله لا يأتي بأكمل ما ينتظر منه من الفائدة ، إلا إذا كمل من هذا الطرف أيضاً . وإنه على ذلك بعد ما رأيناه من قلمه لقدير .

Digitized by Birzeit University Library

والاحترام اللازمين للحكم . فصناعة الحكم فى الحقيقة موكول تحديد أوضاعها لنفس الحاكم وشرفه ومحبته لبلاده .

فاذا رأينا الموظفين عندنا أكبر عملهم أن ينفذوا أوامر غيرهم، لا نعجب من أن نرى منهم من لايحب وظيفته ويريد الخروج منها اليوم قبل الغد . ويلذ له سماع انتقاد الحكومة والطعن على الحكومة بشرط ألا ينقل هذا المجلس إلى الرؤساء القادرين . ومن عدم حب الموظف لوظيفته ينتج عدم احترامه لها ، ثم يفضى الأمر إلى تفريطه فى احترام نفسه أيضاً — وليس حكمنا هذا عاماً فى الموظفين ، ولكن الذى يصدق عليه هذا القول لايزال بيننا مع الأسف كثيراً — ومتى كانت هذه حال الموظف ، قل أن ينتظر منه الاعتقاد بواجب الخدمة والقيام بها حق القيام .

وإذا تغيرت الروح العامة للادارة المصرية وأصبحت قاعدة الحكم مصلحة المحكومين لا مصلحة الحكام ، وإذا استمرت كفاءة الموظف باعطائه حقه المكتوب فى القوانين والتخلية بينه وبين الأوامر الشفهية، وهى وقتئذ لن تكون موجودة بالضرورة - هنالك تظهر كفاءة المصرى ظهوراً حقيقياً، ويأتى بالاصلاح الذى تطلبه البلاد .

Digitized by Birzeit University Library

المؤلف قد ملك موضوعه ملكا تاماً وأخذ بعد ذلك يتصرف فيه تصرفا حسناً . وليس من السهل أن تجتمع له الأغراض التى بسطها فى هذا الجزء الأول إلا بعد درس طويل وتعب ممل ، لم يتأخر هو عن وصفه فى مقدمة كتابه . وأما أسلوب الرافعى فى كتابته فانه سليم من الشوائب الأعجمية التى تقع لنا فى كتاباتنا نحن العرب المتأخرين ، فكأنى وأنا أقرؤه اقرأ من قلم المبرد فى استعماله المساواة وإلباس المعانى الفاظاً سابغة مفصلة عليها لا طويلة تتعثر فيها ولا قصيرة عن مداها تودى ببعض أجزائها . وإن هذا الجزء ، بل هذه المقدمة ، تدل على أن المؤلف سيخرج لنا من تاريخ أدب العرب ما يجمع شملها بعد التشتت فى كتب متعددة ، ويكون بذلك قد أدى للأمة أعظم خدمة يؤديها أشد الأدباء غيرة على الأدب .

نقول ذلك ونكرره لأن الأدب ليس كما يراه أهل العجلة فى النظر آلة مجردة لسمر الأدباء . وقصصه مقتلة جميلة للوقت الثمين . بل الواقع أن الأدب وتاريخ الأدب ، مشخص من أقوى مشخصات الأمة يربط ماضى أجيالها بحاضرها ويحدد ماهيتها ويميزها عن ما عداها ، فتستمر شخصيتها وتتسع بذلك دائرة المشابهات بين أفرادها ، وتقوى روابط التضامن فيهم . غير ما يكسب الباحث فى الأدب من رقة العاطفة وحسن الذوق والقدرة على جمال التعبير عما فى نفسه من العواطف والأفكار وحمل الناس على الاصغاء اليه وقبول مذاهبه قبولا حسناً . فالأدب فى كل زمان هو الصانع الوحيد لآلات شيوع المذاهب من الكتابة والخطابة .

فمن الغفلة أن يغمط حقه بين المعلومات الانسانية الأخرى ، وفيه ما ذكرنا من نفع الأفراد والأمم . لهذا النظر أيضاً نكبر غرض الرافعى ونشكره على ما حققه من بعض هذا الغرض ، ونحسن الظن من الآن بما سيأتى به من تحقيق غرضه الكامل : ونقترح عليه أن يتحرى تاريخ العبقريين من الشعراء والكتاب السالفين ويطيل فيه بقدر الامكان وإن كان ذلك يدخله فى غمار الكاتبين قبله فى تاريخ الأدب . لأن عمله لا يأتي بأكمل ما ينتظر منه من الفائدة ، إلا إذا كمل من هذا الطرف أيضاً . وإنه على ذلك بعد ما رأيناه من قلمه لقدير .

Digitized by Birzeit University Library

فان الحكومة وهى بنظامها الحالى الذى يسمونه النظام الاستبدادى ، ليست هى حكومة الأمة كما هو الحال فى الحكومات النيابية . فهى بذلك مع الأمة فى تنازع مستمر على السلطة . تنازع ينتهى بغلبة أيهما أكثر عددا من الرجال المهذبين القادرين على ضبط أهوائهم والدفاع عن مبادئهم . ولكن الحكومة كانت تضم إليها كل متعلم من المتعلمين وتحيطه بدائرة ضيقة من القوانين لا يستطيع معها أن يكون حجراً ثابتاً فى بناء سلطة الأمة . فكانت الأمة على ذلك أقصر طمعاً من أن تتشبث بطلب حقوقها الطبيعية، وأضعف من أن تحقق من سلطتها شيئا حتى زاد عدد المتعلمين فيها عن حاجة الحكومة من ناحية ، وخرج من الحكومة بعض أفرادها من ناحية أخرى . فكان لوجود هؤلاء المتعلمين فى الأمة وزن فى كفتها، بل كانت كفتها خفيفة جدا بالنسبة لكفة الحكومة فى ميزان التعاون بين الطرفين ، ولكننا لانزال نجد كفة الحكومة راجحة بعدد رجالها الأكفاء على كفة الأمة ، ولاشك فى أن التعادل أضمن لصون المصالح العمومية . هذا النظر هو الذى — كما يقولون — يخرج بنا عن حد الاعتدال فى حب استقالة الموظفين . لأن الحكومة فى شكلها الحاضر لا تقدم متعلمين ينفذون القوانين ويديرون ما كينتها الكبرى على الطريقة التى ترسمها هي والأمة، تكسب بتحرير الرجل القوى من القيود الحكومية قوة حرة ، تعينها على تحقيق مطلبها من الرقى ، وتشد عضدها للاعتماد على نفسها فى الظروف الصعبة .

ليس هذا هو كل ما يفسر تهنئتنا للوزير المفضال سعد زغلول باشا على استقالته من وزارة الحقانية . بل نضيف إليه أن إستقالته تسجل له انتصاراً مبيناً

دخل زغلول باشا الوزارة بين تصفيق الأمة بأسرها واستحسانها؛ ولا معنى لاجماع الطبقات على استحسان دخوله الوزارة بشكل ما عهدناه لوزير غيره عند تعيينه ، إلا ليكون ناصراً للأمة مدافعاً عن الحق متشدداً فيه . دخل الوزارة ليمثل فيها فرقة المتعلمين الأحرار الذين ليس على عقولهم سلطان إلا الحق، ولا على قلوبهم إلا حب الوطن ونفعه ، فحقق فى المعارف

Digitized by Birzeit University Library

الحالية بمبدأ آخر أكثر انطباقا على مقتضيات القرن العشرين ، وهو مبدأ أن الحكومة إنما شرعت لنفع المحكومين لا لمنفعة الحكام .

أما اعتقاد الموظفين بالمسئولية ، فانه لا يزال مع الأسف ناقصا . وليس سبب ذلك هو جهل الواجب . ولكن الموظف المصرى قد رأى نفسه ناقص الحرية فى العمل . ناقص الذى تخوله له قوانين الادارة و تقضى به ضرورة النظام ، فخف عنده وزن المسئولية . لأن المسئولية ، فرع عن الحرية . وليس من السهل أن يقوم الانسان بالواجب ، إلا إذا اقتنع بأنه قد أخذ المقابل له وهو الحق .

قد يقال إن الموظف يأخذ من الأمة الأجرة فيجب عليه أن يؤدى مقابلها من العمل . ولكن صناعة الحكم ليست كبقية الصناعات المادية أو الأدبية المعينة . بل الحكم عمل قليله يرضى ذمة العامل ، وكثيره يعتبر قياما بأكثر من الواجب . لا يكفى فى الحكم أن تكون أعمال الموظف منطبقة على القوانين والمنشورات ، يذهب إلى مكتبه فى الساعة المعينة ويخرج منه فى الساعة المعينة ويضع رأيه أو الرأى الذى يوحيه إليه غيره على ما يقدم له من أعمال الحكومة . يطيع رؤساءه ويحترم زملاءه .

لا يكفى فى الحكم ذلك ، بل أول شرط للحاكم أن يكون ذا روح قوية وأغراض عامة ، لا يخط إشارة على ورقة الا ملاحظاً فيها الغرض المقصود من النظام والرقى المنشود لحالة البلاد . عفيف النفس واليد واللسان محباً للخدمة التى يأتيها . شغوف بالوصول إلى نتائج أعماله . مثالا صالحاً لجميع الذين يلى أمرهم ، كل هذه الصفات ضرورية للحاكم مع أن لا فائدة من اشتراطها على الموظف . لأن التظاهر بهذه الصفات ، قد يكفى فى اعتباره متصفا بها وان كان خلوا منها فى الواقع .

لذلك كانت المبالغة فى نقد الحاكم مرتباً ضخماً ليست ضخامة من طمعه فيما فى أيدى الناس . وحقه بمظاهر القوة ليس كافياً لاعطائه المهابة

Digitized by Birzeit University Library

الحرية

وقع أحد فلاسفة اليونان فى الرق وقادوه إلى سوق العبيد ليبيعوه فيها فأخذ ينادى : (من يبغ أن يشترى له سيدا) . فمن القدم أن المفكرين من بنى الانسان يعتبرون الحرية طبيعية وأنها معنى من المعانى اللازمة للنفس لا تنفك عنها مطلقاً. ومهما عطلت آثار الحرية فمنع الحر من عمل ما يريد كأن كم فوه فلا ينطق ، وشد وثاقه فلا يبطش ، وقيدت رجلاه فلا يسعى ، فانه مع هذا كله لا يزال حراً حائزاً جوهر حريته، ولو نقصه العرض الذى هو أثر الحرية . خلقت نفوسنا حرة ، طبعها الله على الحرية ، فحريتنا هى نحن ، هى ذاتنا ومقوم ذاتنا ، هى معنى أن الانسان انسان ، وما حريتنا إلا وجودنا ، وما وجودنا إلا الحرية .

ليس فى استطاعة أحد أن يسلب أحداً حريته قبل أن يسلبه روحه ، وليس لامرىء أن ينزل عن حريته لغيره ما دام لا حق له أن ينزل عن حياته التى وهب الله له، والتى لا يأخذها إلا هو .

غير أن آثار الحرية قد غلب عليها اسم الحرية ، متعدداً بتعدد جهاتها . فالقدرة الفعلية على العمل والترك، هى الحرية الشخصية أو هى الحرية المدنية ، وتعريفها أن تعمل ما تشاء بشرط ألا تضر بالغير .

وأما الحرية السياسية، فهى أن يشترك كل فرد فى حكومة بلاده اشتراكا تاما كاملا، وهذا معنى ما نسميه بسلطة الأمة .

حريتنا السياسية هى كفيلة الحرية الشخصية، أى كفيلة لنافى ظهور آثار حريتنا الطبيعية، فمن الحرص على تمتعنا بآثار تلك الحرية حرية القول والعمل، أننا نتشبث بالسعى لنيل حريتنا السياسية التى هى الكل فى الكل ، ما دامت

الجريدة فى أول مايو سنة ١٩١٢ العدد ١٥٦٣

Digitized by Birzeit University Library

استقالة سعد زغلول باشا

لايضيرنى أن أكون متهما بالانتصار لاستقالة الوزراء أو باستقالة الموظفين حتى المستخدمين . مادامت هذه التهمة ليست كاذبة كغيرها من التهم الأخرى . فانى أعتقد أن الوظيفة مهما كان نوعها ضريبة على الموظف، لامنحة له . فاذا عجز بأى سبب من الأسباب عن أن يؤدى إلى أمته أكثر مايستطيع أداءه من خدمة الحق والعدل وتحقيق المبادىء التى يعتقد صلاحها ، سواء كان هذا العجز ناشئا عن شعور بعدم الكفاءة للمركز الذى يشغله أو كان ناشئا عن ظروف سلبته حرية العمل فى وظيفته كلها أو بعضها، فالواجب عليه أن يستقيل. وتكون استقالته مشرفة لشخصه، مشرفة لقومه، ودرسا نافعا للناس، ومثلا صالحا للصدق والاخلاص فى خدمة المجموع. ليست الوظيفة لمصلحة الحاكم، ولكنها لمصلحة المحكوم . وإن السلطة التى فى يد الموظف إنما هى لمصلحة الأمة لالمصلحة شخصه . كلها لمصلحة الأمة ، ولا يجوز أن يكون منها لمصلحة شخصه شىء إلا شعور الرضى. ذلك الشعور الذى يحس به الرجل عند مايقوم بالواجب عليه لقومه . فما دمنا نصدر عن هذه القاعدة، فلا عجب أن ننصب أنفسنا نصاراً لفكرة استقالة الموظف كلما وضعت العراقيل أمام حريته فى العمل ، فأصبح يشعر بأنه لا يؤدى للأمة أكثر مايستطيع أداءه من الخدمة ، بل قد يتطرق الغلو إلى اعتقادنا هذا فيجعلنا لانكره استقالة الرجل العامل ذى العقل الناضج والارادة القوية من خدمة الحكومة، ولو لسبب شخصى لاعلاقة له بالعمل ولا بالحكومة. وإن الذى يزج بنا فى هذا الغلو هو أننا فى بلادنا لم نصل بعد إلى الموازنة بين الأمة وبين الحكومة فى عدد الرجال الأكفاء المستعدين لأن يبنوا بأيديهم مجد أمتهم ،

الجريدة فى ٤ من ابريل سنة ١٩١٢ العدد ١٥٤٠

Digitized by Birzeit University Library

لو كانت حريتنا السياسية فى أيدينا لأنحينا عليه كما أنحى عليه الفرنساويون فطردوه من قانونهم ، مع أنه كان معطلا كما قال عنه بعضهم ، إنه نص خلق ميتاً وعاش ميتاً . فعسى أن ينعم نوابنا النظر فى هذا النص ليجدوا أن استمرار وجوده لا يتفق إلا مع مبدأ الرهبة ، مبدأ الحكم القديم . وأنه لا يتفق مع مبدأ العدل والمنفعة اللذين عليهما يسير الحكم الجديد . بل هو من العوائق الكبرى فى الظروف الحاضرة لتقوية الروابط بين أمتنا وبين حكومتنا . وحسبك دليلا على شعور الحكومة بعدم المصلحة من تطبيق هذا النص ، أنه لم يطبق فى تاريخ القانون المصرى إلا أمس . كأنما وضع فى القانون لا لحماية الحكومة العادية ، ولكن لحماية الحكومة أزمان الاضطراب . على أننا كنا ، ولا نزال إلى اليوم ، قائمين بالسكينة بأكمل معانيها ، راغبين الآن وغداً فى العمل على تأييد السلام .

Digitized by Birzeit University Library

سلطة المصرى وملأ كرسى الوزير ، وتمكن بدهائه وقدرته من وضع مستشاره عند حد القانون، وسوى بين الموظفين الأجانب وبين الوطنيين، وحقق آمال الأمة فى أكثر ما طلبت من التعليم باللغة العربية ، وجعل لغة التعليم لغة الامتحان ، وأعاد عهد الارساليات وجعل النظامات المدرسية قوانين لا بد من عرضها على مجلس شورى القوانين، إلى غير ذلك من المشاريع التى أعادت إلى المعارف عهد وزيرها المأسوف عليه على مبارك باشا . وكان من أعماله فتح مدرسة المعلمين الخديوية ، ومدرسة القضاء الشرعى التى وجد فى انشائها صعوبات جمة كانت محكا لشجاعته الأدبية وقدرته الوزارية ودهائه السياسى ، فلما أخذ وزارة الحقانية بين يديه، لم يفرط فى حقه بصفته وزيراً، ولم يكن فيها بأقل غيرة على اقامة العدل منه فى نظارة المعارف على نشر التعليم، حتى كان دفاعه عن اعتقاده، مجلبة لمخالفة السلطة فى النظر . فترك الوزارة بين الثناء والاعجاب. أليس ذلك من أجل مظاهر الأباء وحرية الاعتقاد؟ أو ليس ذلك معنى الانتصار المبين؟

يقول المقربون من الحكومة إن سعد باشا قد نقصه الدهاء اللازم للوزير لارضاء السلطة . على أن ذلك الدهاء لم ينقصه، فانه قد نجح كثيراً فى حمل السلطة على الرضى برأيه وتحقيق مشروعاته . ولكن الظاهر أنه فى هذه الأيام الأخيرة، وجد فى ظروف لا يمكن فيها التوفيق بين رأيه وبين رضى السلطة فاعتزل . والجرائد التى هى مرآة الرأى العام مجمعة على الثناء عليه والاعتداد بقدرته وحسن صنعه، حتى فى الاستقالة التى جعلها مشرفة له، حتى قال بعضهم إن استقالته تعتبر استقالة للوزارة .

ومهما يكن من القول بتعضيد الوكالة البرطانية لسعد باشا زغلول ، فمن المحقق أن الرجل فى كل عمله لا يخالف اعتقاده ولم يداج فيه ، بل كان يدافع عن اعتقاده أمام السلطة الشرعية وأمام السلطة الفعلية، بدليل ما شاع من أن اتفاق السلطتين على رأيه لم يحوله عنه، بل أدى به إلى الاستقالة. فأكرم بالرجل وبمبدئه وأحبب الينا أن يكون هذا الدرس الذى يلقنه سعد باشا نافعاً للحاكمين والمحكومين على السواء.

Digitized by Birzeit University Library

الأمر لحرية الرأى ما كان يحميه من النتائج الطبيعية لتصريحاته . ناهيك بأولئك الذين لم يكن لهم وظيفة فى الحكومة يخشون العزل منها وراتباً رزقا يخافون قطعه . أولئك كان لهم من حرية الرأى ما يجاوز الحدود الوضعية لتلك الحرية .

بعد ذلك تقبض صدر الحكومة أمام حرية الرأى والاسراف فيها ، فأرادت حدها بحدود ضيقة ، ولكن فى بيئة معينة ووسط محدود . بعثت قانون المطبوعات ليحد من حرية الصحافة وأكثرت من تطبيقه لتخيف الصحافيين، وشرعت فى تطبيق المادة (١٥١ عقوبات لتضع النقد فى حدود أضيق من الحدود الأولى التى جرى عليها العرف نحو ثلاثين عاماً . وأصدرت قانون الاتفاقات الجنائية لتطمئن نفوس من مساورة ذلك الكابوس الوهمى الذى من شأنه أن يغشى أحلام الكبراء والوزراء فى كل زمان من أزمنة انتقال الأمم .

ونكرر دائما أن هذه القوانين لا تتناول فى تطبيقها إلا جماعة محدودة وفئة خاصة هى فئة الكتاب ، ولم تتعرض هذه القوانين للناس فى مجالسهم ولا فى حرية آرائهم التى كانوا يبدونها قبل اليوم صباح مساء . ولكننا على هذا نرى فى البلد كالخوف خيم على النفوس فى هذه الأيام الأخيرة، حتى لقد رأيت من أكثر الناس تطرفا من يبلع الآن رأيه بريقه ويمسك عما كان يفيض فيه من آرائه لجلسائه فى الاحتلال والمحتلين وفى تصرف الحكومة الحاضرة والسابقة من غير مبالاة . بل نجد أسباب الزلفى إلى الحكام والقادرين فى الحكومة سائرة الى التقدم مع أطماعنا فى الحكومة النيابية .

على أن تشبث الأمة بسلطتها يجعلها تنفض عنها غبار الذل شيئاً فشيئاً ويقل اعتدادها بطرائق الزلفى ومظاهر الملق للحكام . إذ المعقول أن تكون عناية الناس بالغلو فى اظهار خضوعهم للحكام فى هذا الزمن الذى نطالب فيه بالدستور، سائرة على نسبة عكسية مع تقدمها فى هذا الطلب . فما الذى جرى حتى تغيرت الحال

Digitized by Birzeit University Library

هى الكفالة الوحيدة التى لنا فى التمتع بفضل الله علينا ونعمة وجودنا وأعز هبة على أنفسنا ، وهى حريتنا .

من المقدمات الشعرية أن نتغنى بأن الحرية لألاء يأخذ بأبصارنا ومعشوقة جميلة فى قيد قلوبنا ، ومعنى عال يسحر عقولنا ، وسعادة اليها مسعانا . لها محيانا وفيها مماتنا . نعم تلك مقدمات شعرية لأن حريتنا أبسط من أن تكون ذلك كله ، وليست محتاجة فى ظهورها إلى الشعر والتغنى ، لأن حريتنا هى نحن .

يخزى الرجل منا أن يكون فاقد الحرية السياسية أو فاقد الحرية الشخصية ، يخزى أن يكون عبداً لمخلوق أيا كان . بل يخزى أن يؤثر عنه أنه عبد شهواته والناس فى ذلك كلهم سواء . أليس مصدر ذلك الشعور فى الانسان أن كل نفس تعتقد بمجرد الفطرة أن حريتها ليست إلا ماهيتها وأن نقص الحرية ، أى نقص آثار الحرية ، نقص فى الذات وعجز فاضح يفر من نسبته الرفيع والوضيع على السواء .

إذا كانت حريتنا هى وجودنا ولا معنى للوجود إلا بها ، أليس من المفهوم بسهولة عنايتنا بكفيل هذه الحرية ، أى بالحرية السياسية ، أى الاشتراك فى إدارة بلادنا وتحقيق سلطة الأمة . اننا لو بذلنا كل جهدنا ووقفنا كل وقتنا على نيل هذا الكفيل ، لكنا فى ذلك معذورين

لو كانت مرتبتنا السياسية فى أيدينا لجعلنا نطلب الغاء نص المادة (١٥١) من قانون العقوبات . ذلك النص الذى هو من بقايا القوانين القديمة التى لم يلدها إلا روح القرون الوسطى . ولم يثبتها إلا ذلك الخيال الذى ما زال ينتاب الرؤوس ويخامر العقول ، وهو الاعتراف بالتقديس لأشخاص الملوك أو لسلطة الحكومات . إن هذا النص فسيح يدخل تحته كل انتقاد مهما كانت المصلحة العامة هى التى تمليه ، وحب الخير يكتبه مسلسلا بقيود الاعتدال ، ومحوطاً بحدود الأدب . إن هذا النص يقف فى طريق الانتقاد فيخنقه ، والانتقاد أساس حسن الادارة ، فلا شك فى أن هذا النص يقف فى طريق حسن إدارة البلاد .

Digitized by Birzeit University Library

على أنفسهم . ويعملون كما لو كانت القوانين الصحافية وضعت لهم ، وتناولت الحظر على إبداء آرائهم بحرية متى طلب منهم ذلك .

هذا هو الذى نلفت أذهان الناس إليه . إنهم لا يزالون بحكم القوانين أحراراً فى إبداء جميع آرائهم فى المجالس الرسمية ، وغير الرسمية ، وحين يطلب ذلك فى أى مقام من مقامات الحكم . إن حرية الرأى محمية بالقوانين العامة فهى لا تكلف صاحبها ثمنا غاليا ، بل لا تكلفه ثمنا أصلا . نسوق الكلام إلى الذين تجعلهم منزلتهم منا موضوعا لسؤال الحكام إياهم عن الأحوال فى مصر ، ودرجة الأمة من الرضا بالحال الحاضرة . نسوق إليهم الكلام ونؤكد لهم أن ولاة الأمور أعدل من أن يمتعضوا من آثار حرية الرأى . وأن قوانين البلاد تحمى حرية الرأى ، وأن المرء يجب عليه لذاته ألا يداجى فى رأيه ، بل يبديه بحرية وصراحة ولو كلفه ذلك ما كلفه ، فكيف به إذا كانت حرية الرأى لا تكلفه شيئا مذكورا

Digitized by Birzeit University Library

حرية الرأى

نعترف بأنه ليس كل الناس يستطيع أن يدفع ثمناً غالياً فى حرية الرأى ، بل من السهل على المتأمل فى تصرفات الناس أن يجد الأمثلة الكافية لاقتناعه بأن كثيراً منهم لا يشترى هذه الحرية إلا بالثمن البخس ، ولا يقتنيها إلا إذا جاءته مجاناً ولم تكلفه فى اقتنائها خسارة ولا عناء .

بل هو يزهد فيه إذا جاءه من تحت رأسها حرمان من أية شهوة أو فوات لأى زخرف من الزخارف التى هى فوق الكماليات ، كابتسامة من وزير أو ترحيب من مدير . حتى الحرص على طيب خاطر محادث محترم قد يكفى وحده للزهد فى حرية الرأى . هذا مقام ليس خاصاً بطبقة العوام ولا بطبقة الخواص ، ولكنه مقام الذى هانت عليه نفسه واحتقر ذاته وذبح حياته المعنوية قرباناً لأحسن مراتب العيش . أو الذى ظن أنه يستطيع العيش من غير شخصية ولا قيمة فى سوق الرجال .

نعترف بوجود هذا الصنف من الناس ويوجد صنف آخر أوغل منه فى مقام الزهد فى حرية الرأى . هو ذلك الذى لم يكفه ضعفاً أنه تنازل عن رأيه إكراماً لغيره ، يتخذ فوق ذلك رأى الغير مذهباً يجادل عنه حتى ينال المكافأة البخسة من ذلك الذى استخدمه واسترقه ، فجعله عبداً له أى عبد . عبد لا نظير له فى العبيد ، لأنه عبد الذات وعبد اللسان .

مهما كان عدد الزهاد فى حرية الرأى فان هذه الحرية كانت عندنا فى مصر إلى آخر عهد اللورد كرومر وبعده بقليل محترمة ظاهرة الأثر شائعة فى جميع الطبقات ، حتى لقد كان يعلم عن بعض موظفى الحكومة أنه ضد الاحتلال يصرح برأيه فى المجالس وينقل عنه هذا ، ومع ذلك كان له من احترام ولاة

الجريدة فى ١٦ من مايو سنة ١٩١٢ العدد ١٥٧٥

Digitized by Birzeit University Library

الكتاب، لم تكن من الأسباب لبث القلق الفكرى فى الشبيبة على الأخص وتغذيته الوقت، بعد الوقت، بسموم من الوهم وخطأ فى تقدير النافع والضار.

ليس هذا القلق الفكرى حقيقاً يدعو إلى البحث والاستدلال ، ولا هو صامت يطلب له البيان. بل هو ظاهر يعلن عن نفسه بفصاحة متدفقة من صحائف بعض الكتاب ، وعلى ألسن كثير من الذين يتحدثون فى السياسة ويهتمون اهتماما مفيداً أو مضراً بمصالح البلاد . ولقد أدى الأضطراب العصبى والقلق الفكرى المتولد من المبادىء الخاطئة ، والخطط العقيمة عند بعض الشبان إلى الخروج فى هذه السنين الأخيرة عن حدود العقل والأخلاق القويمة ومصلحة البلاد . ولكنه مع ذلك لم يعدم من كتاب الطيش وشعرائه، تمجيدا كأنه قام بمنفعة ، وما قام إلا بضرر . وما الحوادث التى جاءت بعد جناية «الوردانى» ، والقوانين التى سنت ، والحرية التى حدت، ورجوع الأمة فى سعيها إلى الوراء، إلا نتيجة من نتائج تلك الجريمة الشنعاء

نظلم أولئك الكتاب إذا قلنا إنهم هم الذين خلقوا هذا القلق الفكرى ، لأنه ربما يكون هو الذى خلق مذاهبهم فوجوده على كل حال متقدما بالضرورة على تلك المذاهب المتناقضة والخطط الضارة ، لأن هذا القلق انما هو تابع للاضطراب العام الذى تولد من انتقال الأمة من حال إلى حال ومن طبائع الاستبداد الماضى الطويل ومن حرمان الأمة من الحرية السياسية ولو على القدر الذى تسمح به الظروف . نظلم تلك الخطط إذا نسبنا لها وحدها هذا القلق . ولكن لا شبهة فى أنها سبب فى تجسيمه وانتشار آثاره . ولئن عجزنا أن نستأصل الأسباب الطبيعية أو الأسباب التى ليس فى قدرتنا استئصالها ، فأقل ما يجب علينا ألا نضيف إليها من عند أنفسنا أسبابا جديدة ، وأن نسعى جهدنا فى قطع فترة الانتقال بسلام وسكون ، وأن نعالج ما استطعنا القلق الفكرى ونتائجه فان القلق فى الأفكار هو طريق الشفاء ، وسم الحياة وداعى العجز والقنوط .

Digitized by Birzeit University Library

وأخذت علاقاتنا بحكامنا تطبع ثانية بالطابع القديم . وأين أولئك الذين كانوا يقدمون علينا نحن الصحافيين فيوسعوننا لوماً على أننا لا نكرر ونعيد كل يوم فى نظرية علاقة الحاكم والمحكوم، وأننا لا نبين للناس القدر الذى يكفى فى إقناعهم بأنهم أحرار فى أنفسهم ، أحرار فى آرائهم ، أحرار فى اختيار الطريقة التى يحكمون عليها . هنا أرجع إلى ذاكرتى فيضحكنى ذكر حديث جرى بينى وبين أحد كبار موظفى الحكومة الوطنيين قال : لماذا لا تكتب ضد تصرفات الحكومة بالشدة اللازمة ؟ قلت كفى بالنقد شدة . قال : ولكن الحدة فى إبدائه تزيده شدة على شدة . قلت : إن أثر القلم فى كرامته ،والحدة تذهب بالكرامة . ومع ذلك فهل تضع لى نموذجاً فى شدة الانتقاد آخذه عنك ، قال والله أفعل . فأشفقت على الرجل من الاسترسال فى حدته ، وأعرضت عنه معجبا بحبه لحرية الرأى ، وإن لم أك لأعجب بفهمه حدود الانتقاد المفيد وتقديره لمنازل الكتابة فى الشدة والضعف . ذلك نموذج من تلك الروح العامة التى كانت تتجلى على طبقات الأمة ، والتى كانت المثابرة عليها بالمعروف ، والايغال فيها بالرفق، موصلة حتما إلى غرض الأغراض ، وهو تأييد حرية الرأى ، وتفكيك عرى القيود التى تقيدنا بماض من الاستبداد ، ما حمدناه ، ولا حنّت نفوسنا لذكراه . لست نصيراً للحكومة فى حد حرية الرأى بهذه الحدود الضيقة . بل أقول إنى لا أجد عملها ينتج أية نتيجة مفيدة للأمة ولا للحكومة ، وأذكر فى هذا المعنى ما كان يؤثر عن لورد كرومر إذ كان كلما خوطب فى حد حرية الرأى أظهر عدم الرضى عن تلك الفكرة والامتعاض منها . مع أن لورد كرومر لم يكن فى مصر مشجعاً للحرية السياسية . إلا أنه على ظنى كان يرى أن الرأى إذا غلا فى رؤوس أصحابه لابد لاتقاء نتائج غليانه من منفذ تخف به شدة الغليان ، وذلك المنفذ هو حرية الصحافة ، حرية الرأى ، أى حرية القلم واللسان .

لست نصيراً للحكومة فى التضييق على حرية الصحافة ، ولكنى أعترف من جهة أخرى بأن كثيراً من غير الصحافيين يسبقون الحكومة إلى التضييق

Digitized by Birzeit University Library

كل من فى البلد من صغير وكبير يقول بأن أعمال العسف تؤخر البلاد فى طريق الخير والاستقلال . ولكننا مع ذلك يجب أن نبحث هذا الفهم الرشيد بغاية الصراحة ، من غير مواربة ولا احتياط . أليست بلادنا تابعة للدولة العلية ومحتلة احتلالا عسكريا بانكلترا . ومحتلة احتلالا ماليا بجميع الدول الأوربية القوية ، التى تزيد معاملتها فى مصر سنة عن سنة ، والتى لا تسمح بأية حركة يكون من شأنها الاضرار بحقوقها . هل يوجد مجنون فى بلادنا يمكنه أن يقول بأن مصر تستطيع أن تدوس هذه الاعتبارات ، وتسلم من اللحاق فى اليوم التالى بأية دولة تستطيع أن توطد فيها أركان السلام وتفتحها للاستغلال الأوروبى ، كما كانت وكما هو الآن ، أم هل يوجد رجل غفلة يظن أن الاضطراب فى الأحوال يكره الانكليز الأقوياء على أن يتبعوا فى مصر سياسة غير التى سنوها من قبل ؟ لو قيل ذلك قبل زيارة المستر روزفلت لمصر ، لكان له بعض التأثير فى عقول البسطاء من العوام . أما والحال على ما نرى ، فكل فكرة من هذا النوع ضلالة وضرر محيق بالبلاد .

على هذه الاعتبارات يجب علينا أن نقتلع جراثيم الخيالات المضرة من أدمغة الأحداث ، ونجد فى فهم المسألة المصرية على حقيقتها ، ونبعد عنا تأثير القلق الفكرى ، لنشتغل لمصلحة بلادنا بالطرائق المنتجة مع التزام السكينة والسلام

ولا شبهة فى أن شباننا العقلاء ، هم وحدهم أقدر الناس على محاربة القلق الفكرى ، والسعى بالأمة فى طريق الصبر والعمل لانماء الكفاءات المصرية التى بها لا بغيرها ، يكون الرقى المطلوب .

Digitized by Birzeit University Library

الى الشبيبة

١

القلق الفكرى

نلفت أذهان الشبيبة إلى سلسلة من الأفكار نرجح أن تتدبرها يؤدى إلى توحيد الأنظار المختلفة فى تحديد القواعد الثابتة الأولى التى تبنى عليها أعمالنا لمصلحة بلادنا ، وثقتنا فى عقولهم الراجحة المستنيرة بالمنطق العلمى ، أنها أكبر عون على إعادة النظر فى مذاهبنا السياسية لينفى عنها التناقض وتغادرها الأفكار العاطلة مستحيلة التحقيق ، وتسلم بذلك من الخطط العقيمة التى رسمت لها على عجل والتى كان من حقها ألا تتبع ولكنها مع الأسف قد اتبعت فى العمل فأنتجت نتيجة سيئة هى اغراء الأمة بالتعلق بأحلام وأمانى كاذبة ، صورت لها بصورة الآمال الصادقة الممكنة الوقوع .

ولقد غلا كتاب هذه الخطط فى تزيينها وأخذوا يعطون الشبيبة على مقادير غير مناسبة لحال البلاد ولا متفقة مع مصلحتها ، فلم يطق بعض الاحداث حملها على أنها أفكار مجردة غير صالحة للعمل بها، بل زجوا بأنفسهم إلى مهاوى تحقيقها بوصف أنها من أعمال البسالة والتفانى فى خدمة الوطن . وماهى فى الحقيقة إلا نزعات من الاضطراب الفكرى الذى كان من أسبابه المبادىء المتناقضة والخطط غير المنتجة التى وصفها الكتاب غير حاسبين لنتائجها أدنى حساب .

ومهما أنكرنا بحق قول القائلين فى هذه السنين الأخيرة بوجود اضطراب فى مصر ، فاننا نجاوز الحق إذا قلنا إن الخطط السيئة التى جرى عليها بعض

الجريدة فى ٣١ من أغسطس سنة ١٩١٢ العدد ١٦٦٥

Digitized by Birzeit University Library

لست فى مقام البحث فى أسباب هذا الاضطراب ونتائجه فى العلاقات الفردية، ولكنى أكتفى بالبحث فيما يخص الرأى العام من هذا الاضطراب وخطئه فى الحكم على بعض المسائل ذات الأهمية فى مصر .

لست أنكر أن الرأى العام فى مصر أظهر قوة فى بعض المسائل . ولكنى مع ذلك لا أزال أعترف بأن كثيرا من المقدمات الخفية أو المشاعر الأمية التى يبنى عليها الرأى العام حكمه مقدما ، غير منطبقة على مصلحة مصر .

الرأى العام معذور لأنه لا اختصاص له فى الابحاث الدقيقة، ولا وقت عنده لادامة التفكير . فان أخطأ فمعظم المسئولية راجع إلى من يقدمون له المقدمات غير الصحيحة أو غير النافعة ، لأن قواد الرأى العام كانهم لم يهتدوا بعد إلى تحديد مطالب الأمة بصورة واضحة . ولئن اهتدوا إلى بعض المطالب فانهم لم يهيئوا لها شعور الناس بطريقة بينة خالية عن التناقض .

الرأى العام يحكم بشعوره دائماً وفى كل أمة تقريباً . لذلك كانت وظيفة خدام الرأى العام أو قادته ، تنحصر دائماً فى تهيئة الشعور القومى إلى قبول المبادىء الصالحة للأمة .

أما إذا اختلط على الكتاب المقاصد بالوسائل والأسباب بالنتائج أو إذا هيئوا الشعور العام إلى نقيض مطالب الأمة فاخلق بالرأى العام أن يتردد ويضطرب وينشق فى الحوادث الهامة ،ويكون حكمه عليها مخلطاً ، منافياً فى كثير من الأحيان لمصلحته .

خذوا مثلا على ذلك : المقصد الأكبر ، أو مقصد المقاصد للأمة المصرية ،هو الاستقلال . هو الحرية السياسية . هو الحرية العامة . هو تمتع الأمة بحريتها التى وهب الله لها بالفطرة . أقول مع السرور أن الرأى العام المصرى مجمع على ذلك بوجه ما . وقادة الرأى العام يقولون به صباح مساء ، ولكن كثيرا منهم من لا يقيم وزنا للقومية المصرية فى تربية شعور المصرى . يقول ان مصر ليست وطناً للمصريين فقط ،بل هى وطن لكل مسلم يحل فى

Digitized by Birzeit University Library

القلق الفكرى فى مجموع من المجاميع، لا يكون أثره إلا التخبط فى العمل على غير هدى. يخلط عملا صالحا وآخر سيئا؛ فلا تكون النتيجة إلا أن هذا المجموع لا تستقيم له طريقة ولا يتم له عمل ولا يثبت له نجاح، إلا بمحض الصدفة. وكفى المرء عقما أن تكون أفكاره وأعماله زمامها بيد الصدفة تقودها إلى حيث تشاء.

إن الذين ترهقهم الحوادث، تقع على أشخاصهم أو على أوطانهم، فتبلبل أفكارهم وتسلمهم إلى الاضطراب، فيخرجوا عن جادة الصواب. مهما كانوا معذورين — لا يحل لهم أن يتصدروا لقيادة الرأى العام. فانهم ليسوا إلا " رجالا " صغارا أو أطفالا كبارا.

لم تؤت أمة من الأمم مفاتح الغيب، حتى لا يقع فيها من الحوادث إلا ما تختار. ولكن الرجال الراشدين والشبيبة العاقلة فى كل أمة، يتقبلون الحوادث بعزم وصدر رحب، يصبرون عليها صبر الكرام، ويقرنون الصبر بالعمل لخير أمتهم وسعادتها، ساعين فى ذلك لاجادة مستقيمة مضمونة النتيجة؛ أو راجحة النجاح.

يعلمون أن من العسف والشطط العقيم أن يكون تحرير البلاد طفرة وعلى غير استعداد؛ وانه يكفى فى تحقيقه كلمة حماسة لا تؤثر فى قارئها إلا كما يؤثر فى العامة أثر أبى زيد الهلالى فى تونس، أو ماقال عنترة فى ميدان القتال، أو انه يكفى لتحقيقه منشور ثوروى سخيف لا أظن أن قومنا لا يرونه إلا ساخرين منه، حاكمين على واضعه بالغفلة والجنون

ان استقلال الأمة نتيجة تربية طويلة واعتقادات وميول عامة، وأطماع كبيرة لا تجيئها دفعة واحدة ولا فى جيل واحد؛ بل تختمر فيها وتنتج نتائجها الطبيعية بالزمان. على أن تقدم مصر واستقلالها حتى مع توفر جميع الأسباب، لا يجىء بالمنشورات والتحمس الباطل؛ وانما يجىء من العمل الهادى ومن السلام.

Digitized by Birzeit University Library مكتبة جامعة بيرزيت

غير أن ذلك المذهب على تناقضه يوافق أمزجة العامة ، اكثر من مذهب القانون المصرى، لأن اصحابه يكسونه كساء من الدين يجعله سائغا عند البسطاء، وان كان العمل به مناقضا كل التناقض لما تطلبه الأمة من الاستقلال . بل يناقض الصيغة المصرية المقدسة ان (مصر للمصريين)

لا شك فى أن تربية شعور العامة على هذا النحو يجعل الرأى العام ضعيفاً مضطرباً فى مقصده العالى ، وهو الاستقلال . يجعله عاجزاً عن التمييز بين مصلحته بوصف انه مصرى ، وبين واجباته بوصف انه مسلم .

ذلك مثل من أمثلة الخطأ الذى يقع فيه العوام تبعاً لقواد الرأى العام

وهاك مثلا آخر : من قادة الرأى العام من يطالب بجلاء الانكليز عن مصر حالا، من غير معدات لهذا الجلاء، كأن الانكليز جاءوا مصر ليخرجوا منها بمقالة أو مقالات تكتب فى صحفنا المصرية . هذا مذهب بعينه ، أدى إلى أن القائلين به يقطعون كل علاقة مع الانكليز ويتجاهلون سلطتهم الفعلية فى البلاد . يقيمون القيامة على كل رجل مصرى يذهب للوكالة البريطانية ، لأى سبب من الأسباب . ينحون باللائمة على النظار إذا حضروا الاحتفال بعيد ملك الانكليز ،ويرون ذلك خيانة للوطن . فكان المفهوم ان الذى يقول ذلك ،يغضب من مجىء الوفد العثمانى لتقديم التحية لملك الانكليز يوم عيده ، بالوقوف إلى جانب العلم الانكليزى . فهل حصل ذلك ؟ أم الذى حصل انهم أخذوا يحثون الناس على الترحيب بصاحب السمو السلطانى رئيس الوفد ،ويدلونهم على مواطن جيئاته وروحاته ،ليقيموا له المظاهرات التى كان يأباها ويتوقاها هو نفسه . يكون مفهوما من جانبهم الاحتفال بالوفد العثمانى، إذا كان جائيا للاحتجاج على الاحتلال . ولكن كان يفهم من جانب الذى يقول بالجلاء أو المحتج يومياً على الاحتلال ،أن يحتفل بممثل الاحتلال. أليس الاحتفال بالوفد العثمانى، احتفال بملك الانكليز من جميع الوجوه ؟

ولئن وقع فريق الرأى العام المطالب بالجلاء حالا فى هذا التناقض

Digitized by Birzeit University Library

الى الشبيبة

٢

الاضطراب فى الرأى العام

لاشك فى أن نشر المبادىء الخفيفة الوزن ، وتقرير الخطط غير الممكنة ، قد زادا حالنا إضطراباً على اضطرابها الأول . أفلم تكفنا الحوادث المحيطة بنا داعيا إلى محاولة الخروج من هذا الاضطراب ؟

نريد أن نخرج من هذا الاطراب المعنوى الذى تمشى فى جميع علاقاتنا وروابطنا ، فأبلى جدته وذهب بمتانتها وتركها رثة غير صالحة لتأدية وظيفتها الطبيعية . ووظيفتها — كما تعلمون — هى صلاحيتها للاعتماد عليها فى جميع أعمالنا الخاصة والعامة . وليست آثار ذلك قليلة بيننا . كلنا يشكو من عميله ، يشكو من رئيسه ومرءوسه . يشكو من مخالفه ومحازبه على الخدمة العامة ، بل كلنا يشكو من زميله ومن صاحبه، وأقل ما تدل عليه هذه الشكوى العامة، هو أن الثقة بين الأفراد قد انتزعت أو كادت والثقة هى كل شىء .

نريد أن نخرج من هذا الاضطراب المعنوى الذى جعلنا نتردد أمام العمل لخير بلادنا . فانه إذا كانت علاقات العائلة والصحبة والمعاملة ضعيفة كما وصفنا ، فان علاقاتنا العامة أضعف . ومتى كانت علاقاتنا العامة أى علاقاتنا القومية ضعيفة، وثقتنا بعضنا ببعض بالية، كان رأينا العام مضطرباً ، أعجز من أن يعبر تماماً عن مصلحة البلاد . وأبعد من أن تكون آثاره سعداً علينا . وليست هذه النتيجة نتيجة نظرية ، بل الواقع الملموس فى بلادنا هو اضطراب الرأى العام فى الحكم على كثير من مسائلنا الحيوية .

الجريدة فى ١ من سبتمبر سنة ١٩١٢ العدد ١٦٦٦

Digitized by Birzeit University Library

الانكليز فى مصر ، فالمسئولية راجعة على المسرف فى اللفظ ، الذى يخبط قلمه مكباً على وجه من غير دليل ولا احتياط

على أن رقى البلاد متوقف على فهم الرأى العام لوجوه المصلحة بطريقة واضحة . لا أقول فهمه للمسائل الدقيقة ، بل لامهات المبادىء العامة الضرورية للرقى ، حتى تصبح هذه المبادى شاغلة محلا من شعوره ، فيؤمن عليه من الخطأ فى الحكم على الحوادث الكبرى ، كما فى البلاد الأخرى .

وعندنا أن الوقت الحاضر مناسب جداً لتحديد أغراض الأمة من حياتها المستقبلة ، والوسائل المشروعة النافعة لنيل تلك الأغراض . وعلى الشبيبة المصرية يقع جزء عظيم من واجبات تحديد المقاصد والوسائل على وجه مستقيم خلو من التناقض ، كافل السير إلى الأمام فى ترقى البلاد .

Digitized by Birzeit University Library

أرضها سواء كان عثمانيـاً أو غير عثمانى ، فرنساويا أو انكليزيا ، صينياً أو يابانياً . على ذلك تكون القومية المصرية أو الجنسية المصرية معدمة . ومتى انعدمت القومية كيف يفهم الأستقلال ؟ وأدني مراتب الاستقلال الاختصاص بالحقوق الوطنية فى مسطح من الأرض محدود بحدود جغرافية معينة . إلا أن تقولوا معى أن صاحب هذا الرأى يريد الغرض ولا يريد المقدمة . يطلب الأستقلال، ويهىء شعور العامة إلى نقيضه !

اليس هذا المذهب يجر حتما الى القول بأن الاستقلال هو غير الاستقلال، وأن استقلال المصريين بمصر، معناه ملكية مصر على الشيوع لجميع مسلمى الكرة الأرضية ؟ أى أن مصر وطن محدود مملوك الحقوق (قانونا) لاهله من المسلمين والمسيحيين عن طريق الاختصاص . ثم هو مع ذلك وطن مملوك الحقوق لجميع المسلمين غير المصريين !! .

يظهر لنا ان الذى اوقع هذا المذهب فى التناقض ، هو محاولة جعل التخالف فى المعتقدات الدينية اساسا للعمل فى السياسة الدنيوية . وهذا مذهب خطر . وقد ابنا خطره فى كل ظرف من الظروف المناسبة ، وقلنا مع القائلين، بأن المنافع الحيوية هى وحدها التى يصح اتخاذها قاعدة للاعمال السياسية . وأننا نعتقد اعتقادا جازما بأن جعل المنفعه أساسا للعمل فى السياسة، مذهب لا يأباه الدين الحنيف . يعمل الناس فى الحياة لمنافعهم كما يشاؤن، بشرط أن لا يحللوا حراما ولا يحرموا حلالا، ويتأدبوا بآداب دينهم الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر . ونحن لا ننكر أن بعض الساسة الاوروبيين قد استعمل الدين فى بعض الاحيان الماضية سلاحا يخدم به السياسة، ولكنه سلاح يوشك أن يكون خطرا على حامله ، اكثر منه على خصمه . فمن النافع والضرورى معا جعل المنفعة هى الاساس الوحيد للعمل فى السياسة ، دون التخالف فى المعتقدات الدينية ، وتحديد الوطنية المصرية كما حددها قانون البلاد، اعنى أن الحقوق الوطنية فى مصر هى لمن يعترف له القانون بالمصرية، دون غيره من سائر الاجناس .

Digitized by Birzeit University Library

كنتم مستقلين حتى تبغوا الاستقلال الآن) وأظن أنى لم أكن لأختص وحدى بسماع هذا التعبير الجارح من كل الذين لهم مصلحة فى الاستعمار .

استقلال الأمة على عداها أو حريتها السياسية حق لها بالفطرة، لاينبغى لها أن تتسامح فيه أو أن تنى فى العمل للحصول عليه . بل ليس لها حق التنازل عنه لغيرها، لا بكله ولا بجزئه، لأن الحرية لا تقبل القسمة ولا تقبل التنازل . فكل تنازل من الأمة عن حريتها كلها أو بعضها ، باطل بطلاناً أصلياً لا تلحقه الصحة بأى حال من الأحوال . فلا جرم مع هذا المبدأ المسلم به عند علماء السياسة ، أن قلت أنه يجب على الأمة أن توجه كل قواها بغير استثناء الى الحصول على وجودها بصفتها أمة ، أى للحصول على الاستقلال . وإن من المستحيل على أمة تشعر بوجودها أن تتساهل فى استقلالها أو تبرد غيرتها عليه ، فى كل ظرف من الظروف المناسبة .

يجب أن يفهم غيرنا أيضاً أن كل أمة تطلب الى مصر أن تبقى الى الأبد مبعدة عن استقلالها، إنما هى أمة تخدع نفسها، لأن هذا المرام لا يرام إلا من لفيف من الناس ليس لهم ما للأمة المصرية من القومية العتيقة والوطن المحدود والنظامات الاجتماعية، حين كان العالم لا يزال قليل العلم بمقتضيات النظامات الاجتماعية . أمة كامتنا قد ولدت التمدن مرتين ، لا ينبغى للتمدن الحديث أن يطمع فى التوغل فى إذلالها وأبعادها عن أقل الاقدار لمطامع الأمم، وهو الاستقلال .

من العيب العظيم ان تداجى الأمة فى أمر استقلالها . لأنه إن صح لافراد الساسة أن يلعبوا على الألفاظ ليستروا المقاصد ، فانه لا يصح بحال من الأحوال أن تكون الخدعة من خلق أمة من الأمم . الأمة شخص معنوى غاية فى الطهر ، لا يقول إلا ما يعتقد . ولا يعمل إلا ما يريد .

لا يكفى أن يعتقد جماعة من الأمة بضرورة الاستقلال ، بل يجب أن يكون الشعور بحب الاستقلال شعوراً عاما فى جميع أفراد الأمة من غير

Digitized by Birzeit University Library

الى الشبيبة

٢

الاضطراب فى الرأى العام

لاشك فى أن نشر المبادىء الخفيفة الوزن ، وتقرير الخطط غير الممكنة ، قد زادا حالنا إضطراباً على اضطرابها الأول . أفلم تكفنا الحوادث المحيطة بنا داعيا إلى محاولة الخروج من هذا الاضطراب ؟

نريد أن نخرج من هذا الاطراب المعنوى الذى تمشى فى جميع علاقاتنا وروابطنا ، فأبلى جدته وذهب بمتانتها وتركها رثة غير صالحة لتأدية وظيفتها الطبيعية . ووظيفتها — كما تعلمون — هى صلاحيتها للاعتماد عليها فى جميع أعمالنا الخاصة والعامة . وليست آثار ذلك قليلة بيننا . كلنا يشكو من عميله ، يشكو من رئيسه ومرءوسه . يشكو من مخالفه ومحازبه على الخدمة العامة ، بل كلنا يشكو من زميله ومن صاحبه، وأقل ما تدل عليه هذه الشكوى العامة، هو أن الثقة بين الأفراد قد انتزعت أو كادت والثقة هى كل شىء .

نريد أن نخرج من هذا الاضطراب المعنوى الذى جعلنا نتردد أمام العمل لخير بلادنا . فانه إذا كانت علاقات العائلة والصحبة والمعاملة ضعيفة كما وصفنا ، فان علاقاتنا العامة أضعف . ومتى كانت علاقاتنا العامة أى علاقاتنا القومية ضعيفة، وثقتنا بعضنا ببعض بالية، كان رأينا العام مضطرباً ، أعجز من أن يعبر تماماً عن مصلحة البلاد . وأبعد من أن تكون آثاره سعداً علينا . وليست هذه النتيجة نتيجة نظرية ، بل الواقع الملموس فى بلادنا هو اضطراب الرأى العام فى الحكم على كثير من مسائلنا الحيوية .

الجريدة فى ١ من سبتمبر سنة ١٩١٢ العدد ١٦٦٦

Digitized by Birzeit University Library

الكسا، وهو البيت وهو الوجود . وبغيره لا وجود . ولابد لذلك من أن يربى فى الأمة معنى القومية المصرية .

إن أول معنى للقومية المصرية هو تحديد الوطنية المصرية والاحتفاظ بها والغيرة عليها غيرة التركى على وطنه، والانكليزى على قوميته، لاأن نجعل أنفسنا وبلادنا على المشاع وسط ما يسمى خطأ بالجامعة الاسلامية . تلك لجامعة التى يوسع بعضهم معناها، فيدخل فيه أن مصر وطن لكل مسلم

أما لو كان معنى الجامعة قاصراً على وجوب ائتلاف بين أمة وجارتها على المعاونة المتبادلة على الارتقاء، فذلك حسن مفهوم . بشرط أن يكون العقد متبادل المنفعة لاقاصرها على أحد الطرفين دون الآخر .

أعنى أن يكون أحدهما خادما دائما، والثانى مخدوما دائما . تلك دنية يجب أن يأباها المصرى ذو الحفيظة . ولا يجيئها إلى مكرها، والمكروه لا حيلة له .

يعجبنى فى هذا المعنى أن أورد عبارة أحد الكتاب الانجليز قال : مهما كان اللوم على الأمة المتغلبة على غيرها ، فانه لا يصح أن تنجو الأمة المغلوبة من اللوم. فانه من السهل أن يدوس الانسان بقدمه حشرة ، لكنه إذا كانت هذه الحشرة من العقارب، يصعب دوسها بالقدم . وعندنا الأمة كائن طبيعى يستحيل مهما كانت ضعيفة، أن تكون مجردة من آلات الدفاع عن نفسها ، لأن الله قد سلح جميع كائناته بسلاح الدفاع عن ذواتها . والأمة بصفتها احدى هاته الكائنات الطبيعية، لا يمكن أن تكون فاقدة السلاح . فلئن تركته أو أساءت استعماله فاللوم عليها بمقدار تقصيرها . ا ه

ولقد كتب على مصر أن ترتقى بالسلام وتستقل بالسلام ، فما أسلحة السلام إلا ذكاء فى العقل والقلب يهدينا إلى معرفة مصريتنا وقصر عملنا على مصرنا ، وانماء كفاءاتنا قبل كل شىء ، وتمييز بين الممكن فى الواقع ، وبين الممكن فى الخيال ، حتى لا نقع مرة ثانية فى حبائل ذلك الوهم القديم الذى

Digitized by Birzeit University Library

أرضها سواء كان عثمانياً أو غير عثمانى ، فرنساويا أو انكليزيا ، صينياً أو يابانياً . على ذلك تكون القومية المصرية أو الجنسية المصرية معدمة . ومتى انعدمت القومية كيف يفهم الأستقلال ؟ وأدنى مراتب الاستقلال الاختصاص بالحقوق الوطنية فى مسطح من الأرض محدود بحدود جغرافية معينة . إلا أن تقولوا معى أن صاحب هذا الرأى يريد الغرض ولا يريد المقدمة . يطلب الأستقلال، ويهيء شعور العامة إلى نقيضه !

اليس هذا المذهب يجر حتما الى القول بأن الاستقلال هو غير الاستقلال، وأن استقلال المصريين بمصر، معناه ملكية مصر على الشيوع لجميع مسلمى الكرة الأرضية ؟ أى أن مصر وطن محدود بملوك الحقوق (قانونا) لاهله من المسلمين والمسيحيين عن طريق الاختصاص . ثم هو مع ذلك وطن مملوك الحقوق لجميع المسلمين غير المصريين !!.

يظهر لنا ان الذى اوقع هذا المذهب فى التناقض ، هو محاولة جعل التخالف فى المعتقدات الدينية اساسا للعمل فى السياسة الدنيوية . وهذا مذهب خطر . وقد ابنا خطره فى كل ظرف من الظروف المناسبة ، وقلنا مع القائلين، بأن المنافع الحيوية هى وحدها التى يصح اتخاذها قاعدة للاعمال السياسية . وأننا نعتقد اعتقادا جازما بأن جعل المنفعه أساسا للعمل فى السياسة، مذهب لا يأباه الدين الحنيف . يعمل الناس فى الحياة لمنافعهم كما يشاؤن، بشرط أن لا يحللوا حراما ولا يحرموا حلالا، ويتأدبوا بآداب دينهم الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر . ونحن لا ننكر أن بعض الساسة الاوروبيين قد استعمل الدين فى بعض الاحيان الماضية سلاحا يخدم به السياسة، ولكنه سلاح يوشك أن يكون خطرا على حامله ، اكثر منه على خصمه . فمن النافع والضرورى معا جعل المنفعة هى الاساس الوحيد للعمل فى السياسة ، دون التخالف فى المعتقدات الدينية ، وتحديد الوطنية المصرية كما حددها قانون البلاد، اعنى أن الحقوق الوطنية فى مصر هى لمن يعترف له القانون بالمصرية، دون غيره من سائر الاجناس .

Digitized by Birzeit University Library

الاستقلال ، وأظهروا له أن الاعتماد على الموازنة الدولية والمعاهدات الدولية والتصريحات البرلمانية ، صار من المودة القديمة ، فلا ينفع مصر شيئاً كثيراً . الذى ينفعها هو أن لا تنى لحظة واحدة على العمل لذاتها ، وعن عن إثبات شخصيتها وقوميتها ، وميلها إلى الاستقلال . لو فعلوا ذلك لأثرت فيه هذه النصيحة الفـمرة أكثر مما تؤثر النصيحة فى يوم هدوء وسكون .

غير أن الذى فات مات ، ولا ينفع الأسف على الوقت الذى ضاع إلا بمقدار ما يلفت الذهن إلى عدم الوقوع فى الخطأ مرة ثانية فى المستقبل . فبدل أن نطوح بشعور الأمة ونذهب به كل مذهب ، وبدل أن نكون فى مصر آلات لجمعية الاتحاد والترقى التى تسعى لخير بلادها دون غيرها ، والتى صرحت من أول يوم أن مصر ليست داخلة فى بروجرام أعمالها . بدل ذلك كله ، يجب على الكاتبين أن ينتهزوا الفرصة لينشروا فى الأمة عقيـدة الاستقلال .

لأننا نكرر أن الاستقلال متوقف على النية أو على الاعتقاد بضرورته — ولو جاء الاستقلال من غير أن تكسبه الأمة راغبة فيه معتقدة حسن نتائجه ، فلا يلبث أن يزول .

أما وسيلة الاستقلال ، فالى غد إن شاء الله .

Digitized by Birzeit University Library

فليس عليه مسئولية عظمى . انما المسئولية العظمى على الذين كانوا يقودونه إلى هذا التناقض المضحك .

مثال آخر: كلنا متفق على وجوب انماء الفضائل الاجتماعية فى بلادنا حتى نجنى ثمارها المفيدة، وأخصها التضامن الذى يتوقف عليه كل عمل عام . تضـــامن المصرى مع المصرى، واحترام المصرى للمصرى، وثقة المصرى بالمصرى . ولكن من كتابنا من لم يترك مصريا من أولى المقام المتين فى الثروة أو فى العلم أو فى الخلق، إلا شهر به لأدنى شهوة . والشبان من طهارة قلوبهم وبراءة نفوسهم ، يصدقون بغاية السهولة قدح الجرائد فى إخلاص رجال البلاد أو فى كفاياتهم المتنوعة . حتى نتج عن ذلك أننا أصبحنا والحمد لله، نكاد نكون مجردين عن وجود رجال مسئولين ، يمكن الثقة بهم من غير تظنن ولا شكوك .

فاذا وجدت الرأى العام قليل الثقة باخلاص الأشخاص القادرين فى البلاد ، الذين كان من حقهم أن يكونوا كاسبى ثقته ، فلا تلم الرأى العام بل اعذره، فان قادته هكذا علموه، ولم يتركوا له من أهل البلاد موضع ثقة .

مثال آخر: من أولئك الكتاب من يسرف فى التعبير . فيسمى الانكليز — وهم قابضون على السلطة الفعلية فى البلاد — أعداء ، ويكرر ذلك فى الكتابات . وقد قلنا لهم من قبل أن العقلاء والانكليز وأولئك الكتاب أنفسهم ، يعلمون معنى هذا العداء اللفظى أو الأفلاطونى الذى لا يهيج طائراً ، ولا يحرك ساكنا . ولكن الأحداث من العوام الذين لم يستطيعوا تقدير مركز مصر، يأخذون هذا اللفظ على أشد معانيه ، وربما أدى ذلك إلى أعمال صبيانية — كما حصل — تؤخر مصر فى طريقها الى الرقى المنشود ، وتجعلها تفقد نهائياً بقية الأمل فى المستقبل، فيموت فيها الشعور بالقومية، إذ لا حياة إلا بالأمل

فاذا كانت فرصة ظهر فيها الرأى العام منشقاً على نفسه فى فهم معاملة

Digitized by Birzeit University Library

ومصالح الانكليز فيها . ولا مناص لنا من العمل مع انكلترا على هذا النحو لبلوغ تلك الغاية

— مصر مستقلة استقلالا إداريا تابعة للدولة العلية . والدولة العلية لا تستطيع حمايتها لا من انكلترا ، ولا من غيرها .

— لسنا نحن الذين يضعون المبادىء ليسير عليها العالم . بل حالنا فى السياسة حال انفعالية لا فعلية . سلبية لا إيجابية . تخضع لقرارات الدول من غير أن يكون لنا من سيادتنا الخارجية ولا من قوتنا العسكرية، ما يمكننا من إبداء رأينا فى هذه القرارات كما كان الأمر فى معاهدة لوندرة وغيرها . وإن حال أوروبا من الشرق عموماً ، ومصرنا خصوصا ، تتغير فى نظر الدول تبعاً لتغير مصالحها . فان فرنسا التى كانت المسألة المصرية فى برلمانها من المسائل الحيوية التى تحت البحث، قد نفضت يدها منها من سنة ١٩٠٤ فى مقابل أن تترك لها حرية العمل فى مراكش. وكلمة الدولتين هى كلمة التحالف الودادى . وألمانيا هى الدولة القوية فى أوروبا بعد انكلترا — إلى الآن على الأقل — قد صرحت لفرنسا فى مشكلة مراكش بأن انكلترا أخذت العوض فى مصر فلم تجد فرنسا مناصا من أن تعطيها عوضاً استعماريا فى الكونغو . وحققت بذلك كلمتها الاستعمارية أو صيغتها الحديثة (Drang nach osten) أى (نجعة نحو الشرق) . ورأى ألمانيا هو رأى المحالفة الثلاثية . على أن النمسا قد أخذت العوض فى البوسنة والهرسك ، وإيطاليا فى حق الاغارة على طرابلس، على الرغم من المعاهدات الدولية . فمن الواجب على المصرى أن يفهم مرامى هذا السلوك الاستعمارى . ومن الخطأ الفاضح أن يعمل المصرى فى السياسة مربوط العينين، حتى لا يرى الحوادث الأوروبية . أصم حتى لا يسمع أخبار الوفاقات الأوروبية .

— إذا كانت المبادىء لا تتغير (وفى هذه القاعدة نظر ليس هذا محله) فان الوسائل إلى تحقيق المبادىء ، يجب أن تتغير دائماً بتغير الظروف . فمن

Digitized by Birzeit University Library

الى الشبيبة

٣

غرض الأمة هو الاستقلال

يجب حقيقة أن يظهر للمصريين خطة معينة واضحة تحدد آمال الأمة وأطماعها والوسائل المشروعة الممكنة المناسبة لتلك الآمال والاطماع. يجب أن تكون تلك الخطة واحدة لجميع المصريين، لأنها ترجمان المصلحة المصرية. ولو صح الخلاف بين الأحزاب فى بعض الجزئيات، لما جاز أن يكون هناك خلاف جوهرى فى آمال الأمة من الاستقلال.

غرضنا النهائى استقلال مصر. ومن المستحيل على الأمة أو على أى فرد من أفرادها أن ينازع فى ذلك. استقلال الأمة فى الحياة الاجتماعية كالخبز فى الحياة الحيوية، لاغنى عنه، لأنه لاوجود إلا به. وكل وجود غير الاستقلال مرض يجب التداوى منه، وضعف يجب إزالته. بل عار يجب نفيه.

إذا كان الاستقلال ممكناً طلبناه، وإن كان مستحيلا عالجناه، لأنه هو معنى الوجود القومى ومناط الأمل فى الحياة القومية. على أن استقلال أمة فى عددنا وفى ثروتنا وفى مركزنا الجغرافى، بعيد أن يكون مستحيلا. وأقرب شىء أن يكون، متى طلبناه من بابه بالوسائل المنتجة.

ومن الذل والضعف بل من الانتحار القومى، أن نسكن أو نساعد على بقائنا الى الأبد فى الحالة التى نعير بها صباح مساء.

دارت بينى وبين أوروبى مناقشة فى السياسة، فاذا به يقول لى: (ومتى

الجريده فى ٢ من سبتمبر سنة ١٩١٢ العدد ١٦٦٧

Digitized by Birzeit University Library

غير مؤتلف مع حالنا القديم، ولا مع كثير من تصرفات الحكومة المصرية فيما يتعلق بحقوق الأمة وبحرية الكتابة والخطابة. هذه العواطف لا يستطيع الشاب أن يكتمها، بل لا بد لها من مظهر تظهر به، ومخرج يعيد إلى مزاجه الاعتدال فى النظر والتدبر فى العمل. فالى الحكومة نسوق الحديث أن تتدبر هى أيضا من جانبها فى حل هذه النظرية، وتأسى بالتصريحات الكثيرة التى كان يصرح بها اللورد كرومر. فانه كان يؤثر عنه أنه يقول لا أريد مطلقا أن تحد فى مصر حرية القول، لأن الأفكار إن لم تجد مخرجا تخرج منه غلت فى جوف حاملها، فأساءت اليه وإلى غيره. ثم إلى الشبيبة، نلفتها إلى الخطأ الذى يقع فيه البسطاء. وهو أن أعمال البسالة لا تكون إلا فى العسف. خطأ شديد ونظر قصير وفهم للأمور عتيق سقيم. لا نشك فى أن التعرض للخطر المادى فى حومة القتال للدفاع عن الأوطان والاقدام فيها من غير مبالاة بالموت، بسالة. لكن هذه البسالة بنوعها الوحشى الذى مع الأسف سيعيش مع الانسانية ما عاشت لا تزيد فى شىء أبدا عن البسالة المدنية، والشجاعة الأدبية. رجل يحمل بين ضلوعه هم بلاده. يقبل على وسائل رقيها الهادىء المطمئن يحول اليها عزمه ويفرغ فيها جهده ويعمل فيها لانماء الكفاءات المختلفة بنار عاطفة الحب، وشدة الأمل، وهو فى ذلك رحب الصدر لا يأخذه الملل بالكسل، ولا ينفد صبره الزمان. رجل كهذا لا يقل فى بسالته عن الطاعن فى قلب أخيه الانسان فى حومة الميدان، بغير بينة ولا برهان. إن الذين نجحوا فى الحركة الأخيرة لاستقلال أمة من الأمم أو فى المعارك السياسية دفاعا عن مصلحة أمة من الأمم، أولئك يأخذون غصبا فضل الشهرة وشرف الانتصار. لأن عملهم لم يكن لينجح إذا لم يهيئوا لهم رجال يشتغلون واجب لا للشهرة، ويقضون العمر ليحصد خلفاؤهم. ويشقون بتجرع كاسات الصبر على العمل الهادىء التى لا شهرة من ورائه، ولا اغتباط برواية نتيجته.

Digitized by Birzeit University Library

استثناء . يجب ان يكون الشعور بالاستقلال عند كل فرد هو بعينه الشعور بالوجود الذاتى .

بأى عنوان نحن نخدم طول العمر هذه الانسانية ، عوضا عن ان اقول بأى كتاب يجب علينا أن نظل طول العمر فى خدمة الغير ؟ لا نريد ان يخدمنا الغير ، ولكن كيف نريد ان نخدمه دائما ؟ ولم لا نخدم انفسنا كما تخدم كل امة نفسها ! لا لا . تظلمنا وتظلم نفسها وتظلم الانسانية والوجود ، كل امة تبغى منا ان نبقى عبيدا او خدما طول الزمان .

اجل . نحن نتمتع بحريتنا الشخصية . نتمتع بها فى كثير من الاحيان على أنها منحة لا حق ، ولكن نتمتع بها على كل حال . وتلك هى حجة كثير من الذين يقولون مم يشكو المصرى وهو يتمتع فى بلاده بالحرية التى يتمتع بها الانكليزى فى بلاده . صدقتم ولكن كفيل الحرية الشخصية هو الحرية العامة . وماكان المصرى ليقنع من العيشة بالحياة الفردية ، كما يقنع بها كل حيوان حر فى الجبال ، بل المصرى هو أيضاً يريد أن يعيش عيشة القومية . أن يكسب حريته السياسية التى وهب الله لمجموعه من يوم كان مجموعاً قاطناً فى وطن معين ، قبل أن تحد تخوم الأوطان . وماسرنا أن يكون الفرد مناحراً ، إذا كان مجموع أفرادنا ليس كذلك . بل بعيد على الحر فى أمة غير حرة ، أن يعتبر نفسه حراً ، أو ينتفع انتفاعاً إنسانياً بحريته .

الاستقلال حق طبيعى للأمة . ولكنها إذا فقدته زمناً طويلا واعتادت كرها عادات جديدة وطبائع تناقض الاستقلال كان لابد لها الى بلوغه من تربية خاصة وتعويض لما فقدته من الملكات والأخلاق فى أزمان الاكراه والاستبداد . ولاشك فى أن التمتع بالحقوق الطبيعية رهن بالقدرة على كسبها . وما القدرة على الاستقلال الا نيّة صادقة ووسيلة منتجة .

فأما نية الاستقلال فهى فهمه والتشبث بمزاياه ، وتمثل هذا الفهم فى شعور الأمة تمثلا صحيحا شائعا ، أى اعتقاد الأمة بضرورته ، وأنه هو العيش ، وهو

Digitized by Birzeit University Library

الى الشبيبة

٥

وسائل الاستقلال

لا يجرأ أحد فى هذه المدنية الحديثة أن ينكر على أحد حقه من الحرية الشخصية، ولا أمة أن تنكر على أخرى من الجهة النظرية حقها فى الاستقلال. فمبدأ حرية الأفراد مسلم به نظرياً وعملياً، وقد ذهب الزمان برق الأفراد وانقطع أمره فى ذاته وفى مظاهره. كذلك مبدأ حرية الشعوب مسلم به نظرياً متى قدرت عليها. وبهذا الرأى يقول ساسه الانجليز فى كل وزارة من الوزارات. وعلى هذا التصريح يمكننا أن نسجل أن غرض استقلال مصر غرض مشترك بين الأمة المصرية بمجموعها، وبين الحكومة التى يديرها الاحتلال، ومهما كان التظنن فى هذه النتيجة مباحاً، فانه ليس من مصلحتنا أن ننكر أمراً لمصلحتنا وهو تصريح الانكليز بأنهم لا يقيمون فى مصر إلا إلى أن تبلغ من القوة والمنعة ما يكفل سلامة مصالحهم فيها. بل يجب علينا أن نصدق هذا التصريح، ونعمل مع الانكليز لبلوغ النتيجة النهائية وهو الاستقلال.

غير أن الانكليز وإن كانوا قد بدأوا يقومون بالواجب عليهم من جهتهم من حيث إصلاح مالية الحكومة والحال الزراعية فى مصر، إلا أنهم أغفلوا فى الماضى تشجيع التعليم والتربية كما أغفلوا إلى الآن إلى حد محدود اقناع الأمة بأنهم يشتغلون للمصلحة المشتركة بينهم وبين المصريين. فوقفوا عند ادارة شئون البلاد على رايهم وبالطريقة التى يرونها، فنتج عند ذلك أن الجفاء

الجريدة فى ٤ من سبتمبر سنة ١٩١٢ العدد ١٦٦٩

Digitized by Birzeit University Library

كان يرود أدمغتنا الوقت بعد الوفت . إذ كان يزين لنا مرة أن فرنسا ستحرر بلادنا. ومرة أن الدولة العلية ستقوى فبحقنا عليها تسفك دماء أبطالها لتخرج الانكليز من بلادنا، ثم هي بعد ذلك تتركنا لأنفسنا فى بلادنا أحرارا نتصرف فيها بما نشاء ! ! لابد لنا من ذلك . ومن عزة تربأ بنا عن أن نطلب من غيرنا أن يأتى ليحرر نفوسنا من الرق وقلوبنا من عبادة القوى كاننا — كما ظنوا خطأ بنا — نبغى أن يأتينا الاستقلال ونحن نيام . ويفيض الاستقلال علينا من جوانب البلاد . بشرط أن لا نتعب أنفسنا فى أن نحرك ساكنا .

كان الواجب أن نبعد بالأمة عن هذه الخيالات الكاذبة، ونوجهها إلى أن تنمى فى نفسها عقيدة الاستقلال .

أفنحن حقيقة ننشر عقيدة الاستقلال وننمى حفيظة استقلال المصرى ببلاده، يأخذها الصغار عن الكبار والأبناء عن الآباء، حتى تصير مصر للمصريين، أم نحن نصرف معظم همومنا فيما علينا كل غرمه، وليس لنا شىء من غنمه ؟

أم نحن نعرف السنين تمر بنا من غير عمل كبير لمصلحتنا ، فاذا تحركنا للعمل ولينا وجهنا غير مصر، وصرفنا كل همنا فى إعانة من لا تنفعه إعانتنا له

أكبر معلم للأمم هو الحوادث . ومعظم غنم الأمم من الاستفادة من الحوادث ، وأن العقيدة لا تأخذ من النفس مكانا غائراً، إلا إذا جاءت لمناسبة حادث من الحوادث . تلك هى سنة الأمم . وقد كان لنا درس فى هذه الحركة الحاضرة، حركة دخول فرنسا فى مراكش ووقوف المانيا لها موقف المطالب بالعوض الاستعمارى تجبهاً بأن انجلترا أخذت المقابل فى مصر ، فلابد لها من عوض استعمارى يخرجها من عار الرضى باعتبار أنها خافتة الصوت أو ضئيلة الأثر فى الاستفادة من المسائل الشرقية . وتصريح الدول جمعاء إلى إيطاليا بمجاوزة المعاهدات الدولية . والاغارة على طرابلس ، وهى جزء من الدولة العلية أو ملك لها . كل هذه الحوادث قد نبهت الرأى العام المصرى إلى قبول الحقائق السياسية تنبيهاً لو ألقى نصحاؤه عليه نظرية القومية المصرية وحفيظة

Digitized by Birzeit University Library

أطلقت من ناحية أخرى بغير نظام وعلى غير هدى، ووجدت لنفسها ميدان عمل ربما كان مضراً ضرراً بليغا بمصلحة البلاد، ومؤخراً لها عن السير فى الطريق الذى ترسمه لها الغاية المشتركة بيننا وبين الانكليز.

ومن الانصاف أن نعترف بأن قانون مجالس المديريات جاء خطوة فى سبيل الاشتراك مع الحكومة فى المسئولية. ولكنها خطوة لم تتم. بل كان اللازم أن القانون النظامى يعدل كله تعديلا جديداً، حتى تتعادل الحقوق بين الهيئات النيابية المختلفة، على حسب أهميتها ومقدار ما تدعو له الحاجة. فان قانون مجالس المديريات جاء محققا سلطة الأمة لمجلس المديرية الذى هو محلىّ صرف، مانعا مجلس الشورى والجمعية العمومية من تلك السلطة، مع أنهما مجلسان عموميان للأمة بأسرها. كذلك ترى سكان المديرية الواحدة ينوب عنهم نواب يختلف عددهم من الستة الى العشرين، مع ان جميع نواب الأمة فى مجلس الشورى ستة عشر. لذلك نقول بحق ان الخطوة لاشتراك الأمة مع الحكومة خطوة لم تتم. وكان من الضرورى أن تتم فى جميع الهيئات على السواء، لنصرف العواطف الوطنية عن الشغل فيما لا فائدة فيه ونلفتها إلى العمل حقيقة لخير البلاد. هنالك يضرب الطيش والتهوس ضربة لا يقوم بعدها أبداً. هنالك تقتنع الأمة اقتناعا صحيحا بأن البلاد لها لا لغيرها خيرها المستقبل لها، وشرها عليها، فلا تسمح لصائح أن يصيح ضد مصلحة البلاد، ولا تسمع أقوال الذين يلقون الكلام على عواهنه من غير تدبر ولا احتياط.

كل جمعية تستمر دائما عواطف أفرادها، تستمر عاطفة حب الشهرة عند الصانع فيرقى الصناعة فى الوجود. فما الذى منع الجمعية المصرية من أن تستمر عاطفة حب الوطن عند بنيها وتفسح لها ميدانا تظهر فيه، فتنتفع الأمة بنتائج هذه العواطف، وتتقى شرها إذا عطلت أو حجبت عن الظهور المفيد.

لا شك عندى فى أن الظواهر الاجتماعية هى أيضا تابعة لقوانين

Digitized by Birzeit University Library

الى الشبيبة

٤

مقدمه لوسائل الاصلاح

ليس من الممكن الاحاطة بتفاصيل جميع الوسائل التى تؤدى إلى استقلال أمتنا لأن منها حالات نفسية (بسيكولوجية) ظاهرة الأثر أو خفية. ومنها حوادث مستقبلة منتظرة وغير منتظرة. ومنها ظروف تتعلق بدرجة الأطماع الأوروبية الاستعمارية وبقاء القدرة على تحقيقها والموازنة الدولية. ولكن الذى يهمنا الآن هو محاولة بيان الوسائل الكلية التى فى وسعنا أن نزاولها وندأب عليها لتوصلنا إلى غرض الأمة وهو الاستقلال.

تلقاء ذلك يجب علينا أن نقرر بغاية الصراحة اعتبارات رئيسية تتخذها حدوداً لهمتنا الارتقائية، وحصنا يحمى وسائلنا من العقم، وسعينا من الضلال. اعتبارات أرجو أن تنظر فيها الشبيبة نظرة هادئة بقلب ساكن لا يجزع من طول الانتظار وعقل ثابت لا تطيش به العجلة، ولا تذهب بميزاته الشهوات.

— مصر (كما يقولون بحق) هى فى الحالة الحاضرة من حيث الثروة والأهمية، أرقى من أن يزهد فيها كل قوى. ومن حيث العدد والاستعداد، أضعف من أن تدفع عن نفسها كل الأطماع.

— مصر طريق انكلترا إلى الهند، ولها فيها مصالح تقول إنها لا تأمن عليها إلا بالاحتلال، إلى أن تبلغ مصر مبلغاً من القوة يمكنها من حماية نفسها

الجريدة فى ٣ من سبتمبر سنة ١٩١٢ العدد ١٦٦٨

Digitized by Birzeit University Library

وأطماعها الصادقة . فلا جرم ان يكون هذا الاشتراك ، أو الدستور المتواضع، هو ذاته مع كونه وسيلة ، غرضا من الأغراض . فعلى الشبان الذين يحبون حقيقة خدمة بلادهم على الطريقة المنتجة، أن يتخذوا الوسائل الممكنة ليؤهلوا أنفسهم للدخول فى هيئاتنا النيابية كمجالس المديريات - التى تقدم للأمة الآن خدمات لا تنكر - ومجلس الشورى والجمعية العمومية حتى يستطيعوا أن يصرفوا عواطفهم الشريفة فى الدفاع عن الحق والعدل . ولست أنكر الصعوبات التى تحيط بالشاب لبلوغ هذا الغرض ، ولكن الصعوبة ليس من شأنها أن تثنى الرجل عن عزمه لخدمة بلاده .

Digitized by Birzeit University Library

التعسف والحمق أن يجمد العامل على اتباع خطة أو محاولة وسيلة ذهبت الظروف التى كانت تضمن نجاحها، وتغيرت إلى ظروف أخرى تقضى عليها بالفشل والخذلان . لكل ظرف جديد وسيلة جديدة . وابتعاد الدول واقترابها وتغيير خطتها كل يوم من المعاداة إلى المصافاة ، ومن الملاينة إلى المشاكسة ، ومن المحاربة إلى المصالحة : كل ذلك يكون فى اقناعنا بأن خطة سلوك الأمة دائرة مع منفعتها حيثما دارت . فلو أن طائفة فى بلادنا كان لهم خطة مرسومة وجيهة فى نظرهم ، فطلعت عليها ظروف جديدة تناقضها ، وتجعلها ضارة — إن لم تكن ضارة من قبل — أفيحل لهم أن يجمدوا جمود الذى يقول : ستين سنة ؟ نعم يا سيدى لك أن تقول « ستين سنة » عن أمر يخصك . أما عن القضية المصرية فلا .

— لنا الحق وليست لنا القوة . الحق ليس هو فى العالم كل شىء

— إن لم تكن القوة هى كل شىء . فبحقنا نندفع فى عرضنا إلى الأمام . وبقلة قوتنا نحذر خطر الوقوع فى هاوية الاندفاع . فليكن أمرنا بين الافراط وبين التفريط قواماً . فالمسألة مسألة أمة ما كان عليها أضر من غفلة أبنائها فى الأزمان الماضية . حاشا هذا الجيل الراقى الذى نحن فيه ، يتدبر أمره ، ويحتال لبلوغ قصده ، بأقل الوسائل ضرراً ، وأبركها نتيجة .

هذه الاعتبارات كلها ضرورى أن تلاحظ فى استخدام وسائلنا للاستقلال ، وهى بالضرورة وسائل سلام ؛ لأن كل الظروف الاستثنائية التى فيها وطننا لا يسمح ولا واحد منها أن تكون وسيلة استقلالنا غير السلام . وهنا يجب علينا أن نسارع إلى القول بأن مبادىء تربيتنا والدروس التى نتلقاها عن أساتذة المدرسة وكتاب العالم وحوادث الأمم ، قد ربت فى نفوسنا عواطف أكثرها

Digitized by Birzeit University Library

لا تزال مطربة حتى فى أرقى البلاد مدنية . فكيف بها عندنا حيث لم تأخذ بعد مركزا ثابتا فى حياتنا المصرية . انما التربية المدرسية عندنا أو التعليم بكافة أنواعه، خليط من التعليم الفرنساوى والتعليم الانجليزى ، تقوده الصدفة إلى أية نتيجة غير منتظرة . لذلك يجب علينا أن نصرف النظر مؤقتا عن مشكلات التربية بين علمائها ونحاول أن نحدد الأغراض التى نبغى الحصول عليها من التربية، فاذا أبلغنا تحديد تلك الأغراض بوجه واضح، ربما سهل اكتشاف أقرب الطرق إلى جعل التربية المدرسية فى مصر ، تنتج نتائجها المنتظرة .

وعندى أن التربية فى مصر يجب أن ترمى الى غرضين: احدهما أن يسترد المصرى فضائله الاجتماعية التى جنى عليها الاستبداد الطويل بشرط أن يبقى مع ذلك مصريا . والثانى أن تسلح ملكاته بالعلوم والمعارف ليكون قادرا على مزاحمة غيره فى بلاده مزاحمة القرين للقرين فى المسائل العلمية والفنية والاقتصادية . نقول ذلك ونترك لعلمائنا والمشتغلين بالتربية فى بلادنا ان يقرروا الطرائق التى تجعل التربية المدرسية تنتج هذين الفرضين ، وغاية ما نستطيع النصح به هو الحرص على جعل الدين قاعدة للتربية الاخلاقية، حتى لا يفقد المصرى صورته، وحتى تكون الأمة متشابهة الأفراد؛ لأن التضامن القومى أو الوحدة القومية، تدور مع المشابهة بين الأفراد وجودا وعدما، وقلة وكثرة . كذلك يجب أن يبعد بالتعليم بقدر المستطاع عن الكتب والتقيد بالكتب وجعل فكر التلميذ أو الطالب أسيراً لرأى المؤلف ، وأن تكون المدرسة مصغر الحياة الاجتماعية، يعلم فيها الطالب على قدر الامكان كل ما يحيط به ، حتى اذا خرج من المدرسة لا يكون غريبا صرفا من الحياة العلمية محتاجا الى من يقوده فيها كما يقاد الذى لا يبصر ضوء النهار . وبهذه المناسبة ، يضحكنى أن بعضهم ينقد علينا اننا نبيح للطلبة تعلم السباحة . نعم نحن من الذين يقولون، أن الطالب ـ لا التلميذ ـ يكمل معلوماته بأن يعرف المبادىء السياسية العلمية وتطورها من افلاطون الى الآن بقدر الممكن من فم أستاذه ، أو من عارف بها ، حتى يعرف الحق من الباطل وحتى لا ينجر

Digitized by Birzeit University Library

أولئك هم البواسل حقا فى نظر العقلاء . وإن الذين يبغون أن تتغير ، اكراما لخاطرهم، طبائع الأشياء وقوانين رقى الأمم، ليروا مصر فى سنة أو عشر سنين كبلد قضى فى العمل لنفسه المئين من السنين . والذين يظنون أن ما بيت فى الآستانة يمكن أن يبيت فى مصر، أولئك هم طلاب شهرة لا طلاب رقى، أو عديمو البصر بأحوال العالم، يحرم عليهم أن يشتغلوا بأمورنا . وليدعو أمرنا إلى شبيبتنا العاقلة الجريئة التى لا تخاف أن ترى الحق وإن كان وجهه مخيفاً ، وتروض نفسها على جرع كاسات الصبر وإن كان مرا . وتعمل بهدوء وسكون بوسائل الاستقلال .

Digitized by Birzeit University Library

إنما الاستقلال فى أنفسنا ثم فى عملنا ، ثم فى رضى الدول أولى الشأن بذلك آخر الأمر .

إلى الشبيبة أن يصرفوا عواطفهم الوطنية التى أفادتها إياهم التربية إلى الآن وملكاتهم العقلية وقدرتهم العلمية ، إلى وسيلة التربية يجعلونها غرضاً من الأغراض . وإذا تم أمرها ، تم لهم ما يشتهون . وانا لنكرر دائماً ان الوسيلة المعقدة التى يبين على بعض الكتاب اتباعها ، وسيلة معاجزة الانجليز لينجلوا عن مصر ، أو معاجزة إدارة الحكومة المصرية ، حتى تتبع خطة مستحيلة الاتباع والنتيجة ـ انما هى وسيلة للتأخر لا التقدم ، ويأيد لبقاء الحال الحاضرة على ماهى عليه أو على شر مما هى عليه لا تقريب من الاستقلال .

تم الجزء الأول

Digitized by Birzeit University Library

القديم الذى كان بين حكومة البلاد وبين شعبها ، لم يذهب منه شىء ، بل ربما زادت مظاهره تبعا لترقى الشعب واطماعه فى إدارة شئونه الداخلية بنفسه أو على الاقل بالاشتراك مع الاحتلال . ولو اننا تتبعنا أسباب هذا الجفاء لوجدنا أن سببه الجوهرى اعتقاد الشعب من قديم الزمان بأن الحكومة هى لمصلحة الحكام لا لمصلحة المحكومين ، وإن الطاعة هى ضريبة على الشعب يدفعها للحكومة لتصرفها فى وجوه ملذاتها لا فى وجوه نفعه. فكان الواجب على الانكليز كما اهتموا بنشر الحرية الشخصية، أن يتدرجوا من أول يوم فى تقرير الحرية العامة ، على وجه ينفع المصريين وينفعهم .

هذا من جهة الحكومة ، أما الأمة فان حرمانها من الاشتراك فى دائرة شئونها أخلاها بوجه ما من المسئولية عن القيام بواجبها نحو الرقى المنشود ، لأن المسئولية على مقدار حرية العمل وما لم تكن للأمة سلطة ، فليس عليها مسئولية ما .

على أن الشعب باحتكاكه باوروبا ، وبالشىء القليل من التعليم ، أخذ يطلب بألسنته الرسمية فى مجلس الشورى والجمعية العمومية ، وبألسنته غير الرسمية ، التى هى الصحف ؛ أخذ يطلب أن يؤتى احتمال بعض المسئولية عن الحكومة . فلو ان الحكومة أجابت نداء الشعب من يومئذ ، لتحولت العواطف التى كسبها الشبان بالتعليم والنظر مما تشكو منه الحكومة الآن ، إلى الاشتغال الهادىء بالمسائل العمومية فى الانتخابات وفى الهيئات النيابية ، وفى سن القوانين النافعة ... الخ الخ

لأن اشتغال الشاب بسياسة بلاده وأمورها العامة ، أمر لا مناص منه مع التربية الحالية ، والصحف اليومية الناقلة الأخبار عن كل الأقطار . فهذه العاطفة أو هذا الميل ، ميل الشبيبة للاشتغال بالسياسة مع وجود الأسباب المتنوعة الداعية لها ، أمر لا نستطيع بأية حال من الأحوال أن نبعد به عنها . فلئن لم توجد لها ميدانا للعمل وتشجيعا لعواطفها ، وحبسناها فى النفوس ،

Digitized by Birzeit University Library

صفحة

٢١٣ أفكار عامة (٤) سعادة النساء

٢١٧ « « (٥) عبادة البسالة

٢٢٢ الانتحار

٢٢٦ تربية البنات

٢٢٩ أسبوع فى المدينة المنورة (١)

٢٣٣ « « « « (٢) فى الطريق

٢٣٦ « « « « (٣) مقام الرسول

٢٤١ « « « « (٤) المرأة فى البلاد العربية

٢٤٦ « « « « (٥) العرب واللغة العربية

٢٥٠ « « « « (٦) المسألة العربية

٢٥٢ احمد عرابى

٢٥٧ أول العام

٢٥٩ الشخصية

٢٦٢ فى الأخلاق : البغى

٢٦٦ عيد الجمعية الخيرية الاسلامية

٢٦٨ الحركة النسائية فى مصر

صفحة

٢٧٢ معرضنا الصناعى الزراعى

٢٧٦ المعرض الصناعى الزراعى : صناعتنا

٢٨٠ « « « : «

٢٨٤ تاريخ آداب العرب للرافعى : الأديب وعلم الأدب والاخلاق

٢٩٠ موظفونا

٢٩٣ استقالة سعد زغلول باشا

٢٩٦ الحرية

٢٩٩ حرية الرأى

٣٠١ الى الشبيبة (١) القلق الفكرى

٣٠٧ « « (٢) الاضطراب فى الرأى العام

٣١٣ « « (٣) غرض الامة هو الاستقلال

٣١٩ « « (٤) مقدمة لوسائل الاصلاح

٣٢٤ « « (٥) وسائل الاستقلال

٣٢٩ « « (٦) « « — التربية والتعليم

سنلحق الجزء الثانى من هذا الكتاب بفهرس مبوب للموضوعات ليسهل على القارىء التماس الموضوعات المتجانسة فى صفحات الكتاب

Digitized by Birzeit University Library

الظواهر الطبيعية . فلو أن أمطار السودان نزلت من السماء ففاض بها النيل ولم نحده بالجسور أو سددنا عليه الطريق إلى البحر، لأغرق البلاد وأفسدها. ولست بذلك أقول ان حب العبث بالمصلحة العامة قد أخذ فى مصر من رؤوس الأحداث مأخذا يخشى منه، فان ذلك لم يكن. ولكن الظاهر للعيان أن هناك ظاهرة اجتماعية عامة هى حب المصريين حبا جما للاشتغال بالأعمال العمومية ، والاشتراك مع الحكومة فى الشئون المصرية ، على قدر تقبله الظروف الحاضرة . هذه الظاهرة الجميلة، يجب علينا أن نستثمرها ونحولها إلى مصلحة الأمة ونحدها بالحدود التى تكفل لنا خيرها كله ، واتقاء شرها كله

فلو أن الحكومة تجيب مجلس الشورى إلى طلبه الاشتراك معها فى شىء من إدارة البلاد ، بعد أن تعدل قانون الانتخاب وتكثر عدد الأعضاء - كما نظنها مفكرة فى ذلك - لغيرت بعملها هذا نزعات الشر إلى نزعات الخير ، وكفت نفسها مؤونة بث العيون على الناس وتعقب حركاتهم ، ولاقتنعت الأمة فى مجموعها بمقدار المسئولية التى تحتملها إذا هى فرطت فى الحرص على سمعتها . لو أجابت الحكومة هذا الطلب ، لكان ذلك سلاحا يضرب العقل به الجهل، وتقتل الأناة به العجلة، ولا نظنها إلا مجيبة له، عملا لمصلحة البلاد

رجل مسئول ، وآخر غير مسئول ، هل يستويان مثلا فى حسن القيام بالعمل . ونواب مسئولون بما لهم من حرية ، وآخرون غير مسئولين . هل يستوون أثرا فى الغيرة على مصلحة البلاد، أن يعبث بسمعتها الأقتصادية أو رقيها السياسى بعض الاحداث .

نلفت ذهن الشبيبة إلى انه ليس من الأغراض الأنسانية غرض محدود ثابت فى هذه الحياة الأنسانية . بل لا يزال الغرض هم صاحبه حتى يبلغه فان بلغه خلق له غرض جديد . وكلما انقضى غرض جاء غرض . سنة الأرتقاء فى كل شىء . فاذا كان غرضنا هو الأستقلال، فان من وسائله ماليس فى أيدينا، كاشتراك الأمة مع الحكومة فى الحكم تدريجيا ، يتقدم بتقدم تربية البلاد

Digitized by Birzeit University Library

اسبوع فى المدينة المنورة

٦

المسالة العربية

العرب أكثرية فى بلاد الدولة العلية . أكثرية لا يكاثرها عنصر آخر من العناصر العثمانية ولو بعد زمان طويل . فلا شك فى أنهم بذلك أوفر العناصر حظاً من الانتفاع بالدستور ، والتقلب فى نعمته . ومهما كان عددهم الآن فى المجلس غير متفق مع نسبتهم لعدد السكان . فان تلك حال وقتية زائلة حتما اليوم أو غداً . لذلك لا نستطيع أن نفهم وجود مسألة عربية تستأهل النظر فى حلها . بل كل ما فى الأمر هو أن ينتبه العرب لتسجيل أسمائهم فى دفاتر الانتخاب ، وينتبه الأتراك الحاكمون لتنفيذ القوانين . ليس هناك مسألة عربية ، ولكن هناك قلقاً فى قلوب كثير من العرب سببه التفات بعضهم إلى إحصاء الموظفين من كل عنصر . وشيوع تهمة أن للحكومة يداً فى الانتخاب إن صدقا وإن كذباً . ومن العوام فى المدينة من يظن أن الدستور غير منطبق على قواعد الشريعة الاسلامية . لذلك هو لا يرضاه . ويثبت هذا الظن السوء بأن القضايا كان يفصل فيها فى المدينة فى ديوان الوالى ، وأما الآن فتعرض الاقضية على محكمة التميز فى الآستانة . اللهم إنا لا ندرى ما هى العلاقة بين الدستور وبين سرعة الفصل فى الأقضية ! ولكن هكذا يقولون . ومثل هذا القول الدال على قلق فى نفس الأهالى يجب أن يصل إلى أسماع أولى الأمر فى المملكة العثمانية ، وهم أقدر من غيرهم على وصف الدواء .

نقول إذا كان للمسألة العربية محل من الوجود ، فان وجودها الآن سابق

الجريدة فى ٣٠ من أغسطس سنة ١٩١١ العدد ١٣٥٨

Digitized by Birzeit University Library

الى الشبيبة

٦

وسائل الاستقلال

التربية والتعليم

خرجت مصر من الحكم القديم ضئيلة الشخصية متحللة الروابط القومية ، فانية الارادة فى إرادة الحكام . خرجت مريضة من كل وجه ، وما دواء الأمة المريضة إلا التربية والتعليم . التربية السياسية التى تحصل بترتيب النظامات السياسية الحرة بمقدار حالة البلاد ، وتشجيع هذه الروح المباركة التى تنجلى فى مصر معلنة عن حب المصريين الاشتغال بأمورهم العامة ، تحصل بذلك . ونشر مبدأ التسامح فى الآراء والمعتقدات السياسية - والتربية الاجتماعية التى هى من عمل العائلة ، والمدرسة والقوانين الفرعية واهتمام العقلاء والكتاب بتقوية العادات والأخلاق الاجتماعية التى تكون نتيجتها توسيع دائرة المشابهات بين الأفراد وتضييق دائرة الفروق بينهم .

لا خلاف بين الناس فى ضرورة التربية وأنها هى الوسيلة لكل ارتقاء ذلك يقوله أولو العلم ويتبعهم فيه الأميون إعتقاداً بصحته أو تقليداً صرفاً حتى لا يرموا بالجهل والتأخر . وعلى كل حال فان التربية مجمع فى بلدنا الآن ، على أنها سلم الارتقاء ومناط الآمال فى السعاده القومية .

غير أن الصعوبة كل الصعوبة هى فى تحديد انماط التربية والتعليم عندنا ، وطريقة تحضيرها أى جعلها تنتج فى مصرنا جميع النتائج التى تنتجها فى الأوطان التى استعرناها منها . لأن نظرية التربية والتعليم وتحديد انماطها

الجريدة فى ٥ من سبتمبر سنة ١٩١٢ العدد ١٦٧٠

Digitized by Birzeit University Library

وراء من يكتبون فى السياسة على غير قاعدة، وطوعا للظروف أو الشهوات.
على أن ذلك يدخل فى عموم القاعدة التعليمية الحديثة بل الاسلامية القديمة أيضا، أن الطالب كما يجب عليه أن يعرف حدود علاقات التعامل بين الفرد والفرد من الجهة الاخلاقية والقانونية، يجب عليه أن يعرف حدود العلاقات بين الفرد والأمة وبين الفرد والحكومة وبين الأمة والحكومة، وتلك هى كل السياسة الداخلية أو سياسة الأمة. على أنه لا يدخل فى ذلك مطلقا تعرض الطالب لمقاومة النظام المدرسى أو العام، ولا المظاهرات التى لا يليق بكرامته الاشتراك فيها.

كل وسيلة من وسائل الاستقلال فرع عن التربية والتعليم بانواعهما ومتى تقرر بحق أن استقلالنا لا يكون الا بالسلام والأعمال المدنية الهادئة، والمزاحمة المباحة بالقوانين، كان لا بد لنا أن نضاعف همنا فى التربية والتعليم ونجعلهما غرضا نعكف على وسائله بكل ما فى صدورنا من الحمية والغيرة على تقدم البلاد.

اشعر مع القارئ بأن طريق التربية والتعليم طريق طويل جدا، لانه يستتبع الوقوف بالضبط على خير الانماط المفيدة لنا. ثم القدرة على تطبيقها على وجه النافع، ثم الانتظار بها حتى تتأقلم فى مصرنا، أى تصير مصرية بالزمان، ثم تنتج نتائجها البطيئة التدريجية فى كفاءآتنا المختلفة. حقيقة هذا طريق بعيد. ولكنه مع ذلك اقرب الطرق، لانه هو الطريق الوحيد.

ومن الخدعة أن يزين بعض الكتاب للأمة ان استقلالها على الأبواب، وان تحصيل غرض مثل هذا لا يتوقف إلا على مجرد الالتفات إليه، أو الرغبة فيه. خطأ كبير. وإلا فلو صح مثل هذا الزعم لكنا مستقلين بالفعل من سنين

إنما الاستقلال والحرية السياسية على إطلاقها، نتيجة لينة ثابتة، وتصميم أكيد ووسائل شتى، وظروف غير موجودة، ينتظر أن يؤتى بها الزمان.

Digitized by Birzeit University Library

فهرس مواد الكتاب الأول

صفحة	
١	قاسم امين : القدوة الحسنة (١)
٧	» » : » » (٢)
١٢	التعليم الثانوى
١٤	الرتب والنياشين
١٦	بناتنا وأبناؤنا
٢٠	ضحايا الأبرار وحق الأقوى
٢٤	حفت الجنة بالمكاره
٢٨	الرأى العام
٣٣	لا تضيقوا عليهن
٣٥	شىء آخر
٤٢	روضوا أنفسكم على الاستقلال
٤٥	الطلبة والسياسة
٤٩	فى الأخلاق : الرياء
٥٣	حدود الطاعة
٥٧	تربية الذوق
٦١	حدود الوظيفة
٦٤	الملل من كواذب الاخلاق
٦٧	قوة الرأى العام
٧٢	الرتب والنياشين
٧٦	فى التعليم الأدنى
٨٠	المرأة أيضاً
٨٣	شىء فى التعليم
٨٧	العادة
٩٠	الشرف
٩٣	إنكار الذات
٩٧	الموظف المصرى
١٠١	مصاب التمثيل : رثاء كوكلان
١٠٤	الرجل الطيب
١٠٧	شىء فى الأخلاق

صفحة	
١١٠	أحبوا الجمال تحبوا الحياة
١١٤	بناتنا
١١٧	الموظف المصرى
١٢١	قلة الثقة
١٢٤	بناتنا وأمهاتنا
١٢٨	صلاح العائلة صلاح الأمة
١٣٢	حدود اللياقة
١٣٥	الشرف
١٣٧	فى الأخلاق : القصد فى الكلام
١٤٠	من مصر الى باريس
١٤٥	فى باريس
١٤٧	من باريس الى لوندرة
١٥٤	فى انكلترا
١٦٠	فى انكلترا أيضاً
١٦٤	عليكم أنفسكم
١٦٧	الأعمال العامة والحياء
١٧٠	الجامعة المصرية
١٧٣	» »
١٧٤	التسامح فى الحقوق العامة
١٧٧	الى الأمام
١٨٠	اطلبوا الحرية : اطلبوا الاستقلال
١٨٣	أول العام : الى الشبيبة
١٨٦	فى الواجب
١٨٩	الصداقة
١٩٢	مات الرجل : عن تولستوى
١٩٧	الثقة
٢٠١	أفكار عامة (١) الاستقلال الذاتى
٢٠٤	» » (٢) الحب والصداقة
٣٠٩	» » (٣) التفاؤل بالخير

Digitized by Birzeit University Library

تم طبع الجزء الأول من كتاب « المنتخبات »
لسعادة احمد لطفى باشا السيد
بدار النشر الحديث
« مطابع احمد الصاوى محمد » بشارع الداخلية بالقاهرة
فى يوم الاثنين ١٥ فبراير سنة ١٩٣٧

Digitized by Birzeit University Library